

عبد الرحمن عزام

صلاح الدين

وإعادة إحياء المذهب السني





صلاح الدين

الطبعة العربية الأولى سبتمبر ٢٠١٢
الطبعة العربية الثانية يناير ٢٠١٣
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

Saladin
First published in Great Britain 2009

الترقيم الدولي: 9789992142653

صورة الغلاف: تفصيل من كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات
لزكريا بن محمد القزويني (حوالى ١٢٠٣-١٢٨٣)
MS.647 متحف الفن الإسلامي، قطر

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

عبد الرحمن عزام

صلاح الدين

وإعادة إحياء المذهب السني

ترجمة

قاسم عبده قاسم

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



المحتويات

مقدمة

يُمثِّل نشرُ كتاب «صلاح الدين» باللغة العربية حَدَثًا مهمًّا، فهو يُقدِّم بطلًا إسلاميًّا عظيمًا لجيل جديد من القُراء العرب في وقت يشهد فيه العالمُ العربيُ تحولاتٍ هائلة. ومع أن قصة حياة صلاح الدين معروفة حقًّا ـ مِن وصوله إلى الحكم في مصر، وتحرير القدس، وحربه المُنهكة المريرة مع ريتشارد، ملك إنجلترا ـ أعتقد أن هناك قصة عميقة جديرة بأن نحكيها، وهي القصة التي يسعى هذا الكتابُ إلى كشف أبعادها.

إنها قصةُ قوةِ الفكرة، وكيف يمكن أن تكون مؤثرةً ومُلْهِمة، وتَخلق بالإضافة إلى ذلك زَخمًا تصعب مقاومته. ورغم أن الكتابة عن أفكار الرجل قد تبدو درامية بدرجة أقل من الكتابة عن أعماله ـ وخاصة حين تتحقق مثلما هو الحال مع صلاح الدين ـ إلا أنها تبقى أكثر صلابة؛ لأن الفعل لا يمكن أن يَسبق المعرفة.

والفكرةُ التي نقدِّمها في الفصول الأولى من هذا الكتاب فكرةٌ بسيطة رغم عمقها، إنها فكرة الإحياء السُّني. وهي فكرةٌ بدأت تتأصل وتزدهر في القرن السابق على ميلاد صلاح الدين، وقد انتشرت بسرعة عبر العالم الإسلامي ـ من بغداد إلى دمشق، ومن دمشق إلى القاهرة، وأخيرًا من القاهرة إلى القدس ـ ويرجع الفضل في ذلك لصلاح الدين وما حقَّقه من انتصارات. يبدأ هذا الكتاب من بغداد مع انهيار الخلافة العباسية، رغم أن هذا ضعيف الصِّلة بسيرة صلاح الدين، إلا أنه كان في الحقيقة ابنَ الإحياء السُّني، وكانت مبادئ هذا الإحياء أكثر تأثيرًا في معتقداته وأفعاله من أي شيء آخر. ويمكن أن نصل إلى حد القول: إننا لا يمكن أن نفهم صلاح الدين دون أن نفهم الإحياء السُّني أولًا.

يمكن مع ذلك أن تذهب بنا الأفكارُ إلى هذا الحد، وبعد الفصلينِ الافتتاحيينِ، نبدأ

رواية قصة حياة صلاح الدين، ويا لها من قصة مثيرة وملهمة! ويعرف الكثيرون هذه الشخصية البارزة التي يبقى اسم صاحبها حتى اليوم رمزًا للنُّبل والكرم والفروسية، لكن بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون صلاح الدين، أو أولئك الذين يَودُّون تَذكُّر هذه الصفات، آملُ أن يساعد نشرُ الكتاب بالعربية في رواية قصة واحدٍ من أعظم الأبطال في تاريخ الإسلام.

وأودُّ أن أشكر كلًّا من الدكتور قاسم عبده قاسم لترجمته الراقية، والأستاذ عبد المقصود عبد الكريم لمراجعته الدقيقة، ولجهدهما الكريم في ظهور الكتاب بهذا الشكل المشرف، ولتنبيههما على بعض السهوات في الطبعة الإنجليزية، فلهما مني جزيل الشكر والامتنان. وأودُّ أيضًا أن أشكر تامر مختار على المساعدات التي قدَّمها لي في البحث عن المصادر الأصلية.

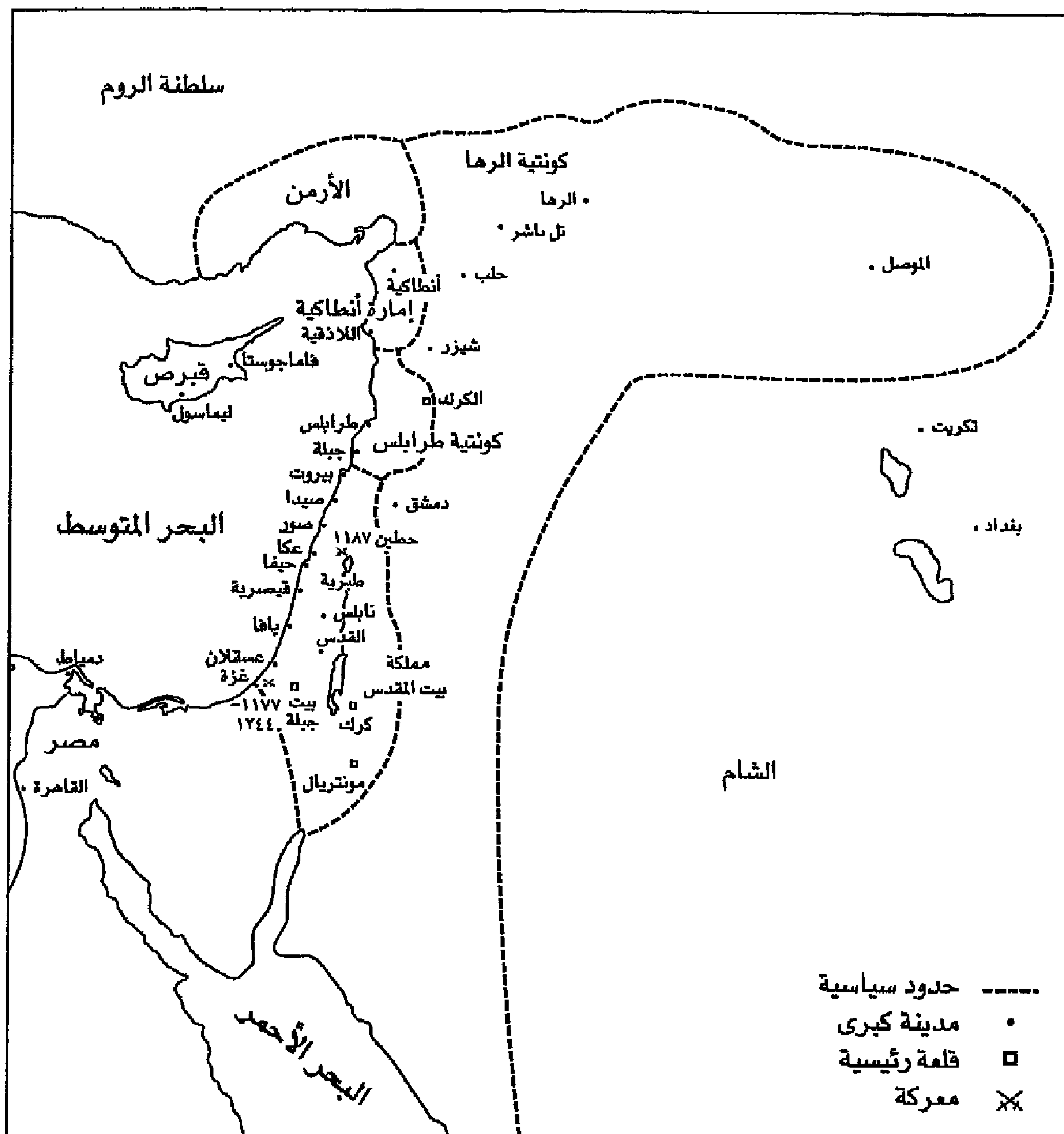
كشاف بالأسماء الرئيسة

لأن بعض الأسماء قد تبدو ملتبسة ومكررة، هذا كشاف مختصر، وليس شاملًا بأية حال، يحاول التمييز بين الأسماء. أما الأسماء المميزة، التي لا لَبس فيها، مثل «الخبوشاني»، فقد تم تجاهلها في هذا الكشاف. وبالإضافة إلى هذا، لا يضم الكشاف الأسماء الكاملة (اسم أخي صلاح الدين الملك العادل هو سيف الدين أبو بكر أحمد بن أيوب)؛ لأن الهدف الرئيس من الكشاف أن يكون مذكرة موجزة. كما أن وضع الأسماء الكاملة في الكشاف يمكن أن يضيف المزيد من الالتباس، بدلًا من الحد منه. كذلك تم تبسيط أسماء الشخصيات الأكثر شهرة بحيث استخدمنا اسم «زنكي» للإشارة إلى اسم والد نور الدين محمود مؤسس الأسرة الزنكية. وعلى الرغم من أن اسمه الكامل عماد الدين زنكي، فإن هذا الاسم أيضًا اسم ابن أخي نور الدين حاكم سنجار. وبالمثل، حمل ابن شقيق نور الدين الثاني سيف الدين (حاكم الموصل) اسم مودود شقيق نور الدين. ولهذا من المهم ألا نخلط بين سيف الدين بن مودود بن زنكي (ابن شقيق نور الدين) وسيف الدين بن زنكي (شقيق نور الدين). ولتجنُّب مثل هذا الالتباس سعينا بدقة إلى تبسيط الأسماء قدر الإمكان.

العادل، الملك العادل	أخو صلاح الدين
الأفضل، الملك الأفضل	أكبر أبناء صلاح الدين
القاضي الفاضل	كبير كُتاب ديوان الإنشاء عند صلاح الدين، وواحد من أقرب مستشاريه

الصالح بن نور الدين	ابن نور الدين وخليفته
الظاهر، أبو منصور غازي	الابن المفضل لصلاح الدين
أيوب، نجم الدين بن شادي	والد صلاح الدين
فروخ شاه، عز الدين	ابن أخي صلاح الدين
ابن الأثير	مؤرخ من الموصل
ابن المقدم، شمس الدين	الرجل الذي دعا صلاح الدين إلى الشام، ووالي دمشق فيما بعد
ابن مصال، نجم الدين	رفيق صلاح الدين، وأحد مؤيديه في أثناء حصار الإسكندرية
ابن شداد، بهاء الدين	قاضي جيش صلاح الدين، وكاتب سيرته
عماد الدين الأصفهاني	كاتب نور الدين وصلاح الدين، وكاتب سيرة كلٍّ منهما
عماد الدين زنكي	ابن أخي نور الدين، ووالي سنجار
عصمة الدين خاتون	زوجة نور الدين وصلاح الدين من بعده
كمال الدين الشهرزوري	عالم وفقيه وقاض، خدم زنكي ونور الدين وصلاح الدين
كوكبوري، مظفر الدين	زوج أخت صلاح الدين، ومن كبار قادة صلاح الدين العسكريين
ناصر الدين محمد بن شيركوه	ابن شيركوه
قطب الدين النيسابوري	عالم دين، ومعلّم صلاح الدين

سيف الدين غازي	ابن أخي نور الدين، وحاكم الموصل
شيركوه، أسد الدين بن شادي	عم صلاح الدين، ووزير مصر
تقي الدين الملك المظفر	ابن أخي صلاح الدين، وواحد من أكثر القادة جدارة بالثقة
توران شاه، الملك المعظم	الأخ الأكبر لصلاح الدين



خريطة مملكة بيت المقدس (١٠٩٩-١١٨٧م)

استهلال

الفصل بين الرجل والأسطورة

الحقيقي في حياة الرجل ليس ما يفعله، بل الأسطورة التي تنشأ حوله.

أوسكار وايلد

لكي نفهم شخصية الرجل علينا مواجهة الأسطورة أولًا. لا يستطيع المؤرخ أن يضطلع بمهمة الكتابة عن صلاح الدين من دون أن يضطر إلى مواجهة القصص الكثيرة التي أدخلت البهجة في نفوس القُراء على مرِّ القرون حول شخصيته، وخلطت بين الحقيقة والأسطورة؛ عليه أن يتعرَّف عليها أولًا ثم يستبعدها في النهاية. تزداد هذه المهمة النبيلة في غايتها، المُرهقة في تنفيذها، تعقيدًا بحقيقة بسيطة مؤداها أن الناس يُفضلون الأسطورة. وقد صدمتني هذه الحقيقة في أثناء بحثي لكتابة هذا الكتاب، سواء كان ذلك من المسلمين أو غير المسلمين، فما إن يعرف الناس موضوع كتابي، حتى يمتعوني بالنوادر والحكايات حول صلاح الدين. والأمر العجيب في هذه القصص والنوادر أن معظمها لم يكن مستحيلًا من الناحية التاريخية العملية. وفي البداية، كنت أحاول تصحيح ما يقولونه بدافع من حماسة كاتب السيرة المستجد: لا، لم يقابل صلاح الدين «ريتشارد»، كما لا يمكن أن يكون قد أقام علاقة مع أُم «ريتشارد». ولكن بعد دهشتي الأولية، اكتشفت أن تعليقاتي لم تكن محل قبول أو ترحيب. وكنتُ أنا أيضًا، في وقت من الأوقات، قد تعلقْتُ بقصة خيالية خرافية؛ كانت أولى ذكرياتي عن صلاح الدين مستمدة من كتاب للأطفال من منشورات «الديبرد» قرأته في طفولتي مرارًا وتكرارًا. برزت فيها صورة لصلاح الدين يقف فيها جنبًا إلى جنب مع «ريتشارد»، يستعرضان قوتهما. ضرب «ريتشارد» قضيبًا حديديًّا بسيفه بقوة هائلة فقسمه نصفين. ورمى صلاح الدين، بدوره،

وشاحًا حريريًّا في الهواء، وقطعه بهدوء وهو يهبط إلى الأرض. وبعد سنوات من قراءة هذه القصة اكتشفت أن صلاح الدين و«ريتشارد» لم يلتقيا قطُّ. لكن هذه القصة الخرافية استولت على مخيلتي ودفعتني إلى البحث عن الحقائق التاريخية العميقة.

محرر القدس، الفارس النبيل، المتبرع السخي، حديث العهد بالسياسة.. مرت شخصية صلاح الدين بتحولات عدة، حيث شكَّل كلُّ جيلٍ صلاحَ الدين وفق مخيلته الخاصة؛ فقد رأى «لين بول» في فروسية صلاح الدين تجاه الصليبيين «تنشئة طيبة لرجل نبيل»[١]. بينما وضعه «دانتي» في أول طبقات الجحيم مع أبطال طروادة وروما. أما «ركس هاريسون» فقد صوَّره وغدًا. على حين يظهر في فيلم يوسف شاهين الملحمي (١٩٦٣م) بطلًا للقومية الاشتراكية العربية. ويبدو أنه لم يستثنَ من شيء؛ فقد ظهر صلاح الدين في حلقة تلفزيونية بعنوان «دكتور هو». ومن المؤكد أن إطلاق اسم هذا القائد العسكري على إحدى كتائب منظمة التحرير الفلسطينية، ثم إطلاق الاسم نفسه على دبابة بريطانية، يُمثِّل حالة فريدة في التاريخ[٢]. هناك رؤى كثيرة لصلاح الدين. نرى المزيد منها ونحن ننقب في الأعماق عبر القرون. هناك رؤى كثيرة لصلاح الدين: النبيل، الصبور، القاسي. ويبدو أن مقابل كل قصة عن صلاح الدين تُظهر جانبًا سيئًا في روح الإنسان، نرى روايتين عن كل فضيلة تحلَّى بها. وحقيقةُ أن هذه القصص الخيالية لا تمت للشخصية التاريخية بصلة أمرٌ يبدو خارج الموضوع؛ لأن صلاح الدين أكبر من أن يُترك للمؤرخين وحدهم. لكن صلاح الدين وجِد، وهذه القصص الخيالية لا تناسب المؤرخين وكثيرًا ما تزعجهم. ونجد اسم صلاح الدين يظهر كثيرًا في الأعمال الأدبية والفنية ووسائل الإعلام الشعبية، بحيث يكون من الغفلة ألا نسأل عن السبب: لماذا كل هذه القصص؟

في غضون شهر من انتصار صلاح الدين في حطين واسترداد القدس، نُظمت عدة قصائد في الغرب عن صلاح الدين. وثمة قصيدة مجهولة المؤلِّف نُظمت سنة ١١٨٧م، على وجه التحديد، تُمثل رؤية غربية معاصرة. وقد أفرطت، وهي تركز على استيلاء صلاح الدين على السُّلطة، في انتقاداتها اللاذعة: استولى صلاح الدين على السُّلطة بشكل غير شرعي، فقد كان يشغل رتبة صغيرة في الجيش، ثم استولى على السُّلطة باغتصاب زوجة سيده، ثم استولى على مصر بدس السم لسيده نور الدين[٣]. هذه الصورة لصلاح الدين بعيدة جدًّا عن الصورة المعهودة عنه؛ صورة النبيل، لسبب وجيه: في سنة ١١٨٧م كان صلاح الدين لا يزال على قيد الحياة، ولا يُشكِّل تهديدًا عسكريًّا فقط، بل تهديدًا فكريًّا أيضًا؛ فقد وجد

الغرب نفسه في مواجهة عدو لديه من الحجج المقنعة للمطالبة بالمقدسات مثل ما لديهم. كما ظهرت الانتصارات التي حققها هذا العدو وكأنها تأكيد لمزاعمه وحججه. وتساءل المسيحيون الحَيارى: تُرى هل يمكن للرب أن يقف مع الكفار؟ كان ضياع القدس مصيبة مُروعة للغرب الأوروبي، وكان بحاجة إلى تفسير منطقي لهذا الحدث. وصلت، على سبيل المثال، رسالة إلى الإمبراطور «فردريك بربروسا» سنة ١١٨٧م من عدد من الأمراء الألمان يُخبرونه بما جرى في كارثة حطين، وحكوا له أيضًا عن مدى احتقار صلاح الدين للديانة المسيحية، وزعموا في إحدى الحكايات أن صلاح الدين استولى على صليب الصلبوت (الصليب المقدس)، ورماه في النيران، وخرج الصليب من هذه النيران من دون أن يلحقه ضرر أو تلف. كان الهدف من هذه الحكايات والقصص جمع الدعم لشن حملة صليبية أخرى. وعند ذلك فرض «هنري الثاني» ضريبة صلاح الدين الشهيرة على رعاياه لجمع الأموال اللازمة. وكانت الجعة من بين الأشياء التي فُرضت عليها الضريبة، فإذا ما وضعنا في اعتبارنا مدى شغف الإنجليز بهذا المشروب، فلا بد أن هذه الضريبة زادت من كراهيتهم لصلاح الدين. وبالتدريج بدأ يظهر تصور آخر لصلاح الدين، وكان ذلك راجعًا، إلى حد كبير، إلى القصص التي حكاها الجنود العائدون إلى أوروبا؛ فقد كانت الفكرة السائدة عن صلاح الدين تتمثَّل في سلوكه الكريم تجاه أعدائه. ولعل هذا الكرم كان السبب في أن «دانتي» وضعه في أولى طبقات الجحيم بعد قُرابة مائة سنة من وفاته. وفي رواية «ديكاميرون» لـ«بوكاشيو» نجد صلاح الدين مُجبرًا على اقتراض المال من «ميلشيديش» اليهودي؛ لأنه أفلس خزانة الدولة بسبب كرمه. وفي إحدى الحكايات يروي «جان لو لونج» كيف أطلق صلاح الدين سراح اللورد «أنجلور» ليُمكِّنه من جمع فديته. وعندما اكتشف اللورد أن ضيعته الفرنسية لا تفي بمبلغ الفدية عاد إلى صلاح الدين مرة أخرى ليضع نفسه رهن الأسر. تحرَّك صلاح الدين بدافع من نُبله وأطلق سراح اللورد شريطة أن يبني مسجدًا عند عودته إلى بلاده. أهي قصة خيالية أخرى؟ من المؤكد أنها كذلك. وحتى سنة ١٩٢٧م كان كل من يزور مدينة «بوزانسط» يمر بمبنى كان يُستخدم مدرسة آنذاك، وكان معروفًا باسم «محمد»(٤).

وتطلب الأمر أن يجد الكُتاب المسيحيون تبريرًا عقلانيًّا لديانة صلاح الدين؛ وبدأت تظهر في خلال قرن قصصٌ تلمح إلى تحوُّل صلاح الدين إلى المسيحية. وحاولت بعض القصص أن تنسبه إلى أصول أوروبية: في قصة منسوبة إلى «جان إينيكل» الذي مات

سنة ١٢٥١م، يتم تصوير صلاح الدين راقدًا على فراش الموت عاجزًا عن الاختيار بين الإسلام والمسيحية واليهودية. وفي قصة بعنوان «حكايات منسترال ريمس»، كُتبت سنة ١٢٦٠م، يتم تصوير صلاح الدين مرة أخرى على فراش الموت، يطلب صحنًا فيه ماء ليعمِّد نفسه(٥). هكذا اهتم الكُتاب بشخصية صلاح الدين لدرجة أنهم أضافوا تفاصيل تتحدث عن شهرته عاشقًا بدلًا من شهرته محاربًا. وهكذا نقرأ أن «إليانور الأكويتانية» وقعت، في أثناء الحملة الصليبية الثانية، في غرام صلاح الدين، فأعادها زوجها إلى بلادها ملطخة بالعار. وهذا أمر غير محتمل؛ فقد كانت «إليانور» في الأراضي المقدسة وصلاح الدين في العاشرة من عمره. وتلك القصة الخيالية تربطها علاقة ما بقصة خيالية أخرى عن علاقة غرامية مزعومة بين «إليانور» و«ريمون» أمير أنطاكِية، وهي قصة أثارت فضيحة كبرى آنذاك.

ويبدو أن براعته العسكرية وفقًا لتصورهم ترجع بالقدر نفسه إلى أصل مسيحي؛ فقد جعل «متَّى الباريسي»، في كتابه «تاريخ الإنجليز»، أُمَّ صلاح الدين إنجليزية. وثمة موضوع شائع آخر يزعم أن «هنري التوروني» منح صلاح الدين لقب الفارس المسيحي حين تقابل الرجلان في الإسكندرية. وهناك قصص أخرى تُغير الاسم ليكون «هيو» أمير طبرية. لكن قصة منح صلاح الدين لقب فارس ظلت موجودة حتى ثلاثينيات القرن العشرين، عندما خصص «روزبولت» الفصل الافتتاحي من سيرة صلاح الدين لحادثة منحه لقب فارس، لا باعتبارها أسطورة، بل حقيقة تاريخية(٦). ولدينا قصص عن صلاح الدين وهو يسافر إلى الغرب يدفعه الفضول إلى معرفة أسلوب الحياة المسيحي وبصحبته «هيو» أمير طبرية. ويجد صلاح الدين نفسه في باريس حيث يشتبك في مبارزة فردية مع أحد الفرسان لينقذ فتاة في مِحنة. وفي وقت لاحق يُسقط «ريتشارد» نفسه من فوق حصانه في مبارزة على ظهور الخيل في «كامبري». وكالعادة، تقع ملكة فرنسا في حب صلاح الدين ويُرحَّل (مرة أخرى) إلى وطنه في خِزي. وفي قصة «ماتيلدا» لـ«صوفي كوتين»، المنشورة سنة ١٨٠٥م، لا تقع البطلة، التي تحمل القصة اسمها، في حب صلاح الدين، بل في حب أخيه، ويتزوجها بعد أن يتحول إلى المسيحية. ثم نصل إلى الزيارة الشهيرة التي قام بها القيصر «وليم الثاني» إلى قبر صلاح الدين في دمشق؛ الضريح الصغير شبه الخفي في حديقة صغيرة تغطيه قبة مضلعة حمراء، وكان مهملًا لدرجة أن القيصر، وقد أثَّر فيه هذا المشهد، أمر بتجديد الضريح على نفقته الخاصة ووضع شعاره على مصباح معلَّق على

القبر. وربما في تلك اللحظة التي أعلن فيها خليفة «فردريك بربروسا» ولاءه لألد أعداء أجداده، اتسعت الفجوة بين صلاح الدين الأسطورة وصلاح الدين التاريخي إلى أقصى مدى. وعلى أية حال، قد يطرح أي قارئ فطن، عند هذه النقطة، السؤال الصعب: إذا كان صلاح الدين بطلًا على هذا القدر من العظَمة، فلماذا كان قبره متهدمًا على هذا النحو؟

عكست حالة القبر حقيقة أعمق؛ وهي أن المسلمين أهملوا صلاح الدين عدة قرون. وتكتب «هيلندبراند»، وتنتقي كلماتها بعناية، عن «الطريق الملتوية، بشكل يبعث على السخرية، التي سلكها المسلمون بحثًا عن ماضيهم[٧]». كان صلاح الدين الذي يرفع المسلمون مكانته إلى مرتبة المُخلِّص في القرن العشرين أقرب إلى الشخصية التي قدمتها المخيلة الشعبية الأوروبية في القرن التاسع عشر من أي شخصية تاريخية. وكان ذلك إلى حد كبير انعكاسًا لاستحواذ فكرة الحروب الصليبية على الغرب[٨]. وإلى حد ما، لم يشارك المسلمون أهل الغرب ولَعَهم بالحروب الصليبية، ذلك أن مصطلح «الحروب الصليبية» لم يُستخدم في الكتابة العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر، مثلًا، وحين حدث ذلك كان إلى حد كبير مستعارًا من أوروبا. وقد تبلورت بالتدريج في القرنين التاسع عشر والعشرين فكرة التشابه بين سياسات أوروبا حاليًّا في الشرق الأوسط وسياسات الماضي، في الوعي الإسلامي[٩]. وكلما تسربت القصص حول الشهرة المتألقة لصلاح الدين إلى الشرق الأوسط، زادت شعبيته بين العرب. وعلى هذا الدرب قام الشاعر المصري الشهير أحمد شوقي، بعد شهرين من زيارة القيصر، بالرد بقصيدة يمتدح فيها إنجازات صلاح الدين.

ومن المؤكد أنها ليست مصادفة أن تجيء عملية «إعادة تقديم» صلاح الدين إلى العالم العربي مع التدخل الأوروبي في المنطقة، وهو ما نكأ الجراح النفسية من جديد بعد أن ظلت خامدة عدة قرون. وقد وضع «أكبر أحمد» إصبعه على هذه النقطة، عندما علَّق بقوله: «لا تزال ذكرى الحروب الصليبية موجودة في الشرق الأوسط، وتلوِّن الانطباعات عن أوروبا»[١٠].

وتذهب «هيلندبراند» أبعد من ذلك في توضيح أن الحروب الصليبية تُشاهد من منظور معادٍ للاستعمار، وينظر إلى الرد الإسلامي على الغزو الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على أنه مخطط يصلح دليلًا للنضال العربي والإسلامي الحديث من أجل

الاستقلال[11]. هكذا كبرت أسطورة صلاح الدين وبقيت قوية حتى اليوم. ولكن ما تقوله الأسطورة حقًّا أقل وضوحًا. فهل هي حقًّا راية المُخلِّص المؤثرة تقوم بوظيفتها لتكون بلسمًا للجراح، وشعاعًا يبعث الأمل فيمن خاب رجاؤهم، وفي المحرومين من حقوقهم في العالم الإسلامي، أم صوت النفير الكاذب، أم عذر للتراخي الذي ينزل بالفرد «إلى مستوى مشاهد متسكع في انتظار صلاح الدين آخر، أو أوامر تهبط عليه من السماء؟» بتعبير إدوارد سعيد[12]. واستطاع «أكبر أحمد»، في كتابه عن باكستان سنة ١٩٩٧م، أن يستخدم عنوان «جناح وباكستان والهوية الإسلامية ـ البحث عن صلاح الدين» مُفترضًا أن قرَّاءه سوف يفهمون بشكل تلقائي ما يتضمنه العنوان. وهذا افتراض يبسِّط الأمر كثيرًا، والحقيقة أكثر تنوعًا وتعقيدًا. جاء صلاح الدين، مثل شخصية «جودو» في مسرحية «بيكيت»، ليُقدِّم إلى الوعي الإسلامي نموذجًا لمُخلِّص سياسي طال انتظاره.

إن الجراح عميقة، ولن ينسى المسلمون الحروب الصليبية طالما ظلت أراضيهم عُرضة للتدخل الغربي، وطالما ظل الفلسطينيون مضطرين إلى مقاومة إسرائيل. وسواء كانت إسرائيل المملكة الصليبية، أو كان التدخل الأمريكي حربًا صليبية أم لا، فإن هذا الأمر لا علاقة له بموضوع هذا الكتاب، وأي قدر من الصورة العاطفية لن يجعله كذلك. ورفض القيام بأي مقارنات لا يعني بحال من الأحوال التقليل من شأن الصراع الحالي. ولكن يبقى واجب المؤرِّخ أن يؤكد أن صلاح الدين كان ابن عصره، وتأثر بأحداثه، كما أثَّر فيها إلى حدٍّ ما. كانت الحروب الصليبية ظاهرة خاصة، في وقت خاص من التاريخ، وتطلَّبت ردًّا خاصًّا من جانب المسلمين. وعلى أية حال، إن المشاعر الخالصة التي تسبب فيها وجود إسرائيل تنفخ في نيران أسطورة صلاح الدين. وليس من قبيل المصادفة أن القرون التي كانت فيها القدس بأيدي المسلمين هي القرون التي لقي فيها صلاح الدين إهمالًا بالغًا؛ لأحداث الماضي في الشرق الأوسط صلة قوية بالحاضر[13].

إذن، إلى أين يمضي هذا بالمؤرِّخ الذي يحاول أن ينحي الأسطورة جانبًا ليكتب عن الشخصية التاريخية؟ يتمثل التحدي الأساسي فيما يتعلق بصلاح الدين في أنه صار أسطورة وهو لا يزال حيًّا؛ حوَّلَه فتحُ القدس وإعادتها إلى الحظيرة الإسلامية، بعد ثماني وثمانين سنة من استيلاء الصليبيين عليها، إلى الشخصية الأقوى والأشهر في العالم الإسلامي، وجعل منه رمزًا لطموحات المسلمين وآمالهم، بعد أن سعوا بحماسة متزايدة لاسترداد ثالث المدن قدسية في العالم الإسلامي. وفي الوقت نفسه، كان الأوروبيون العائدون

إلى بلادهم يُعظِّمون من شأن صلاح الدين، ويُكررون الحكايات حول تصرفاته النبيلة، مما يضيف إلى الأسطورة؛ ذلك كله في حياة صلاح الدين. وكلما تكاثرت القصص والحكايات، توارى صلاح الدين التاريخي في الظلال أكثر فأكثر. والحل الوحيد أمام المؤرخ، وهو الحل الذي اتُّبع في هذا الكتاب، لمحاولة انتشال صلاح الدين التاريخي، هو تجاهل المتداوَل. وإذا كانت القدس وتحريرها نقطة بداية الأسطورة، يمكن أن نجادل بأننا إذا ما نحَّينا القدس جانبًا يمكن أن نرى لمحة من صلاح الدين الواقعي. وهذا ما يشير إليه «إهرينكروتز»، في كتابه عن سيرة صلاح الدين، عن الكيفية التي نرى بها صلاح الدين لو تُوفِّي سنة ١١٨٥م، أي قبل الاستيلاء على القدس بعامين(١٤). وهو سؤال ذكي، ولكنَّ الاستنتاج الذي يخرج به «إهرينكروتز» استنتاج خطأ؛ لأنه يرى أن صلاح الدين في هذه الحال مجرد حاكم عسكري غير معروف، وهو بذلك يخلط بين الشهرة والإنجاز. ونرى في هذا الكتاب أن أعظم إنجازات صلاح الدين تمت قبل سنة ١١٨٥م، وهو لا يزال «مغمورًا»، وكل ما أعقب ذلك: القدس، و«ريتشارد»، وعكا، والحملة الصليبية الثالثة، بُني على هذه الإنجازات؛ كانت إعادة المذهب السُّني إلى مصر الفاطمية الشيعية أكبر تراث خلفه صلاح الدين. لكن يجب أن نبتعد عن شخصية صلاح الدين ونُركِّز على عصره، لنفهم لماذا يُشكِّل هذا التراث تلك الأهمية الرئيسة.

يبدأ هذا الكتاب في بغداد مع تفكك الخلافة العباسية. وعلى الرغم من أن صلة هذا الحدث بسيرة صلاح الدين تبدو واهية للوهلة الأولى، فإنها تبدو جلية بعد القراءة المتأنية للفصلين الأولين.

تولدت في بغداد، قبل مولد صلاح الدين بقرن من الزمان، روح إحياء المذهب السُّني، وكانت المبادئ المتأصلة في هذا الإحياء هي التي أثَّرت على معتقدات صلاح الدين وأفعاله. كان صلاح الدين ابنًا لحركة إحياء المذهب السُّني، ابنًا مُخلصًا مُطيعًا. وكانت شهرته اللاحقة مصحوبة بذلك الولع الذي استولى على الغرب بالحروب الصليبية، مما حجب النقطة الأساسية، ومؤداها أنه بالنسبة إلى صلاح الدين كانت إعادة إحياء المذهب السُّني التقليدي في العالم الإسلامي على درجة من الأهمية نفسها ـ بل أكثر أهمية ـ من استرداد القدس.

من السهل أن نفترض أن صلاح الدين حقق هدفه باستعادة بيت المقدس، ولكنه،

كما أوضح «جب»، حقق هذا الهدف لأنه وضع نصب عينيه هدفًا آخر[١٥]. وهدف هذا الكتاب الكشف عن هذا الهدف.

وثمة هدف ثانوي لهذا الكتاب يتمثل في إلقاء الضوء على الشخصيات التي أحاطت بصلاح الدين. ومن أهم الجوانب الجديرة بالملاحظة التي لفتت نظري وأنا أكتب عن صلاح الدين: كيف دفعت شهرته بإنجازات مَن كانوا حوله إلى منطقة الظل؛ لم يُحرِّر صلاح الدين القدس وحدَه، ومع ذلك فوجئتُ، بشكل دائم، في أثناء كتابة هذا الكتاب، أن معظم الناس يجدون صعوبة في ذكر اسم واحد من مستشاري صلاح الدين، أو وزرائه، على الرغم من مدى تأثيرهم على نجاحه. لقد كان صلاح الدين محاطًا بعمالقة من أصحاب الشخصيات والإمكانات، وكانت ـ بالتأكيد ـ تضاهي شخصيته وإمكاناته، مثل: عمه البارز شيركوه؛ الذي مهَّد له طريق النجاح، والعادل، أخيه الحكيم، وابن أخيه الشجاع الجامح تقي الدين. وهناك كثيرٌ من الشخصيات الثانوية في أجزاء مختلفة من الكتاب، يساعدنا كلٌّ منهم على إلقاء ضوء مختلف على صلاح الدين: عيسى الهكاري (الغامض العميق)، وقراقوش (التُّركي الذي لا يعرف عن الكتب شيئًا)، والعاضد (الخليفة الفاطمي التَّعِس)، وكوكبوري (الشجاع المفعَم بالحيوية والمعروف بلقب «الذئب الأزرق»). وهناك بطبيعة الحال هؤلاء الرجال الثلاثة الذين لولاهم ما وصل صلاح الدين إلى هذا القدر من الشهرة؛ كانوا الحماة الغيورين على ميراثه، وكانوا ـ باستثناء عائلته ـ الأقرب إلى قلبه والأعز على نفسه، كانوا مؤرخين ودعاة، ومدبري شؤونه، ولم يكونوا مجرد كَتَبة أو مجرد شهود على التاريخ، بل شاركوا في صنعه وأسهموا في تشكيله. وكان الثلاثة مختلفين بعضهم عن بعض، لكنهم تجاوزوا اختلافاتهم بسبب القيم والأفكار المشتركة التي سادت في العصر الذي عاشوا فيه. هؤلاء هم: القاضي الفاضل، وعماد الدين الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، الذين يدين لهم صلاح الدين بدَين كبير.

الفصل الأول

ضعف الخليفة العباسي والإحياء السُّني

كل ما تدين لي به هو الاسم الذي يُذكر على منابركم لتسكين رعاياك. وإذا ما رغبت في أن أتبرأ من هذا أيضًا فإني على استعداد لترك كل شيء لك.

من الخليفة العباسي المطيع إلى الأمير البويهي

بحلول منتصف القرن العاشر كان واضحًا أن الخلافة العباسية فشلت باعتبارها مؤسسة سياسية. أسس العباسيون دولتهم بعد الإطاحة بالخلافة الأُموية سنة ٧٥٠م، ونقلوا مقر الحكم من دمشق إلى بغداد، التي تأسست على الضفة الغربية لنهر دجلة لتكون عاصمة الخلافة، وأصبحت أهم مدن العالم الإسلامي وأكثرها ثراءً، إلى أن دُمِّرت على أيدي المغول سنة ١٢٥٨م. زعم العباسيون أنهم من نسل العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، وساعدهم زعمهم هذا، بشكل لا يمكن إنكاره، على كسب المساندة الشعبية. كما زعموا أنهم جاءوا لتأكيد الحكم السُّني الصحيح للإسلام، ومعارضة ما كان عليه الأُمويون من عنصرية، وابتعادهم عن تعاليم الدين. وعلى مدى قرنين من الزمان ازدهرت الخلافة العباسية، لتصل ذروتها تحت حكم الخليفة هارون الرشيد. ثم بدأ التدهور تدريجيًّا، وصار الخليفة عاجزًا عن ممارسة السُّلطة الدينية أو السياسية. وبحلول منتصف القرن العاشر، انتقلت السُّلطة إلى حكام الأقاليم، الذين لم يلبثوا أن أقاموا أسرات حاكمة وراثية[1]، وجعلوا من الخليفة مجرد دُمية في إمبراطورية يحكمها الغاصبون للسُّلطة. وكان ضياع الدخل من الأمصار يعني ضياع السُّلطة العسكرية، وكانت ضرورية لإعادة الحكام المتمردين مرة أخرى إلى الانصياع؛ لأنه كان عصر الجيوش الخاصة والمرتزقة،

حيث كان الولاء بمنزلة بضاعة ينالها أعلى المزايدين سعرًا[٢]. وكان الخليفة العباسي آنذاك بلا حول ولا قوة، يسيطر بصعوبة على شوارع عاصمة إمبراطوريته. وفي سنة ٩٤٥م فقد الخليفة السُّلطة السياسية نهائيًّا، عندما تولّى البويهيون، وهم قبيلة من «القراصنة» الشيعة[٣] تنحدر من إقليم الديلم، السُّلطة في بغداد، وتحديد معاش مُهين للخليفة السُّني، ثم نزلوا به إلى مستوى حاكم رمزي بلا سلطة خارج منزله، ووضعوا أسماءهم على العُملة وفي خطبة الجمعة.

المنازعات بين السُّنة والشيعة

نشبت منازعات عديدة بين السُّنة والشيعة، وكان النزاع الأخير يقوم حول طبيعة الخلافة. وأساس العقيدة الشيعية هو الاعتقاد بأن الأئمة وحدهم، في أعقاب وفاة النبي ﷺ، هم أصحاب الحق في قيادة الأمة الإسلامية: الإمام علي (زوج ابنة النبي ﷺ)، وولداه الحسن والحسين، ونسل الحسين من ابنه زين العابدين. وبالإضافة إلى ذلك كان الأئمة ملهمين من الله ومعصومين من الخطأ. وهم فقط الذين يفسرون المعنى الباطن للدين. وبما أنهم يمثلون أصل المعرفة والسُّلطة فلا يمكن تحقيق الهداية والنجاة إلا من خلالهم. وبالنسبة إلى السُّنة، ويُمثّلون غالبية المسلمين، لم تكن هذه الرؤية سوى زندقة. وعلى الرغم من أنهم اعتبروا الخلافةَ المؤسسةَ السياسية الشرعية للأمة، فقد أكدوا على أن الخليفة ليست له أي وظيفة روحية ترتبط بالتفسير الباطني للوحي. ولم يكن للخليفة، بوصفه الحارس على الأمة، حق تشريع القوانين، لكن كان عليه أن يراعي تطبيق الشريعة. ولم يكن له أن يعمل قاضيًا وفقًا للشريعة[٤]. وبالنسبة إلى السُّنة، كانت وحدة المسلمين تحرسها الشريعة التي ينبغي الحفاظ عليها، وليس الحفاظ على الخليفة. وكان العلماء حُرَّاس الشريعة ومفسريها. وكان إجماعهم يمثل إجماع المسلمين، ويُشكل أساس الإسلام نفسه[٥]. وعلى الرغم من أن الخليفة كان يرعى الفقهاء ليدعم مؤهلاته الإسلامية، فلم يكن أمامه، في الحقيقة، من خيار سوى أن يلتزم بالخط الذي وضعه الفقهاء[٦]. وعلى أية حال، يجب استخدام مصطلح «علماء» بحذر. لم يظهر هؤلاء العلماء مجموعة متماسكة من الناس سوى في فترة لاحقة، وعلى الرغم من أن المصطلح يُستخدم كثيرًا، فإنه نادرًا ما يتم تحديده أو توضيحه: فهل كان الحصول على التعليم الإسلامي كافيًا لوصف أي شخص بأنه «عالم»، أو كان من الضروري أن يتولى

مركزًا عاليًا في إحدى المؤسسات أو منصبًا قضائيًا؟ في أثناء هذه الفترة نادرًا ما استُخدِم المصطلح في صيغة الجمع. وتشير المصادر إلى مصطلحات مثل فقيه وصوفي، مما يشير إلى أنه لم يكن هناك اعتراف بالعلماء باعتبارهم وحدة واحدة. وبتعبير «همفريس»، ربما يكون من الأسهل أن نعرفهم بالنفي؛ لأنهم لم يكونوا طبقة اجتماعية ـ اقتصادية، ولا مجموعة ذات مكانة محددة بوضوح، ولا فئة وراثية. ومع هذا كانوا المجموعة التي جعلت المجتمع إسلاميًا ولا شيء غيره(٧).

وبصفة عامة بقي المذهب الشيعي، وكان مُقدرًا له أن يعيش في «معارضة خالدة»(٨) للمذهب السُّني، خيار الأقلية؛ الذين كانوا خارج البنية الرئيسة للسُّلطة. ولا شك في أن العباسيين، من خلال ربط اسمهم باسم عم النبي ﷺ، بغض النظر عن مدى هشاشة هذا الربط، كانوا يحاولون عمدًا كسب تعاطف الشيعة، وإلى حد كبير نجحوا في هذا. وعلى أية حال، وصل الشيعة بالتدريج إلى اعتبار العباسيين غاصبين للسُّلطة. وتمثَّلت المعضلة الرئيسة التي واجهت الأُسر الحاكمة الشيعية التي برزت في القرن العاشر الميلادي، مثل البويهيين، في عجزهم عن تعويض وجهة النظر السُّنية أو فرض آرائهم الشيعية. ويرجع هذا في الأساس إلى سببين: الأول: أن غالبية المسلمين الذين كانوا يحكمونهم لم يُلقوا بالًا إلى الدعوة الشيعية. والثاني: أنهم لو اختاروا القضاء على البيت العباسي وإحلال بيت عليٍّ محله، فلن يكون أمامهم إمام صاحب حق يُقدِّمونه. وكان هذا يعني من الناحية الفعلية أن البويهيين الذين كانوا يسيطرون آنذاك على بغداد لا يختلفون كثيرًا عن نظرائهم السُّنة، وفضَّلوا الاحتفاظ بالخليفة، الذي قدموا له الولاء الاسمي، «ما دام للولاء معنى»(٩). وفي الاحتفالات الدينية يستمر الخليفة في ارتداء بردة النبي ﷺ، بصورة رمزية. وهناك بالمثل سببٌ سياسي تذرَّع به البويهيون، كان وراء اختيارهم عدم القضاء على الخلافة العباسية، ولو نشب نزاع بين الخليفة العباسي والأمير البويهي، لما تردد أتباع الأمير في قتل الخليفة؛ لأنهم لا يعتقدون أنه صاحب حق في الحكم، لكن في حالة وجود خليفة فاطمي لا بد أن يطيعوا أوامره ولا يسمعوا للأمير.

ربما اختار البويهيون الاحتفاظ بالخليفة العباسي السُّني، لكن ذلك لم يكن يعني أنهم لن يستفزوه. وكان من المشاغل المِلِحة للخليفة تلك التظاهرات الشيعية العامة المتزايدة التي شجعها البويهيون. والمؤكَّد أن ما أثار غضب السُّنة بشكل خاص هو سبُّ الخليفتين أبي بكر وعمر، اللذين خلفا النبي ﷺ، واتهمهما الشيعة باغتصاب حق عليٍّ.

كذلك هال السُّنةَ احتفالاتُ الشيعة بأعيادهم مثل: عيد الغدير (غدير خم)؛ الذي يعتقد الشيعة أنه بمناسبة ذكرى اعتراف النبي ﷺ، بعليٍّ خليفة له، أو الحِداد على الحسين؛ الذي يحتفل الشيعة سنويًّا بذكرى استشهاده في كربلاء بفيض من العويل والحزن العميق. كان تركيز البويهيين على هذين الفعلين ـ سب الصحابة والاحتفالات ـ ذا أهمية رمزية كبيرة. والمعروف أن أي سُني، بوصفه مسلمًا، يقبل تبجيل عليٍّ من دون أن يوصف بأنه شيعي. ولم يكن بوسع أي سُني قبول الاحتفال بغدير خم أو سب الخليفة الأول والثاني من دون أن يعزل نفسه عن رفاقه من السُّنة.

وفي أثناء الفترة البويهية عرَّف المذهب الشيعي نفسه باعتباره جماعة متميزة أو حزبًا، على المرء أن يتبعه أو يرفضه(١٠). وبدأت بغداد تنقسم إلى أحياء سُنية وأخرى شيعية، وكل منها مسلح للدفاع عن مناطقه الخاصة. ولم يقتصر الأمر على بغداد، فسرعان ما انتشر التقسيم الطائفي إلى مدنٍ غيرها، مثل واسط، وكثرت الصراعات، وشاعت أحداث العنف وإراقة الدماء. وإلى حد ما، سيطرت السلطات بقدر ما تستطيع على حالات العنف. وذات مرة قام أبو علي هرمز، وقد أُرسل إلى بغداد للإشراف على شؤونها، بربط شخص من السُّنة وشخص من الشيعة معًا وأغرقهما ليكونا عِبرة.

وإذا كان البويهيون الشيعة، مدفوعين بالانتهازية السياسية ولا تهمهم المسائل الفقهية كثيرًا، قد اختاروا الإبقاء على الخلافة العباسية السُّنية، فإن الحركات الشيعية الأخرى، التي انشقت عنها، لم تكن مستعدة لأن ترضى بالشؤون الدنيوية، وكانوا يتطلَّعون إلى الخليفة الذي يعتقدون فيه. وعلى خلاف البويهيين، وكانوا من الشيعة الاثني عشرية، كان الفاطميون من الشيعة الإسماعيلية(١١). كما أن بروز الخلافة الفاطمية، التي سوف يرتبط مصيرها ارتباطًا وثيقًا بمصير صلاح الدين، يعتبر حادثًا رئيسًا في التاريخ الإسلامي، فقد ظهرت أولًا في شمال إفريقيا سنة ٩٠٩م أسرة حاكمة تحمل اسمًا منسوبًا إلى السيدة فاطمة ابنة النبي ﷺ، وزوجة عليٍّ، لتحكم إمبراطورية امتدت من فلسطين حتى المغرب العربي. وتحت حكم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي وصل الفاطميون إلى ذروة مجدهم. وحيث كان في خدمته قائد ممتاز هو جوهر الصقلي، انتهز الفاطميون فرصة التمزق السياسي الذي كان يجري أمامهم في جميع أنحاء العالَم الإسلامي، ولفترة قصيرة، بدا حقًّا أن انتصار الإسماعيلية العالمي على وشك أن يتحقق. هزم جوهر الصقلي سنة ٩٦٩م الإخشيديين الأتراك، الذين كانوا يسيطرون على مصر، هزيمة منكرة، ودخل الفاطميون البلاد ظافرين.

وبدأوا في بناء عاصمة جديدة: القاهرة القديمة، أو القاهرة كما سمَّاها مؤسسها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وقد بُنيت فيما بين سنة ٩٦٩م وسنة ٩٧٣م، وتم تدشين أساسها باحتفال غاية في الفخامة والعظمة. ومع بداية القرن الحادي عشر الميلادي نمت القاهرة الملاصقة للفسطاط العتيقة لتكون من أكبر المراكز الحضرية العالمية في عالم العصور الوسطى. ومنذ البداية، رفض الفاطميون بلا مواربة مزاعم العباسيين الروحية، وكانوا على تناقض حاد مع غيرهم من الأسر الشيعية الحاكمة في تلك الفترة، ممن كانوا يسعون إلى السُّلطة فحسب، وأعلنوا صراحة أن الزعيم الروحي والسياسي الحقيقي هو الإمام، من سلالة عليٍّ، وهو بالطبيعة لا يمكن أن يكون غير الخليفة الفاطمي.

وبالنسبة إلى الخليفة العباسي في بغداد، كانت الأنباء الآتية من القاهرة الفاطمية مُزعجة. فلم يكن اسم الإمام الفاطمي يحظى بالدعاء في مساجد مصر فحسب، وإنما كان الدعاء له في مساجد مكة والمدينة أيضًا، حيث بسط الفاطميون سلطانهم؛ لأن مَن كان يسيطر على مصر يسيطر على الطريق إلى الأماكن المقدسة، وليس فقط في شبه الجزيرة العربية، ولكن في بلاد الشام أيضًا، حيث سقطت دمشق بين يدي جوهر الصقلي. كان نصف العالم الإسلامي تحت سيطرة الفاطميين، وكان يبدو أن النصف الثاني سيكون مصيره كذلك. ولكن ما كان أكثر إزعاجًا للخليفة السُّني لم يكن التهديد السياسي وحدَه، وإنما التهديد الفكري؛ فقد تم تأسيس جامعة عظيمة ـ الأزهر ـ في القاهرة لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان يتم إرسال الدعاة إلى جميع أركان العالم الإسلامي لنشر هذه الدعوة. ومن الناحية السياسية والفكرية، والاقتصادية أيضًا، كان ذلك تهديدًا؛ فقد ازدهرت مصر تحت الحكم الفاطمي وسطعت الإسكندرية مثل جوهرة، أو «سوق العالَمَين» بتعبير «وليم الصوري»؛ فقد كانت التجارة نشيطة فيما بين الثغر والجمهوريات الإيطالية في أمالفي والبندقية وبيزا. وتدفقت القوافل التجارية من الجنوب والسودان شمالًا، تحمل الذهب والعاج. وعلى امتداد النيل كانت تُزرع كميات هائلة من الغلال؛ تكفي لإطعام أهل مصر مرات ومرات(١٢).

وفي ذلك الحين ارتدى الخليفةُ العباسي، الذي استفزته التظاهرات الشيعية العلنية الصاخبة، وقد جُرِّد من كل سلطة سياسية، عباءةَ المدافع عن المذهب السُّني، ربما بدافع من الغيرة الدينية، ولكن من المؤكد أنه كان مدفوعًا بالانتهازية السياسية. وعند بداية القرن الحادي عشر، أمر الخليفة القادر بقراءة الرسائل التي تُروج لمعتقداته في الديوان،

وقد تطورت إلى مذهب عُرف بالمذهب القادري. وكان مذهبًا سنيًّا مقاتلًا عالي الصوت، يشي بعقلية الخليفة المحاصر. وأُعلِنتْ ثلاثة مراسيم في ديوان الخليفة، وفي كلٍّ من هذه المناسبات يُجمَع القضاةُ والعلماء ليستمعوا إلى المرسوم ويوقعوه، دليلًا على حضورهم. وكان كل مرسوم أكثر توسعًا من سابقه، وكان المرسوم الثالث من الطول بحيث حُكي أنه تطلب حضور الناس طوال اليوم، وحتى هبوط الليل. وكانت رسائل الخليفة القادر مهمة على الرغم من طولها وإسهابها؛ لأنها تحتوي على تحديد واضح وإيجابي للمذهب السُّني. وحتى ذلك الحين كان السُّنة يُعرفون بمعارضتهم المذهب الشيعي، ومع المذهب القادري وُجد تعريف لما يجب على السُّنة أن يؤمنوا به. ولم يعد ممكنًا أن تكون مسلمًا ببساطة؛ كان على المرء أن يكون مسلمًا سُنيًّا أو شيعيًّا(١٣). ووصف الرد السُّني على التظاهرات الشيعية من جانب المؤرخين بالإحياء السُّني. وكان، في الحقيقة، تحولًا واستكمالًا أكثر منه إحياء، ولم يكن ذلك عمل رجل واحد أو أسرة حاكمة واحدة، بل عملية تراكمية واسعة المدى مست تقريبًا جميع جوانب الفكر الإسلامي: من الشريعة إلى الفقه، ومن الصوفية إلى الشؤون السياسية. كما أنها لم تمضِ بشكل طولي؛ إذ لم تكن هناك حركة سُنية موحدة، وكانت الاتهامات بالمروق شائعة بين مختلف المدارس السُّنية المتعارضة.

وكان الدخول الظافر للأتراك السلاجقة السُّنة إلى بغداد، سنة ١٠٥٨م، علامة على مرحلة جديدة في تاريخ تلك الفترة. والسلاجقة شعب تركي من مناطق «الإستبس». دخلوا في خدمة الدولة العباسية، وكانوا من السُّنة المتحمسين، ونجحوا في الإمساك بزمام السُّلطة في بغداد، وتحت قيادة طغرل بك طردوا البويهيين الشيعة من المدينة. وكان معنى سقوط البويهيين أن الخليفة لن يجد نفسه مرة ثانية رهينة لدى الشيعة، ويمكن استخدام قوة الدولة بشدة في مواجهة المذهب الشيعي والإسماعيلية على وجه الخصوص. وفي بغداد تعثر السلاجقة في ظل الخلافة، التي سمحت، بضعفها، بسقوط نصف العالم الإسلامي في أيدي الفاطميين. ومع هذا فإن الهالة التي كانت تحيط بالخلافة لم تكن تخطئها العين؛ لأنها حتى في ضعفها كانت تحظى بالتبجيل والاحترام من قِبل الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام قبل ذلك بفترة قصيرة، باعتبارها رمزًا للشرعية. وهكذا لعب السلاجقة من الناحية الشرعية دور حماة الخليفة الذي كان مجرد رمز(١٤).

وبحديثنا عن السلاجقة يمكن الحديث عن الرجلين اللذيْن حظيا بالاعتراف عالميًّا بأنهما مهندسا الإحياء السُّني: نظام الملك، الوزير الفارسي لسلاطين السلاجقة، والغزالي، الفقيه والمفكر العظيم. وفي محاولتنا فهم العبقرية الكامنة في الرجلين، نقطع شوطًا طويلًا لفهم شخصية صلاح الدين نفسه؛ لأن المرء لا يمكن أن يفهم تصرفات صلاح الدين من دون أن يفهم أولًا تصرفات نظام الملك، ولا يمكن أن نستوعب العالم الروحي والفكري الذي عاش صلاح الدين في رِحابه، من دون دراسة ما أسهم به الغزالي في بنائه. وكان صلاح الدين وريث نظام الملك، كما كانت تصرفاته انعكاسًا لتصرفات الوزير السلجوقي العظيم. وبالنسبة إلى الغزالي، يوضح «نيوبي»، في ترجمته لصلاح الدين، أنه لولا الغزالي لصار صلاح الدين أصوليًّا بدرجة أكبر كثيرًا[١٥]. وفي هذه العبارة قدرٌ كبير من الحقيقة كما سنرى. ويجب على المرء لكي يفهم صلاح الدين أن يفهم هذا المذهب السُّني الجديد الذي كان بازغًا. وبهذا المعنى يمكن أن نرى في نظام الملك التجلِّي السياسي لهذا المذهب، ونرى في الغزالي التجلِّي الروحي له. وربما حظيت رسائل الخليفة العباسي القادر بشهرة كبيرة، لكنها لم تكن مراسيم بابوية، ولم يكن أحد مضطرًّا لأن يتبعها. وفوق هذا وذاك كانت هذه الرسائل دعوة رمزية من المذهب السُّني المتحدي، لكن كان يمكن ألا تسفر عن شيء لو لم يصغْها نظام الملك ويدمجها في الإطار السياسي والإداري للحكم السلجوقي. معه بدأ الإحياء السُّني حقًّا.

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر كان تاريخ العالم الإسلامي بأسره، وليس تاريخ بغداد فحسب، محكومًا بشخص نظام الملك، الوزير الفارسي لسلاطين الأتراك السلاجقة طغرل بك، وملك شاه. ولنفهم العبقرية السياسية[١٦] لنظام الملك وتصرفاته، التي يكون لها نتائج عميقة وإن لم تكن غير متوقعة، نحتاج أولًا إلى التحول قليلًا إلى عالم الفقه والشريعة. في غضون خمسين سنة من وفاة النبي ﷺ، سنة ٦٣٢م، فتحت جيوش المسلمين الشمال الإفريقي بأسره، وامتد الإسلام من المغرب إلى مصر، ومن اليمن إلى القوقاز. وبحلول القرن العاشر الميلادي كان الإسلام قد انتشر على امتداد ثلاث قارات من جبال البرانس في الغرب حتى سيبيريا في شمال أوروبا، ومن الغرب في شمال إفريقيا حتى الصين في آسيا. ومع الانتشار الجغرافي السريع برزت مشكلات جديدة لتواجه العلماء والقضاة في تفسير شريعة

إسلامية موحدة وتطبيقها؛ فلم يكن القاضي في بلاد ما وراء النهر يواجه المشكلات الشرعية اليومية نفسها التي يواجهها قاضٍ في المغرب، ولا يواجه قاضٍ في الكوفة ما يواجهه قاضٍ في المدينة[١٧]. وأدى هذا في النهاية إلى تأسيس مدارس فقهية عُرفت بالمذاهب. كان منها أربعة مذاهب هي الأكثر أهمية وقد بقيت حتى اليوم: المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي. وبتأسيس المذاهب في الشريعة، لم تعد الشريعة، بتعبير «هودجسون»، مغامرة، بل إرثًا[١٨]. وباتت العقيدة السُّنية محددة بالانتماء لأحد هذه المذاهب. والواقع أن كل مسلم سُني، حتى اليوم، يتبع في عباداته اليومية، أو في أمور مثل الميراث، أحد المذاهب الأربعة. والتحول من مذهب إلى آخر لا يتطلب أي إجراءات رسمية، ولا يغير من الوضع الديني للفرد؛ وثمة مثال ممتاز على هذا يتجسد في محمد بن خلف، الذي تُوفِّي قبل مولد صلاح الدين بعامين، وكان معروفًا باسم «الحنفش»؛ لأنه كان ينتمي إلى ثلاثة مذاهب مختلفة في أوقات مختلفة: الحنبلي والحنفي والشافعي[١٩]. وبينما كان التفكك السياسي للخلافة يعني أنه لم تعد هناك قوة واحدة تحكم العالم الإسلامي بأسره، استمر حكم الشريعة، بغض النظر عن انهيار المركز. وفي الوقت نفسه، كان ذلك عصرًا يُناقش فيه الفقه في إطار المدارس الشرعية. ولعبت مدرستان فقهيتان كبيرتان دورهما في تلك الفترة: المعتزلة والأشعرية. وكان المعتزلة يرون العقيدة الإسلامية من خلال تفسير أكثر عقلانية، وانتقدوا عناصر الاعتقاد الشعبي. وكان إصرارهم على التفسير المجازي يروق بقوة لفقهاء الحنفية. وكان الحنابلة، من ناحية أخرى، يُعارضون بشدة التفسير العقلاني، ويطالبون بالإيمان الكامل بالمعنى الحرفي للقرآن الكريم. الله يرى ويسمع ويغضب. وتتجاوز الكيفية حدود الفهم الإنساني، وعلى البشر ألا يتدخلوا في مثل هذه الأمور[٢٠]. وفيما بين هذين الموقفين المتعارضين، كان الأشاعرة ـ الذين اشتُق اسمهم من أبي الحسن الأشعري ـ يتخذون موقفًا وسطًا، وفي موقفهم هذا «تخفف» المذهب السُّني «بقليل من التعبيرات العقلانية»[٢١]؛ فقد سلموا للحنابلة بالتفسير الحرفي للقرآن، على حين احتفظوا بحق الدفاع عنه بطريقة عقلانية. هذه المنطقة الوسطى، التي لقيت ترحيبًا كبيرًا من الشافعية، سوف تحظى في النهاية بالاعتراف بأنها أكبر مدرسة فقهية وأنها الرؤية الصحيحة للإسلام[٢٢]. كانت الاستجابة السُّنية المبكرة تجاه التحدي الشيعي حنبلية النكهة. والواقع أن الخليفة العباسي نفسه كان

حنبليًا. وتبنى المذهب الحنبلي تفسيرًا حرفيًا للقرآن، كما كان متشددًا في توكيده، ولذلك صار المذهب الحنبلي «كبش الفداء المفضل في البحوث الحديثة في مجال الدراسات الإسلامية»(٢٣). ومن السهل أن نعرف السبب؛ فعلى غير شاكلة المذاهب الثلاثة الأخرى، كان الحنابلة يعتبرون مشاغبين ورجعيين، بسبب عدم تسامحهم إزاء آراء الآخرين وترددهم في الإدلاء برأي شخصي في مسائل الشريعة. وقيل إن الحنابلة، في وقت شَعَر فيه السُّنة بأنهم محاصرون بالوجود الشيعي، قبلوا التحدي بدعمهم القوي للمذهب القادري، وفعلوا ذلك بحماسة متشددة نمطية ـ أشعلوا النار في ضريح الحسين بكربلاء.

كانت هذه الخلفية الفكرية التي واجهت نظام الملك، وتكمن عبقريته في فهمه أن موقف الحنابلة الحرفيين المعادين للعقلانية والأشعرية لا يمكن أن يُشكل فكرًا إيديولوجيًا يمكن بناء مذهب سني وسط عليه؛ فقد حذر المذهب القادري بمعاقبة المسلمين الذين يتجاوزون حدودهم فكريًا بالعقوبة والنفي، ولكن مثل هذا الموقف التصادمي، الذي ربما كانت له ضرورة والخليفة تحت الحصار الشيعي، لا يمكن الحفاظ عليه على المدى الطويل. والحقيقة، وبشكل يبدو فيه التناقض واضحًا، أن نظام الملك، مهندس الإحياء الإسلامي السُّني، وجد مذهب الخليفة «مغرقًا في إسلامه»؛ فقد كان هو نفسه شافعيًا، ولكن طغرل بك، السلطان الذي كان يعمل في خدمته، كان حنفيًا، والخليفة حنبليًا. وإذ لم يكن ذلك كافيًا، فقد اتسم كلٌّ من الخليفة والسلطان بالعنف في رفضهما قبول آراء الآخرين؛ أمر طغرل بك بسبِّ الأشاعرة من فوق المنابر ونفيهم من ديارهم. ولخص الفقيه الحنبلي ابن عقيل، الذي اشتهر بأن الحنابلة وبَّخوه لأنه استمع إلى رأي فقهاء من المذاهب الأخرى، الموقف الشرس جيدًا، فقال إن زملاءه الحنابلة كانوا يريدون منه أن يهرب من حضور جماعة من العلماء الآخرين. وقال إنه لو فعل ذلك لحرم نفسه من المعرفة المفيدة. وغالبًا ما كانت المجادلات الفقهية بين المذاهب المختلفة تحل عن طريق البلطجة والعنف، لا من خلال الجدل الفكري والمناقشة. وكانت المشاجرات تنشب في شوارع بغداد، وغالبًا ما يسقط ضحايا، وتصحبها أغانٍ مثل «اليوم للحنابلة، وليس للشافعية أو الأشاعرة». والحكايات التي تحكي عن العداوة بين المذاهب عديدة؛ فعندما علم القاضي منصور أبو المعالي الجيلي، وهو شافعي، أنَّ رجلًا فقد حماره في حي من أحياء بغداد غالبيته من الحنابلة، أمر بأن يذهب الرجل إلى ذلك الحي ويأخذ ما يشاء، لأنه لن يجد هناك شيئًا أعلى قيمة من حماره.

تشدد الحنابلة بفرض رأي واحد، وذلك بأن حكموا على كل فعل وكل فكرة بقيمتها الإسلامية، ويبدا أنه لم يكن هناك شيء يستعصي على التفسير الإسلامي، ففي ذلك الحين كان كل شيء يُصاغ ويُعبَّر عنه من خلال الدين: الشؤون السياسية، والسلوك الشخصي، والأعمال الفكرية. والواقع أنه لو تمكَّن العلماء من تطبيق أفكارهم المتشددة، لما سُمح لأي مسلم أن يتعلم شيئًا لم يشهد العلماء أنفسهم بأنه يحض على الدين. حتى سجلات التاريخ وكتب الأدب لم تكن تُحْتَمَل تقريبًا[٢٤]. وهذه النزعة النفعية، لو أطلق لها العنان، لخنقت الإسلام. كان الدين بحاجة إلى «التنفس»، والتشدد بحاجة إلى التوازن واكتساب المزيد من العمق. كانت الأمة الإسلامية أمة كبيرة، وكانت الميول الروحية للجميع تقريبًا، داخل حدود العقيدة، بحاجة إلى المواءمة. وهنا جاء الغزالي. وحظي بالاعتراف بأنه رأس الإحياء السُّني وزعيمه بلا منازع في الفترة السلجوقية. وكانت رؤية الغزالي قريبة من رؤية نظام الملك، لا لمجرد أن الأخير كان حاميه وراعيه، بل لأن الرجلين فهما أنه ينبغي، في عصر ما بعد الخلافة، الربط بين الحكم والدين. وفي قول مأثور للغزالي، يتكرر كثيرًا: «الدين والحكم أخوان توأم». ومن خلال خبرة حياته الشخصية، حيث تخلَّى بصورة درامية عن مهنته التي نجح فيها مدرسًا ليعيش حياة الصوفي المتجول لكتاباته، وخصوصًا كتاب «المنقذ من الضلال» وكتاب «إحياء علوم الدين»، بنى الغزالي الأساس الروحي للنظام السياسي الذي اتبعه نظام الملك. وفي عبارة أخرى، إذا كان التناول العالمي بالنسبة إلى نظام الملك ـ أي محاولة إكساب المذهب السُّني البازغ مجالًا واسعًا ـ ضرورة سياسية، فقد جاءت جهود الغزالي لتوفير «العمق» لهذا المذهب وقد تولَّدت عن الضرورة الروحية.

سعى الغزالي لوضع أساس شامل للحياة الدينية للأمة. ولأنه كان مُفوهًا في المجادلات الفقهية والفلسفية والروحية المستعرة في العالم الإسلامي، فقد فهم تمامًا أنها عكست، إلى حد كبير، حاجات معينة في النفوس البشرية؛ لأن الناس جميعًا ليسوا متماثلين. مر المذهب السُّني بمرحلة سريعة من البحث الدراسي الذي مسَّ جميع ميادين المعرفة: من وضع القوانين على أساس الشريعة، إلى جمع الحديث النبوي، إلى تنقية المجادلات الفقهية التي كانت لا تزال موجودة. لكن عملية الدمج والتطور هذه، على الرغم من كونها عملية عبقرية، هددت بتجاهل المجال الحيوي في الحياة الداخلية، وعلاقة الفرد الروحية بالله. وبعبارة أخرى، من دون البعد الروحاني، الذي شكلته ممارسات الصوفية، بقيت الديانة مجرد نصوص جامدة[٢٥]. ومع الغزالي تم التبشير بعصر الأشاعرة، والاعتراف

أيضًا بالإسهامات الأكيدة التي قدمتها المذاهب الأخرى في مجال الفكر. وبهذه الطريقة شُيِّد مذهب سُني جديد متكامل وشامل[٢٦]؛ فقد كانت هناك حاجة لقبول التفسيرات الشرعية المتنوعة والآراء المختلفة فيما بين المذاهب الشرعية باعتبارها تفسيرات وآراء صحيحة من جانب المسلمين جميعًا. ولم يكن ممكنًا السماح للمجادلات الساخنة والاتهامات المُغرضة بحجب هذه النقطة الأساسية. ولم يعد مسموحًا للحنابلة بأن يكونوا رواد الدعوة الخلقية في العالم الإسلامي. وفي نهاية الأمر تجسد المذهب الصحيح المعتدل الذي اعتنقه نظام الملك، وأوضحه الغزالي وقبله المسلمون جميعًا على نحو أو آخر، في ثلاثية من: المذهب الشافعي باعتباره مذهب التشريع، والأشعرية بوصفها الفقه المذهبي، والصوفية بوصفها التراث الروحي. وكان أولها قابلًا للتفاعل المتبادل مع المذاهب الشرعية الأخرى، ولكن المذهبين الآخرين صارا الدعامات التي بُني عليها المذهب السُّني. وعلى أية حال، بدلًا من قيام نظام الملك باضطهاد الذين عارضوه فكريًا أو حتى تجاهلوه، رحب بهم وأسبغ عليهم صداقته، وهي صداقة غالبًا ما كان يصحبها الدعم المالي. وهكذا تسامح مع أبي يوسف القزويني، مثلًا، وكان عقلانيًّا اعتاد أن يُعرِّف نفسه بصفاقة لحاجب نظام الملك بأنه «أبو يوسف المعتزلي»[٢٧]. ومن المثير أن النزعة العالمية لهذا المذهب السُّني امتدت حتى طالت الشيعة ـ ويجب التأكيد على أنها الشيعة الإمامية أو الاثنا عشرية، وليس الشيعة الإسماعيلية. ولهذا دعا ابن هبيرة، على سبيل المثال، وكان معاصرًا لصلاح الدين وتُوفِّي سنة ١١٦٥م، وكان وزيرًا لاثنين من الخلفاء العباسيين، إلى سياسة عالمية موجهة إلى المذهب الشيعي.

بُذرت في بغداد، وهي مدينة حُرمت من السُّلطة السياسية، بذور الإحياء السُّني. ومن الشرق إلى الغرب، شد الفقهاء والفلاسفة والصوفية والقضاة الرِّحال إلى تلك المدينة. وبالتدريج بدأ مذهب سُني صحيح جديد يبزغ في الأفق. وإذْ كان في البداية مذهبًا حرفيًّا وصداميًّا، فقد تحول بفضل الحكمة السياسية والفطنة لرجال مثل نظام الملك والغزالي وابن هبيرة، إلى مذهب واسع وشامل بما يكفي لأن يجمع داخل سياقه الصحيح آراء الأغلبية الغالبة من المسلمين. وحينذاك بدأت هذه الفكرة تنتشر في بلاد الشام، وحدث ذلك في الوقت نفسه الذي شهد وصول الصليبيين.

الفصل الثاني

تحوُّل اتجاه التيار

تنازعَ السلاطينُ واستولى الفرنجُ على البلاد.

ابن الأثير

كانت دمشق عاصمة الأُمويين، ولكن ثورة العباسيين سنة ٧٥٠م، أفقدتها مكانتها على نحو درامي، وفقدت أهميتها وهالتها. على الرغم من أنها بقيت مركز العالم الإسلامي فقد عانت من الركود السياسي، وحُرِمتْ من القوة البشرية العسكرية، ومن فرصة الغنائم التي تتوفر عادة في أقاليم الحدود. وبتعبير «تشامبرلين»: «ضمنت المركزية الجغرافية لدمشق هامشيتها السياسية»(١).

ومع وصول الصليبيين تغير الموقف بشكل واضح، وقُدِّر لبلاد الشام، ودمشق، أن تخطو مرة أخرى إلى مركز الضوء، مثلما كانت حالها في سنوات الفتوح الإسلامية. وكانت بلاد الشام في هذه الفترة إقليمًا يحده البحر المتوسط في الغرب والإمبراطورية البيزنطية في الشمال. وكان نهر الفرات حدها الطبيعي في الشمال الشرقي، وصحراء شبه الجزيرة العربية في الجنوب الشرقي، ومصر في الجنوب الغربي. وداخل هذه الحدود، بوسع المرء أن يسافر من الشواطئ الرملية إلى مناطق الأرز الثلجية، ومن السهول الخصبة إلى الصحراء القاحلة. وهناك سلسلتان متوازيتان من الجبال تمتدان من الشمال إلى الجنوب لتقطعا البلاد، وتفصلا الأرض الأوفر ماء ـ ومن ثَمَّ الأكثر خصوبة ـ في الغرب عن الأرض المجدبة الواقعة في الشرق. ومع السلسلتين الجبليتين نهران: نهر الأردن، ونهر العاصي. وداخل هذا الإقليم تقع دمشق في موقع جغرافي مثالي؛ لم تكن

فقط أحد المراكز الرئيسة لتجميع قوافل الحج، بل شكَّلت أيضًا معبرًا حيويًّا للسيطرة على الطرق العسكرية والتجارية بين شمال الشام والعراق من ناحية، وفلسطين ومصر من ناحية أخرى.

وكان التنوع الجغرافي في البلاد يقابله تمزق سياسي؛ إذ كانت المدن والولايات خاضعة لحكم أمراء وحكام من أمثال شيوخ العرب شبه المستقلين، وزعماء التركمان، ومؤيدي الخلافة الفاطمية. وكانت غالبية سكان بلاد الشام من العرب، لكن الهيمنة العسكرية كانت للأتراك أو الأكراد. وعلى الرغم من أنه يمكن الزعم من دون تحيز بأن معظم المسلمين في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانوا من المسلمين السُّنة الموالين للخليفة العباسي، فإن التمييز بين السُّنة والشيعة يحتاج إلى تقييم. كان هناك، كما أشار «إروين»، كثير من السُّنة ذوي الميول الشيعية، وكان هناك كثير من الشيعة يسرهم أن يخدموا الخليفة السُّني والسلطان السلجوقي السُّني. وبعبارة أخرى، عاش السُّنة والشيعة جنبًا إلى جنب في المدن الإسلامية الكبرى[٢]. كما شكَّل الشيعة، على ما يبدو، الأغلبية في مدن مثل طرابلس وحلب. كما وجِدت جماعات مسيحية مستقرة بالقدر نفسه: الموارنة والأرمن واليعاقبة والنساطرة والملكانية. وبينهم أيضًا وجِدت فروق: تطلع الملكانية، على سبيل المثال، إلى الإمبراطور البيزنطي طلبًا للرعاية والزعامة، بينما بدا اليعاقبة والموارنة والنساطرة راضين بممارسة شعائر دينهم تحت الحكم الإسلامي. وعلى أية حال، إذا كان الموقف الديني في بلاد الشام يبدو مركبًا عشية وصول الصليبيين، فقد كان واضحًا أن الوضع نفسه ينطبق على الموقف السياسي؛ لأن بلاد الشام في أثناء هذه الفترة كانت منطقة حرب. ومن الناحية السياسية كان الصراع يسير وفق نموذج مستقر يألفه الجميع: يستولي أحد الأمراء على إحدى المدن ويؤكد سلطانه عليها وعلى مساحة صغيرة من الأرض حولها، وفي الحال يشرع في غارات مُحيرة مع استمرار الصراع والتحالف مع أولئك الموجودين في جوار المدينة. وفطن الجاحظ إلى روح العصر عندما كتب أن الأمراء كانوا يتحاربون ليس في سبيل الدين، ولا من أجل تفسير القرآن، ولا من أجل السيادة أو طمعًا في الضرائب، ولا من أجل الوطن أو بدافع من الغيرة، ولا من أجل الدفاع عن الوطن أو بحثًا عن الثروة، وإنما من أجل الغنائم والأسلاب فحسب[٣]. وعلى أية حال، بالنسبة إلى أهل الشام كانت الصراعات المزمنة، والمؤامرات، والخيانات، والتحالفات، والغدر المحسوب، من ملامح البيئة التي لا مهرب منها، أكثر من كونها علامة على انهيار

نظام سياسي أو اجتماعي شرعي[٤]. وعلى أية حال، كان للتشرذم مزية؛ وحيث إنه كان لكل مدينة تقريبًا حاكمها الخاص، لم يكن أهل الشام يحتاجون إلا إلى السفر أميالًا قليلة ليغيروا ولاءهم السياسي.

كان الافتقار إلى الشرعية سبب الصراع؛ في بلاد الشام كان مؤسسو «الأسر الحاكمة» قادة عسكريين بحاجة إلى تدعيم أنفسهم من أجل البقاء وإلى حرمان مؤيديهم من كل قدر من الاستقلال الذاتي، وكانوا بحاجة إلى القيام بذلك في غياب أي وضعية شرعية يمكن أن تضفي صيغة رسمية على وضعهم إزاء الأُمراء الآخرين. وإذا كان هناك موضوع واحد بارز في أثناء هذه الفترة، فهو عدم الشرعية والبحث عنها. ونادرًا ما كان يوجد أمير يحظى بالموافقة الكلية على حكمه. وعلى الرغم من أنه لا يمكن إنكار أن الروابط بين الأمير ومؤيديه العسكريين كانت قوية، فإن هذه الروابط لم تكن تعاقدية بقدر ما كانت اختيارية[٥]. وكانت المصطلحات المستخدمة ـ مثل الصُّحبة ـ تشير إلى هذا؛ كانوا رجالًا مستقلين تمامًا، يُعطون كلمتهم كرهًا ولا يعطونها أبدًا من دون حساب. وإذا ما تبعوا أميرًا كان ذلك لأنهم اعتقدوا أن نجمه في صعود، وأنهم سوف يستفيدون من وجودهم في معيته. وفوق هذا وذاك كان الطموح الشخصي والعائلي والرغبة في تأسيس سلالة حاكمة هو المهم. وفي هذا كله كان الخليفة يعتبر مستودع الشرعية الإسلامية النهائية، وكان كل حاكم محلي مستقل يطلب منه أن يحصل على مرسوم يثبت شرعية وضعه. والواقع أن الخليفة غالبًا ما كان يعترف، من خلال خلعة التشريف، بأي أمير يخرج منتصرًا من الصراع الدموي في منطقته. ولما كان الخليفة مجردًا من كل سلطة وعاجزًا عن التدخل في الصراع، فقد كان ببساطة يعترف بما يسفر عنه هذا الصراع. ولا يجب التقليل من قيمة ورقة التوت هذه التي كانت تستر السُّلطة المعنوية، لأنها كانت ذات قيمة كبيرة بالنسبة إلى الأمراء المتنافسين، الذين يضعون اسمه على عملاتهم، وكانوا يسعون، من خلال الرسائل المطولة التي تحمل الطلبات أو من خلال الرسل المفوهين، إلى التعيين الرسمي من جانبه في محاولة لتغطية حقيقة عدم شرعية حكمهم.

وصول الحملات الصليبية إلى بلاد الشام

ضربت الحملة الصليبية الأولى بلاد الشام كما لو كانت صاعقة من السماء[٦]. ولو وصل الصليبيون[٧] قبل ذلك بعدة سنوات فقط لكان عليهم أن يواجهوا نظام الملك

والسلطان السلجوقي ملك شاه، لكنَّ الرجلين تُوفِّيا سنة ١٠٩٢م، وما كان مألوفًا في أثناء حكمهما الذي دام خمسين عامًا أصبح أمرًا مشكوكًا فيه. كانت أوقات عصيبة على المسلمين، وملائمة للصليبيين(٨). في يونيو ١٠٩٧م، دخل الصليبيون «نيقية» عاصمة السلاجقة، وأنزلوا ضربة قاصمة بقلج أرسلان في معركة «ضوروليوم». وسقطت الرها في أيديهم في مارس ١٠٩٨م، وأنطاكِية في يونيو من السنة نفسها. وفي سنة ١٠٩٩م، ومع الاستيلاء على بيت المقدس، تحقق هدف الصليبيين، وصار «جودفري البويوني» أول حكامها. وعندما انتشرت أخبار المذابح الوحشية التي ارتكبها هذا العدو الغريب غير المتوقع(٩) ضد السكان في معركة النعمان والقدس (١٠٩٨-١٠٩٩م)، تدفقت موجات من اللاجئين والمطرودين من ديارهم إلى داخل المدينتين الرئيستين في بلاد الشام: حلب ودمشق. ولا شك في أن التركيب السكاني لبلاد الشام ساعد على تقدم الصليبيين؛ كان في شمال الشام عدد كبير من السكان الأرمن والسوريان، وفي لبنان عدد كبير من الموارنة. وانضم كثير من أبناء هذه الجماعات إلى صفوف الجيش الصليبي الغازي وقدموا للصليبيين المعلومات وعملوا مرشدين لهم(١٠).

ومع الانتهاء من تأسيس الدويلات الصليبية الأربع(١١) تحوَّل انتباه الفرنج نحو الاستيلاء على المدن الساحلية التي بحوزة المسلمين، التي ستساعدهم على تأمين إمداداتهم وخطوط مواصلاتهم مع أوروبا. وساعدتهم المدن الإيطالية، تدفعها الفرص التجارية المتاحة، على تأمين هذه المهمة. ساعدت جنوا في الاستيلاء على قيصرية سنة ١١٠١م، وطرطوس سنة ١١٠٢م، وعكا وجبيل سنة ١١١٠م، وصور سنة ١١٢٤م. وبقيت عسقلان وحدها بأيدي المسلمين، ولم تسقط سوى في سنة ١١٥٣م. وفي هذا كله كانت مقاومة المسلمين ضعيفة، أو بالأدق لم تكن هناك مقاومة على الإطلاق. وتوقع الناس أن يقود الخليفة عملية الدفاع عن الأراضي الإسلامية ضد الفرنج، لكن الخليفة لم يكن أكثر من دُمية بأيدي السلاجقة، ولم يحدث قطُّ أن جاء السلطان السلجوقي بنفسه لقيادة جيوشه في الشام ضد الفرنج. وما هو جدير بالملاحظة أن المقاومة الأولية ضد الفرنج لم تأتِ من جانب العسكريين، بل من جانب العلماء(١٢). في وقت مبكر منذ سنة ١٠٩٩م قام الهروي، قاضي القضاة في دمشق، بإلقاء خطبة في المسجد الكبير في بغداد طلب فيها المساعدة ـ قائلًا للعراقيين إن إخوانهم في الشام بلا سكن سوى سروج جمالهم أو أحشاء النسور التي تلتهم جثثهم ـ ولكنَّ كلماته لم تلقَ آذانًا مُصغية. وبعد ذلك بسنوات

قليلة، في ١١١١م، سافر عدد من علماء الدين من حلب إلى بغداد. وعرفوا أن كلماتهم لن تحرك الجيوش، ولذلك قاطعوا صلاة الجمعة، ومنعوا الخطيب من إلقاء الخطبة. كان سلوكًا صادمًا، وقصدوا أن يكون كذلك؛ في محاولة منهم لهزِّ السلطات وإلحاق العار بها لتتصرف. وقد صُدم الخليفة وانتابه الغضب، ليس لأن التصرفات اليائسة من جانب الحلبيين أثارته، بل لأن الفوضى تصادمت مع وصول عروسه الجميلة الجديدة إلى بغداد قادمة من أصفهان، وسعى إلى معاقبة المحرضين على هذه الفوضى(١٣).

وعلى الرغم من لامبالاة المسلمين وعجزهم وخوفهم، مما أتاح للصليبيين اكتساح أراضيهم، فقد برزت حقيقة واضحة، وهي أن الأرض التي احتلها الصليبيون محصورة في شريط طويل ضيق من الأرض التي يحدها البحر المتوسط، وقد فشلت غزواتهم في اتجاه الشرق داخل الأراضي الإسلامية. وكانت مناطق ما وراء البحر ـ أي مجموع الممالك والإمارات التي أسسها الصليبيون ـ هشة بشكل خطير. حتى والصليبيون في ذروة قوتهم، كان أقصى طول وصلت إليه دولتهم ١٣٥ كيلو مترًا، وأقصى عرض ٦٥ كيلو مترًا، وفي بعض الأماكن كانت أضيق من هذا. بين بيروت وطرابلس لم يحتل الفرنج سوى ٣٠ كيلو مترًا(١٤). ولم يستطع الفرنج الاستيلاء على دمشق، أو حلب في الشمال، وكذلك بقيت المدن الحدودية، حمص وحماة، بأيدي المسلمين. وكان النجاح الكبير الوحيد الذي أحرزه الصليبيون في الداخل يتمثل في احتلال مدينة الرها، وكانت الرها أول دويلة صليبية يتم القضاء عليها(١٥). وفي الوقت نفسه، تبيَّن سريعًا أن الأراضي التي استولى عليها الفرنج أكبر من قدرتهم على احتلالها برجالهم فقط. لم يكن ممكنًا أن تبقى الأرض بلا زراعة، ولم يكن ممكنًا أن تتوقف التجارة. والحقيقة أن موضوع الأرض، لا موضوع الحرب المقدسة، هو الذي أملى السياسة الخارجية للفرنج طوال القرن الثاني عشر. كانت الأرض وملكيتها هي السبب في الحروب العدوانية التي شنها الحكام اللاتينيون الأوائل(١٦). ولم يكن ممكنًا السيطرة على الأرض سوى بسقوط المدن المحاطة بالأسوار والقلاع التي بداخلها.

ولا يمكن ذكر الرها من دون ذكر عماد الدين زنكي. شيَّد زنكي، وكان أتابك الموصل(١٧) بدءًا من سنة ١١٢٧م، وحاكم حلب بدءًا من سنة ١١٢٨م، إمبراطورية قوية في شمال بلاد الشام والعراق، لكنَّ طموحاته لم تقف عند هذا الحد. سقطت حماة بين يديه في سنة ١١٣٥م، وتبعتها حمص وبعلبك، وكانت مدينة دمشق، الجائزة الكبرى

التي سعى إليها أكثر من غيرها، عصية عليه. وقد حاول في سنة ١١٣٥م وسنة ١١٣٧م وسنة ١١٣٩م الاستيلاء على دمشق. وفي كل مرة، بسبب إحباطه، يضطر البوريون حكام دمشق إلى توقيع معاهدة مع مملكة بيت المقدس اللاتينية التي كان يسعدها أن تقدم المساعدة لهم، خوفًا من اتحاد الموصل وحلب ودمشق. ولم تفتح دمشق أبوابها بالقوة، ولكن بالإقناع، ليس له، ولكن لابنه. وإذ كان زنكي قد تربى في المدرسة الصارمة للطبقة الأرستقراطية العسكرية[١٨]، فقد كان قائدًا قاسيًا حكم أراضيه بقبضة من حديد[١٩]. لم يبث في رجاله الحب والاحترام، بل الخوف، لأنهم عرفوا فيه طابع القسوة وبقوا على حذر منه. وقد وصفه معاصر صلاح الدين وكاتب سيرته عماد الدين الأصفهاني بأنه مثل الفهد في شخصيته، والأسد في غضبته. ويكتب ابن العديم؛ المؤرخ الذي عاش في القرن الثاني عشر، أنه عندما كان عماد الدين زنكي يعتلي صهوة فرسه كان من عادة القوات أن تسير خلفه، وكان الذين يتجاوزونه يعاقبون بالصلب. ومع هذا، كما تكتب «هيلندبراند»: «كانت كل أخطائه تقابل بالغفران في جميع كتب التاريخ الإسلامي»[٢٠].

وكان السبب في هذا، الرها. في سنة ١١٤٤م، عشية عيد الميلاد، كسب زنكي أشهر انتصاراته عندما سقطت المدينة التي كانت إحدى الإمارات الصليبية الأربع بين يدَي جيشه. وكانت هذه الأنباء بمنزلة موجات صادمة في جميع أنحاء أوروبا، وحفزت لإرسال الحملة الصليبية الثانية؛ لأن الجانبين فهما القيمة الرمزية لما حدث. كان سقوط الرها يعني أن الفرنج أصبحوا محصورين في منطقة شرق البحر المتوسط، والأهم من ذلك أنه كان علامة على نهاية الفترة الدفاعية في المقاومة الإسلامية؛ تحوُّل اتجاه التيار.

توطيد مركز والد صلاح الدين وعمه

كانت الموصل تحت سيطرة عماد الدين زنكي حقًّا، وكاد أن يفقدها في وقت من الأوقات، وكان بحاجة إلى أمر يجنبه هذه الكارثة. ويفضل هذا الأمر سمعنا عن والد صلاح الدين. وكل ما نعرفه عن أجداد صلاح الدين، يرجع إلى حد كبير، إلى ابن خلكان؛ مؤلف التراجم والوفيات، الذي وُلِد بعد ١٨ عامًا من وفاة صلاح الدين، وقدَّم دراسة خاصة لتاريخ عائلته[٢١]. لاحظ ابن خلكان أن أصول عائلة صلاح الدين ترجع إلى «دوين» الواقعة على الضفة اليسرى لنهر «جارني» الذي يفيض في بلاد «آران» من أذربيجان (قرب مدينة تفليس الحديثة). ويكتب أنه بالقرب من بوابة دوين، كانت هناك قرية تسمى

«أذنقان»، جميع سكانها من الأكراد، وهناك وُلِد أيوب والد صلاح الدين وابن شادي. وتنتمي العائلة إلى قبيلة كردية من الرواذية. ويستنتج ابن خلكان من هذا أنه بعد دراسة شجرة نسبهم بعناية لم يجد لهم ذكرًا قبل شادي[٢٢]. ومن المثير أن الصليبيين لاحظوا، بدقة، الأصول التي انحدر منها صلاح الدين «ليس من والدين نبيلين، ولكنه لم يكن من أصل عامي وضيع مجهول»[٢٣]. وكانت عائلة صلاح الدين، مثل معظم الأكراد، من المسلمين السُّنة، يدينون بالمذهب الشافعي. ومن المهم ألا نركن إلى الأسطورة بشأن خلفية صلاح الدين وما شاع من قصص رومانسية حول سنواته الأولى. وعلى سبيل المثال، هناك فكرة شائعة عن أن الأكراد كانوا يعيشون حياة رعوية برية، وكانوا شعبًا محاربًا جسورًا، لا يعرف التحضر. ربما كانوا محاربين يتسمون بالجسارة، لكنهم كانوا أيضًا سياسيين يتحلون بالدهاء. وفي عصر اتسم بالعنف، كان لا بد من قدر معين من الفهم الدنيوي لقواعد السياسة الواقعية لضمان البقاء. وكما يوضح «مينورسكي» بجلاء: «بكلمة واحدة، لم يأتِ والد صلاح الدين وعمه إلى العراق وبلاد الشام رعاة شبه برابرة... لقد جلبوا معهم كيان نظام كامل من الشؤون السياسية والسلوك السياسي»[٢٤].

ومع هذا كانوا أكرادًا ـ غرباء إلى حد كبير ـ في عالم يسوده أتراك ينظرون إليهم بازدراء. ويعاني صلاح الدين نفسه من هذه التفرقة، التي كانت من عدة وجوه تشبه التفرقة إزاء الكورسيكيين، الذين يحاولون توطيد أنفسهم في فرنسا. كان صلاح الدين كرديًّا قطعًا، حتى وإن زعم البعض أنه من أصل عربي. وجادلوا بأن كثيرًا من القبائل العربية غالبًا ما كانت تستقر في المناطق الكردية ويتزاوج أفرادها فيما بينهم. وتتبع أصحاب هذا الرأي أصل صلاح الدين حتى الخليفة الأُموي مروان، وكانت أمه كردية، وأشاروا إلى نسبه بأنه «يوسف بن نجم الدين بن أيوب بن شادي بن مروان». وهذه محاولة مصطنعة وربما كانت محاولة عربية «للزعم» بأن صلاح الدين منهم وهو في أوج قوته.

اصطحب شادي، جد صلاح الدين، ولديه: نجم الدين أيوب (الذي وصفه «إيليسيف» بأنه «الرجل الممتلئ حكمة والعارف تمامًا بالطبيعة البشرية»[٢٥])، وأسد الدين شيركوه. وسافر إلى بغداد، حيث كانت له بعض الاتصالات، وعُيِّن مسؤولًا عن قلعة تكريت الواقعة على نهر دجلة شمال بغداد في منتصف الطريق إلى الموصل. وليس هناك تاريخ محدد لاستقرار شادي في تكريت، ولكن ربما حدث ذلك في عشرينيات القرن الثاني عشر. وكانت تكريت قد أُعطيت إلى مجاهد الدين بهروز، وكان حاكم بغداد وقائد الشرطة

بها، ففوض شادي في حكم المدينة لصالحه. ويبدو أن بهروز وشادي كانا صديقين في دوين، وهناك اكتُشف بهروز في وضع مُخل مع زوجة أحد الموظفين الكبار، فتم إخصاؤه، ثم التحق بخدمة السلاجقة حيث وظفه السلطان لرعاية أولاده؛ وهو موقع لم يكن يتولاه سوى الخصيان. ومنذ تلك اللحظة ازدهرت حياته العملية حتى صار الوالي والشحنة (رئيس الشرطة) في بغداد، وهو منصب تولاه لمدة ثلاثين سنة حتى وفاته سنة ١١٤٥م[٢٦].

تُوفِّي شادي في تكريت، ولسنا متأكدين من التاريخ بالضبط، وغُطيت مقبرته التي تقع داخل المدينة بقبة صغيرة. وتولى أيوب مكان أبيه. وكان يمكن أن تبقى الأمور في نصابها ـ المنصب مشرِّف لكنه لا يشبع طموح أيوب ـ لو لم تحدث مصادفة كان من شأنها تغيير كل شيء في النهاية حتى مصير عائلته. وقعت حادثة سنة ١١٣١م، وشملت عماد الدين زنكي، وكان في ذلك الوقت أتابك الموصل: في أحد الصراعات العنيفة التي سادت في ذلك العصر، زحف زنكي بجيشه إلى بغداد وهُزم وتبعثرت قواته، وتقهقر سريعًا بجيشه المهلهل، حتى وصل إلى تكريت، حيث أسرع بطلب الملجأ والنجدة من أيوب ليصل إلى الموصل سالمًا. ولم يكن هناك ما يدعو أيوب لمساعدة زنكي، فقد كان ذلك ضد مصالحه؛ لأنه كان يحكم تكريت باسم السُّلطة في بغداد، التي هاجمها زنكي. لكنه شعر بشيء ـ ربما عرف أن نجم زنكي في صعود ـ وتصرف ضد التعليمات التي لديه وسمح لزنكي باللجوء إلى القلعة، حيث بقي ١٥ يومًا. ثم ساعد أيوب زنكي على عبور نهر دجلة وقدَّم له المؤن التي تساعده في الوصول إلى الموصل. مضى زنكي في طريقه، ولم يتخذ بهروز أي إجراء على الرغم من غضبه لما فعله أيوب.

مرت ست سنوات، ثم وقعت حادثة أخرى سنة ١١٣٧م، وفي هذه المرة كانت تخص شيركوه، لا أيوب. كان شيركوه، بخلاف أخيه الصموت، شديدَ الحماس، وقائدًا عسكريًّا قويًّا، وسريع الغضب. اشتبك مرة، إثر جدال، مع أحد الكتبة العاملين في خدمة بهروز، فضربه وقتله. وعندما وصلت أخبار الحادثة إلى بغداد، أمر بهروز بأن يترك أيوب وشيركوه تكريت على الفور. كان عملًا طائشًا من شيركوه، عملًا يؤدي إلى إلقاء أخيه في غياهب التاريخ، لكنَّ القدر شاء خلاف ذلك. جمع أيوب حريمه وممتلكاته، واصطحب أخاه المُتسرع، وغادر تكريت تحت ستر الليل، من دون أن يعرف إلى أين يذهب. وفي تلك الليلة، كما تذكَّر أيوب نفسه بعد سنوات عديدة، وصله الخبر بأن زوجته وضعت ولدًا، سمَّاه يوسف؛ الذي اشتهر أكثر بلقبه «صلاح الدين».

لم ينسَ زنكي الجميلَ فاستدعى أيوب وشيركوه إلى الموصل، حيث دخلا في خدمته. وعرف زنكي أن شيركوه حاد الطبع، ولديه مهارات قوية في الأمور العسكرية، بينما كان أيوب أكثر دبلوماسية. ومن ثَمَّ عُيِّن أيوب سنة ١١٣٩م مسؤولًا عن حامية بعلبك، وكان ذلك قبل حادثة بربرية أثَّرت كثيرًا على والد صلاح الدين. صمدت بعلبك طيلة شهرين في وجه جيش زنكي. ومع كل يوم يمرُّ كان زنكي يزداد إحباطًا. وتواصلت المفاوضات بين القلعة والجيش الذي يفرض الحصار، حتى تم الاتفاق على منح الأمان. ومع هذا، كان المدافعون عن بعلبك قلقين، وطلبوا من زنكي أن يحلف لهم بالقرآن على أن يلتزم بما يخصه من الاتفاق. وعلى الرغم من أنه فعل ما طلبوه، إلا أن شكوكهم كانت في محلها؛ فما إن فتحت البوابات حتى أمر زنكي بإعدام الرجال جميعًا، وبيع النساء والأطفال في أسواق النخاسة. وكان ترك الأسلحة في القلعة معناه أنه لم يلتزم بشروط التسليم، ولكن الدم الذي أُريق في هذه الواقعة كان مبالغًا فيه وجاء بنتائج عكسية؛ إذ ضاعف أهل دمشق من جهودهم لمنع زنكي من الاستيلاء على مدينتهم. وبالنسبة إلى أيوب كانت المذبحة في بعلبك مروعة ـ لأن زنكي نكث بوعده ـ ولا ضرورة لها، لأنها لم تحقق أي غرض. وحاول عبثًا منع المزيد من إراقة الدماء، مع أن زنكي لبَّى طلبه بإنقاذ رجل مُسن وابنه من القتل. وعندئذ سيطر أيوب على القلعة، وفي هذه المدينة أمضى صلاح الدين السنوات القليلة المبكرة من عمره.

ومن الصعب أن نتخيل ما دار بخلد الشاب صلاح الدين بشأن المعابد الكبرى، لـ«جوبيتر» و«باكوس»، التي كانت تعلو فوق المدينة. وبالمثل يتساءل المرء إن كان قد توقف محدِّقًا في الأهرام عندما جاء إلى مصر. ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يختار مكانًا أفضل ليكبر ويترعرع فيه؛ كان مناخ بعلبك التي ترتفع إلى ما يزيد على ألف متر فوق مستوى البحر، معتدلًا في الصيف باردًا في الشتاء. وكان وادي البقاع الذي يحيط بالمدينة غنيًّا بالمنتجات الزراعية، تنمو فيه أشجار التين والمشمش بوفرة. وفي بعلبك بنى أيوب خانقاه للصوفية، مما عكس ميوله تجاه التصوف، وهي الخانقاه النجمية (نسبة إلى نجم الدين، اللقب الذي يسبق اسم أيوب). ويبدو أن أيوب كان رجلًا عميق التدين، لأنه في حياته طلب بشكل خاص أن يُدفن بعد وفاته بالقرب من النبي ﷺ، وهي رغبة لبَّاها له في النهاية صلاح الدين، الذي عمل على أن يُدفن أبوه وعمه في المدينة المنورة.

ويكتب عماد الدين الأصفهاني أن عددًا من خصيان زنكي اعتادوا النوم حول سريره

حيث ينام، واعتادوا أن يتولوا رعايته في مقامه ومنامه. وكانوا يحرسونه مثل الأسود في الحرب، ويزورونه حتى في أحلامه، فقد كان الخصيان من أبناء النبلاء؛ لأنه كان من عادة زنكي أن يقتل مَنْ يغضب عليهم، ويحتفظ بأولادهم بعد أن يخصيهم. وكان «يرنقش»، الذي يوصف بكبير الخصيان، هو الذي طعن زنكي وقتله سنة ١١٤٦م في خيمته. وانتشرت أخبار اغتيال زنكي بسرعة حتى بلغت ولده نور الدين محمود الأصغر سنًّا، الذي اندفع في الحال إلى الخيمة حيث كان جسده مُسجى. وربما أخبروه أن والده قتل في غيبوبة خمر، أو ربما حجبوا عنه هذه التفاصيل. وعندما خطا داخل الخيمة حملق في جثة أبيه الباردة، ثم انحنى فوقه وسحب خاتم التوقيع من إصبع والده، ووضعه في إصبعه. وهي حركة رمزية من شاب لن تلبث إنجازاته أن تحجب إنجازات أبيه، وسوف يوطد نفسه باعتباره المؤسس الحقيقي لحركة الجهاد وبطل المذهب السُّني في بلاد الشام.

صعود نور الدين وانتشار المدارس

بلغت أنباء وفاة زنكي الفرنج أيضًا، وانتهز «جوسلين» أمير الرها المخلوع الفرصة بسرعة ليستعيد مدينته. وفي الحال انطلق نور الدين ليفرض الحصار عليها. وعندما رأى الفرنج قوة جيشه تخلَّوْا عن المدينة وسكانها، وكانت غالبيتهم من المسيحيين، وتركوها تحت رحمة نور الدين. وفي ذلك اليوم لم يظهر أحد واستُبيحت المدينة للسلب والنهب وذُبح سكانها. ومنذ تلك اللحظة لم يعد بوسع إمارة أنطاكية أو كونتية الرها أن تشتبك مع القوات الإسلامية في شمال الشام. وكان لهذا، على المدى الطويل، أثر مخرب على المملكة الصليبية في بيت المقدس. وصُدمت أوروبا بالأخبار التي وردت عن سقوط الرها، وعلى الرغم من إرسال حملة صليبية ثانية لاستعادة الرها، سرعان ما أدرك الصليبيون أن الرها التي يرغبون في استعادتها لم تعد هناك. ومع وجود حلب والرها في قبضة نور الدين، القوية في ذلك الحين، والموصل تحت سيطرة أخيه، حول نور الدين نظره، مثلما فعل أبوه، صوب دمشق؛ أهم مدينة في بلاد الشام. وفي الوقت نفسه، انتهز حكام دمشق فرصة وفاة زنكي للتحرك ضد بعلبك وفرض الحصار عليها. وهكذا صار أيوب، الذي حاصر المدينة قبل ذلك ببضع سنين، محاصرًا في داخلها. وفي البداية صمد وأرسل طلبات عاجلة إلى ولدي زنكي يطلب النجدة، ولكن نور الدين كان مشغولًا بهدم الرها، وسيف الدين مشغولًا في الموصل، ولهذا لم تصله النجدة من أحد. وفي ذلك

الوقت لعبت المذبحة التي ارتكبها زنكي بحق بعلبك في رأس أيوب وعقله. ربما لم يكن أيوب يملك عبقرية زنكي العسكرية، لكن كان يتفوق عليه كثيرًا في الشؤون الدبلوماسية. وكان بوسعه أن يختار الدفاع عن القلعة حتى النهاية المريرة، ولكن هذا كان معناه خسارة أرواح كثيرة وسقوط القلعة في نهاية المطاف. ولم يكن هناك عيب في التفاوض على تسوية، ولهذا وافق أيوب سنة ١١٤٦م على تسليم بعلبك من دون إراقة دماء مقابل عشر قرى ومنزل في دمشق، انتقل إليه آنذاك. والحقيقة أن شهرة أيوب في الاستقامة والنزاهة بلغت حدًّا جعلهم يبقون عليه آمرًا لقلعة بعلبك. وفي السنوات القليلة التالية، كان يسافر بين المدينتين يصحبه الصغير صلاح الدين.

وعلى مدى السنين كانت الفكرة السائدة بين المؤرخين أن زنكي، ونور الدين، وصلاح الدين هم القوة الثلاثية التي استردت القدس. ومع هذا إذا أردنا النظر إلى الجهاد باعتباره التجلِّي السياسي في بلاد الشام للإحياء السُّني فإن صلاحية هذه المنظومة الثلاثية تحتاج إلى الفحص. ولكي نفهم السبب نحتاج إلى العودة باختصار إلى بغداد أيام نظام الملك: كانت سياسات نظام الملك، كما رأينا، مدفوعة برؤية مذهلة، مؤداها إعادة بناء دولة إسلامية مركزية قوية تتحلَّى بشخصية خُلقية. وعلى الرغم من أنه فشل في تطبيق رؤيته؛ لأن قوى الفرقة والتشرذم فاقت قدراته، فقد قام بعدة محاولات في التنظيم الاجتماعي ـ السياسي، ونجح بعضها بطرق غير متوقعة، حتى مع استغراقها قرنين من الزمان حتى تظهر[٢٧]. ومن هذه السياسات، كانت السياسة التي قُدِّر لها أن تكون ذات التأثير الأكبر على صلاح الدين، وتتمثل في بناء المدارس والإكثار منها، وهي المؤسسة التي تتطور تدريجيًّا بحيث تصير أهم مؤسسة في الحضارة الإسلامية[٢٨].

والتعريفات مهمة هنا، فعلى الرغم من أن كلمة «مدرسة» اليوم تعني ببساطة مكان التعليم قبل الجامعي، إلا أن معناها الأصلي كان مختلفًا؛ حيث كانت المدرسة مؤسسة تعليمية أُنشئت خصيصًا لتعليم الفقه الإسلامي وفقًا لأحد المذاهب الأربعة السُّنية، ولهذا لم يكن لأي مدرسة أن تُهمل تعليم الفقه، غير أنها من الممكن أن تُدرِّس موضوعات أخرى بالإضافة إليه. وكان واردًا، وقد حدث فعلًا، تعليم الفقه في المسجد، إلا أن ذلك لم يكن وظيفة المسجد الرئيسة. وصار الارتباط بين المدارس ونظام الملك أمرًا عامًّا، وكانت جميعها تسمى النظامية، وبدأ بناؤها في بغداد ثم في معظم المدن الكبرى، وأصبح السائد أنها ترجع في أصلها إليه. والحقيقة أن تاريخها يسبق نظام الملك[٢٩].

وقد جادل المؤرخون في أن المدارس في الأصل مجرد امتداد طبيعي للمسجد[٣٠]، ومع هذا كانت المدارس المبكرة شديدة الخصوصية في شخصيتها كما كان التدريس مستقلًّا وشخصيًّا على السواء.

ومع وصول نظام الملك تغيَّر كل شيء، وبتعبير «طبَّاع»، فإنه أخرج مؤسسة دينية مهمة من نطاق بداياتها المحلية، ليعيد بناءها في نطاق الإمبراطورية وفي العاصمة، ويكررها في المدن الكبرى للدولة[٣١]. وعلى الرغم من أن أفعال نظام الملك كانت ببساطة أفعال فرد يُطور مذهبه الخاص - لأنه كان شافعيًّا ولم تكن المدارس النظامية تُدرِّس سوى الفقه الشافعي - فإن حصر هذه الأعمال في نطاق المجال الشخصي أو الفردي ينقص من قدره بصورة خطيرة في إسباغ إطار خلقي على الدولة. ويشير مقياس عدد المدارس التي بُنيت ومواقعها إلى مخطط تفصيلي كان انعكاسًا لسياساته وأفكاره. وكما يشير طباع، ربما لم تكن المدارس مؤسسات بنتها الدولة، ولكن مدارس نظام الملك كانت قطعًا مؤسسات من أجل الدولة. في بغداد، وأيضًا في مرو وبلخ ونيسابور وطوس والري وأصفهان، ومدن أخرى كثيرة، كبيرة وصغيرة، وُجِدت المدارس. وكانت المواقع الإستراتيجية تُختار بعناية داخل الدولة بحيث تستخدم كل مدرسة بوصفها مركزًا إقليميًّا في منطقة تجمُّع واسعة تضم البلدات الأصغر والقرى. ولاحظ المؤرخ ابن الأثير أنه لم يكن هناك مكان يخلو منها، حتى جزيرة ابن عمر - مدينته وموطنه - التي يعترف بأنها كانت في ركن قصي، كان بها مدرسة. وتزاحمت المدارس الكبيرة والصغيرة أيضًا في جميع أركان المدن المكتظة بالسكان وحواريها. ومن أوائل المدارس التي بقيت مدرسة «كمشتكين» في بصرى ببلاد الشام، التي تحمل تاريخ سنة ١١٣٦م. ويُصاب المرء بالذهول من مدى صغرها؛ إذ إن أبعادها الخارجية لا تتجاوز عشرين في سبعة عشر مترًا، وهو ما كان يعني أنها كانت تستوعب بصعوبة حفنة من الطلاب. وفي تلك الحالة كانت المدارس النظامية تتميز عما كان مألوفًا؛ لأنه بالنسبة إلى معظم المدارس، كانت المدارس الصغيرة جميلة[٣٢].

ولكن لماذا كانت تُبنَى؟ لماذا كرَّس نظام الملك مثل هذا الوقت الطويل والمال الجم لبيني شبكة كاملة عبر العالم الإسلامي؟ السبب المقبول هو الرغبة في ضرب التهديد الشيعي، وخصوصًا الفاطميين في مصر الذين كانوا يُروجون لدعوتهم بنشاط من خلال مراكز التعليم لديهم، وأشهرها الجامع الأزهر. وهكذا وجِدت المدارس

كردٍّ فعل للمذهب الشيعي. ولكن طول بقاء المدارس وانتشارها لا يمكن أن يعزى ببساطة إلى رد الفعل ضد المذهب الشيعي؛ لأن مثل هذه الحجة تفترض وجود تجانس اجتماعي وديني في العالم الإسلامي، وهو ما لم يكن موجودًا. إن الوسط الاجتماعي في بغداد عند تأسيس المدرسة النظامية سنة ١٠٦٧م، لم يكن مثل الوسط الاجتماعي في الإسكندرية، أو دمشق، أو قونية، عندما ظهرت فيها أولى المدارس في النصف الأول من القرن الثاني عشر. عندما بنى نظام الملك مدرسته الأولى في بغداد سنة ١٠٦٧م كان الخطر الشيعي، على المستوى السياسي والفكري معًا، ماثلًا وحقيقيًّا؛ وفي الوقت الذي بنى فيه صلاح الدين مدرسته الأولى في مصر، بعد قرن من الزمان، كان التهديد قد زال وانقشع على نحو أو آخر. وهكذا نعود إلى نظام الملك لنكتشف أسبابًا أخرى تُفسر الانتشار السريع للمدارس. وفي رسالته عن الحكم ـ سياسة نامه ـ يوضح أنه سعى إلى خلق هيئة موالية من رجال الإدارة من السُّنة لتولِّي المناصب الإدارية. وفيما سبق كان عدد كبير ممن شغلوا مناصب الإدارة من المسيحيين أو الشيعة، وكان كثير منهم معجبين بنظام الإدارة قبل الإسلام وبالثقافة التي ورثوها، مما نتج عنه وجود بيروقراطية التزمت بالتقاليد الساسانية الفارسية أكثر مما التزمت بالقيم الإسلامية التي كان نظام الملك شغوفًا بتطويرها. وبتعبير «همفريس»: «كانت طبقة الكتبة غالبًا من الشيعة، ساسانية الهوى، وفقيرة بشكل واضح في المسائل الدينية»[٣٣].

أدى هذا إلى وجود رؤية في البلاط تختلف غالبًا في أساسها عن رؤية العلماء[٣٤]. وعلى سبيل المثال، أدان الجاحظ، الكاتب الشهير، غطرسة الكتبة وتعاطفهم مع التراث الإيراني، واتهمهم بأنهم يُظهرون اللامبالاة تجاه الإسلام. وكان نظام الملك على وعي تام بهذا، ولذلك عمل على أن تكون غالبية الموظفين الذين يتولون المناصب الإدارية والدينية على السواء من السُّنة ممن تعلموا في المدارس[٣٥].

وليس واضحًا إن كان هذا هو الهدف الأول للمدرسة، لكنه، بلا شك، صار نتاجها الأكثر قدرة على البقاء؛ ذلك أن الرجال الذين تلقوا تعليمهم في المدارس لم يصبحوا فقط أصحاب الوظائف الدينية، لكنهم تولوا في كثير من الحالات مناصب القضاء ومختلف وظائف الإدارة الحكومية[٣٦]، واندمجوا في الإطار الحكومي. وبرزت بالتدريج الحاجة المتزايدة إلى مدرسة يتم فيها التعليم والإعداد لتولِّي المناصب الحكومية. وباختصار صار التعليم في المدرسة «طابع» الموافقة أو «ختم» الموافقة الذي يعني الاعتراف

بالصلاحية وفق المذهب السُّني للعمل في السلك الإداري. وغيرت المدارس طبيعة العلماء؛ فبينما كانت غالبية علماء الدين في القرون الأولى بعد الإسلام ممن يعملون بعض الوقت ويعملون في مهن وحرف دنيوية، غيرت المدارس هذا الوضع بشكل كبير. وبعد أن كان الشيوخ مُدرِّسين بسطاء صار شيوخ المدارس من ذوي النفوذ خارج نطاق دراستهم؛ كانوا يُستشارون في جميع الأمور وليس فقط في أمور الشرع وحده، ولعبوا دورًا كبيرًا في ترسيخ النغمة الفكرية بدرجة أبعد كثيرًا عن مجرد رواية الحديث أو نقل الفقه(٣٧). وكانت المسائل السياسية فائقة الأهمية تُطرح عليهم، كما كانت آراؤهم وفتاواهم مطلوبة بلهفة(٣٨). وبما أن الموظفين الدينيين والإداريين كانوا يُؤخذون من المصدر نفسه، فلم يكن غريبًا أن نجد قاضيًا وإداريًّا من العائلة نفسها. وينبغي على المرء أن يضيف أن العلاقة بين الحكام والعلماء كانت علاقة دخلها العلماء بقدر من الالتباس والتوجس خوفًا من الفساد الدنيوي(٣٩). في مناسبة شهيرة، قام بعض العلماء عندما سمعوا ببناء مدرسة في بغداد بإقامة جنازة صورية للمعرفة؛ لأنهم اعتقدوا أن المعرفة الحقيقية لا يمكن أن تصمد أمام حب المال.

ولم يكن هناك ما يرمز في بلاد الشام إلى ظهور الإحياء السُّني أكثر من تأسيس المدارس، التي كانت تأكيدًا سريعًا ومرئيًّا لهذا المذهب الصحيح وأداة له. ويمكن للمرء أن يذهب بعيدًا إلى حد القول إنه كان لزامًا على كل من يرغب في تمجيد هذا المذهب السُّني المتجدد أن يبني مدرسة إظهارًا لالتزامه بعقائده وانعكاسًا شخصيًّا لتدينه. وهنا يكمن الفرق بين زنكي ونور الدين وصلاح الدين. وعلى الرغم من المحاولات بأثر رجعي من جانب المؤرخين المسلمين ـ ومن أبرزهم ابن الأثير المُوالي للزنكيين ـ لتصوير زنكي في صورة البطل المسلم وبطل الجهاد، فمن الواضح أنه لم يكن يزيد على كونه انتهازيًّا وزعيمًا عسكريًّا عديم الرحمة. فحتى نهايته بقي مخلصًا لمسقط رأسه، الموصل، كما أن تفكيره ـ وعلى وجه الخصوص شكوكه بشأن حلب ـ كان النمط السائد لدى أي حاكم إقطاعي في تلك الفترة. كانت الموصل مدينة زنكي، وعلى مدى ١٨ عامًا، فيما بين سنة ١١٢٦م وسنة ١١٤٤م، كان يحكمها هي وحلب، ومع ذلك لم يبْنِ أي مدرسة في أي من المدينتين. ونشاط البناء الوحيد الذي تم في الموصل في فترة حكمه كان تقوية أسوار الموصل، وافتتاح باب العمادية سنة ١١٣٣م وتوسيع إيوانه. وعلى الرغم من أن الموصل كانت بها

مدرسة واحدة ـ النظامية ـ بُنيت في نهاية القرن الحادي عشر، فلم يُقدَّر للمدينة أن تشهد مدرسة أخرى حتى منتصف القرن الثاني عشر. كان هناك كثير من المساجد الصغيرة والأضرحة، ولكنها كانت غير مهمة إلى حد كبير، ولم يرتبط بها أي من العلماء. والسؤال الذي يجب طرحه: إذا كان زنكي بطل الصحوة الإسلامية والموصل مركزها، فلماذا حُرِمت الموصل من المدارس على هذا النحو؟ رأينا للمرة الأولى، بعد وفاة زنكي، علامات على وصول الإحياء السُّني إلى الموصل[٤٠].

كان نور الدين محمود بن زنكي، الناسك الزاهد بطبيعته، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان «أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين». وكتب الرحالة ابن جبير أنه كان «واحدًا من الملوك الزاهدين»، ولاحظ أنه لم يلبس الحرير قطُّ، أو الذهب أو الفضة. والواقع أنه في فترة لاحقة من حياته غيَّر الملابس الفاخرة وارتدى ثيابًا خشنة مثل الصوفية. ولأنه كان عميق التقوى، فقد كان جامعًا نهمًا للكتب الدينية. وثمة ملاحظة عن سيرته ساقها ابن عساكر، وكان من معاصريه، ذكر فيها أنه كان على استعداد لدفع مبالغ طائلة لحيازة كتب الحديث[٤١]. ومن بين جميع الحكام، بمن فيهم صلاح الدين، كان نور الدين يوقف الأوقاف على أكبر عدد من المؤسسات الدينية في بلاد الشام. وظهرت تحت حكمه بدايات التحالف بين الطبقات الدينية البازغة من رحاب المدارس والقيادة العسكرية. وكانت الشؤون السياسية الدينية عنده مستلهمة إلى حد كبير من ابن هبيرة؛ الفقيه الحنبلي الحُجة الذي تولَّى الوزارة تحت حكم كل من الخليفة العباسي المقتفي والخليفة العباسي المستنجد. وكان كتاب ابن هبيرة الموسوم «كتاب الإفصاح»، الموجود لدى نور الدين وبالقرب منه، يعتمد على سياسة نظام الملك المتسامحة إزاء المذاهب السُّنية الأربعة في الشريعة، كما أنه غاية في التسامح إزاء الشيعة المعتدلين، وقد مضى بعيدًا إلى حد أنه جادل بأنه يجب على السُّنة والشيعة المعتدلين أن يُشكلوا جبهة موحدة ضد الفاطميين الإسماعيلية. كذلك كان نور الدين يؤمن بأن المدارس لا يجب أن تقتصر على مذهب واحد، وينبغي أن تُفتح أمام جميع المسلمين السُّنة. والحقيقة أن إيمانه كله كان مبنيًّا على أساس أنه يجب أن تكون هناك دولة سُنية موحدة وعالمية. ولكن إذا كانت معتقداته الإسلامية سُنية من الناحية العامة، فقد كان موقفه تجاه الفرنج صلبًا عنيدًا، وتجلَّى في أوضح مظاهره سنة ١١٤٩م عندما هزم «ريمون» أمير أنطاكِية في معركة عين تاب؛ حيث ذُبح «ريمون» وأُرسل رأسه في

صندوق من الفضة إلى الخليفة العباسي في بغداد كدليل على مركز نور الدين بوصفه المحارب البارز بين المسلمين السُّنة[٤٢].

وحافظ نور الدين على علاقة وثيقة جدًّا بالطبقات الدينية في بلاد الشام ـ وزعموا أنه أنفق ما يصل إلى ٩٠٠٠ دينار شهريًّا على الأوقاف الدينية فقط ـ ومقابل ذلك لم يكتفوا بتأييده بنشاط، وإنما لعبوا دورًا أيضًا في حملاته العسكرية. وكان جيشه يضم علماء الدين ـ من الفقهاء والصوفية ـ الذين كانوا مستعدين بالفعل للقتال ضمن صفوف الجيش. وكذلك كان في صفوف الجيش أشخاص آخرون: أئمة الصلاة، وقارئو القرآن، والخطباء والقضاة[٤٣]. ويمكن أن نرى الفارق بين زنكي ونور الدين على النحو التالي: بينما يمتدح المؤرخون المسلمون زنكي بسبب إنجازاته العسكرية، يؤكدون في حالة نور الدين على البُعد الديني في مسار حياته[٤٤]. قبل نور الدين كانت توجد في الدولة الزنكية ست عشرة مدرسة شُيدت بجهود خاصة. وفي عهده تم بناء أربعين مدرسة؛ بنى منها نور الدين شخصيًّا عشرين[٤٥]. وعندما بدأ الحكم في حلب سنة ١١٤٦م، كانت توجد مدرسة واحدة فقط بالمدينة، وبعد ثلاث سنوات، في ١١٤٩م، كان بناؤه مدرسة الحلاوية ـ التي تعمَّد بناءها بجوار المسجد الكبير مباشرة ـ تذكرة لشيعة حلب أن المذهب السُّني موجود هناك ليبقى. وفي هذه المدينة ذات الطابع الخاص زاد عدد المدارس من واحدة إلى ثمان. ومن الواضح أن المدارس ظهرت لتتحدى المركز الشيعي السائد في المدينة، وفي أثناء بنائها أرسل الشيعة الرجال ليلًا لهدم ما تم بناؤه نهارًا. وبالمثل، حدث في أثناء المرض الخطير الذي ألَمَّ بنور الدين سنة ١١٥٧م، وكانت حياته في أثنائه معلقة في الميزان، أن واصل الشيعة في حلب هياجهم ودمروا عدة مدارس. ولم يكونوا ليفعلوا ذلك ما لم يفهموا أن المدارس تمثل تهديدًا لطائفتهم. وظهر بشكل حاسم أنه لم يكن يهم كثيرًا تخصص المدرسة في أي مذهب؛ فقد بنى الحنفية مدارس للشافعية وبنى الشافعية للحنابلة، ولا نجد أي علامة على التوتر في بلاد الشام يشبه ما كان في الشرق. وما كان يهم هو البناء الفعلي الذي كان مؤشرًا يقاس عليه مستوى صحة إيمان الفرد، وكان بالتأكيد تعبيرًا عامًّا عن السُّلطة والقوة، وكان قطعًا علامة على التقوى الشخصية. ولا بد أن هذا العامل كان عاملًا مهمًّا؛ إذ كيف يمكن أن نفسر هذا العدد الكبير من المدارس التي شيدتها النساء؟

وإذا كان نظام الملك رمزًا على التجلِّي السياسي للإحياء السُّني في الشرق، فقد كان

نور الدين رمزه الكامن في بلاد الشام. والواقع أن تأثير نور الدين كان عظيمًا على من حوله، وكانت أفعاله سببًا في تغيير كثير منهم وجذبهم إليه، ومنهم صلاح الدين الذي تعايش مع شهرة نور الدين وتراثه طوال حياته. وكان صلاح الدين يُكنُّ احترامًا بالغًا للرجل الذي نما وترعرع في بلاطه، ويَدين له بالكثير. ولكنه كان عبئًا أيضًا؛ لأن تراث نور الدين، وخيانة صلاح الدين المزعومة لهذا التراث، كانا بمنزلة العصا التي استخدمها خصوم صلاح الدين ضده.

الفصل الثالث

صلاح الدين الشاب

إن القوم لا يتحدثون بغير الفرنجية، ونحن لا نفهم ما يقولون.

أسامة بن منقذ

من حلب، كان نور الدين، ومعه شيركوه الذي دخل في خدمته، يراقب استسلام بعلبك لدمشق. وعلى الرغم من أن نور الدين لم يستطع أن يلوم أيوب على استسلام المدينة ـ لأن أحدًا لم يكن قادرًا على أن يأتي لنجدته ـ فقد كان انتقال أيوب إلى دمشق يعني أنه دخل في المعسكر الدمشقي، وصار معاديًا من الناحية النظرية لنور الدين وكذلك لشقيقه أسد الدين شيركوه. وإذ كان نور الدين واعيًا بمدى عمق الصلة بين الأخوين، فقد نأى بنفسه عن شيركوه، ولفترة من الوقت كان هناك توتر بينهما. وعلى أية حال، كان أيوب مشغولًا، في الوقت نفسه. ونجح الثعلب العجوز في أن يجعل الدمشقيين يُعيِّنوه قائدًا لقواتهم الداخلية، وكانت قوة دفاعية مهمة تتولى حراسة المدينة. وكانت فترة عصيبة لدمشق؛ لأن المدينة تعرضت سنة ١١٤٨م لهجوم الحملة الصليبية الثانية. ومع أن الحملة الصليبية نفسها باءت بالفشل، فقد كان تأثيرها على دمشق عميقًا؛ لأنه لم يحدث منذ الحملة الصليبية الأولى أن واجه سكان أي مدينة إسلامية كبرى الفرنجَ وجهًا لوجه. وقبل الحملة الصليبية الثانية صارت دمشق محمية صليبية، وكان أتابكها يدفع الإتاوة إلى ملك بيت المقدس الصليبي، بشرط توقف غارات الفرنج على أراضيه، وخول لمبعوثي الملك حق تفتيش أسواق النخاسة لإطلاق سراح أي أسرى من الصليبيين[1]. ولكن الهجوم غير المتوقع على المدينة ـ وكان مقصد الحملة، في البداية، مدينة الرها ـ غيَّر كل

شيء. والحقيقة، كما برهنت الأحداث، أن قرار الهجوم على دمشق كان قرارًا كارثيًا وربما قاضيًا على المدى الطويل على مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها[٢]؛ لأنه بيَّن آنذاك أن دمشق مفتاح الشام. فمن أنطاكِية وحلب انتقل مركز الصراع جنوبًا إلى دمشق، ومن دمشق انتقل جنوبًا أكثر إلى مصر. وتوغل الصليبيون حتى بساتين أسوار دمشق، لكنهم ارتبكوا عندها بسبب شبكة الجداول والأسوار، وتلقفتهم قوات الدفاع الداخلي، وتعيَّن عليهم أن يتقهقروا بسرعة وبطريقة مُهينة. ومنذ ذلك الحين لم يطأ أي صليبي دمشق إلا إذا جاء مبعوثًا، أو سائحًا، أو أسير حرب، وهو ما كان أكثر شيوعًا[٣]. وحينذاك أدت الصدمة والرعب اللذان سببهما الهجوم على دمشق إلى توحيد آراء الدمشقيين، ولعب العلماء دورًا حاسمًا في ذلك. ولأن القلب النابض للإسلام السُّني كان بلاد الشام، فقد كانت دمشق أول مدينة تُبذر فيها بذور الإحياء السُّني. وفي دمشق ـ وفي ضوء الحملة الصليبية الثانية ـ بدأ الانتقام الإسلامي. ويجدر بنا أن نلاحظ أن المصادر الإسلامية تجاهد لتشير إلى أنه في أثناء حصار دمشق قُتل اثنان من أهل العمامة ـ عبد الرحمن الحلحولي ويوسف الفندولي ـ وهما يشاركان في القتال. وإذا كان سقوط الرها علامة على تغير اتجاه التيار، فإن حصار دمشق كان علامة على تغير حال المسلمين.

الوسط الديني الذي نشأ فيه صلاح الدين

لا نعرف هل كان صلاح الدين موجودًا في دمشق في أثناء الهجوم على المدينة، أم كان في بعلبك، وهو الأرجح، ولكن المرء يمكن أن يتخيل أن ذلك الهجوم العنيف أثَّر عليه كثيرًا بالضرورة. وعلى أية حال، فإن السؤال الذي يجب طرحه: ما مدى ما كان يعرفه فعلًا عن الفرنج الذين يهاجمون دمشق؟ كيف رأى ذلك العدو الغريب؟ والإجابة، وربما تثير الدهشة: كان صلاح الدين يعرف القليل للغاية عن الفرنج، ولم يعبأ بهم كثيرًا. ولكي نفهم ذلك، علينا أولًا أن نفهم أن الحملات الصليبية كانت إلى حد كبير ظاهرة غربية وهوسًا غربيًا. ومن الإنصاف أن نقول إن الغزو المغولي كان له تأثير درامي أقوى كثيرًا على المسلمين من الصليبيين. وبرهن «برنارد لويس» على أن المسلمين في الشرق الأوسط كانوا، على مدى قرنين، على علاقة عدائية بجماعات الفرنج الذين استوطنوا بلادهم، إلا أنه لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن اهتموا

بهم أدنى اهتمام(٤). قد يبدو في هذا الزعم بعض المبالغة، ولكنه لا يُظهر الموقف الإسلامي من الفرنج. وعلى الرغم من أن كتب التاريخ الإسلامي استخدمت مصطلح «فرنجي» عند تعريف العدو الذي ظهر على أرضهم، إلا أنهم سرعان ما بدأوا يُفرقون بين الصليبيين، ويصنفونهم وفقًا لجماعاتهم العرقية(٥). ولم تكن معرفة الفرنج، على أية حال، تعني بالضرورة الاهتمام بهم، ويمكن أن نخمن باطمئنان أن أوروبا لم تكن تجتذب اهتمام المسلمين في العصور الوسطى إلا قليلًا. والواقع أنه إذا كانت أوروبا ماثلة في وعي المسلمين، فقد بدت مكانًا باردًا لا يُحتمل. ويطابق الوصف الذي كتبه المؤرخ والجغرافي المسعودي عن الفرنج هذه الرؤية تمامًا. يكتب أن طبيعة الأوروبيين خشنة غليظة، وسلوكهم فظٌّ، وهم بليدو الفهم، وألسنتهم ثقيلة. وهناك معاصر للمسعودي، ابن أبي الأشعث، الذي تُوفِّي سنة ٩٧٠م، ذهب حتى إلى ما هو أبعد من ذلك حين أعلن أن سكان أوروبا يُسقطون شعورهم كل سنة مثلما تفعل الحيوانات. وبعد قرن، لم تكن الرؤية الإسلامية قد تغيرت، كما انعكس في كتابات الأندلسي سعيد بن أحمد، الذي وصف الأوروبيين بأنهم غلب عليهم الجهل والبلادة والبلاهة وعدم الفطنة. ومن المؤكد أن الموضوع المتواتر في تلك الفترة بين المؤرخين المسلمين كان الوضاعة الخُلقية والافتقار إلى النظافة الشخصية بين الفرنج. وعندما كتب القزويني بعد نصف قرن من وفاة صلاح الدين قال إن الأوروبيين لا يستحمون سوى مرة واحدة أو مرتين في العام، ولا يغسلون ثيابهم على الإطلاق. ولم تكن هناك أي رغبة في البعد عن هذه الصورة الكاريكاتورية والسعي لفهم طبيعة الفرنج على نحو أعمق، ويرجع هذا إلى الإحساس بالتفوق والنظرة المتعالية تجاه الأوروبيين.

وباختصار، على الرغم من الهزائم العسكرية التي صاحبت تأسيس الدويلات الصليبية، فقد ظل المسلمون متشبثين بأنه ليس لدى الفرنج ما يمكن أن يتعلموه منهم. ولهذا عندما عرض أحد الفرسان الصليبيين على أسامة بن منقذ أن يأخذ ابنه معه إلى أوروبا ليعلمه، كان رد أسامة تعبيرًا عن الرعب الظاهر: «فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابني لو أُسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الفرنج». وحتى بعدما تعمقت معرفة المسلمين بالفرنج، ظل المسلمون متمسكين بمواقفهم الجدلية. ويستنتج «سيفان» أن غياب المحاولات من جانب المسلمين للتعامل مع الفرنج كان سببه أن الإسلام في ذلك الوقت كان في حالة جمود كامل(٦). ولكننا رأينا، فيما سبق، كيف أدى الإحياء السُّني

إلى ازدهار الفكر الديني. ومن الواضح أن الإسلام لم يكن يعاني من الجمود، ومع هذا يَذهلُ المرء من كون المسلمين لم يشعروا بالفضول تجاه الصليبيين. ومن المؤكد أن عددًا قليلًا للغاية من المسلمين بذلوا الجهد لتعلم اللغات التي يتحدث بها الصليبيون. وعلى الرغم من أن المسلمين والفرنج تعاملوا على مستوى الحياة اليومية بعضهم مع بعض في التجارة، فلا يجب المبالغة في مثل هذه التعاملات؛ ظل الحاجز الفكري قائمًا، ولم يكن هناك اتصال منتظم، بتعبير «هيلندبراند»، مما كان يعني أن المسلمين لا يحترمون الفرنج ولا يُحبونهم؛ سواء على المستوى الفردي أو على مستوى الجماعة(٧). وعلى أحسن الفروض، لفت انتباه المسلمين غرابة الفرنج وخصائصهم الأجنبية وعاداتهم، على الرغم من أنهم رأوا في وجودهم وجودًا أجنبيًّا غير مقبول. ومن المُسلَّم به أن الفرنج كانوا شجعانًا وأشداء، ولكنَّ هذه الصفات ربطت بينهم وبين الحيوانات مرة أخرى. كانت الإشارة إلى الحيوانات مقصودة مثلما كانت الإشارة إلى التراخي الخُلقي، وكان يتم اختزالها في مصطلح «نجس»، الذي لم يكن يشير إلى عدم النظافة فحسب، وإنما كان يشير إلى الدنس الجوهري أيضًا؛ فالخنازير نجسٌ بالنسبة إلى المسلمين، وكذلك كان الفرنج «نجس» بالنسبة إلى المسلمين في العصور الوسطى. ولا غرابة إذن في أن الاحتلال الفرنجي للمسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس، كان في نظر المسلمين عملًا من أعمال التدنيس الفظيعة؛ إذ لم يكن مجرد احتلال عسكري، بل كان تدنيسًا للأماكن المقدسة الإسلامية برموز العبادة المسيحية: فقد وضِع بأعلى قبة الصخرة المذهبة صليب، كما احتل الفرسان الداوية المسجد الأقصى. ومن ثَمَّ كانت إزالة الصليب أول ما قام به صلاح الدين. والواقع أن أعماله، عندما دخل بيت المقدس سنة ١١٨٧م، تعكس مدى رسوخ مثل هذه الآراء لدى المسلمين.

وعلى الرغم من أن وجود المسيحيين الشرقيين كان يعني أن المسلمين على ألفة مع مبادئ المسيحية، فإنهم لم يهتموا كثيرًا بها، سواء كانت مسيحية لاتينية أو مسيحية بيزنطية. ومن المحتمل أن الأمر استغرق بعض الوقت ليفهموا الفرق بين المسيحيين المحليين والمسيحيين القادمين من أوروبا. وفي الوقت نفسه، كان من الواضح أن هؤلاء الفرنج الذين استوطنوا بين المسلمين تأقلموا بسرعة مع الحياة في الشرق، واتخذوا أسلوبًا إسلاميًّا في حياتهم بالتدريج. ووصف أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» حادثة لصديق له كان بأنطاكية وقابل فارسًا وصل في أثناء الحملة الصليبية الأولى. ودُعي صديق أسامة

إلى منزل الفارس، حيث أُعِدَّ الطعام، وقال المضيف له: «كل طيب النفس؛ فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طبَّاخات مصريات ما آكل إلا من طبخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير». وكان المسلمون يدركون أيضًا أن هناك جماعة أخرى من الفرنج - النظم الرهبانية العسكرية من الداوية والإسبتارية - ظلت نيران الحملات الصليبية تتأجج في داخلهم بشدة، وقد أقسموا على عدم المساومة. وفي المقابل أبدى المسلمون تجاههم عداوة عنيدة. ولا شك في أن صلاح الدين لم يكن ليساوم في عداوته تجاههم. وأعلن صلاح الدين أنه سوف يُطهِّر الأرض من هذين الجنسين النجسين، وعندما واتته الفرصة بعد انتصاره في حطين أوفى بكلمته.

كان المسلمون يُسمون عسقلان «عذراء الصحراء»؛ لأنها كانت المدينة الساحلية الوحيدة التي بقيت صامدة ضد الفرنج. لكن «بلدوين الثالث» استولى سنة ١١٥٣م على المدينة الساحلية العظيمة؛ وهو حدثٌ بثَّ الرعب في قلوب الدمشقيين الذين اعتقدوا تمامًا أن مدينتهم سوف تتلوها. وبالنسبة إلى الدمشقيين كان هناك شخص واحد فقط يمكن أن يحميهم؛ هو نور الدين. ولكن القلق ظل يساورهم، لأنه ابن زنكي ومن المؤكد أنه سوف يسعى لانتقام دموي بسبب عدد المرات التي أحبطوا فيها مساعي أبيه. وهنا كان وجود أيوب حاسمًا بالنسبة إلى قضية نور الدين، لأنه تحدث مع أهل دمشق وخفف من قلقهم واستمعوا إليه. وبهذه الطريقة لعب أيوب دورًا أساسيًّا في تسليم دمشق لنور الدين، الذي دخل المدينة سنة ١١٥٤م، من دون أن يريق نقطة دم واحدة. وكان على أيوب أن يُحسِّن علاقته مع نور الدين، وقد فعل هذا بأسلوب أكد أنه يستحق شهرته بالدبلوماسية؛ فقد أرسل صلاح الدين - وكان وقتها في الرابعة عشرة من عمره - إلى حلب ليدخل في خدمة نور الدين. ولم يكن هناك تصرف يدل على الولاء بطريقة درامية أكثر من هذا. وكان أيوب الداهية يعرف أنه سيلقى قبولًا حسنًا. وهناك قدَّم شيركوه ابن أخيه إلى نور الدين - وربما كانت المرة الأولى التي تقابل فيها الاثنان - ورد نور الدين على تصرف أيوب بأن قَبِل دخول صلاح الدين في خدمته، ومنح صلاح الدين بعض الأراضي. أما بالنسبة إلى أيوب فقد كوفئ بسخاء وعُين واليًا على دمشق، ومرة أخرى اجتمع الأخوان. وبالنسبة إلى نور الدين كان فتح دمشق - الذي تم سلميًّا - تحقيقًا لحلم؛ لأنه آنذاك قد حقق ما لم يُحققه أي حاكم مسلم منذ كانت الخلافة العباسية في ذروتها؛ وحَّد أهم مدينتين في بلاد الشام، دمشق وحلب، تحت راية سياسية واحدة. كان هذا التطور محل مراقبة

قلقة من جانب مملكة بيت المقدس الصليبية، ولكن الموقف السياسي في ذلك الوقت كان متوازنًا بشكل دقيق، ويتمثل في وجود قوة نور الدين المتصاعدة تعادلها وتواجهها قوة ملكين قويين من ملوك المملكة الصليبية بالقدس: «بلدوين الثالث»، وعندما مات سنة ١١٦٣م، خلفه «أماريك».

عندما دخل نور الدين دمشق اكتشف وجود إحدى عشرة مؤسسة دينية[٨]. وما هو جدير بالملاحظة أن هذه المؤسسات الإحدى عشرة كلها كانت من أوقاف خاصة. وبعبارة أخرى، كانت نتائج تصرفات دينية ولم تكن سياسة دولة. ومع نهاية عهده بلغ مجموع المدارس في دمشق اثنتين وعشرين مدرسة، على حين أن حلب ـ حيث بقي النفوذ الشيعي قويًّا ـ كان بها ثماني مدارس فقط[٩]. وتؤكد النظرة المتأنية لهذه الفترة النمو السريع للمدارس، بين سنة ١٠٧٦م وسنة ١١٥٤م ـ تقريبًا منذ بناء أول مدرسة في بغداد على يدَي نظام الملك وحتى دخول نور الدين بغداد ـ تم بناء إحدى عشرة مؤسسة دينية، بمعدل واحدة كل سبع سنوات. وفي الفترة نفسها، سنة ١١٥٤م تقريبًا، عندما دخل نور الدين المدينة، وعندما سقطت دمشق بأيدي المغول ـ أي في أثناء الفترة التي كانت المدينة تحت حكم نور الدين وصلاح الدين والأيوبيين ـ تم بناء مائة وعشرة مؤسسات دينية، كان منها اثنتان وتسعون مدرسة، بمتوسط مؤسسة واحدة أو أقل في كل سنة[١٠]. وكان لهذا المعدل في النمو نتائج عميقة الأثر على المستوى الاجتماعي والسياسي.

وكان طبيعيًّا أن تتطلب الزيادة السريعة في عدد المدارس ببلاد الشام تعيين المؤهلين الذين يمكنهم التدريس فيها. وعلى الرغم من وجود بعض العلماء السُّنة المحليين ـ مثل بني العديم في حلب وبني عساكر في دمشق ـ فقد كان النمو السريع في عدد المؤسسات يعني أنه لا بد من جلب العلماء من بلاد بعيدة. وكان الترحيب بقدوم العلماء إلى بلاد الشام من ثمار تلك السياسة الإيجابية الواعية التي كان نور الدين أول من انتهجها ببلاد الشام[١١]. وليس هناك مثال على هجرة العلماء إلى الشام أفضل من كمال الدين الشهرزوري الذي خدم زنكي في الموصل ولا بد أنه أثر على نور الدين، حيث إنه أحضره معه إلى دمشق وعينه قاضيًا. وكان هذا التعيين مهمًّا للغاية من الناحية الرمزية، لأن كمال الدين لم يكن عالمًا وأستاذًا للفقه الشافعي وقاضيًا في دمشق فقط، وإنما كان وزير نور الدين المسؤول عن الإدارة الحكومية وجهاز الدولة الإداري. ولا يمكن أن نجد مثالًا أفضل منه للعالم الذي تحول بالتدريج إلى موظف حكومي، وليس هناك برهان أوضح على أن نور الدين

كان يستلهم تمامًا فكرة نظام الملك عن توأمة الدين والحكم وخلق هيكل إداري موالٍ للمذهب السُّني.

بداية الحملة المضادة ضد الصليبيين

شاركت عائلة صلاح الدين بشكل فعَّال في حركة الإحياء السُّني التي انتشرت في جميع أرجاء بلاد الشام؛ فقد بنى أبوه أيوب مدرسة في دمشق وخانقاه للصوفية في بعلبك، وكان شيركوه أكثر إنتاجًا؛ إذ بنى مدرستين في حلب واثنتين في دمشق، كانت إحداهما تشرف على الساحات التي أنشأها نور الدين للتدريبات العسكرية ولعب الكرة (كانت تشبه البولو حاليًّا). والغريب في هذه المدرسة أنها كانت مفتوحة للشافعية والحنفية على السواء. وكانت المدرسة الثانية في العالم الإسلامي -والأولى في بلاد الشام- التي جمعت المذهبين[١٢]. ويبدأ هذا كله بطبيعة الحال مع نظام الملك، لكنه لم يكن ليتخيل أبدًا أن المدارس التي بدأ إنشاءها ستكون المؤسسات التي يستمد منها نور الدين وصلاح الدين قوتهما في معاركهما ضد الفرنج الصليبيين؛ فقد جاء الفقهاء الحنابلة في القرن السابق لنجدة الخليفة العباسي ومساندة المذهب القادري. وحينذاك حمل الفقهاء، مرة أخرى، رسالة الإحياء السُّني إلى ميدان المعركة. كانوا قادة الرأي العام في المساجد والأسواق، وشكَّلوا حلقة الوصل بين عامة الناس والقادة العسكريين[١٣]. كما كان تأسيسُ المدارس في دمشق وحلب، وكذلك في المدن الكبيرة والصغيرة بجميع مناطق الشام، السببَ في خروج الفقهاء -بالمئات في البداية ثم بالآلاف بعد ذلك- ليحملوا هذه الرسالة، بل يمكن أن نتحدث بحق عن مولد جيش من الفقهاء. لقد بُنيت فكرة الجهاد على منصة المدارس التي نشرت رسالة الإحياء السُّني، وفي هذه المدارس تشكَّل التحالف الذي جمع بين الأمراء العسكريين والطبقات الدينية.

كان الفقهاء أول من شعر بتأثير الغزو الصليبي على البلاد، وساد هذا الشعور والإحساس جيلًا بعد جيل. ربما ناضلوا وجاهدوا ليمكنهم التعايش مع ما حلَّ بهم من عنف هذا الغزو ووحشيته، ولكنَّ المرء يُصاب بالدهشة والإعجاب من مدى الفطنة والبصيرة التي حلل بها الفقهاء أسباب الهجوم عليهم. وليس هناك مصدر إسلامي يمكن أن يضاهي التحليل الذي كتبه علي بن طاهر السلمي، المتوفَّى سنة ١١٠٦م في تقييمه للحملة الصليبية الأولى. وما يجعل آراءه التي جمعها في «كتاب الجهاد» تلفت النظر هو

مدى الوضوح الذي فهم به الصورة السياسية، وكان الفرنج لا يزالون يحاصرون المدن في بلاد الشام. فهم السلمي بشكل واضح أن هذا العدو لم يكن مثل الأعداء السابقين، لأنه على الرغم من أنه ربما كان هناك خلط في البداية أدى إلى الظن بأن الجيوش الصليبية لم تكن سوى هجمات بيزنطية، لم يختلط الأمر على السلمي - فلم يكن هناك بيزنطيون، لأنه وصف الغزاة بأنهم إفرنج وليسوا من الروم - ورأى هدفهم بوضوح شديد[١٤]. وحذر السلمي بقوله: «وكانت القدس مهائر أمانيهم»[١٥]. وحذر أيضًا من أن شهية الفرنج للغزو لن يتم إشباعها هناك؛ لأن المؤكد أنهم حينذاك كانوا يأملون في أن يجعلوا أنفسهم سادة البلاد بأسرها ويتخذوا أهلها عبيدًا[١٦]. وهكذا كان الخطر الذي شكله الفرنج متطرفًا بالقدر الذي جعل السلمي يبادر ببيان مذهل وغير مسبوق للخليفتين العباسي والفاطمي يدعوهما فيه إلى تنحية خلافاتهما جانبًا. وهو بيان خارق للعادة إذا ما أخذنا في اعتبارنا مرارة الصراع السُّني - الشيعي. وكان هناك إحساس سائد في شتى الأنحاء بالضرورة الملحة الكامنة في كلمات السلمي، فهو يحث على توجيه الضربات من دون انتظار، والعدو الصليبي لا يمتلك غير قوة صغيرة من الفرسان، قبل أن يفوت الأوان، بل إنه أسس ما يشبه «الخطة» لنور الدين وصلاح الدين عندما أصر على أن السبيل الوحيد لانتصار المسلمين هو تصالح الشام ومصر وشمال العراق، وتخليهم عن أحقادهم القديمة وعداواتهم الخفية[١٧]، واتحادهم معًا لاستعادة الأراضي المفقودة. والواقع أنه كان بيانًا يتنبأ بالمستقبل، ولكنَّ السلمي لم تكن له كرامة في وطنه، مثل الأنبياء، وذهبت تحذيراته أدراج الرياح[١٨]؛ لأن القادة العسكريين لم تكن لديهم النية قطُّ لأن يضحوا بمصالحهم السياسية الخاصة من أجل فكرته المبهجة عن التضامن الإسلامي[١٩].

وجدت كلمات السلمي آذانًا مُصغية في عهد نور الدين. ولخص «إيليسيف» في كتابه المهم عن سيرة نور الدين الأركان الأربعة التي بنى عليها نظام الاعتقاد: إحياء الجهاد، وتحرير القدس، وإعادة تأسيس الوحدة السياسية للإسلام، ونشر المذهب السُّني[٢٠]. ومن الأمور المثيرة بوجه خاص، وتتسق إلى حد كبير مع تراث السلمي، أن رسالة كُتبت في ذروة قوة نور الدين لمؤلف مجهول من علماء الدين في حلب، عنوانها «بحر الفوائد»، تُقدم نظرة معاصرة في كيفية رؤية علماء تلك الفترة لخوض الجهاد، وهنا تبرز حقيقتان مذهلتان: الأولى: أن كاتب «بحر الفوائد» يؤكد على الدور الأساسي الذي يجب أن يلعبه عالم الدين في الجهاد، ويكتب مطالبًا بأن ينتبهوا لئلا يظنوا أن الغازي هو الذي يمسك

السيف فقط، لأن العالم في المسجد، الذي يمسك القلم في يده ويعرف براهين الإسلام، محارب وقلمه في يده أمضى حدًّا من السيف[٢١]، بل إن المؤلف يصر على أن دور العالم الديني مهم جدًّا بحيث ينبغي أن يكون له الحق في غنائم الحرب. والثانية: على الرغم من أن المؤلف كان مهمومًا بالصراع مع الفرنج في الشام، فإنه يوضح أن النضال ضد المذاهب المخالفة له أهمية أكبر بكثير؛ لأن قتل الزنادقة يُعادل سبعين حربًا تحت راية الجهاد وفقًا لرأيه.

إن الهوس بالحملات الصليبية حجب النقطة الأساسية وهي أن الإحياء السُّني كان، بتعبير «إروين»، حركة إعادة حقيقية للتسلح الخلقي كرَّس فيها الحكام والنخب الدينية أنفسهم للقضاء على الفساد والخروج على الأخلاق في الأمة الإسلامية، باعتبار ذلك جزءًا من الجهاد الأكبر الذي كانت له أهداف أكبر من مجرد طرد الفرنج من الشريط الساحلي في فلسطين[٢٢].

صارت القدس، في عهد نور الدين، الأساس واللب في الدعوة للجهاد ضد الصليبيين، ومن دمشق خرجت هذه الدعوة. وبالنسبة إلى المسلمين كانت قدسية بيت المقدس واضحة: قبة الصخرة والمسجد الأقصى داخل المدينة، وترتبط القدس بقصة إسراء النبي ﷺ، إلى السماء. ومن المؤكد أن ناصري خسرو؛ الرحالة الفارسي الذي زار القدس سنة ١٠٧٤م، لاحظ الأهمية الدينية للمدينة عندما اكتشف أن المسلمين الذين لم يكن بوسعهم القيام برحلة الحج إلى مكة كانوا يجتمعون في القدس ليحجوا هناك بدلًا من مكة. والمؤكد أن العلماء الذين ملأوا صفوف نور الدين استغلوا الشوق إلى القدس استغلالًا تامًّا، وكانوا يهمسون في أذنيه بلا انقطاع عن القدس، حتى تحول همسهم إلى ضجة صاخبة. ولا شك في أن القدس كانت مزروعة في أذهانهم قبل زرعها في قلب نور الدين[٢٣]. ولكن ما إن تم زرعها، حتى تركزت طموحاته على بيت المقدس[٢٤].

تعليم صلاح الدين

لا نعرف إلا القليل جدًّا عن الحياة المبكرة لصلاح الدين، ولا نعرف كذلك إلا القليل جدًّا عن الحياة المبكرة لمعظم رجال العصور الوسطى. وفي عصر كان القبول التام والطاعة لإرادة الكبار يُعتبر فضيلة ومؤشرًا على التربية الحسنة، يمكن فهم حياة

صلاح الدين المبكرة على أنها لم تكن سوى اتساق مشرف مع هذه التقاليد. وكتب صلاح الدين نفسه أن الأطفال كانوا يلقون التربية نفسها التي كان كبارهم يلقونها. وفي هذا العصر كانت فترة المراهقة تقصر بقدر الإمكان، ويتم التأكيد على النضج المبكر للفتى. ولا غرابة أنه ليست هناك إشارات إلى مولد صلاح الدين وفترة صباه المبكرة، وأيامه الأولى(٢٥). ولنا أن نتوقع أن دراسة القرآن الكريم كانت تُشكل جوهر تعليمه؛ لأن القرآن كان القوة المستوعبة التي توحد المسلمين. ويتصور المرء أن صلاح الدين كان يمضي عدة ساعات لحفظ ما يمكن حفظه من آيات القرآن الكريم. ولا بد أن تكون دراسة القرآن الكريم والحديث النبوي قد وفرت له معرفة ممتازة باللغة العربية، لأنه على الرغم من كونه كردي المولد، فإن تعليمه ودراسته كانت بالضرورة عربية في سن مبكرة للغاية. ومع هذا، فربما كان يتحدث اللغة الكردية في منزله، ولا بد أنه كان يتحدث اللغة التركية بطلاقة أيضًا؛ لأنها كانت لغة العسكريين. ولم تقتصر دراسته للغة العربية على القرآن الكريم. ونُسب إليه أنه كان يحفظ «ديوان الحماسة» لأبي تمام(٢٦) عن ظهر قلب، ويُعتبر هذا الديوان بوجه عام واحدًا من أجمل روائع الأدب العربي.

لم يكن ممكنًا لإنسان يعيش في تلك الفترة أن يصف نفسه بأنه متعلم ما لم يكن عارفًا بالشعر متبحرًا فيه؛ لأن الشعر كان يحظى بمكانة لا يحظى بها أي من الفنون الأخرى. كانت الكلمة المنطوقة ذات الصياغة الجيدة تحرك الرجال المثقفين كما لا يحركهم أي شيء آخر في الحياة(٢٧)، كما أن الفكرة المناسبة التي يُعبَّر عنها بمهارة عالية تزين المشهد شأنها شأن الثياب الفاخرة أو الحدائق الزاهرة(٢٨). لم تكن اللغة العربية مجرد لغة مثل سائر اللغات، بل كانت فنًّا، وكانت معرفة خبايا النحو وامتلاك ناصية مفردات اللغة مسألة جوهرية وحيوية؛ لأن بيتًا واحدًا من الشعر يمكن أن تكون له القوة التي ترفع من شأن الفرد أو القبيلة. كان الناس، مثلًا، يسخرون من اسم قبيلة «بني أنف الناقة»، ويرجع الفضل لبيت من الشعر كتبه أحد أبنائها ـ الحطيئة ـ جعل الحرج الذي كانوا يستشعرونه يتحول إلى فخر، وهو يقول:

قومٌ همُ الأنفُ والأذناب غيرهمُ   ومنْ يسوِّي بأنف الناقةِ الذَّنبا

ومن المؤكد أن بلاط صلاح الدين كان يضم بعضًا من أبرز الكُتّاب وأشهر الشعراء في القرن الثاني عشر. ولم يكن هناك مَن يماثل الرجلين اللذين كانا الأقرب إليه: عماد

الدين الأصفهاني، الذي عمل في ديوان صلاح الدين، وكان أشهر شعراء جيله والمجدد في أسلوب النثر المسجوع الذي قلده كثيرون، والقاضي الفاضل، وكان رئيس ديوان صلاح الدين، وأقرب مستشاريه، كما كان شاعرًا مفوهًا. ويبدو أن صلاح الدين نفسه، على الرغم من أن موهبته الشعرية كانت محدودة، كان ضليعًا في الأدب العربي أيضًا.

وكان لمعرفة «المقامات» أهمية لا تقل عن أهمية الشعر في رصيد الرجل المتعلم، والمقامات مصطلح أدبي يُطلق على أحد أشكال النثر المسجوع، وكانت معروفة ـ بصفة أساسية في أوساط المتعلمين وإن لم تقتصر عليهم بالتأكيد ـ في جميع أنحاء العالم العربي. وانعكست هذه الشعبية في أفضل صورة في الاسم الذي أُطلق على مؤسس هذا الشكل الأدبي، وهو الهمذاني، الذي اشتهر في القرن العاشر باسم «بديع الزمان». ومن خلال مغامرات الشخصية الرئيسة لديه؛ النَّصاب عديم الضمير أبو الفتح الإسكندراني، كان الهمذاني يُمتع سامعيه بعبقريته في سرعة البديهة والبلاغة. وبعد قرن، جاء الحريري ليصل بالمقامات إلى ذرًى جديدة، فأظهر من خلالها، ومن خلال حكايات النَّصاب المسمى «أبا زيد»، براعة العارف الخبير بأسرار اللغة العربية. وكان السامعون ينبهرون، لأن مقامات الحريري لقيت القبول، واعتبرها البعض أعظم كنز أدبي في اللغة العربية، بعد القرآن الكريم. وقد مزج بين عبقرية اللغة العربية وتألقها، والحكايات التي لم تكن جسورة فحسب، وإنما كانت أحيانًا فاضحة من الناحية الدينية. وعلى أية حال، لم يقلل هذا من جاذبيتها عند الجمهور الذي كان يستمتع بالمبارزة بين الداهية اللاذع الذي يستفز الحساسيات الإسلامية وعبقرية اللغة التي تخفف من حدته في نهاية المطاف(٢٩).

وكانت الفكاهة والهجاء من التراث الذي يحترمه الشعراء، الذين قدموا لمحة كاشفة، وأكثر إنسانية، عن عالم غالبًا ما كان نصيبه التجاهل من جانب الذين كانوا يكتبون للأجيال التالية وعيونهم على التاريخ. وفي حالة صلاح الدين، كان وجود الوهراني المغربي، الذي تُوفِّي سنة ١١٧٩م ـ وهو شاعر متواضع بموجب اعترافه هو ـ على الرغم من جهد القائمين على حماية التراث الإسلامي وإحياء تقاليد السُّنة عمومًا ولدى صلاح الدين خصوصًا، لم تكن الفكاهة الفظة الفاجرة والنكتة المناسبة بعيدة قطُّ(٣٠). ومن ثَمَّ، كان الوهراني قادرًا على أن يزعم أن كلماته عند تقي الدين، ابن أخي صلاح الدين، كانت «أحلى من الضرب بخف واحد من بنات الهوى»(٣١). ومن الواضح أن كلًّا من الرجلين كان يعرف الآخر معرفة وثيقة؛ لأن الوهراني يحثه، في مناسبة أخرى، على أن يتخلَّى

عن الكلام الفارغ المتعلق بالمسؤولية والجهاد ويستقر في بساتين دمشق، ويترك التوبة، ويجمع كل خطاة دمشق، وبنات الهوى من الموصل، وقوّادي حلب، والمغنيات من العراق، ليمتع الحواس الخمس(٣٢). ولم يسلم صلاح الدين نفسه من ظُرف الوهراني، على الرغم من أنه بالتأكيد كان يعطي بقدر ما يأخذ. فذات مرة، احتج الوهراني بأنه مؤمن جيد، ورد صلاح الدين بسرعة بديهة ردًّا لاذعًا بأنه لن يصدق أن الوهراني مسلم حتى لو رآه يمشي على الماء(٣٣).

وعلى خلاف نور الدين، الذي اشتهر بحبه للكتب في جميع أنحاء العالم الإسلامي، لم ينخرط صلاح الدين منذ شبابه في الحياة العلمية. ومن الإنصاف أن نقول إن معرفته لم تكن تُجاري تدينه قطُّ(٣٤). وربما كان هذا السبب في أنه تحدث قليلًا جدًّا عن تعليمه في حياته اللاحقة؛ فقد توقفت دراسته للعلوم الإسلامية في سن مبكرة جدًّا، وفضَّل أن يسير على نهج أبيه أو عمه بدلًا من السير على درب العلماء. وقد زار في شبابه العالم الدمشقي العظيم ابن عساكر، وكان كل ما حظي به من هذه الزيارة هو اهتمامه العظيم بالحديث النبوي(٣٥). وكما عبَّر ابن شداد، وكان في إحدى المراحل قريبًا من صلاح الدين، بدبلوماسية، قائلًا: «قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه»(٣٦). لم يكن افتقار صلاح الدين النسبي إلى التعليم الديني عاملًا حاسمًا بطبيعة الحال، لأنه لا يحكم بعلمه، بل بقدرته باعتباره جنديًّا. جمع بعض الرجال بين مجال العلم وساحة القتال، ومنهم عيسى الهكاري أحد معاصري صلاح الدين الذي سنتحدث عنه فيما بعد. كان عالمًا، تلقَّى تعليمه في المدرسة وكرَّس حياته المبكرة للدراسة ليصير فقيهًا أو مُدرسًا، وكان واحدًا من الأرستقراطية العسكرية، يدرك دائمًا أن سُمعته تُبنى في ساحة المعركة.

وبطبيعة الحال لم يكن التدين يُقاس بالتعليم، فعندما كان صلاح الدين في الثانية عشرة من عمره تقريبًا، انتقل مع أبيه إلى دمشق، وقُدِّم إلى قطب الدين النيسابوري. كان النيسابوري عالمًا ذا شهرة مدوية، درس في بغداد ثم انتقل إلى حلب، وهناك بنى له كلٌّ من نور الدين وشيركوه مدرستين تقديرًا لما يتمتع به من مكانة عالية. ومن المثير أن نقرأ أيضًا أن الرجلين استخدماه رسولًا في مهام دبلوماسية. ومن الواضح أنه دور كان يُسند فقط إلى الذين يمكن الثقة بهم تمامًا. ولاحظ ابن شداد التأثير الروحي الذي كان للنيسابوري على الشاب صلاح الدين، وكتب أن هذا العالِم علَّم صلاح الدين أدعية وأذكارًا تشمل كل

ما يريد. وعلى الرغم من أن الصيغة الدقيقة للابتهالات ليست معروفة، فمن المرجح أنها كانت على نهج الشكل التقليدي لسلسلة من الأدعية والتضرع والمديح النبوي. ويبدو أن صلاح الدين كان يحفظ هذه الابتهالات. وذكر ابن شداد أنه رآه يُعلمها لأولاده حيث كان يجلس معهم وهم يرددونها. ويثير النيسابوري أيضًا اهتمامًا خاصًا؛ لأنه الأول من بين عدد كبير ممن صاروا أقرب رفاق صلاح الدين أو مستشاريه من تلاميذ ومريدي عبد القادر الجيلاني (ت ١١٦٠م) الذي اعترف به الجميع القطب الروحي في زمانه.

في عصر صلاح الدين، لم يكن هناك عالم دين له نفوذ يفوق نفوذ الجيلاني. وإذا كان يمكن القول إن الغزالي مهَّد، أكثر من غيره، الطريق أمام الاعتراف العام بالصوفية، فقد قُدِّر للجيلاني أن يُعرف باسم «سلطان الأولياء»، وهو الذي جعل هذا الاعتراف فعالًا تمامًا[٣٧]. ونعلم أن تأثير الغزالي على الجيلاني كان هائلًا؛ لأنه كان يحفظ جيدًا كتاب الغزالي «إحياء علوم الدين»، وحَفِظ أجزاء منه كلمة كلمة[٣٨]. وقد وُلِد الجيلاني لعائلة من جنوب بحر قزوين، وأرسلته العائلة في شبابه إلى بغداد ليواصل دراسته الدينية، وصار فقيهًا، يعرف المذهب الحنبلي جيدًا، قبل أن يدخل في التصوف[٣٩]. وانبهر أهل بغداد بالجيلاني وتعاليمه بحيث أُعطِي مدرسة بالقرب من إحدى بوابات المدينة، وكان زواره القادمون من أماكن نائية يحققون غرضهم بالاستماع إلى خطبه أو أحاديثه الصوفية[٤٠]. وغالبًا ما كان الناس يأتون في الليلة السابقة ليضمنوا لأنفسهم مكانًا في الحشد، وكان آخرون يفدون على الجمال والبغال ويبقون جالسين على ظهور حيواناتهم ورقابهم مدلاة ليستمعوا إلى كلام الجيلاني. وكان الوزراء يحضرون مجالس وعظه، كما حضرها السلاطين وحتى الخلفاء. ومن المؤكد أنه كان خطيبًا مفوهًا. وفوق هذا وذاك اعتقد الجيلاني أن معرفة تلاميذه ومريديه غير كافية في ذاتها، ومن الضروري لهم أن يتطوروا روحيًّا ويلعبوا دورًا في إحياء الإطار الخلقي للعالم الإسلامي. وبسرعة انتشر تلاميذه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حاملين معهم تعاليم أستاذهم الجيلاني. وصار كثير منهم من أقرب مستشاري نور الدين وصلاح الدين، وكان لهم نفوذ هائل عليهما[٤١]. وربما كانت الابتهالات التي علمها النيسابوري لصلاح الدين مشابهة جدًّا، إن لم تكن متطابقة، مع الابتهالات التي كان الجيلاني يعلِّمها لتلاميذه ومريديه.

وربما كان النيسابوري هو الذي زرع حب التصوف في نفس صلاح الدين، حيث يلاحظ ابن الأثير غرام صلاح الدين بتجمعات الصوفية. وعندما كان الصوفية يقفون في

أثناء إنشادهم وأذكارهم وتوسلاتهم، كان يقف معهم، ويجلس عندما يجلسون. وكتب ابن شداد أنه على مر السنين اعتاد صلاح الدين ممارسة الشعائر اليومية للتصوف، وكان من عادته أن يستمع إلى الصوفية في ليالي الخميس. ويكتب عداس عن التعاون الوثيق بين دوائر الصوفية والأمراء الأيوبيين الذين شكَّلوا «رابطة الإخوان» في تلك الفترة[٤٢]. وهناك قصة تتصل بالعادل، شقيق صلاح الدين، تؤكد مدى قوة هذه الرابطة، وكيف أن المقربين إلى صلاح الدين كانوا تحت التأثير المباشر أو غير المباشر لسادتهم الروحيين[٤٣]. وكان عتيق بن عهد اللورقي، وهو من لورقا في الأندلس أصلًا، قد سافر إلى دمشق، حيث أقام مع قاضي المدينة زكي الدين. وفي ذلك الوقت كان زكي الدين مشتبكًا في نزاع مع العادل بشأن بعض الممتلكات. وتوسل زكي الدين إلى عتيق ليتدخل في المسألة مع العادل، وأكد له أنه سوف يتدخل بالتأكيد لصالحه عند سيده، وسأله زكي الدين في إصرار عما إذا كان مستعدًّا لمقابلة العادل، ووافق عتيق، وذهب إلى العادل الذي حيَّاه بحرارة لأن رابطة الأخوة كانت تجمع بينهما[٤٤]. ووافق العادل على إعادة ممتلكات القاضي، وفي الليلة نفسها رأى العادل حلمًا يقف فيه محاطًا بحراس جهنم، وحذروه بأنه إن لم يبتعد عن القاضي فسوف يعملون على هلاكه. واستيقظ مصدومًا وأصدر تعليماته بعدم إزعاج القاضي ثانية. وعندما ذهب زكي الدين ليشكر عتيق أجابه هذا بسؤاله عما إذا لم يكن يكفيه أن يتحدث لصالحه عند سلطانه؟ وكان بوسعه أن يوفر عليه متاعب الذهاب ليتحدث إلى سلطان زكي الدين[٤٥].

كان صلاح الدين مثل غالبية المسلمين الذين في سنه، يؤدي الصلوات الخمس في جماعة، ولوحظ أنه لم يُصلِّ بمفرده منذ سنوات. ولم يكن الصيام يناسب صحته، ولكنه كان يصوم. وفي سنواته الأخيرة، كان المرض يُجبره على ترك الصيام في بعض الأيام. وكان يحب تلاوة القرآن في حضوره، ولاحظ ابن شداد أنه في غرفته في أثناء الليل يطلب من أي شخص مستيقظ أن يتلو عليه آية أو اثنتين. وكتب أيضًا كيف أن دموعه كانت سريعة وغالبًا ما شوهد يبكي علنًا عند تلاوة القرآن الكريم. وإذا كانت تلاوة القرآن تُسمع يوميًّا في حضور صلاح الدين، فإنه كان يستمع أيضًا إلى الأحاديث النبوية. وكان صلاح الدين في شبابه يحضر لسماع الحديث من ابن عساكر في دمشق. وعندما كان أحد المحدثين أو الحفَّاظ يزوره كان يستدعي أولاده للسماع، ويجعلهم يجلسون عند قدمَي المحدث دليلًا على الاحترام. وحتى في أثناء المعركة، كان لا بد من قراءة الحديث. وكتب ابن شداد أن

قراءة الحديث كانت تتم أحيانًا وهم ركوب، يتقدمون أحيانًا ويتأخرون أحيانًا أخرى بين صفوف الجيشين. وشكلت دراسة الحديث وروايته عنصرًا جوهريًّا في تعليم المسلمين. ولم يكن الحديث يُشكل فقط أهم أسس الشريعة الإسلامية، ولكن روايته علنًا في أيام الاحتفال في رجب وشعبان ورمضان، وفي مناسبات خاصة أخرى، كانت ملمحًا أساسيًّا من الاحتفالات الدينية الشعبية بين المسلمين، الذين لم يضعوا فروقًا بين التعاليم الدينية والإخلاص الديني(٤٦). وربما كانت مسائل الفقه والتشريع بعيدة عن قدرات العسكريين، ولكن الاستماع إلى الحديث كان عملًا من أعمال التقوى يشارك فيه الجميع، حيث كان من المعترف به عمومًا أن تلاوة الأحاديث علنًا ذات قوة وتأثير غير عادي. ولهذا، على سبيل المثال، عندما ضرب أحد الأوبئة القاهرة سنة ١٣٨٨م، جمع قاضي قضاة المدينة جماعة من الرجال إلى الأزهر ليقرأوا صحيح البخاري طلبًا للنجاة. وتكررت القراءة بعد ثلاثة أيام، وفي هذه المرة استُخدم الأطفال والأيتام(٤٧).

وباعتبار أن صلاح الدين شخصًا وُلِد ليخدم في صفوف العسكريين، فقد شكَّلت الأنشطة الجسدية جزءًا حاسمًا في تربيته. ولاحظ ابن جبير كيف كان أبناء صلاح الدين يركبون يوميًّا في المساء للعب الكرة وممارسة الرماية بالقوس. ويفترض المرء أن صلاح الدين سار على نظام مماثل في شبابه. ومن المؤكد أنه كان فارسًا ممتازًا. وقد علَّق هو نفسه بأنه عندما يكون على صهوة فرسه تزول الآلام كلها حتى ينزل عنه.

وكان صلاح الدين على معرفة جيدة بأنساب الخيل العربية، وربما أمضى من وقته فوق ظهور الخيل وقتًا يساوي ما يمضيه على قدميه. وكانت مهارته في إطلاق السهم من قوسه وهو في كامل سرعته مهارة لا بد أنه مارسها في معظم الأحيان. ويتخيل المرء أن شيركوه يراقبه ويوبخه لأنه لم يجذب السهم إلى الخلف بما يكفي حتى صدره. ولا بد أنه كان يُذكره دائمًا أن السهم يجب أن يصيب العلامة سواء كان يتقدم أو يتقهقر، وألا ينسى أبدًا أن يضيف أن أكبر حكمة يتعلمها في التعليمات العسكرية هي كيف يُحرز النصر. وكان هذا درسًا مهمًّا لصلاح الدين وإخوته، وهو درس من الواضح أنهم التزموا به. كتب المقريزي في ترجمة العادل شقيق صلاح الدين: «وكان لا يرى محاربة أعدائه، ويستعمل في مقاصده المكايد والخدع». وكان الصيد أيضًا من الأشياء المفضلة لدى صلاح الدين لقضاء الوقت. وكان يستمتع بصيد الغزلان في السهول خارج دمشق.

وكان صلاح الدين يمضي وقته بين دمشق، حيث كان والده ونور الدين يقيمان، وحلب، حيث كان شيركوه نائب نور الدين في غيابه. ويبدو أن نور الدين استخدم صلاح الدين لحمل الرسائل بينه وبين شيركوه(٤٨). وطوَّر صلاح الدين لفترة علاقة وثيقة مع عمه أكثر من علاقته بأبيه، وربما بهره سلوك عمه الفظ وانتهاكاته العسكرية أكثر مما بهرته طبيعة أيوب الدبلوماسية، على الرغم من أنه كلما تقدَّمت به السن، اتضح أكثر أنه ابن أبيه.

الفصل الرابع

المعركة من أجل مصر

من لم يرها [القاهرة] لم يعرف عزَّ الإسلام.

ابن خلدون

بسقوط دمشق بين يدي نور الدين، اكتسب دور مصر فجأة أهمية فائقة، حيث يتم حسم مسألة استعادة القدس، أو ضياعها، على ضفاف النيل، لا على ضفاف نهر الأردن. وعلى الرغم من الجدل القائل بأن سقوط المملكة اللاتينية كان راجعًا إلى فشلها في الاستيلاء على دمشق أو حلب، فالحقيقة أن عجزها عن القضاء على الخطر القادم من مصر هو الذي حسم مصيرها. كان همُّ الفرنج الأكبر تفادي الوقوع بين فكي كماشة تطبق عليهم من مصر في الجنوب، والعراق في الشمال. ولو وقع عليهم هذا الحصار لكان دفعُهم إلى الساحل أمرًا حتميًّا. وهكذا كان لا بد للفرنج من غزو مصر لتأمين قبضتهم على الشام وفلسطين، وضمان عدم سقوطها في أيدي نور الدين، فحلب ودمشق تحت قبضته، وخسرت إمارة أنطاكية نصف أراضيها، وتم اجتياح التخوم الشرقية لطرابلس، وهكذا ضعفت دفاعات مملكة بيت المقدس اللاتينية بدرجة خطيرة. ولم يكن ممكنًا ترك مصر تضيع. كانت هذه هي الفرضية الأساسية التي وُضعت عليها إستراتيجية المملكة اللاتينية التي كانت تحت حكم ملك جديد آنذاك، هو «أماليك». كان رجلًا طويلًا، وسيمًا، ذا لحية شقراء كثيفة، وكانت هناك لعثمة في كلامه[١]، لكنه كان صاحب رؤية واضحة، ولم يكن مستشاروه يرون في التعايش السلمي مع نور الدين خيارًا مطروحًا[٢]، وكان لا بد لهم، مهما حدث، ألا تسقط مصر بين يديه. كان «أماليك»، قبل اعتلاء العرش كونت يافا وعسقلان، وكان محور

سياسته يقوم على فكرة السيطرة على مصر. وعندما سقطت عسقلان سنة ١١٥٣م، سيطر على آخر معاقل مصر ضد أي غزو فرنجي للبلاد. وبالفعل بعد سنة واحدة من سقوط عسقلان هاجم أسطول نورماني مدينة «تنيس» ونهبها. وفي السنة التالية، أي سنة ١١٥٥م، تعرضت الإسكندرية ودمياط لهجوم النورمان. ثم دخل الصليبيون سنة ١١٦١م الأراضي المصرية، وكان لا بد من شراء خروجهم بجزية سنوية ضخمة قدرها ١٦٠ ألف دينار. وكان هناك ما يبرر خوف «أماليك» من التهديد القادم من مصر، حيث إن الهجوم الذي جاء من مصر ـ فيما بعد ـ هو الذي قضى على المملكة الصليبية. وقال قائد فرسان الداوية «برتراند بلانكفورت» ذات مرة إن خوفه الأكبر نابع من أن يأتي أمير مسلم «يُعيد توحيد المملكتين الأقوى في المنطقة: القاهرة ودمشق، ويمحو اسم المسيحي نفسه». وربما كان من حسن حظ «بلانكفورت» أنه مات سنة ١١٦٩م، ولم يَعِش حتى يرى أسوأ مخاوفه وقد تحققت.

وبالنسبة إلى نور الدين، كانت مصر مهمة أيضًا، لأسباب لم تكن إستراتيجية فقط، فالحقيقة أنه أدرك أنه سيكون قادرًا على طرد الفرنج من الشام وفلسطين بفضل ثروتها ومواردها. وبالنسبة إليه، كان لسقوط عسقلان أصداء خطيرة أيضًا، حيث إن المدينة لعبت دورًا يشبه دور الدولة الحاجزة بين المسلمين والصليبيين، وشكَّل استيلاء الصليبيين عليها خطرًا على التجارة مع مصر. وبما أن السيطرة الصليبية على المدن الساحلية كانت تعني انفصال المناطق الإسلامية في الشام عن الساحل، فقد فهم نور الدين أنه إذا ما سيطر الفرنج على مصر فسوف يتم تدمير المناطق الإسلامية في بلاد الشام. وكان شيركوه، بتعبير «رنسيمان»، قد فهم تمامًا، وأكثر من أي مسلم آخر، أن غزو مصر هو المقدمة الضرورية لغزو فلسطين. وكان ابن أخيه صلاح الدين هو الذي جنى ثمار مثابرته ودأبه. كذلك أدرك نور الدين أهمية إعادة مصر إلى رحاب المذهب السُّني. وكان التهديد الأكبر الذي يواجه المذهب السُّني، الذي تم إحياؤه، وكما رأينا، فكريًّا إن لم يكن سياسيًّا، يُمثل في الخلافة الفاطمية الإسماعيلية. وقد حمل نور الدين بشغف شديد الرسالة السُّنية إلى بلاد الشام، والآن لا بد أن تُحمل إلى قلب مصر. وحثَّ ابن هبيرة، الوزير الذي عينه نور الدين، على ذلك بناء على طلب الخليفة العباسي. وبالنسبة إلى نور الدين، كان هناك همٌّ أكبر من هذا، إذ كان يعتقد أن وقوع مصر في أيدي الفرنج معناه نهاية الإسلام(٣). ومع أن هذه العبارة قد تبدو متطرفة، لكنها ليست بلا أساس. ويرجع السبب الرئيس في هذا إلى أن الحجاز

كان يُلقي بظلاله على مصر بشكل شبه تام، وأن احتلال مصر من قبل دولة غير مسلمة يعني سقوط الإقليم الساحلي في شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر وضياع مكة والمدينة نهائيًّا. وقد استولى الذعر على المصريين عندما هاجم الصليبيون مصر مرتين في النصف الأول من القرن الثالث عشر، لأنهم كانوا يخشون أن تكون نهاية دينهم(٤). وبالإضافة إلى هذا، كان فقدان مصر يعني انقطاع المغرب الإسلامي عن المشرق الإسلامي، وأن بوسع الفرنج عندئذ أن يتصلوا مباشرة بالمسيحيين في النوبة والحبشة. وباختصار، لم يكن من الممكن السماح بسقوط مصر في أيدي الفرنج.

وبالنسبة إلى كلٍّ من الجانبين، من الذين خلبت عقولهم تلك القصص المتداولة عن ثروات الفاطميين، بدت الفوائد الاقتصادية من وراء الاستيلاء على مصر هائلة. كتب ناصري خسرو، الذي زار مصر سنة ١٠٤٧م، أن العشرين ألف حانوت التي تضمها القاهرة تدفع إيجارًا يتراوح ما بين عشرة دنانير وعشرين دينارًا عن كل منها للخليفة الفاطمي. وقد انبهر الفاتحون العرب الأوائل في القرن السابع الميلادي بمصر ووصفوها بأنها مخزن للغلال والثروات والخيرات من كل نوع. ومع انتشار الإسلام ونشاط التجارة مع إفريقيا، بدأت الإمدادات المنتظمة من الذهب من السنغال والنوبة تصل إلى مصر لتضيف المزيد من ثرواتها. ووصف شيركوه مصر بأنها البقرة الحلوب بالنسبة إلى خزانتهم، ولا بد أنه بوصفه رجلًا عسكريًّا كان متأثرًا بحقيقة أن بوسع مصر أن تحشد ثلاثة جيوش مقابل كل جيش تحشده دمشق. وكتب المقدسي، الذي عاش في بيت المقدس أواخر القرن العاشر الميلادي، يقول إنه يكفي القول بأن بلاد الشام على أهميتها ليست سوى ضاحية ريفية إذا ما قورنت بمصر. ولاحظ أن السفن الواصلة إلى الفسطاط لو جاءت إلى مسقط رأسه في بيت المقدس لنقلت المدينة بأسرها، بسكانها وأشجارها وأحجارها، في رحلة واحدة إلى أي موضع آخر، وبعدها يقول الناس كانت هنا مدينة في وقت ما(٥). وقد ذهل الفرنج، من جانبهم، بفعل القصص المتداولة عن الكنوز التي يمكن أن توجد، وثابروا على إعداد قوائم بالقرى المصرية وعوائدها. ويصف «رنسيمان» زيارة «هيو»، أمير قيصرية الصليبي، لمقابلة الخليفة الفاطمي بصورة ربما استوحاها من «ألف ليلة وليلة»:

> تم اقتيادهم عبر الأروقة والنافورات والحدائق إلى حيث كانت حظائر الحيوانات وأقفاص الطيور الملحقة ببلاط الخليفة، وعبر قاعة بعد أخرى،

تثقلها معلقات من خيوط الحرير والذهب، وترفع في النهاية ستارة ذهبية لتنجلي الخلفية عن الصبي جالسًا على عرشه الذهبي من وراء حجاب[٦].

الفاطميون: الرجل المريض على ضفاف النيل

كان البحر الأحمر، في وقت من الأوقات، بحيرة فاطمية، وجزءًا من إمبراطورية امتدت عبر معظم أنحاء شمال إفريقيا، تُهدد بالقضاء على الخلافة العباسية السُّنية في بغداد. وقد ولّى ذلك الزمان: انفصل شمال إفريقيا، وضاعت منهم صقلية. وبالنسبة إلى البحر الأحمر، كان الدعم الوحيد يأتيهم من اليمن البعيدة. وبسقوط عسقلان فقد الفاطميون معقلهم الأخير في فلسطين، ووجد الخليفة نفسه حاكمًا في أسرة حاكمة انكمشت إلى مجرد «امرأة عجوز»، بتعبير الوهراني الكاتب الساخر[٧]. وربما كان المذهب الإسماعيلي مجرد عقيدة الدولة في مصر الفاطمية. ولما كان الفاطميون يفتقرون إلى قاعدة للسُّلطة فقد ذابوا في بحر من السُّنة. وعشية دخول صلاح الدين مصر كان خمسة وثمانون إلى تسعين في المائة من المصريين من المسلمين السُّنة والمسيحيين. وقد طُرِح سؤال عما إذا كان عدد أتباع المذهب الإسماعيلي بين السكان، مع استبعاد عدد الجيش، أكبر من عدد اليهود[٨]. وفضلًا عن ذلك، ضعفت توقعات الإسماعيلية بسبب الانشقاقات الدينية. وزاد من تفاقم هذه الانشقاقات الدينية ـ بين الحاكم والرعية ـ تصرفات بعض الخلفاء التي روَّعت رعاياهم من السُّنة وأبعدتهم عنهم، واستفزت مشاعر الاستياء في الداخل. وفي بعض الأحيان كانت أفعالهم تزعج المصريين وتقلل من مصداقية مزاعمهم الإسلامية؛ فمثلًا اختار العزيز بالله، الذي تُوفِّي سنة ٩٩٦م، أخت بطريرك الإسكندرية وبطريرك بيت المقدس زوجة له. وكان يرفض عقاب أي مسلم ارتدَّ إلى المسيحية. لكن هذه الأفعال تتضاءل أهميتها إذا ما قورنت بأفعال ابنه، الحاكم بأمر الله، التي تبرهن على القول إنه لا بد أن يخرج من كل سلالة حاكمة «كاليجولا». ولم يأبه المصريون لما آل إليه مصير الفاطميين، ولم يحزن لنهايتهم سوى عدد قليل، وبتعبير ابن الأثير الساخر: «لم تنتطح في ذلك عنزتان».

تحدثنا فيما سبق عن الصاعقة الصليبية التي ضربت العالم الإسلامي، لكن ربما كان وصولها متوقعًا بالنسبة إلى بعض المسلمين. ذلك أن «هيلندبراند»، مثلًا، وهي تشير إلى الفاطميين إشارة واضحة تقول:

> عرفتْ جماعة من المسلمين عن قدوم الصليبيين قبل مجيئهم بوقت كافٍ، ولكن كانت لديهم أسبابهم الخاصة لعدم نشر هذه المعلومات ومحاولة الدفاع عن العالم الإسلامي بقدر أكبر من الفعالية(٩).

ومن الواضح أنه كان هناك اتصال مبكر بين الصليبيين والفاطميين، ويبدو أن أول اتصال جرى بينهما حدث سنة ١٠٩٨م والصليبيون يفرضون حصارهم على أنطاكِية، وبكلمات «إهرينكروتز»:

بعد عدة أشهر من عمليات الحصار المضني لقلعة أنطاكِية المنيعة وصلت القلعة إلى حافة الإنهاك، وفي تلك اللحظة من مارس ١٠٩٨م ظهر الفاطميون في المشهد، لا بوصفهم جيشًا جاء مددًا وعونًا للحامية الإسلامية المحاصرة، بل باعتبارهم سفارة تقترح عقد صفقة مع الصليبيين لتقسيم بلاد الشام على حساب العدو السلجوقي المشترك(١٠).

وأُعلِن عن استعداد الفاطميين للدخول في معاهدة حياد. وكان السبب واضحًا تمامًا؛ رأى الفاطميون في الأتراك السلاجقة عدوًّا أكثر خطورة من الصليبيين. وقد خطط السلطان السلجوقي ألب أرسلان سنة ١٠٧١م لغزو مصر، ولكنه حوَّل انتباهه عنها بسبب زحف الجيش البيزنطي. وكان واضحًا أن الفاطميين لم يعارضوا الوجود الفرنجي في المنطقة تمامًا؛ لأنهم اعتقدوا أنه جزء من حملة بيزنطية محدودة. وهو ما يعني أنهم أساءوا فهم مقاصد الفرنج، وسرعان ما زالت الغشاوة عن عيون الفاطميين بعد محاولة التنسيق مع الفرنج(١١). وبتعبير أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين، ندموا بعد فوات الأوان حيث لم يعد ينفع الندم.

كانت أرض النيل تمور بالمكائد والمؤامرات السياسية: فمن ناحية، كان هناك الخليفة الفاطمي الإسماعيلي، وهو الحاكم الأعلى من حيث المبدأ، ومن ناحية أخرى كان هناك الوزير الحاكم الأعلى من الناحية الفعلية. وفيما بين الاثنين بحر خضم من الولاءات المتغيرة، والتآمر السياسي، وانقلابات القصر المميتة. وكانت السُّلطةُ الأمرَ الأكثر أهمية، بل الاعتبار الوحيد في الواقع ـ كيف يتم الاستيلاء عليها، والاحتفاظ بها. ولا تعتنق السُّلطة أي معتقدات دينية؛ كانت الوزارة تذهب لمن يمكنه السيطرة عليها. وكان كل ما يهم أن تحمي ظهرك ضد دسائس البلاط، وتجرد أعداءك من قوتهم وتُبقي عينيك مفتوحتين على حلفائك. ووصم المؤرخون بحق السنوات الأخيرة من الحكم

الفاطمي بأنها فترة من التآمر السياسي المُربك. ولكن في بعض الأحيان تدفعنا حقيقة بسيطة لنعرف المزيد عن الموقف المُعقد: فمن بين خمسة عشر وزيرًا حكموا مصر بين سنة ١١٠١م وسنة ١١٧١م، مات ثلاثة فقط، منهم صلاح الدين، ميتة طبيعية.

كان السُّنة في مصر تحت الحكم الإسماعيلي، ولكنهم لم يكونوا معزولين عن الاهتمامات الإسلامية الأوسع في بلاد الشام وغيرها. وثمة مثال مُهم هنا يتجسد في الإسكندرية، حيث كان تأثير المذهب الإسماعيلي أقل كثيرًا منه على العاصمة(١٢): كان مسلمو الإسكندرية أول من شعروا بتغير الأجواء، ليس فقط بوصول اللاجئين من فلسطين، الذين فروا إلى مصر بعد سقوط عسقلان سنة ١١٥٣م، لكن أيضًا بوصول روح المذهب السُّني، التي أعادت بث العزم في أوصال المجتمع، مما جعله أكثر وعيًا بذاته، متشددًا وعلى استعداد لتحدي أعدائه، ويظهر من بحث «جويتين»، زيادة في الأنشطة المعادية لليهود في الإسكندرية إبان الفترة الفاطمية الأخيرة، وربما كان ذلك نتيجة للمذهب السُّني الأكثر تشددًا(١٣). وبالإضافة إلى هذا، غصت المدينة بالتجار، والطلاب، والزوار والمغامرين(١٤). ولا غرابة إذن أن تظهر في الإسكندرية أولى المدارس في مصر(١٥). وكانت أول مدرسة من عمل أبي بكر الطرطوشي، وقد تُوفِّي سنة ١١٢٦م. وتُقدم حياته لمحة، ليس فقط عن بُعد المسافة التي كان العلماء يقطعونها، وإنما أيضًا عن السرعة التي انتشرت بها فكرة الإحياء السُّني؛ فقد وُلِد في طرطوشة بإسبانيا، وارتحل إلى بغداد حيث درس في المدرسة النظامية، وقابل نظام الملك. ومن بغداد سافر الطرطوشي إلى دمشق، ثم إلى الإسكندرية، حيث ألهمه ما شاهده في بغداد، فأسس مدرسة سنة ١٠٩٨م، حيث درَّس على مدى السنوات الثلاثين التالية. وقبل أن يمضي وقتٌ طويلٌ جمع حوله أتباعًا ومريدين كانوا من الكثرة بحيث صحبه في إحدى مسيراته ما يزيد على ٣٦٠ من تلاميذه(١٦). ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يجعل الطرطوشي حضوره محسوسًا، وبدأ يُصرُّ على أنه يجب على الإسماعيلية أن يتوقفوا عن التدخل في شؤون السُّنة، ويُصدر الفتاوى المضادة للتوجهات الإسماعيلية الرسمية. وبالنظر إلى شعبيته الهائلة بين السُّنة في الإسكندرية، لم يكن بوسع السلطات أن تفعل شيئًا؛ ولو «منعه من قص أظافره»(١٧). وفي الإسكندرية على الأقل، استطاع السُّنة عمل ما يحلو لهم(١٨).

وببطء، وفي عناد، كان الخليفة الفاطمي يُدفع إلى ركن من قِبل شعب يحكمه، لكنه شعب في أفضل الأحوال لا يبالي بأفكار الخليفة. وبالإضافة إلى هذا، من الإسكندرية

ومن أماكن أخرى أيضًا كان يظهر مذهب سُني جديد يتشكك في شرعية الحكم الفاطمي. وحتى يبقى الخليفة كان عليه أن يتآمر ويتصرف، وبهذا الفعل ضحَّى على كرهٍ منه بمذهبه وأفكاره من أجل الانتهازية السياسية. وباختصار، كان الفاطميون يتجهون صوب الفناء الكلي[١٩]. وفي ضوء هذا، يجب على المرء أن يستوعب تصرفات الخليفة الفاطمي الحافظ، الذي تصرَّف سنة ١١٣٥م بطريقة درامية وصادمة للحساسية الإسلامية: عيَّن بهرام؛ وهو مسيحي أرمني، وزيرًا. وبعمله هذا ظن أن شخصًا مسيحيًّا لن يؤثر على الطبيعة الإسماعيلية للبلاد. كانت هذه إستراتيجية تُوضع في الاعتبار، حيث إن الضغط على المسيحيين لاعتناق الإسلام تحت حكم الفاطميين كان واهيًا[٢٠]. ويبدو أن بعض المسيحيين عادوا إلى ديانتهم الأصلية، وهي حقيقة ربما تجلَّت من خلال تراجع اتخاذ الأسماء الإسلامية في مصر خلال تلك الفترة[٢١]. كانت حركة جسورة من جانب الخليفة الحافظ، ولكن الخليفة أساء قراءة حالة الناس الذين يُفترض أنه يحكمهم. وعلى الرغم من أنه كان هناك في الماضي وزراء من الأرمن، فقد اعتنقوا الإسلام، ولكن بهرام لم تكن لديه مثل هذه النية. وبهذا التعيين اليائس أشار الحافظ إلى أن الأفكار الفاطمية فقدت جوهرها[٢٢]؛ لأن الفاطميين زعموا دائمًا لأنفسهم ميراثًا إسلاميًّا، وكان للنبي ﷺ، وأهل البيت، مكانة خاصة. وفي ذلك الحين قوبل تعيين وزير مسيحي بعدم التصديق من جانب المسلمين. كما أن الأنباء التي وردت بأن لبهرام علاقة وثيقة بالكنيسة الأرمنية ـ فقد كان ابن أخي الكاثوليكوس الأرمني «جريجوري الثاني» وشقيق الكاثوليكوس الأول للأرمن في مصر ـ زادت من استياء السُّنة. وبصفته وزيرًا، أفاد بهرام من تعيين الأرمن والمسيحيين في الإدارة، مما أدى إلى طرد الموظفين المسلمين[٢٣]. وزاد استياء المسلمين بصورة مطردة؛ فقد شكوا في أن تكون لبهرام علاقة بالدول المسيحية، وظهر بالفعل أن تلك الشكوك قائمة على أساس حقيقي. ولا شك أن المصريين السُّنة كانوا يخافون من المسيحيين في مصر أكثر من خوفهم من الإسماعيلية. وتُظهر الأدلة أن مفاوضات سرية جرت بين بهرام و«روجر الثاني»؛ ملك صقلية النورماني، الذي كان يأمل في إعادة توحيد مملكته مع إمارة أنطاكِية، وكان بحاجة إلى مساندة بهرام بين الأرمن. ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي تصرف فيها بهرام لمصلحة الصليبيين؛ حيث أفرج بتدخله عن «جيوفري الإسشي»؛ وهو فارس وقع في الأسر ومعه قرابة ٣٠٠ من رجاله. ومن اللافت للنظر أن البطريرك الأرمني هرب من مصر سنة ١١٧١م، وهي السنة التي تولَّى فيها صلاح الدين منصب الوزارة.

في أثناء هذا الوقت وردت أخبار عن ارتداد بعض المسلمين إلى المسيحية[٢٤]. وفي أحد الأمثلة يحكي ابن الأثير عن قاضي مدينة بوزا، قُرب حلب، الذي اعتنق ديانة الفرنج الذين كانوا يحاصرون بلدته سنة ١١٣٧م. ويلاحظ ابن الأثير في هلع أن أربعمائة من أعيان البلدة حذوا حذو القاضي. وفي مثال آخر يُسجل أبو شامة حكاية عن ارتداد السكان المسيحيين في دمشق، الذين اعتنقوا الإسلام، إلى دينهم الأصلي عندما فرض الفرنج الحصار على المدينة سنة ١١٣٦م. والتواريخ هنا مثيرة؛ لأن المسلمين في مصر في تلك الفترة شعروا بالخطر الذي يمثله بهرام عليهم، ورأوا أن هناك صلة بين الأحداث في بلاد الشام ومصر. وكان واضحًا أن نكسة الصليبيين جاءت بالجيوش المسيحية التوسعية إلى داخل بلاد الشام وإلى حدود مصر، مما ترك أثرًا كبيرًا على المسلمين وزاد من مخاوفهم فيما يخص النفوذ المسيحي المستشري في مصر، مما دفع البعض إلى الاعتقاد باحتمال تنصير البلاد، وربما يكون هذا أمرًا طبيعيًّا تمامًا مع المساعدة الأجنبية[٢٥].

كان تعيين بهرام في الوزارة سببًا في اندلاع المشاعر المعادية للنصارى. وقد دعا رضوان السُّني إلى الجهاد ضد النفوذ المسيحي. وكانت الدعوة ناجحة؛ فقد تم تعيين رضوان وزيرًا وانسحب بهرام إلى أحد الأديرة، حيث مات بعد عامين، سنة ١١٤٠م[٢٦]. ولا شك في أن وزارة رضوان زادت من السُّلطة السياسية للسُّنة ووجودهم السياسي في مصر. كما لقيت حركة التطهير المعادية للنصارى، التي حالت بينهم وبين العمل في الإدارات المهمة، ترحيبًا شعبيًّا، وكسبت له الدعم والمساندة. وعلى أية حال، كشفت خطوته التالية مدى تناغمه مع تفكير عصره؛ اختار أن يبني مدرسة. وبينما يمكن النظر إلى المدرسة التي بناها الطرطوشي باعتبارها مبادرة من جانب عالم فرد كان متأثرًا بنظام الملك (الوزير السلجوقي الأشهر) بصورة مباشرة، فإن رضوان كان وزيرًا كما كانت مدرسته - وهي الثانية التي بُنيت في مصر - فعلًا سياسيًّا بقدر ما كانت تصرفًا دينيًّا. ولا غرابة في أن رضوان اختار أن يشيد مدرسته في الإسكندرية، مع أنه لم يعش فيها قطُّ. كان اختيارًا منطقيًّا؛ إذ كانت المدينة الميناء سُنية بصورة مؤكدة، كما كان يريد أن يصير العالم المالكي الشهير ابن عوف شيخًا للمدرسة. وعلى مدى ما يقرب من خمسين عامًا كان ابن عوف يُلقي دروسه في المدرسة، والتف حوله مئات من الطلاب من بينهم صلاح الدين. وكان هناك أيضًا سبب سياسي أشد إلحاحًا لبناء المدرسة، وهو أن رضوان كان في أمسِّ الحاجة إلى قضاة سُنة لشغل الوظائف في حكومته ليحرروه، إلى حد ما، من الاعتماد

على الجماعات المنافسة، وعلى رأسهم النصارى، في حكم البلاد(٢٧). وكان هذا أحد أركان سياسة الوزير نظام الملك عندما أسس المدارس، وكان إدخالها إلى مصر علامة واضحة على أن الأفكار التي نشأت أصلًا في الشرق وصلت إلى أرض النيل.

لم يكن صلاح الدين الوزير السُّني الأول في مصر في ظل الحكم الفاطمي. ولم يكن حتى أول وزير كردي. وثمة كردي سُني شافعي آخر، هو ابن سلار، وكان حاكمًا للإسكندرية قبل أن يصبح وزيرًا. وفي سنة ١١٥١م أسس مدرسة للعالم الشافعي البارز، السلفي. وكانت أول مدرسة شافعية في مصر. وكانت إشارة على الاعتراف الرسمي بذلك المذهب. وإذا كان ابن عوف أول عالم مالكي في مصر، فلا جدال إذن في أن السلفي كان أبرز علماء الشافعية ـ وربما كان أعظم شخصية علمية في مصر في زمانه(٢٨). وزادت شهرته وهيبته وانتشرت حتى بدا أن كل مَن كان يزور الإسكندرية يذهب لرؤيته(٢٩). ومات السلفي سنة ١١٨٠م بعد أن أمضى ما يقرب من ستين عامًا في تدريس الحديث. وبلغ عدد تلاميذه المئات، وعُرفوا بجماعة «مريدي السلفي»، وحملوا تعاليمه عبر العالم الإسلامي. وهكذا كان ابن عوف والسلفي العملاقَين الفكريَّين في هذه الفترة بمصر. وقد علَّما وأرشدا وربيا مئات من التلاميذ الذين قُدِّر لهم أن يشكلوا قلب إدارة صلاح الدين في مصر.

وشاع افتراض بأن الرغبة في ضرب الإسماعيلية كانت وراء بناء المدارس في مصر. ومع هذا، يبدو أنه لم يكن بوسع رضوان وابن سلار أن يكونا أقل اهتمامًا بتحقيق هذا الهدف. وفي الحقيقة كان أي من الرجلين يستطيع أن يطيح بالخلافة الفاطمية. وكانت هناك لحظة فكر فيها رضوان بجدية أن يفعل هذا، وطلب المشورة الشرعية حول هذه المسألة. وكان ابن عوف واحدًا من الذين سألهم، لكنَّ إجابته كانت غير قاطعة. وربما لم يشعر رضوان أو ابن سلار بأن الموضوع يستحق، حيث إن المدَّ كان قد تحول بثبات لمصلحة السُّنية. وعندما زحف ابن رزيق؛ وهو وزير شيعي من الاثني عشرية، على القاهرة للاستيلاء على السُّلطة، ارتدى هو وجنوده الملابس السوداء وحملوا رايات سود. ومن الناحية الظاهرية كان ذلك حزنًا على الخليفة الذي تم اغتياله، ولكن الغافل فقط هو الذي كان يفوته ملاحظة الرمزية في هذا الفعل؛ كان اللون الأسود شعار العباسيين السُّنة، وها هو وزير شيعي من الاثني عشرية يستولي على السُّلطة في بلاد يحكمها خليفة شيعي إسماعيلي، ويضطر إلى لبس لون السُّنة لكسب التأييد الشعبي ـ لا يمكن أن تكون هناك إشارة أكثر وضوحًا على أن زمن الفاطميين كان قد قارب نهايته. وبقيت بطبيعة الحال

آثار من الاستياء الإسماعيلي، وليس أدل على ذلك من الخليفة نفسه الذي كان، كما قيل، متعصبًا ومعارضًا للسُّنة. ولكنه لم يستطع أن يفعل الكثير حيال هذا؛ لأن أهل السُّنة كانوا في كل مكان. وحتى عندما كانت إحدى جواريه بحاجة إلى عملية فصد، اتضح أن الطبيب سُني [٣٠].

كانت مغامرة يائسة من الوزير الفاطمي، شاور، أدت في النهاية إلى إخماد النفَس الأخير للرجل المريض على ضفاف النيل. سافر شاور، في ديسمبر ١١٦٣م، إلى دمشق ليطلب من نور الدين المساعدة ضد خصم له، ولكي يغريه قدَّم له ثلث دخل مصر جزية سنوية. تردد نور الدين فترة؛ لأن مغامرة في مصر لم تكن بالأمر الذي يأخذه بخفة، ولم يكن بوسعه أن يرى سببًا لمساندة شاور في ادعائه الوزارة، لكنه قرر أن يجرد جيشًا بقيادة شيركوه الذي تمت ترقيته ليصبح القائد العام. ومع شيركوه سافر صلاح الدين، وكان في السابعة والعشرين، ليكون قائدًا مساعدًا له. وحقيقةُ أن شيركوه اختار صلاح الدين متخطيًا أبناءه تكشف عن مدى ثقته الكبيرة وإيمانه به، على الرغم من أننا لم نكن نعرف شيئًا عن حياة صلاح الدين حتى ذلك الوقت. ومن اللحظة التي صحب فيها جيش شيركوه إلى مصر، كان صعوده سريعًا مثل الشهاب.

وربما كانت قصة دعوة شاور «السبب المشروع للحرب» للحملة الشامية، لكننا لا نعرف إلا القليل عن العلاقة بين نور الدين والسُّنة في مصر؛ لأن نور الدين الحذِر لم يعتمد ببساطة على وعود الوزير الفاطمي. لم يكن على دراية جيدة بمصر، ومن المؤكد أنه لم يرسل جيشه «أعمى» من دون بعض المعرفة حول ما ينبغي توقعه، أو على الأقل بالوضع السياسي في البلاد. وتباهى شيركوه بأنه «ليس هناك رجال» في مصر. لكنَّ نور الدين كان يعرف المخاطر التي لا يمكن التهوين من أثرها. كان قد طوَّر على مدى السنين علاقات مفيدة في مصر مع رجال كانوا عيونًا وآذانًا له، ونقلوا له معلومات مفيدة. وكان دورهم ـ الذي اتسم بالغموض والسرية بطبيعته ـ محل تجاهل من المؤرخين. لكن، لم تكن العناصر السُّنية الموالية لنور الدين ممهدةً الطريق لغزو شيركوه فحسب، بل كانوا أيضًا أداة لتأمين موقع صلاح الدين في السُّلطة. ونجد في زين بن نجا شخصية من أكثر الشخصيات تآمرًا وغموضًا في تلك الفترة؛ وكان دمشقي المولد، عاش حتى تعدَّى التسعين من عمره، وصار واحدًا من خلصاء صلاح الدين. ونعرف أنه سافر في شبابه إلى بغداد، حيث صار من مريدي عبد القادر الجيلاني، واكتسب شهرة واسعة بوصفه

واعظًا. ويجدر بنا أن نحكي الأحداث التالية، وعلى الرغم من أنها مربكة ومشوشة، فإن الشك يساور المرء في أن هذا الارتباك والتشويش كان مقصودًا. وتخبرنا المصادر أن ابن نجا طلب الإذن من الجيلاني بالرحيل من بغداد إلى مصر، وأن الجيلاني وافق، وأخبره أنه سوف يصل دمشق ويجد هناك جيشًا يستعد لدخول مصر، وأمره أن يقول لهم إنهم لن يفتحوها في هذه المرَّة، ومن الأفضل أن يعودوا ليفتحوها في مرة أخرى(٣١). وبينما كان ابن نجا في دمشق التقى شيركوه وأخبره بما قاله الجيلاني له. ثم توجه إلى مصر حيث أخبر الخليفة الفاطمي باقتراب الجيش، ولكنه أكد له أن الغزو لن ينجح. وعندما أجبر شيركوه على التراجع فعلًا، يحكي ابن نجا أن الخليفة الفاطمي تذكر كلماته ووثق فيه «وأطلعه على سره»(٣٢). والقصة بوضعها هذا ليست معقولة بأية حال. هل المطلوب منا أن نصدق أن تلميذًا حنبليًا من تلاميذ الجيلاني، كان معارضًا للفاطميين الإسماعيلية، استطاع بسهولة أن يكسب ثقة الخليفة الفاطمي؟ وماذا يمكن للمرء أن يخرج به من رسالة الجيلاني الغامضة؟

ومن اللافت للنظر أن ابن نجا، وهو في مصر، ذهب لزيارة عثمان بن مرزوق القرشي، وكان مقيمًا بالقرب من جامع عمرو بن العاص، ويلقى اعترافًا واسع النطاق بوصفه شيخًا صوفيًا له بركات كثيرة. وكان ابن مرزوق نفسه حنبليًا، مرتبطًا أيضًا بالجيلاني. وكانت بينهما مراسلات(٣٣). ومن المحيِّر أنَّ ابن مرزوق سأل ابن نجا إن كان يعرف رجلًا اسمه شيركوه، ثم مضى يُخبره بالقصة نفسها التي حكاها الجيلاني: أي أن اقتراب شيركوه سوف يفشل، وأن هذا ليس الوقت المناسب. ثم مضى ابن نجا إلى دمشق ليُخبر نور الدين عن محادثته مع ابن مرزوق، وأمره نور الدين بأن يُبقي هذه المحادثة سرًّا. ومن الواضح أن ابن مرزوق كان يتصرف بقدر من القوة لمصلحة نور الدين، وأن الرسائل كانت تُنقَل ـ عن طريق ابن نجا ـ بين دمشق وعناصر سُنية في مصر من رجال كانوا يتصرفون باعتبارهم مصادره الإخبارية. ومن ثَمَّ يجب أن ننظر إلى تحذير ابن مرزوق في ضوء أن الموقف السياسي في مصر لم يكن مواتيًا بعد ـ وفي الضوء نفسه يحتاج المرء إلى أن يتأمل رسالة الجيلاني، وكان من الواضح أن أولئك الذين في بغداد، شأنهم شأن الذين في دمشق، كانوا مشغولين بشؤون مصر. وفي الحقيقة، إن سؤال ابن مرزوق عن شيركوه في ذاته دليلٌ على أنه كان على علم باقتراب الجيش السُّني.

ولا شك في أن نجاح ابن نجا في اختراق المراتب العليا للفاطميين، حيث التقى

الخليفة مباشرة، يمكن أن يؤدي إلى استنتاج واحد فقط؛ أنه كان يعمل مخبرًا لنور الدين، ولصلاح الدين كذلك؛ لأن ابن نجا صار بسرعة واحدًا من أقرب مستشاريه في مصر. وأبقى صلاح الدين ابن نجا قريبًا منه، وكان يطلب مشورته بشكل دائم، واعتاد أن يخاطبه باسم عمرو بن العاص، تيمنًا باسم الصحابي الذي فتح مصر. وبهذا يصور جهود ابن نجا لإعادة المذهب السُّني إلى مصر في صورة جهود عمرو. ويدل تشبيه ابن نجا بصحابي على سمو المكانة التي وضعه فيها صلاح الدين. وسوف نرى، لم ينسَ صلاح الدين في ذروة انتصاره ابن نجا. وبالإضافة إلى ابن مرزوق، كان في الفسطاط أيضًا أبو عبد الله الكيزاني؛ وكان صوفيًّا مبجلًا وشاعرًا معروفًا. وكانت للكيزاني علاقة وثيقة بكلٍّ من شيركوه وصلاح الدين. وقيل إن شعره كان يَلقى إعجاب صلاح الدين. وكان واضحًا لنور الدين ضرورة كسب مساندة رجال مثل ابن مرزوق والكيزاني، اللذَين كان بوسعهما حشد المساندة الجماهيرية الهائلة داخل البلاد. وأوْلى شيركوه اهتمامًا خاصًّا لزيارة الرجلين في حملته الأولى. ونسمع عن الكيزاني مرة أخرى، ولكن هذه المرة في أشد الظروف بشاعة وهولًا.

حملة شيركوه

استنادًا إلى هذه الرسائل الخفية والمعلومات الواردة من مصر جرَّد نور الدين الحملة برئاسة شيركوه. والتفاصيل الخاصة بالحملات العسكرية الثلاث التي قادها شيركوه في مصر موثقة بشكل جيد(٣٤). ومع أننا نفترض أن صلاح الدين صحب عمه في حملته الأولى إلى مصر، فلا يوجد لدينا دليل على هذا. ومن المثير للدهشة أن صلاح الدين نفسه لا يذكر هذا. كما أن ابن الأثير ـ الذي اشتهر بعداوته لصلاح الدين ـ يُلمح إلى أنه بقي متخلفًا في بلاد الشام. وإذا ما أخذنا في اعتبارنا الدور الرئيس الذي لعبه في الحملات التالية، يبدو من المحتمل أكثر أن صلاح الدين سافر إلى مصر، ولم تُسند إليه قيادة مستقلة. وعلى أية حال، تتوه بشدة حياة صلاح الدين المبكرة خلف أستار الضبابية. وحينما غادر جيش شيركوه دمشق، وقف رجلان جانبًا يشاهدان رحيله وهما يقرآن بصوت عالٍ من نص لابن بكا؛ وهو قاضٍ حنبلي مات سنة ٩٩٧م، يبجل فضائل النبي ﷺ. كان القاضيان موفق الدين بن قدامة وابن عمه عبد الغني. وكان أكبرهما، موفق الدين، قد عاد منذ وقت قريب من بغداد إلى دمشق، حيث ضمه الجيلاني إلى مريديه، وخلع عليه

عباءة الصوفية. وفي دمشق وطَّد موفق الدين نفسه أكبر قاضٍ حنبلي في المدينة، وصار واحدًا من أقرب مستشاري صلاح الدين، وكان يركب معه في حملاته العسكرية، ومن بينها معركة حطين سنة ١١٨٧م.

وبالنسبة إلى الحملة نفسها، فمن الأفضل أن نصفها بأنها نجاح مخيب للآمال. كان نور الدين قد أرسل شيركوه على رأس قوة استكشافية صغيرة وليس على رأس جيش كبير، وكان هذا بمنزلة تحذير لشاور، الذي صاحب شيركوه. وقال له معنفًا ولائمًا: «لقد خدعتنا»؛ لأن الجيش المصري، الذي كان يسد الطريق أمامهم، كان يفوقهم عددًا. ولكن شيركوه بدد مخاوفه لأنه لم يكن يثق كثيرًا في قدرات المصريين القتالية، وقال إن معظمهم من الفلاحين الذين يجمعهم قرع الطبول وتفرقهم عصا. وثبت أن شيركوه كان على حق؛ ففي غضون شهر منذ أن غادر دمشق في إبريل ١١٦٤م استعاد شاور كرسي الوزارة. ولكن لم تكن لديه نية لتنفيذ وعده لنور الدين، وقدَّم لشيركوه ثلاثين ألف دينار ليعود إلى بلاده. ويتخيل المرء مدى غضب شيركوه أمام مثل هذا العرض، ويطلب من شاور أن يدفع له ثلث دخل البلاد بمقتضى الاتفاق. وعندما رأى شاور أن شيركوه لن يتراجع عن مطالبه، قام بفعلٍ قاده إلى حتفه؛ دعا «أماريك» ومملكة بيت المقدس اللاتينية إلى مساعدته. ولم يُضيِّع «أماريك» ــ وكان منزعجًا بالفعل من وجود شيركوه في مصر ــ وقتًا، وسار بجيشه في سرعة. وفي الوقت نفسه، تحرك شيركوه إلى بلبيس، حيث حوصر في يوليو ١١٦٤م بقوة مشتركة من الفاطميين والفرنج. وليس من الواضح مدى الجدية التي فرض بها «أماريك» الحصار، وربما تشتت انتباهه بسبب نور الدين، الذي انتهز فرصة تحرك «أماريك» إلى مصر. ولكي يشتت انتباه الفرنج ويخفف وطأة الحصار على بلبيس، استولى نور الدين على حصن حارم الذي يقع بين أنطاكِية وحلب. وفي أغسطس ١١٦٤م، سحق جيشًا فرنجيًّا وأسر «بوهيموند الثالث» أمير أنطاكِية، و«جوسلين الثالث» أمير الرها، و«ريمون الثالث» أمير طرابلس، وتم إلقاؤهم في السجن في حلب. واستمر نور الدين يضغط على الفرنج. وفي أكتوبر ١١٦٤م فرض الحصار على بانياس، التي سقطت في يديه. وأدى هذا إلى إزعاج «أماريك» بشدة؛ أزعجه سقوط بانياس وحارم، فأراد الانسحاب من مصر. وعلى أية حال، يبدو أن شيركوه عانى أيضًا في أثناء الحصار، ولأن جيشه لم يكن كفؤًا لجيش «أماريك»، عقد الصلح، وبحلول أكتوبر عاد إلى دمشق.

عاد شيركوه إلى بلاد الشام وقد آلمه ما حدث. وقام بالتدبير للانتقام من شاور وسلوكه

المزدوج. وعلى مدى سنتين جهَّز قواته وحاول إقناع نور الدين بمزايا القيام بحملة ثانية، ولكنَّ نور الدين كان لا يزال مترددًا، على حين أن شيركوه، وكان يعرف الرجل الذي يعمل في خدمته، كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه حث نور الدين على إعادة المذهب السُّني إلى مصر. وكانت استجابة الخليفة الحماسية محل ترحيب نور الدين بطبيعة الحال، كما توقع شيركوه(٣٥). لكن لم يكن الانتقام هو الذي حرَّك نور الدين، بل الخوف من سقوط مصر بأيدي الفرنج. وبالنسبة إلى صلاح الدين عينه نور الدين سنة ١١٦٥م في منصب «شحنة دمشق» (أي رئيس الشرطة)، لكنه لم يبقَ في ذلك المنصب وقتًا طويلًا؛ إذ يبدو أنه استقال بدافع الإحباط الذي أصابه نتيجة تدخل القاضي وعناده، وهو القاضي الذي كان مضطرًّا إلى العمل معه عن قرب، وهو كمال الدين الشهرزوري، الرجل المقرب إلى زنكي ونور الدين. لم يكن صلاح الدين أول من أصابه الإحباط أو آخرهم، حيث إن الوهراني، الشاعر والكاتب الساخر، يبالغ في السخرية من ذنوب كمال الدين ويصور الملائكة يشكون يوم الحساب من إصراره على تخصيص يوم له(٣٦).

وفي سنة ١١٦٧م، صدرت الأوامر في النهاية لشيركوه، وصلاح الدين معه بالتأكيد، بالتحرك. هاجمتهم عاصفة رملية مزعجة وهم في الطريق، وكادت أن تضيع خطط شيركوه هباءً. وواجهتهم أنباء مزعجة أخرى: جيش «أماليك» في القاهرة بالفعل، فقد أُبلِغ الملك بتقدم شيركوه وكتب محذرًا شاور. وتلقى مقابل هذا أربعمائة ألف دينار نظير الدفاع عن الخلافة الفاطمية إزاء العدوان الشامي. ونتيجة لأخبار وجود «أماليك» أخذ شيركوه حذره واتجه إلى الإسكندرية، المدينة الوحيدة التي كان يضمن ولاءها؛ وكتب إلى السكندريين يطلب مساعدتهم، وكانت الاستجابة سريعة وإيجابية. وأطاح السكندريون بأي ولاء رمزي أو اسمي للفاطميين، ووضعوا المدينة في يدَي نجم الدين بن مصال، وكان ابن الوزير السابق، وأعلنوا التمرد. وجمعوا السلاح والأموال استعدادًا لاستخدامهما في خدمة شيركوه. وسلَّم الشريف الإدريسي رسالة التأييد إلى شيركوه من أهل حلب، وقد تصادف وجود الشريف في الإسكندرية، وكان يعرف شيركوه شخصيًّا.

ترك «أماليك» فرقة من الفرنج في القاهرة ـ لحمايتها وكانت إهانة كبيرة لأهل السُّنة أن يتولى الكفار حمايتهم ـ وانطلق في الحال لمطاردة شيركوه الذي تقهقر جنوبًا حتى الأشمونين. وهناك وعند البابين في مارس ١١٦٧م، اصطدم الجيشان واشتبكا في القتال.

كان شيركوه قائدًا حربيًا محنكًا، درس عدوه جيدًا، وتوقَّع أن «أماليك» سوف يستخدم قوته الأساسية؛ أي الهجوم بالفرسان، وقد سبق أن استخدمها ضد الجيوش الفاطمية بنجاح ساحق. ولكن شيركوه لاحظ أن الهجوم في اتجاه واحد يجعل من الصعب عليهم التراجع، فإذا واجههم بالخيالة التركية الخفيفة ضمن ردهم بسهولة. وكان مفتاح العملية يتمثل في الابتعاد عن مسار الهجمة ثم مهاجمة الفرنج من الجناحين. ولكي ينجح ذلك كان من الضروري استخدام أحد الأساليب المفضلة لدى المسلمين ـ التقهقر المصطنع لامتصاص الهجوم ـ وكان لا بد من تنفيذه بشكل جيد لضمان النجاح؛ لأن التوقيت كان حاسمًا، فإذا كان التقهقر أسرع مما يجب كان هناك خطر أن يتمكن العدو من اختراق الجيش الإسلامي، وإذا تأخر التقهقر أكثر مما ينبغي يمكن تورط الأجنحة نفسها في المعركة. كان يمكن لشيركوه، باعتباره القائد العام، إعطاء إشارة الهجوم للجناحين، ولكنه، قبل كل شيء، كان بحاجة إلى قائد للوسط يستطيع تحديد توقيت التقهقر المصطنع بشكل صحيح. وفي خضم المعركة كان من الضروري الحفاظ على هدوء الأعصاب، وعندها اتجه شيركوه إلى صلاح الدين ليتحمل هذه المسؤولية. وللمرة الأولى، يبرز صلاح الدين منفردًا.

وعشية المعركة وصل رجال من الإسكندرية للقتال مع شيركوه، وكان واضحًا أنهم ليسوا من نوعية رجال شيركوه، حيث ذكرت المصادر أن كثيرين منهم ماتوا في غمار المعركة. وفيما يتعلق بالمعركة نفسها، نُفذت تكتيكات شيركوه بشكل جيد، كما توقع، فقد هاجم «أماليك» قلب الجيش، فقام صلاح الدين بالتقهقر المصطنع بناءً على تعليمات عمه. وأطبق الخيالة المسلمون عليهم، وتعرض الجيش الذي كان يقوده شاور و«أماليك» لخسائر كثيرة. وكان يومًا لمصلحة شيركوه، الذي برهن على أنه يستحق هذا التقدير السامي، لكنَّ النصر لم يكن حاسمًا، ولم يعانِ أي من الجيشين خسائر فادحة. ثم اتجه شيركوه شمالًا، حيث رحبت به الإسكندرية وواليها الرشيد بن الزبير. وهناك ضمن قاعدة وأسلحة وأموالًا. وابن الزبير شخصية أخّاذة، تستحق قصته أن تُروى: كان ينحدر من أسوان، وذهب إلى الإسكندرية، حيث درس على يدَي السلفي. ومن الواضح أنه كان رجلًا متعدد المواهب، خصوصًا الشعر، ولفت هذا انتباه الفاطميين حيث أرسلوه سنة ١١٤٤م إلى اليمن سفيرًا وداعية دينيًا، ويبدو هذا أمرًا غريبًا. ويحتمل أنه كان سُنيًا حيث إنه درس على يدَي السلفي، مع أن هذا لم يرد بشكل صريح في أي مصدر تاريخي.

ويضيف رد فعل اليمنيين مزيدًا من الارتباك والغموض، فعندما وصل ابن الزبير إلى اليمن، كتب بعض الشعراء هناك قصيدة إلى الخليفة الفاطمي تبدأ ببيت يقول:

بعثتَ لنا علم المهتدين ولكنَّـه علـم أســـود

ويمكن تفسير هذا البيت حرفيًّا؛ لأن ابن الزبير كان من أسوان ويمكن أن يكون أسود البشرة. لكنْ هناك تفسير أعمق، وهو أن رايتهم كانت بيضاء (وهو لون الفاطميين) وأن الراية السوداء كانت طبعًا راية العباسيين. ومغزى هذا أن ابن الزبير كان سُنيًّا، لكن يبقى الغموض ماثلًا: هل يمكن للفاطميين أن يرسلوا سُنيًّا للدعوة إلى مذهبهم؟ وعند عودته من اليمن تولى مسؤولية الدواوين في الإسكندرية، وعندما غزا شيركوه مصر، أيده صراحة، وهو ما سوف يكلفه حياته في نهاية المطاف.

وبينما كان شيركوه في الإسكندرية أخذ يفكر في خطوته التالية. كان «أماليك» وشاور يطبقان بسرعة على المدينة بإستراتيجية واضحة، وهي أن يجعلاها تتضور جوعًا، لأن الأسطول الفرنجي كان يغلق الميناء بالفعل. ووجد شيركوه نفسه في وضع حرِج على الرغم من انتصاره في البابين: إذا بقي في الإسكندرية فسوف يزداد الحصار على المدينة إحكامًا بالتدريج حتى تسقط، وإذا خرج منها وعاد إلى بلاد الشام فسوف يفقد القاعدة الوحيدة الموالية له، كما سيفقد أي أمل في الاستيلاء على مصر. وكان أهل الإسكندرية قد آزروه بشجاعة، وكانوا يعرفون أن شاور لن يُظهر أي رحمة تجاههم؛ ومن ثَمَّ لم يكن التراجع ضمن خياراته. وكان الاختيار الذي استقر عليه في النهاية شجاعًا وجسورًا؛ كان عليه أن يقسم قواته الصغيرة بالفعل ويتسلل هو من الإسكندرية، حين كان لا يزال هناك وقت لتحدي جيش «أماليك» وتشتيت انتباهه، حتى لو لم يكن قادرًا على هزيمته. وكان للقسم الآخر من جيشه أن يبقى في الإسكندرية ويتمسك بالمدينة حتى يأتي هو أو نور الدين للمساعدة. وليحتفظ بالمدينة كان لا بد من مواجهة مصاعب كبيرة، وللقيام بهذه المهمة اتجه إلى صلاح الدين الذي كانت ثقته فيه بلا حدود.

ظهور صلاح الدين وحصار الإسكندرية

قال صلاح الدين فيما بعد وهو يسترجع ذكرياته إنه لن ينسى أبدًا ما مرَّ به في الإسكندرية. كان صلاح الدين في الثلاثين من عمره، وكان مسؤولًا عن ألف رجل، وحينها تحمَّل

أكثر التحديات التي واجهته. لم يساوره شك في ولاء رجاله ورجال شيركوه، ولكن هل يظل أهل الإسكندرية صامدين؟ من المُسلَّم به أنهم احتشدوا من أجل القضية وحاربوا بحماسة، ولكن هل يظل صمودهم قويًّا إذا ما نفد القوت؟ من أي معدنٍ كان المصريون؟ على الرغم من استعداد السكندريين، فقد كانوا بطبيعتهم تجارًا، يتوقون إلى استئناف تجارتهم، ولم يكونوا محاربين، وكان صلاح الدين يعرف أنه لا يمكن الاعتماد عليهم. لم يكن للحماسة ـ مهما حسنت النوايا ـ أن تعوض نقص النظام العسكري. ولم يكن هذا مهمًّا، فقد عقد صلاح الدين العزم على الاحتفاظ بالمدينة. وبالمثل صمم شاور على سقوطها، لأنه لم يكن بوسعه أن يتسامح إزاء عصيان صريح بمثل هذا الحجم الكبير. كان لا بد من تلقين الإسكندرية وشعبها درسًا قاسيًا مؤلمًا. وهكذا ازدادت وطأة الحصار وقطعت أشجار البساتين والحدائق لبناء آلات الحصار التي أحاطت بالمدينة. وفي ذلك الحين استخدمت المجانق القادرة على قذف أحجار كبيرة لمسافات بعيدة، وتسببت في دمار كبير. ويكتب «وليم الصوري» أن «أماليك» أمر باعتراض جميع الرُّسل المغادرين من المدينة واستجوابهم استجوابًا تفصيليًّا. وعلى مدى ثلاثة أشهر، من إبريل حتى يوليو ١١٦٧م، عانى أهل الإسكندرية الجوع، ولكنهم صمدوا، حيث كان كثير منهم لاجئين من عسقلان وفهموا ما كان ينتظرهم. وعندما حاول شاور اختبار ولاء المدينة، أرسل رسالة يحث فيها صلاح الدين على أن يستسلم. وجاء الرد سريعًا ليعكس عقلية المدينة المحاصرة، فقد قالوا إن الله يحرم عليه تسليم المسلمين إلى الفرنج أو الإسماعيلية. وفي الوقت نفسه، أبحرت قوات فرنجية جديدة يصحبها كبير أساقفة صور، «فردريك»، قاصدة مصر. وهكذا حوصرت المدينة من البحر والبر. وفي أثناء هذا الحصار المؤلم اتصل صلاح الدين للمرة الأولى بأولئك الذين ساندوا القضية السُّنية في مصر وأقام معهم صداقة عميقة. وقال صلاح الدين عن ابن مصال إنه لن يحظى أبدًا بصديق مثله، وقد وُلِدت صداقتهما في تلك الفترة(٣٧). كان ابن مصال سريعًا في الوقوف بجانب شيركوه وبعدها بوقت قصير خضع ولاؤه لاختبار قاسٍ. وفي هذه الفترة أيضًا عرف السكندريون صلاح الدين، واقتنعوا بما شاهدوا منه. وفي السنوات التالية، عندما كان صلاح الدين يحكم مصر، لم يضعف ولاء الإسكندرية قطُّ، وهو ولاء فرضته ظروف الحصار.

بحلول يوليو ١١٦٧م كان واضحًا أن المدينة لا تستطيع احتمال المزيد؛ نفد الطعام وكانت جهود شيركوه لتشتيت الانتباه بلا طائل. وفي ذلك الحين تسللت رسالة من المدينة

سرًّا تحمل طلبًا من صلاح الدين لشيركوه: «لا بد من حل هذه المسألة بسرعة؛ لأنهم لم يعودوا قادرين على احتمال المزيد». ولما كان شيركوه محبطًا وغير قادر على رفع الحصار، لم يكن أمامه سوى الدخول في مفاوضات مع شاور الذي كان على استعداد للاستماع؛ لأنه كان يتوق إلى رحيل كلٍّ من الجيشين الشامي والفرنجي عن مصر. ولو دُمِّر جيش الشام فسوف يصير الفرنج في موقف أقوى مما يحتمل، كما أن ذلك كان معناه حل مشكلة بخلق مشكلة أكبر منها. ولذلك تم الاتفاق على الشروط في بداية أغسطس، وأخيرًا فتحت المدينة أبوابها. وخرج صلاح الدين مصحوبًا بحامية عسكرية، وحظي بتشريف كبير في معسكر «أماليك»؛ حيث استقبل عددًا كبيرًا من الزوار، كان من بينهم كثير من الفرنج الشغوفين بمقابلة هذا الشاب الذي تصدى لهم طوال هذه الفترة. بل إن إحدى الحوليات المسيحية سجلت أن صلاح الدين صادَق «همفري التوروني» في أثناء وجوده بالمعسكر، وكان «همفري» يتحدث العربية بطلاقة. وتحكي الحولية أن احترامه لشجاعة صلاح الدين دفعه إلى منحه لقب فارس. وهذه قصة مختلقة وغير حقيقية بطبيعة الحال، ولكن حتى في تلك السنوات المبكرة بدأ انبهار الغرب بصلاح الدين، مما أدى إلى مولد الأسطورة ببطء.

دخل شاور الإسكندرية تسبقه الطبول والأبواق مُعلنة عن قدومه. جلس في خيمة وبجواره «أماليك»، حيث توافد أعيان المدينة. رفض تحيتهم، ولم يسمح لهم بالجلوس حتى عاتبه «أماليك» بقوله: «أكرِم رجالك المقدسين». وبَّخهم شاور غاضبًا بسبب خروجهم عن الطاعة وعصيانهم الصارخ، وهي النقطة التي تذكر المصادر أنه عندها أجاب أحد فقهاء تلك الفترة بقوله: «نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائنًا من كان». وعلى الرغم من شروط الصلح، التي أعلنت الأمان، كان الانتقام كامنًا في قلب شاور، وأمر بالقبض على زعماء المتآمرين. وبهذه الطريقة أُحضِر ابن الزبير إليه وأمر بقتله. أما ابن مصال، فقد اختفى ونجح في الهرب إلى بلاد الشام ليلتحق بخدمة نور الدين. وفي معسكرْ «أماليك» وصلت الأخبار إلى صلاح الدين عن أفعال شاور. وسرعان ما لجأ إلى الملك الفرنجي طالبًا منه التدخل. وبدافع من روحه النبيلة تدخل «أماليك» ووبَّخ شاور. كما وافق على طلب صلاح الدين بتقديم السفن لنقل المرضى والجرحى إلى بلاد الشام؛ لأنه ليس هناك ما يمكن تحقيقه بمزيد من القتال. وبهذه الطريقة، وبحلول سبتمبر، عاد صلاح الدين إلى دمشق.

ظهر صلاح الدين من غمار الغموض التاريخي؛ عُهد إليه بمهمة عسكرية في معركة البابين وأنجزها بمهارة وإتقان، وفي الإسكندرية اختُبِرت عزيمته، وأثبت أنه قادر على التحدي. وربما تذكَّر الحصار الذي عاناه وهو طفل في بعلبك، وكيف حافظ أبوه على ولاء أهل المدينة بالدبلوماسية. وإذا كان الأمر كذلك، فقد كان هذا درسًا ثمينًا. وفي أشهر قليلة أنجز صلاح الدين أكثر من كل معاصريه من أهل الشام. بلغ سن الرشد ومهارته القيادية ليست موضع شك[٣٨]. ولكن إذا كان صلاح الدين يرضى بشكل معقول عن إنجازاته في مصر، فقد تملَّك شيركوه الغضب والحنق الذي اضطرم في داخله، لأنه أخفق للمرة الثانية في ترويض مصر. وكان التحالف بين شاور و«أماليك» أقوى من أن ينفصم. وكان نور الدين دبلوماسيًّا ويبدو راضيًا بالواقع، فقد أبلغ شيركوه أنه أجهد نفسه مرتين، ولكنه لم يحقق ما سعى إليه. وليخفف من وطأة إحساسه بالفشل عيَّنه على مدينة حمص وأعمالها. وتخفف صلاح الدين من محنته ببطء، وعقد العزم على أمر واحد: ألا يعود إلى مصر أبدًا. ولم يحدث قطُّ أن أرض الشام بدت أكثر ترحيبًا. وعندما منحه نور الدين ضيعتين قرب حلب؛ اعترافًا بإنجازاته، أحس حقًّا أن لديه كل ما يتمناه.

الفصل الخامس

الوزير غير المتوقّع

رضيت أن تكون [مصر] إسلامية وأكون فداء للمسلمين.

الخليفة العاضد الفاطمي

لم يكن منطقيًّا ألا يلاحظ «أماليك» مدى الوهن الذي أصاب مصر، وكيف يمكن أن تسقط بسهولة في يدَي جيشه. وكان فرسانه يمارسون ضغوطهم عليه ـ وخصوصًا الإسبتارية ـ وقد أفلسوا بسبب الحملات على مصر من دون الحصول على أي عائد. وجادلوا «أماليك» بأنه يجب أن يدعهم على الأقل يأخذون مدينة بلبيس مقابل ما أنفقوه. وهكذا تم الترتيب لغزو مصر، واتفقوا على أنهم في حال الاستيلاء على كنوز الخليفة يأخذ «أماليك» لنفسه النصف غنيمة ويُقسَّم الباقي بحسب القانون العسكري. وعندما وصلت الأخبار لـ«أماليك» بأن نور الدين مشغول بالأحداث الجارية في الموصل، فهم أن اللحظة مواتية، وتقدَّم في اتجاه مصر في أكتوبر ١١٦٨م. أما شاور، الذي راعه ما جرى، فقد حاول أن يدفع أموالًا ليرحل، ولكنَّ محاولته كانت بلا طائل؛ لأن تصرفاته في البداية ودعوته سابقًا «أماليك» للقدوم إلى مصر كانت وراء هذه الأحداث. وأدى ما جرى آنذاك إلى حدوث موجات صادمة في جميع أنحاء البلاد. وسقطت بلبيس بسرعة ونهب الفرنج المدينة بلا رحمة؛ أحرقوا البيوت وقتلوا المسلمين والمسيحيين على السواء. وكانت لأحداث بلبيس عواقب وخيمة على «أماليك» فيما بعد؛ ذلك أن ما كان مقصودًا أن يكون غزوًا منظمًا لمصر سرعان ما تدهور إلى درك أسفل ليكون حمام دم. وكانت الرسالة التي وصلت أهل مصر مرعبة تبعث القشعريرة في الأبدان؛ إذ راقب المصريون في رعب زحف الجيش اللاتيني. ثم اتجه «أماليك» إلى القاهرة، واقترب

منها عن طريق مدينة الفسطاط القديمة. وفي تلك الأثناء وقع شاور فريسة اليأس؛ فلم تكن لديه القوات التي تمكِّنه من المقاومة، ولم يكن «أماليك» ليستمع إلى عروضه. كذلك لم تكن هناك أسوار تحمي الفسطاط، ولم يكن الدفاع عنها ممكنًا. ومن ثَمَّ قرر شاور في نوفمبر أن يحول دون وقوع مؤن المدينة في أيدي الفرنج فأشعل فيها النيران، مستخدمًا ما يزيد على ألف مشعل على مدى يومين لإحراق المدينة التي فرَّ منها أهلها مرعوبين. ووصف أحد الكُتاب المعاصرين ما أصاب الناس من هلع بأنهم بدَوا كما لو أنهم خرجوا من قبورهم ليوم البعث. وسار «أماليك» محاذيًا الفسطاط ليهاجم القاهرة بقوة وكادت المدينة أن تسقط.

ولم تكن هذه الأخبار لتضل طريقها إلى نور الدين بطبيعة الحال. وكانت المفاجأة أنه تلقَّى التماسًا شخصيًّا من الخليفة العاضد الفاطمي نفسه، وكان شابًّا حزينًا مهمومًا دون العشرين من عمره. وكتب بخط يده يناشده ألا يدع مصر تسقط في يدَي «أماليك»، لأن العواقب ستكون وخيمة. كما أكد على أن التضامن الإسلامي يتطلب تجاوز الاختلافات المذهبية، وضمَّن الرسالة خصلة من شعر زوجته، علامة على يأسه. وعندما سمع شاور عن الخطاب واجه العاضد، زاعمًا أن الخليفة الشاب يضلل نفسه، وحذره من تدخل نور الدين. بَيْد أن القصر لم يعد يستمع إلى الوزير؛ لأن العواقب الوخيمة لسياسة شاور كانت واضحة للغاية[١]: تعرَّضت بلبيس للخراب، ودُمِّرت الفسطاط، والقاهرة تحت الحصار، ومصر على شفا الوقوع تحت الاحتلال الصليبي. وكان رد العاضد على شاور: «رضيتُ أن تكون إسلامية وأكون فداء للمسلمين». وكان واضحًا، كما لاحظ «إهرينكروتز»، أن مؤسسة القصر الفاطمي خاب أملها تمامًا بسبب الأداء المروِّع لوزيرها[٢].

ومن المستبعد أن تكون رسالة الخليفة الفاطمي قد أثرت في نور الدين؛ لأنه لم يكن بحاجة إلى مناشدة من إسماعيلي ليفهم الخطر الذي يمثله غزو فرنجي لمصر. وبسرعة كبيرة جمع جيشه، وأعطى شيركوه مائتي ألف دينار، وسمح له بأن ينتقي ألفي جندي من فِرق الجيش، وقدَّم عشرين دينارًا إضافية لكل فارس ممن معه لتغطية نفقات الحملة[٣]. واستخدم شيركوه المال بسرعة لحشد ستة آلاف فارس تركي من قبيلة الياروقية. وفي غضون شهر كان شيركوه مستعدًّا للرحيل إلى مصر. وكانت هناك مشكلة واحدة: رفض صلاح الدين الذهاب؛ كان قد أقسم ألا يعود إلى مصر، ولم يكن يريد أن يتحمل تبعات حملة أخرى. وكان الموقف حرِجًا؛ لأن شيركوه أصر على أن يصحبه صلاح الدين،

ولم يكن نور الدين قادرًا على أن يأمره، حيث كان الإقناع ضروريًا. وزعم صلاح الدين، متذرعًا بعذره الأخير، أنه لا يملك مالًا، فبادر نور الدين في الحال بتقديم الخيول والأموال إليه. لكنَّ صلاح الدين أصرَّ على الرفض، حتى جاء الضغط من الشخص الوحيد الذي لا يمكنه أن يقول له لا؛ من أبيه، الذي أقنعه بأنه يَدين لنور الدين بواجب عليه أن يؤديه. وحكى صلاح الدين لابن شداد فيما بعد وهو يتذكر ذهابه إلى مصر كما لو كان ذاهبًا إلى قبره. والواقع أنه حينما جاءه الطلب الأول من شيركوه رد صلاح الدين بسرعة بأنه لن يذهب حتى لو أعطوه مُلك مصر، ولكنه ذهب، وأُعطي مُلك مصر. ومع هذا، من الصعب تفسير تردد صلاح الدين. من الواضح أنه لا يمكن أن يكون قد رفض الذهاب إلى مصر لنقص في الشجاعة؛ فقد برهن بما يكفي وأكثر في الحملة السابقة على شجاعته. واللمحة الوحيدة التي لدينا ـ وهي مجرد تلميح لا يمكن إثباته على وجه التحديد ـ أنه كان هناك توتر ما بينه وبين عمه. وربما لم يكن قد أُعجب بالطريقة التي قاد بها شيركوه الجيش في أثناء الحملة الثانية، أو ربما ساءه أنه تركه يدافع عن الإسكندرية وحده. ومهما يكن الأمر، والفسطاط تحترق والقاهرة تدافع عن نفسها في يأس، كان لا بد من التغلب على التردد. لم يكن هناك وقت يمكن تضييعه.

كان هناك حينذاك جيش شامي قوي يقترب من مصر. وأرسل شاور، السياسي دائمًا، رسالة يعرض فيها ضم القوات معًا لهزيمة «أماليك»، لكنَّ شيركوه تجاهل عرضه، ورد بسرعة بأن لديه خططًا أخرى، لأنه كان مصممًا على ألا يعود خالي الوفاض هذه المرة. وكان «أماليك» حذرًا بالقدر نفسه. لم يتوقع أن يتحرك نور الدين بهذه السرعة، ولم تكن لديه رغبة لمواجهة شيركوه في معركة. وهكذا تقهقر إلى بلبيس، وجمع قواته، وفي ٢ يناير ١١٦٩م عاد إلى بيت المقدس. وكانت الطريق إلى القاهرة مفتوحة، وتحركت الحوادث في إيقاع مُربك. دخل شيركوه القاهرة بجيشه بعد ذلك بوقت قصير. وفي ١٠ يناير تقابل مع الخليفة العاضد الفاطمي، الذي خلع عليه خلعة أظهرها شيركوه لقواته. وانتشرت الشائعات عن تخطيط شاور لاغتيال شيركوه، لكنَّ ابنه الكامل أثناه عن ذلك(٤). وبعد أسبوع لقي شاور نفسه مصرعه.

ربما كانت الحقيقة البشعة أنه تم الاتفاق، في الاجتماع بين شيركوه والعاضد، على ضرورة موت شاور. وتبدو الأحداث الفعلية التي أدت إلى اغتياله بسيطة: استُدرج شاور إلى المعسكر الشامي بذريعة زيارة شيركوه الذي زعموا أنه مريض، وتغلَّب عليه اثنان من

رجال نور الدين، جرديك وبرغش، وذبحاه. وليس هناك ذكر لصلاح الدين. وتتناقض هذه الرواية للأحداث بحدة مع رواية ابن الأثير، الذي يتحدث عن مؤامرة ضد شاور، دُبرت بين صلاح الدين وجرديك من دون موافقة شيركوه. ومع أن عداوة ابن الأثير لصلاح الدين معروفة جيدًا، فقد أكد القصة نفسها ابن شداد؛ كاتب سيرة صلاح الدين، الذي ذهب إلى أبعد من هذا وزعم أن شيركوه لم يوافق على خطة صلاح الدين فحسب، بل إنه أرسل عيسى الهكاري لتحذير شاور، الذي تجاهل التحذير. فهل لعب صلاح الدين دورًا في اغتيال شاور؟ ليس هناك برهان قاطع يؤكد إحدى الروايتين. وإذا كان له دور فهو دور امتدحه المؤرخون ولا يمكن التستر عليه؛ إذ إن ابن شداد ـ الذي كان يمكنه بسهولة تامة أن يبرئ صلاح الدين من اغتيال شاور إذا ما كان راغبًا في ذلك ـ امتدح دور صلاح الدين في القبض على شاور، وكتب أنه عندما اقترب المتآمرون من شاور، كان صلاح الدين وحده الذي واتته الشجاعة للإمساك به. والحقيقة أن الجميع كانوا يريدون موت شاور؛ أراد شيركوه أن يُخلي الطريق لنفسه، كما فهم الخليفة العاضد الفاطمي أنه بالمعايير السياسية الفاطمية كان الصعود إلى منصب الوزير عن طريق الإطاحة بالوزير السابق وقتله ممارسة مقبولة[٥]. أما الأدوار المحددة التي لعبها شيركوه وصلاح الدين في عملية الاغتيال فليست واضحة، لكنه لم يكن أمرًا مهمًّا في نهاية الأمر. وعلى أية حال، من الصعب أن نرى إمكانية بقاء شاور ووجوده في القاهرة بعد دخول شيركوه.

وكما كان متوقعًا، عرض العاضد منصب الوزارة على شيركوه وقبِلها. ويبدو تعيين شيركوه مفارقة؛ لأنه كان يعني فعلًا أنه يخدم خليفة، كان في نظره مهرطقًا. وعلى أية حال، كان قراره قبول منصب الوزير بدافع من الانتهازية السياسية وليس بدافع الإيديولوجيا. كانت مصر تتطلب وزيرًا يديرها، ولم يكن شيركوه على استعداد لأن يسمح لأي شخص غيره أن يتولى المنصب. وكان رأي نور الدين بشأن قرار شيركوه أقل وضوحًا؛ لا بد أن سروره بفتح مصر أخيرًا شابه قلق؛ لأن شيركوه لم يستشره في الأمر. وعلى الرغم من أن شيركوه كان يتحدث بوصفه ممثل نور الدين في التزام صارم، فمن الخطأ المبالغة في التأكيد على خضوعه التام له، فعندما غادر بلاد الشام، كان من الأفضل النظر إليه وإلى قواته على أنهم «مغامرون مستقلون يبحثون عن فرصة، وليس باعتبارهم تجريدة من الجيش الشامي»[٦]. وسرت الشائعات بأن نور الدين لم يكن سعيدًا لأن شيركوه تولى الوزارة، ولكن الشائعات دائمًا ما تحوم حول أعمال الرجال العظماء. ومن المؤكد أن نور الدين كان يفضل الحفاظ

على حياة شاور وبقاءه وزيرًا صوريًّا، لكن مراوغة شاور كانت معروفة جيدًا. أما شيركوه فكان يعرفه جيدًا، ويثق فيه. وعلى أية حال، فقد خدمه وخدم أباه ما يزيد على ثلاثين سنة شهدت نصرًا كبيرًا. وحينذاك أمر نور الدين بإعلان الأخبار في جميع أنحاء بلاد الشام وتزيين المدن احتفالًا بهذا، فقد دانت له مصر في نهاية المطاف.

وفاة شيركوه وتعيين صلاح الدين وزيرًا

ثم تُوفِّي شيركوه فجأة في مارس ١١٦٩م، ولم يُتم الشهر الثالث في منصبه. وكانت حالات الموت المفاجئة، خصوصًا بين الوزراء، عادة ما تثير الشكوك، وتنتشر الشائعات عن دس السم، ولكن يبدو أن وفاته كانت طبيعية. ولا يمكن إنكار أنه كان شخصية قوية هائلة؛ دخل التاريخ بقتله رجلًا في تكريت، وخرج منه وقد حقق ما كان يحلم به كثيرون. وأصر، أكثر من كل أمراء نور الدين، وربما أكثر من نور الدين نفسه، على أهمية مصر. وفي مواجهة الشدائد حافظ على عناده وتصميمه الذي يميز شخصيته. وفوق كل شيء كان رجلًا عسكريًّا، يختلف عن أخيه وابن أخيه من وجوه عديدة، ويفتقر إلى دبلوماسيتهما، لكنه انتصر للقضية السُّنية بقدر ما دافعا عنها. ومن بين جميع الفقهاء والمفكرين كان شيركوه أول من بنى مدرسة، من بين المحيطين بنور الدين، لتدريس المذهب الحنفي والمذهب الشافعي، وربما كان السبب في هذا عدم اهتمامه كثيرًا بتفاصيل الشريعة، وهو ما يحسب له. وربما كان الأكثر أهمية بالنسبة إليه حقيقة أن المدرسة كانت تطل على أرض للعب الكرة بالخيول (البولو)، ويتخيل المرء أنه كان يجد السلوى والراحة في الهواء الطلق وعلى ظهر حصانه، أكثر مما يجدهما داخل المدرسة. وذكرت المصادر التاريخية صورة له بعد أن صار وزيرًا وقد عرقلته أثقال العمل الورقي الذي كان جزءًا ضروريًّا من المنصب، وقد بقي على صهوة حصانه وهو يوقع الوثائق، ويغمغم بأنه قد تدهور به الحال إلى وظيفة كاتب. كان رجلًا ذا شجاعة هائلة، ويشهد على ذلك ما حدث وجيشه عائد إلى بلاد الشام من مصر مع نهاية حملته الأولى؛ في وجود الفرنج بقي بالمؤخرة وكان آخر من غادر من رفاقه، وعندما سأله أحد الفرنج عما إذا لم يكن خائفًا من الخيانة لأنه بلا دفاع ويمكن أسره بسهولة، صهل شيركوه مثل حصانه وأجاب أنه إذا ما حدث له شيء فإن جيشه كله سوف يثأر له(٧). وربما كان عاصفًا وعنيفًا، لكن لا شك في أنه كان جنديًّا عبقريًّا، وقلة من القادة حظوا بمثل هذا الحب الخالص من رجالهم(٨).

وفجأة، من حيث لا ندري، برز صلاح الدين من بين الظلال وصار وزيرًا[٩]. وليس لدينا وصف له في هذه الفترة، ولا حتى معرفة بالرجال الذين كانوا حوله. وإذا كنا حتى الآن لم نتحدث كثيرًا عن صلاح الدين فإن ذلك يرجع إلى أنه ليس هناك ما يقال. ومع هذا برز من حيث لا ندري ليصير وزيرًا، حتى وإن كنا لا نعرف كيف أو لماذا. ويسجل ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي التقط صلاح الدين على أمل أن يكسبه في مؤسسة القصر[١٠]. وبذلك يمكنه شق صفوف القوات الشامية قائلًا إنه ليس هناك من هو أصغر أو أضعف من يوسف (صلاح الدين). لكنَّ همَّ ابن الأثير كان ينصب دائمًا على تشويه اسم صلاح الدين لمصلحة سادته من آل زنكي، ولذلك علينا أن نقرأ ما كتبه بقدر من الحذر. والحقيقة أن الخليفة الفاطمي لم يكن أمامه خيارات في المسألة؛ فالجيش الشامي لم يكن قد شق طريقه بالقتال لتأمين مصر لمجرد أن تُفرض عليه شروط. ويشير عماد الدين الأصفهاني إلى هذا عندما يكتب أن الأمراء الشاميين قرروا اختيار صلاح الدين واتفقوا على ذلك وجعلوا الخليفة يعينه وزيرًا، لكنه يعترف أيضًا بأن «الآراء تباينت» في أيام الحداد الثلاثة التي أعقبت وفاة شيركوه. إنها عبارة غامضة، لا تقرِّبنا من الإجابة عن السؤال: لماذا صلاح الدين؟

وتتمثل المشكلة في أن المؤرخين، في سعيهم لكي لا يبدو صلاح الدين طموحًا، بالغوا في تصوير تردده المبكر في العودة إلى مصر، لكنَّ الشخص المتردد لا يصلح وزيرًا. لو لم يكن طموحًا لما اكتسب احترام شيركوه، ولا كان شيركوه رقَّاه ليكون القائد العام للجيش الشامي عندما عُيِّن وزيرًا. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك ضغط على صلاح الدين لقبول المنصب. ولم يكن مضطرًا إلى تولِّي ميراث عمه السياسي والعسكري في مصر[١١]. كان الأمراء الذين حوله ـ من الأتراك والأكراد ـ رجالًا غلاظًا قساة مستقلين، ولأن نور الدين هو الذي أرسلهم فقد خدموا شيركوه، لكنهم لم يكونوا مضطرين إلى خدمة أحد آخر. وكان شيركوه أيضًا قد ترك خلفه خمسمائة من مماليكه، الأسدية، كلهم من أمراء المئات (قادة فرق من مائة فارس). ومع أن نظام المماليك ينطوي على قدر من العبودية فإنه لم يكن يستلزم الذل والخنوع[١٢]. وبموت سيدهم أخذوا يتطلعون إلى مصالحهم الخاصة. ومع هذا، يبدو بالفعل أنهم ساندوا صلاح الدين. وقد وصفهم عماد الدين بأنهم «رفقاء أشداء»، تقودهم المصالح الذاتية، وإن تحقيق نصر عظيم كهذا لا يجب أن يخضع للمصلحة الشخصية. صارت أرض مصر ملكًا لهم، وتوفرت غنائم

الحرب ومكاسبها. وبالإضافة إلى هذا، وضع موت شيركوه الأمراء الأسدية في موقف سيِّئ؛ لأنهم تمركزوا في بلاد أجنبية ولم تكن لهم مكانة سياسية أو عسكرية. كان الشوام يدركون تمامًا أنهم ليسوا موضع ترحيب في مصر. وقد كتب عماد الدين الأصفهاني أنهم جاءوا بين قوم لا يعرفونهم، وأنهم يرون وجوهًا تجهمت وعبست في وجوههم. كان صلاح الدين الشخص الأقرب لشيركوه في مصر، ومع أن هذا لم يكن له وزن كبير، وأهم من ذلك أن شيركوه اعتمد عليه بصورة واضحة، وأصر على أن يصحبه في حملاته. كما أظهر صلاح الدين جسارة في معركة البابين، وثباتًا وصمودًا في أثناء حصار الإسكندرية. ولا بد أن هذه الخصال لفتت الأنظار. ومن المثير أن تردده في العودة إلى مصر في البداية لم يثر أي اهتمام. كان الأمراء يعرفون أباه، أيوب، والاحترام الذي كان نور الدين يبديه نحوه ـ فقد كان الوحيد الذي يسمح له بالجلوس في حضرته ـ ولا بد أن هذا ترك فيهم أثرًا. ومن الواضح أنه كان من معدن طيب ويتمتع بخصال اختُبِرتْ في لهيب المعركة. ومن المُسلَّم به أن صلاح الدين وهو في الثلاثين كان أصغر من أن يكون وزيرًا، لكن لا يجب نسيان أن نور الدين نفسه كان في التاسعة والعشرين عندما حكم حلب، وكان «أمالريك» في الحادية والثلاثين عندما تُوِّج ملكًا على بيت المقدس.

ويبدو أن الوزارة عُرضت في البداية على شهاب الدين الحارمي، خال صلاح الدين، ويرجع ذلك إلى أنه كان أكبر الأمراء سنًّا. وقد دُعي إلى القصر الفاطمي لمقابلة الخليفة العاضد، ولكن شهاب الدين رفض التعيين وقدَّم صلاح الدين. ويبدو أن العاضد قبل تعيينه. وكان هناك مرشحون آخرون: كان هناك من جماعة النورية الأمير التركي عين الدولة الياروقي، وكذلك اثنان من الأكراد هما سيف الدين المشطوب وقطب الدين خسرو. وكان اختيار صلاح الدين بالإجماع يرجع بدرجة كبيرة إلى المناورات السياسية التي قام بها رجلان هما عيسى الهكاري الكردي، وبهاء الدين قراقوش؛ الذي كان مملوكًا مخصيًّا أعتقه أسد الدين شيركوه. ولا شك في أن عيسى الهكاري كان الشخصية الأكثر إثارة؛ كان سُنيًّا شافعيًّا كرديًّا، مثل صلاح الدين. درس الشريعة في شمال العراق وفي حلب، ثم التحق بخدمة شيركوه، الذي رقَّاه وجعله أميرًا، وصار الإمام الشخصي لشيركوه، يؤمه في الصلاة ويصحبه إلى مصر. وكان صلاح الدين يحمل له قدرًا عظيمًا من الاحترام. وقيل إن الهكاري كان يتحدث بصراحة في حضرته ويخبره بأشياء يُحجم الآخرون عن ذكرها. ويبدو أن الهكاري كان يسعى إلى صحبة علماء الدين في كل مكان،

وكان يُعطي دروسًا في الحديث، بل قيل إنه كان يلبس عمامة الفقيه في أثناء ارتدائه زي الجندي. والهكاري هو الذي أقنع قراقوش، وكان قائدًا لثلاثة آلاف فارس، بمساندة صلاح الدين، ثم استغل المنافسة بين الأتراك والأكراد لمصلحة صلاح الدين عندما أقنع قطب الدين خسرو ـ وكان كرديًّا مثله ـ بأنه إذا واصل مزاعمه فإن ذلك قد يؤدي إلى أن يتولَّى تركي المنصب (بدلًا من أن يتولاه كردي). ومن الواضح أنه لم يكن مجرد فقيه وجندي، وإنما كان دبلوماسيًّا أيضًا. وكان صلاح الدين يَدين بالكثير للهكاري، الذي قُتل في أثناء حصار عكا سنة ١١٨٩م. ومن سوء الحظ أننا لا نعرف إلا القليل عن هذه الشخصية الأكثر جاذبية بين الشخصيات جميعًا. ومن ناحية أخرى، كان قراقوش مختلفًا تمامًا؛ كان واحدًا من أقرب مستشاري صلاح الدين. وقد عهد إليه ببناء قلعة القاهرة، وكذلك قنطرة الجيزة، وبمد أسوار القاهرة. ومن الواضح أنه لم يكن رجلًا متعلمًا؛ فقد عُيِّن زمام القصر الفاطمي (أي مراقبه) من قِبل صلاح الدين، وجرَّد مكتبة القصر، التي لا تُقدر بثمن، من محتوياتها، وكوَّم الكتب على الأرض لتُباع لأول مَن يشتري. ووصفه عماد الدين الأصفهاني بأنه تركي لا يعرف شيئًا عن الكتب. وربما كان كذلك، لكنه كان أيضًا من أكثر مساعدي صلاح الدين إخلاصًا، ومن أشجعهم أيضًا. وحين أسره الفرنج في عكا سنة ١١٩١م، وقد أُرسل لتحصين المدينة، دفع صلاح الدين عشرين ألف دينار فدية له. وكان أيضًا رجلًا يُثير العداوات ويصنع الأعداء، وأحدهم ابن مماتي الذي كتب رسالة عنوانها «كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش».

ولأن شهاب الدين الحارمي كان خال صلاح الدين، لم يقف في طريق ابن أخته، ولكن ماذا عن الثلاثة الآخرين؟ أسرع ابن الأثير إلى تسجيل أنه لا أحد من الأمراء الذين سعوا للوزارة أطاع صلاح الدين أو خدمه. وأورد كلمات عين الدولة عندما أحبط صلاح الدين مساعيه، إذ قال إنه لن يخدم صلاح الدين أبدًا. لكنهم عادوا إلى خدمته مرة أخرى؛ فقد رجع عين الدولة إلى بلاد الشام، حيث لقي استقبالًا باردًا من نور الدين الذي وبَّخه لأنه ترك صلاح الدين وتخلَّى عنه. كذلك توجَّه قطب الدين خسرو صوب الشام، ولكنه عاد بعد أشهر قليلة إلى مصر لمساعدة صلاح الدين عندما هاجم الفرنج دمياط. وربما أُحبط أيضًا طموح المتنافس الثالث على الوزارة، المشطوب. لكنَّ حادثة حدثت بعد سنوات طويلة، لخَّصت علاقته مع صلاح الدين؛ حدثت في ذروة أحداث الحملة الصليبية الثالثة والقوات الإسلامية عاجزة عن وقف تقدم جيش «ريتشارد»، وقد بدا

للجميع أن القدس سوف تسقط بأيدي الفرنج: أمر صلاح الدين، بدافع من اليأس، بتدمير جميع الآبار حول المدينة بحيث لا يكون لدى الفرنج ماء للشرب، ثم استدعى مجلس الحرب الذي يحضره جميع الأمراء، وفي أثنائه تحدث صلاح الدين عن أن المسلمين يعتمدون عليهم، وقال إنه حان وقت القتال. ولم يفت جميع الحاضرين مدى خطورة الموقف، وساد الصمت فترة طويلة. وأخيرًا كسر المشطوب حاجز الصمت، معلنًا أنه سوف يؤازر صلاح الدين حتى الموت.

صعود القاضي الفاضل

وثمة سبب آخر لصعود صلاح الدين إلى السُّلطة، وقد حظي باهتمام أقل، وهو ما لقيه من السُّنة في مصر، وخصوصًا من أولئك الموجودين في الإدارة الفاطمية، ممن وقفوا إلى جانبه ضد الأسرة الحاكمة التي يُفترض أنهم يخدمونها. وهنا لم يكن هناك شخص أكثر أهمية من القاضي الفاضل. وهو اليوم معروف بأنه أحد مستشاري صلاح الدين، ولكنه كان أهم من ذلك كثيرًا، وهي حقيقة أقرَّ بها صلاح الدين الذي ادعى أن أرض مصر لم تُفتح بجيوشه وإنما بقلم القاضي الفاضل. ولم يكن لأحد تأثير على صلاح الدين أكثر منه، ولا أحد يمكنه إبداء رأيه بهذا القدر من الوضوح غيره. والواقع، كثيرًا ما يتساءل المرء عن الرؤية التي كان القاضي الفاضل يعبر عنها، وهي حقيقة ألمح إليها عندما كتب يقول إن الآخرين كانوا يرسلون رسائلهم إلى السلطان، لكن السلطان هو رسولي في الرسائل التي أُرسلها. أينما اتجهت أبصارنا وجدنا القاضي الفاضل. وفي سيرته التي كتبها «بروكلمان» يقول إن القاضي الفاضل كان اليد اليمنى لصلاح الدين في تنفيذ الإصلاحات الضرورية في الجيش والضرائب(١٣). وكتب المقريزي في الخطط أنه لعب دورًا رئيسًا في الإطاحة بالفاطميين. وأكد عماد الدين الأصفهاني على الدور الحاسم الذي لعبه القاضي الفاضل في أثناء الحملة الصليبية الثالثة. وسجل ابن فضل الله العمري، الذي كتب بعد قرن من وفاة القاضي الفاضل:

> القاضي الفاضل كان دولة صلاح الدين: كاتبها، ووزيرها، وسيدها، ومدبر أمرها، وممول جيشها، وحامل أعبائها، وحاكمًا على جميع أقاليمها، وكلما سافر السلطان حكم نيابة عنه، أو ساعد نوابه، وخولت له جميع السلطات في دولة صلاح الدين، وقرر مصائر الناس وأمور الحياة والموت(١٤).

والواضح أن القاضي الفاضل لم يكن مجرد كاتب سلبي أو إداري ينفذ أوامر السلطان؛ بل كان أكثر من هذا، حيث لعب دورًا نشيطًا وحيويًّا في الأحداث السياسية في تلك الأيام. وإذ كان يتمتع بذكاء حاد واشتهر بعمله، فقد شاطر صلاح الدين المثل والرؤية الدينية نفسها. ويمكن للمرء أن يجادل حقًّا بأن القاضي الفاضل أوضح هذه الرؤية ـ وهنا تكمن موهبته ـ بطريقة كان صلاح الدين لا يقدر عليها. وكان صلاح الدين يعي هذا وفوض له سلطات هائلة في مصر[١٥]. وعلى مدى اثنتين وعشرين سنة متوالية كان القاضي الفاضل يتمتع بسلطات لا تفوقها سوى سلطات صلاح الدين.

وترك لنا عبد اللطيف البغدادي وصف شاهد عيان للقاضي الفاضل، فقد زاره في خيمته في أثناء حصار عكا، ومن الواضح أنه انبهر بحضور الرجل المميز، فقال:

> إنهم دخلوا إلى حضرة القاضي الفاضل وشاهدوا رجلًا مسنًّا نحيفًا، كله عقل وقلب. وكان يكتب ويُملي على شخصين، بمختلف حركات الوجه والشفتين التي سببها شغفه بأن يخرج كلماته واضحة. كان يبدو كما لو كان يكتب بجسده كله[١٦].

والحقيقة أن الرجل النحيل الذي وصفه البغدادي كان أكبر من صديقه صلاح الدين بسبع سنوات.

وُلِد عبد الرحيم بن علي البيساني، الذي عُرف باسم القاضي الفاضل، في عسقلان، حيث تلقى تعليمه الأساسي. ونشأ في مدينة تحت الحصار الدائم تقريبًا من جانب الفرنج الذين أحاطوها بدائرة من القلاع. وسقطت عسقلان في أيديهم سنة ١١٥٣م. وكالمعتاد في ذلك الوقت، رحل إلى القاهرة الفاطمية ليبدأ مسيرة حياته العلمية كاتبًا في ديوان الإنشاء، حيث تعلم فن كتابة الرسائل والكتابة الإدارية. وبوصفه كاتبًا شابًّا كرس وقتًا طويلًا لزيادة حصيلة مفرداته وتحسين معرفته بالنحو، وتعلَّم أسس البلاغة أيضًا[١٧]. ودرس أيضًا التفسير، والحديث، والخط، فضلًا عن الحساب. ومن المهم أن نلاحظ أن القاضي الفاضل لم يكن نتاجًا لنظام المدرسة، ولم يتلقَ تعليمًا نظاميًّا في الفقه. وكان السبب بسيطًا تمامًا؛ لم تكن هناك مدارس سُنية في القاهرة الفاطمية. ومن المثير للاهتمام أنه أمضى سنوات قليلة في الإسكندرية، حيث عمل كاتبًا وانغمس في الجو السُّني في هذه المدينة الميناء المتأججة بالحماسة، وكان لا بد أن تُذكِّره بعسقلان. وفي الإسكندرية درس على أيدي السلفي وابن عوف. ومن المستبعد، مع هذا، أن يكون قد حضر أي دراسة

فقهية منتظمة. وبعد أن أتم القاضي الفاضل دراسته في ديوان الإنشاء، عمل في وظيفة كاتب صغير لساعات طويلة وبراتب ضئيل، وهي حقيقة جعلته يتحسر بقوله:

لم ينل غير الأكفاء أذى بسبب عدم كفاءتهم.
ولم أستفد من مهارتي.
وكلما أبديتُ مزيدًا من الكفاءة، انخفضت موارد عيشي[١٨].

ولما كان القاضي الفاضل طموحًا إلى الترقي، فقد استمر يشق طريقه صاعدًا في الديوان، وهو يفرض نفسه ومواهبه على رؤسائه حتى حظي بالاعتراف الذي كان يصبو إليه، وخدم فترة في ديوان الجيش، حيث ألف الشؤون العسكرية. كما عُيِّن أيضًا كاتبًا خاصًا للكامل ابن شاور. ولا يمكننا أن نمرَّ على المسيرة العملية في حياة القاضي الفاضل من دون أن نلاحظ أنه كان يحظى بالمكانة السياسية نفسها لكل من عمل في خدمته. وإلى حد كبير كان هذا طبيعيًّا؛ لأن المسيرة المهنية للكاتب، وحياته، كانت تعتمد على إرضاء صاحب العمل الذي كان يوفر له التقدم والأمان. وقد انعكست الحصافة المكيافيللية[١٩]، كأحسن ما يكون في شعره، حيث يمتدح الأحداث التي كان واضحًا أنه لم يكن ليوافق عليها. تلك كانت حياة الكاتب. وفي الحقيقة، لم يشعر القاضي الفاضل، بوصفه سنيًّا شافعيًّا، بتعاطف ديني مع النظام الفاطمي. ولأنه تدرَّب في الديوان (ديوان الإنشاء) فلا بد أنه كان على دراية جيدة بتعقيدات المذهب الإسماعيلي؛ لأن إنشاء أي رسالة كان يتطلب الصياغة المناسبة للعبارات التي يجب استخدامها، ولكن الألفة بمذهب ما لا تعكس الاقتناع به[٢٠].

لا نعرف بوضوح كيف وصل القاضي الفاضل إلى إدارة ديوان الإنشاء لكلٍّ من شيركوه وصلاح الدين. ولكن يبدو أنه لم تكن هناك فترة فاصلة بين الانتقال من خدمة الفاطميين ـ حيث كان موقعهم مهم بلا جدال ـ إلى خدمة شيركوه. ومع هذا، من غير المعقول أن يُعين شيركوه شخصًا في هذا الموقع المهم لم تكن مؤهلاته السُّنية من أرقى ما يمكن. ولا نعرف ما كان يدور من اتصالات بين الرجلين. لكن لا شك في أنهما اشتركا في فكرة إعادة المذهب السُّني. كان القاضى الفاضل «عليمًا ببواطن الأمور»، يفهم آلية عمل الحكومة. وفي سكرات الموت الأخيرة للدولة الفاطمية بدأ السُّنة المستبعدون في الإدارة المدنية يغتصبون السُّلطة لأنفسهم. والحقيقة أنه كان مؤثرًا في تسليم الدولة الفاطمية لأيدي شيركوه وصلاح الدين، ولا يمكن أن يكون هناك مثال على ذلك أفضل

من التوقيعين اللذين صدرا بتعيين شيركوه ثم صلاح الدين فيما بعد وزيرين، وقد كتبهما القاضي الفاضل[٢١].

وكانت الفقرة الافتتاحية في كتاب تعيين شيركوه تتماشى مع الصياغة الفاطمية التقليدية، وتوضح أن القاضي الفاضل كان على ألفة باستخدامها. وكان لا بد من حيلة ـ استيفاء للشكل ـ يُطلب فيها من شيركوه الاعتراف بسيادة العاضد باعتباره الإمام وأمير المؤمنين، وأنه يعمل بصفته وزيرًا داخل إطار الدولة الإسماعيلية. وكان هذا شيئًا غير معقول بطبيعة الحال؛ فلم يكن نور الدين قد بعث بشيركوه ليكون وزيرًا للخلافة الفاطمية، وإنما للقضاء عليها. ويتساءل المرء عما فهمه شيركوه، ذو العين الواحدة والوجه المتغضن، من هذا. ومع أن الخليفة كان مجردًا من الثياب، فقد كان لا بد من الحفاظ على ورقة التوت لتستره، من حيث الصياغة على الأقل. وعلى أية حال، فإن التمويه في كتابة الرسائل، لم يخفِ أن البناء تداعى وأن الحراس تركوا مواقعهم. لكن القراءة المتأنية للتوقيع، مقارنة بينه وبين التوقيع بتعيين شاور، تكشف عن تحول لافت في الأهمية. ذُكر بوضوح في كتاب شاور أن الوزير يخضع للأئمة، وأن التفويض الإلهي للحكم الفاطمي مسألة مركزية في النص. وفي كتاب شيركوه، على الرغم من الاعتراف بدور الإمام، كان معظم النص مكرَّسًا للوزير ومسؤولياته[٢٢].

وفي خلال ثلاثة أشهر مات شيركوه وتولَّى صلاح الدين الوزارة. ومرة أخرى حرر القاضي الفاضل كتاب التعيين. وبدا على السطح أن شيئًا لم يتغير في مثل هذه الفترة الوجيزة، لكن خلف المشهد حدث تحول درامي. ركز القاضي الفاضل على النقاط الأساسية في المذهب الفاطمي، وأدخل إعلانًا لافتًا بأن وزارة صلاح الدين وراثية. وبأسلوب ديوان الإنشاء الحقيقي خلق ستارًا من الدخان لإخفاء هذا التطور المثير بذكر الوزارة الوراثية لبدر الجمالي بوصفها سابقة تاريخية، ولم ينطلِ هذا على أحد؛ فقد فُرِض ابن بدر الجمالي الأفضل بالقوة على الخليفة الفاطمي، على حين أن توقيع تعيين صلاح الدين أسبغ عليه الشرعية مسبقًا[٢٣]. والحقيقة أن مؤسسة الحكم الفاطمية فقدت السيطرة على ديوان الإنشاء. وربما كان القاضي الفاضل حذرًا في توقيع كتاب تعيين شيركوه ولم يقم إلا بدس بعض التغييرات، ولكن في غضون الأشهر الثلاثة التي شهدت تعيين صلاح الدين صار أكثر جسارة عندما تحقق من أن المد تحول بشكل قاطع لمصلحة السُّنة. ومن المؤكد أنه لم يكن ليحرر التوقيع من دون أن يناقشه أولًا بالتفصيل

مع صلاح الدين. وما خلص إليه «ليف» يؤكد هذا: «بمصطلحات واضحة، تعرَّض النظام الفاطمي للخيانة من جانب الإدارة العاملة في خدمته»[٢٤]. ولم يكن القاضي الفاضل ليرى هذا باعتباره خيانة، بل رأى فيه واجبًا، بوصفه سنيًّا، لإعادة الحكم السُّني إلى مصر. وعلى الرغم من أن تعاون النخبة المدنية مع القوات السُّنية الواصلة حديثًا لم يكن مقصورًا عليه، فلا جدال في أنه كان أساسيًّا في هذه «الخيانة»؛ فقد كان صلاح الدين غريبًا في مصر، ومع أن نور الدين وشيركوه اتصلا، على مدى سنوات، بعناصر سُنية في الإسكندرية والفسطاط، فقد كانا بحاجة ماسة لأشخاص من داخل النظام الإداري ممن يفهمون إدارة شؤون البلاد. ويمكن للمرء أن يرى التحول من جانب أعضاء ديوان الإنشاء والإدارة في خدمة صلاح الدين باعتباره تصرفًا بدافع الحفاظ على الذات، فقد كانوا يتطلعون دائمًا إلى سادة يحمونهم، ولكنهم لم يكونوا يحكون القصة كاملة؛ لأنه لا شك في أن تعاون النخبة المدنية في الدولة الفاطمية مع صلاح الدين كان يحركه دافع ديني؛ فقد كانت الرابطة المشتركة غاية في القوة. ولو كانت الدوافع نابعة من الرغبة في الحفاظ على الذات والتقدم فحسب، فلا بد للمرء أن يتوقع أفرادًا يؤمِّنون رهاناتهم؛ لأن التعاون بين العناصر السُّنية ونور الدين وشيركوه بدأ منذ حملة ١١٦٧م عندما لم يكن النصر مؤكدًا بأية حال.

وفي ٢٦ مارس ١١٦٩م، عُيِّن صلاح الدين وزيرًا للدولة الفاطمية. وتم التعيين ومراسمه في قصر الوزارة الفاخر. وحينذاك تلقى خلعة فاخرة، وسيفًا يرمز إلى وظيفته، وعدة هدايا ثمينة من الخليفة[٢٥]. ثم خوطب باللقب التشريفي الجديد «الملك الناصر». وثمة افتراض عام بأن صلاح الدين، بوصفه آخر وزير فاطمي، كان مهندس سقوط الخلافة الفاطمية. والحقيقة أنه لم يكن سوى الشخص الذي أدار الطقوس الأخيرة.

الفصل السادس

حاكم مصر

لو علِم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت.

القاضي الفاضل

عُيِّن صلاح الدين في ٢٦ مارس ١١٦٩م، وزيرًا للدولة الفاطمية، وهي الدولة التي أُرسِل إليها لينهيها. وتكمن هذه المفارقة الأساسية والمثيرة في جوهر وزارته. وكشفت الكيفية التي تعامل بها معها قدرًا كبيرًا من شخصيته، وأثرت على تصرفاته فيما بعد. ولا شك في أن إدراكه لأهمية مصر، والتهديد الذي يمثله الفرنج، والأخطار التي تنذر بتفكيك وحدة العالم الإسلامي، قد نما من تجاربه المبكرة منذ كان مساعدًا لعمه شيركوه في حملاته الثلاث على مصر[١]. ووضع في تلك السنوات الأولى الأساس لمسيرة حياته العسكرية والسياسية فيما بعد[٢]. وحتى ذلك الحين كان موجودًا في الظل، يلعب دورًا مساندًا للشخصيات الرئيسة: نور الدين، وشيركوه، و«أماليك»، وشاور. ولكنه صار محط أنظار الجميع، ودخل دائرة الضوء في النهاية. كان غريبًا في أرض غريبة وخطيرة. وكان لا بد لفورة الشباب وعنفوانه أن تراعي هذه الحقيقة. ومن المُسلَّم به أنه كان الوزير، لكنه كان منصبًا لا يبشر بطول العمر؛ ذلك أن مصير نصر، ابن الوزير السابق، الذي قتل خليفة (يفترض أنه كان حبيبه) في محاولة للاستيلاء على السُّلطة، كان معروفًا له جيدًا، ولم يكن بشير خير. فبعد أن فشل نصر في محاولة الهرب، تم قطع جسده وتشويهه، وشُنِق، وظل جسده المتعفن يتأرجح على باب زويلة لمدة عامين.

وإذا كانت شخصية صلاح الدين تفتقر إلى القدرة على التنظير، فقد كانت شخصية تتمتع بقدر كبير من صفات رجل الدولة؛ كان يكره المخاطرة، وكان سلوكه لا يتسم بالتهور. وبدلًا من ذلك أظهر في سن صغيرة نسبيًّا ذلك النضج الذي يتسم به السياسي ذو الخبرة. والواقع أنه أمضى وقتًا طويلًا يمهد الأرض السياسية والدبلوماسية قبل أن يُقدم على العمل[٣]. ولاحظ بهاء الدين بن شداد أن صلاح الدين «لا بد أن يفكر ويتدبر، ويستعرض جميع جوانب الموقف، ويتخذ الخطوات الضرورية للتعامل معه، من دون أن يتملكه الغضب؛ لأنه لم يكن يغضب على الإطلاق». كانت هذه طبيعة صلاح الدين لدرجة أنه طوال حياته، كان يجد صعوبة بالغة في اتخاذ القرارات. وتذكر ابن شداد حادثة لاحقة كشفت عن هذا الجانب من شخصيته:

> وقد جلست في خدمته في تلك الليلة ـ وكانت ليلة الجمعة ـ من أول الليل إلى أن قارب الصبح، وكان الزمان شتاء، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نناقش مشروعًا وننظر في عواقبه، حتى أخذني الإشفاق عليه والخوف على صحته، فإنه كان يغلب عليه اليأس، فشفقت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال رحمه الله: «لعلك جاءك النوم»، ثم نهض.

وكتب أبو شامة أن صلاح الدين كان يتوجس من معالجة الأمور وحده، واعتاد على أن يراسل القاضي الفاضل بشكل منتظم ليخبره بما استجد من الحوادث طالبًا مشورته في الأمور المهمة. ولم يكن صلاح الدين متهورًا، وهو ما جعله محل مديح، باعتبار أن ضبط النفس كان عند العرب من دلائل التربية الحسنة. ويصف ابن شداد كيف تماسك في موقف مؤلم:

> وقد رأيته رحمه الله، وقد جاءه خبر ولد له بالغ أو مراهق، يُسمى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يُعرِّف أحدًا، ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عيناه.

وإذا كان ضبط النفس يعتبر من أنبل الفضائل عند المسلمين في تلك الفترة، فقد كان الكرم فضيلة مساوية. كتب القاضي الفاضل يقول إن الديون آفة الشخص الكريم، ودافع عن تبذير توران شاه، الأخ الأكبر لصلاح الدين ـ وقيل إنه أنفق شخصيًّا مائتي ألف دينار ـ وكتب إلى صلاح الدين يقول إنه لا ينبغي للسيد أن يحاسب مَن منحه على

ما وهبه من مال؛ لأنه عندما يهبه هذه الهبات إنما يجعله وسيطًا بينه وبين السائلين(٤). وكان صلاح الدين نفسه مشهورًا بكرمه، ولاحظ ابن شداد ذلك بقوله:

> وكان رحمه الله، يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئًا من المال حذرًا أن يفاجئهم، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه.

سحق تمرد الفرق السودانية وزوال الدولة الفاطمية

كان صلاح الدين في لحظة انتصاره الأكبر في أضعف موقف مرَّ به. كان يعرف الإسكندرية جيدًا، بالطبع، ولكنه لم يكن فيها. وكانت القاهرة مكانًا غريبًا غير مألوف بالنسبة إليه. وقد غادر المدينة عدد كبير من أمراء نور الدين عائدين إلى بلاد الشام ومعهم رجالهم. ولم يبقَ سوى رجال شيركوه ـ الفرقة الأسدية ـ وقرابة خمسمائة مملوك وثلاثة آلاف فارس تحت إمرة قراقوش. كان باستطاعة صلاح الدين أن يعتمد على الجنود الأسدية، ولكنه لم يكن واثقًا بالدرجة نفسها من ولاء العساكر النورية. وكان الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة إليه أنه لا يمكن أن يثق في الجيش الفاطمي الذي يتألف إلى حد كبير من المشاة السودانيين والخيالة الأرمن. كان بحاجة إلى استدعاء رجاله على وجه السرعة. وكان عسكره حوله، وهم فرسان شكَّلوا حرسه الشخصي والدائم، وكانوا خليطًا من الأحرار والمماليك. وبحلول صيف ١١٦٩م كان صلاح الدين قد كوَّن فعلًا فرقته الخاصة ـ الصلاحية ـ تحت قيادة أبي الهيجاء السمين؛ وكان من أكثر مساعديه إخلاصًا. وكان بحاجة إلى الأراضي الزراعية ليمنحها لرجاله على سبيل المكافأة لضمان ولائهم. وإذ بدأ في تسريح الجيش المصري القديم رويدًا رويدًا بسحب الأراضي الزراعية من القادة الفاطميين، فقد عرف بالتأكيد أنه يسير على طريقة المواجهة. ولكي ينظم مسألة سحب الأراضي هذه كان بحاجة إلى مساندة من داخل الجهاز الإداري، ولقي مساعدة كبيرة من القاضي الفاضل، الذي جعل ديوان الإقطاع ـ حيث يتم تحديد منح الأراضي ـ مستقلًا عن ديوان الجيش، وجعله تحت إدارة صديقه الأسعد بن مماتي، وكان مسيحيًا اعتنق الإسلام. وفهم صلاح الدين طبيعة هذه المخاطرة، ولكنه لو لم يكسر الجيش الفاطمي ويستعيض عنه برجاله، فإن بقاءه سيكون محل شك.

وجد صلاح الدين نفسه آنذاك وليس معه سوى نفر قليل من الأصدقاء وحوله عدد كبير من الأعداء، في مدينة لا يعرفها، لكنه لم يجرؤ على مغادرتها خوفًا من العصيان. كان

حذرًا بطبيعته ـ أخذ عن أبيه أكثر مما أخذ عن عمه ـ وكان لديه حينذاك الكثير مما يستوجب الحذر؛ فقد واجه في الأشهر الستة الأولى من وزارته مؤامرة داخلية، وتمردًا من الجيش، وغزوًا خارجيًّا. لكنَّ صلاح الدين كان يدرك أيضًا أنه يحكم بلادًا غنية، يتجاوز ثراؤها تصور الناس. كانت أرض الفراعنة والبطالمة، حيث سار الإسكندر بجيشه عبر الصحراء طلبًا لنبوءة، وحيث تزوج قيصر ملكة مصرية. وإن كان صلاح الدين لم يعرف هذا من قبل، فقد فهم حينذاك أنه يحكم فعلًا أرضًا أغنى كثيرًا من بلاد الشام التي أحبها كل الحب. لكن صلاح الدين كان وحده إلى حد كبير، ومع رحيل شيركوه كان بحاجة إلى أناس يمكنه أن يثق بهم. كتب إلى نور الدين طالبًا منه أن يرسل إليه أخاه الأكبر توران شاه. وأرسل نور الدين توران شاه إلى مصر، ونصحه أولًا ألا يعامل صلاح الدين على أنه أخوه الأصغر، بل باعتباره حاكم مصر. والروايات التي بالغت في غضب نور الدين من صلاح الدين بحاجة إلى تمحيص من خلال إدراك أن نور الدين فعل ما طلبه منه صلاح الدين. ولا بد أنه عرف أن الموافقة على إرسال أفراد العائلة إلى مصر يُقوي موقف صلاح الدين، فأرسلهم مع مباركته. وعلى أية حال، كانت لدى نور الدين مشكلات أكبر كثيرًا من مصر: ضرب زلزال مدمر شمال بلاد الشام، ودمَّر نصف حلب، وسبَّب دمارًا في حمص وحماة وبعلبك. وفي الحال تحول انتباه نور الدين صوب الشمال. وبعد شهرين، في سبتمبر ١١٧٠م، تُوفِّي أخوه في الموصل مخلِّفًا صراعًا على العرش، شغله حتى مايو ١١٧١م، حين عاد إلى دمشق.

ولم يكن صلاح الدين، وكان يعي المخاطر التي تحيط به، على استعداد لتعجل الأمور، ورفض مغادرة القاهرة في الأشهر القليلة الأولى من وزارته. وإذا كان لا يعرف مصر ولا يثق في أهلها، فكذلك المصريون؛ لم يكونوا على دراية به، ولم يبالوا بمصيره. وعلى أية حال، كان الوزير الخامس في ست سنوات، وكان يبدو لهم شابًّا هادئًا، ليس لديه مكر شاور أو بشاعة قوة شيركوه. وعندما أدرك صلاح الدين حقيقة موقفه أيقن أن عليه أن يتصرف في روية ومكر لتحطيم قاعدة العمود الذي تقوم عليه السُّلطة الفاطمية(٥)؛ لأن الرجل المريض على ضفاف النيل لا يزال حيًّا. وحتى لو مات الرجل المريض، فقد كان الشبح بحاجة إلى مَن يصرفه. والحقيقة أن صلاح الدين أنفق سنتين ونصف السنة ليحقق هدفه الذي تمثَّل في القضاء على السلالة الفاطمية وإحلال سلالة سُنية بدلًا منها. ومنذ البداية، صادَق العاضد، الخليفة الفاطمي الشاب الذي كانت توسلاته إلى نور الدين

هي التي حالت دون سقوط مصر في يدَي «أماليك». وكان الرجلان يظهران معًا في احتفالات رمضان، التي تتضمن زيارة إلى الأزهر، الذي كان، بالطبع، المركز الرئيس للدعوة الإسماعيلية. ولم يرد ذكرٌ لإدراك أي من الرجلين لغرابة موقفه. ومن المثير أننا نقرأ أن صلاح الدين زار قصر الخلافة، ودخله على صهوة جواده، وهو ما كان من قبل امتيازًا للإمام الفاطمي دون سواه. وعلى أية حال، لم يخفِ ما بدا أنه علاقات صداقة وزيارات دبلوماسية الأخطار الكامنة التي تنتظره في أرض النيل. وفي غضون أسابيع من تولِّي صلاح الدين الوزارة وصلته أنباء عن مؤامرة تُدبَّر ضده. وكان متورطًا في هذه المؤامرة خصي من القصر، هو مؤتمن الخلافة، الذي كان يحرض الفرق السودانية على التمرد، وقد بعث برسائل سرية إلى «أماليك» ليغزو البلاد. ونعرف أن «أماليك» عندما سمع بوفاة شيركوه، نزل عن صهوة جواده وسجد على الأرض شاكرًا الرب؛ لأنه كان يعتقد حينها أن مصر ستكون من نصيبه. واعتقد مؤتمن الخلافة أنه ما إن تصل أخبار اقتراب «أماليك» إلى صلاح الدين فلن يكون أمامه اختيار سوى التقدم لملاقاته، وحينها تقوم انتفاضة في القاهرة لتقضي عليه. وكان لدى الفرق السودانية أسباب للشعور بالظلم؛ حيث أثارت حنقهم جهود صلاح الدين للتخلص منهم تدريجيًّا ووضع أمرائه الشاميين والأكراد مكانهم. وقد اشتهروا أيضًا بالوحشية. وقيل إنهم إذا ما ثاروا ضد أحد الوزراء فلا بد أن يقتلوه. وفي كل يوم كانوا يزدادون وقاحة وعنفًا. وتحكي رواية شاهد عيان أنهم كانوا يقطعون الطرقات ويستولون على أموال المسافرين، أو يسفكون دماءهم. وعندما وصلت أخبار المؤامرة إلى صلاح الدين أخفى معرفته بها وانتظر اللحظة المواتية ليضرب ضربته؛ لأنه عرف أن الفعل الأول سوف يطلق سلسلة من الحوادث العنيفة لا يمكن التنبؤ بها، وكان بحاجة إلى الحرص والحذر في أثناء استعداده. وفي الوقت نفسه، انتظر أخاه الذي وصل في يوليو. وكان توران شاه أكثر شبهًا بشيركوه منه بأيوب. وكان مشهورًا بتبذيره؛ كان يستطيع أن ينفق من المال قدر ما أنفق نور الدين لغزو مصر. وأحيانًا، وخصوصًا عندما يكون سكران، كان يُطلق لسانه في حق أخيه الأصغر؛ لأنه لم يكن من السهل تجنب مشاعر الحسد، ولكنه كان محل ثقة في أتون المعركة، وهذا هو المهم.

بادر صلاح الدين، وقد شجعه وصول أخيه، إلى ضرب الحركة، وتم القبض على مؤتمن الخلافة، وذُبح وأُرسل رأسه إلى صلاح الدين. وعيَّن صلاح الدين قراقوش مكانه. وفي اليوم التالي، ٢١ أغسطس ١١٦٩م، هبَّت الفرق السودانية علنًا في عصيان مناوئ، واتخذوا

موقعهم في الميدان الكبير بالقاهرة بين القصر الغربي والقصر الشرقي. وانضم إليهم كل من كان يُخفي عداوته لصلاح الدين، سواء من الأمراء المصريين أو العامة. وتختلف التقديرات، ولكن لا بد أن عددهم كان نحو خمسين ألفًا، وهو عدد يفوق عدد الشوام بكثير. ومن الواضح أن المتمردين كانوا يعرفون مدينتهم وقد اختاروا موضعهم بشكل جيد؛ لأنهم أرغموا صلاح الدين على أن يحارب فوق أرض لم تكن من اختياره؛ حيث تطل على الجنود المباني التي تحتلها قوات القصر التي يمكن أن تحارب ضده في أي لحظة(٦). كان الموقف خطيرًا للغاية، وكان العامل المجهول يتمثل في كيفية تصرف العاضد الفاطمي. هل يساند وزيره؟ لم يكن صلاح الدين متأكدًا، وعندما اتخذ جيشه موضعه في الميدان الكبير احتفظ ببعض قواته تحسبًا لتعرضه للهجوم من رجال الخليفة في الجانبين. وخاض توران شاه وأبو الهيجاء المعركة ضد الفرق السودانية في الميدان. واستمر القتال العنيف يومين. وظل صلاح الدين مرابطًا في الخلف، وعيناه تركزان على قصر الخلافة، لا على المعركة الجارية أمامه. وفي اليوم الثالث حدث تطور درامي مزعج، عندما أمطر الرماة الأرمن رجال صلاح الدين بوابل من السهام من قصر الخليفة. ودنت اللحظة الفاصلة في المعركة؛ فلو انحازت قوات العاضد إلى الفرق السودانية لصار موقف صلاح الدين خطيرًا جدًّا. وفي الحال استدعى صلاح الدين أخاه، وانفرد الأخوان في مناقشة مغلقة عاجلة. ثم اتُّخِذ قرار بصورة درامية؛ حيث أمر صلاح الدين بإحراق المكان الذي أُطلقت منه السهام في القصر. وتحوَّلت المعركة بهذا القرار: أرسل الخليفة من فوره رسالة إلى صلاح الدين يؤكد له أن قواته سليمة ويحثه على سحق الفرق السودانية. وهدأت أعصاب صلاح الدين وتصرف حينها بعزم ومن دون رحمة. ودفع بما بقي من قواته في المعركة وساق السودانيين خارج الميدان حتى باب زويلة. ثم أمر بإغلاق جميع الشوارع بحيث لا يكون هناك مهرب. وفي سوق السيوفيين، بالقرب من باب زويلة، وقف السودانيون وقفة باسلة، ولكنها ضاعت سُدى؛ لأنهم لم يستطيعوا الصمود أمام هجوم القوات الشامية. وعندما وصلتهم الأنباء بأن صلاح الدين أرسل رجالًا لإحراق مساكنهم في حي المنصورية، تأكدوا أن صلاح الدين لن يُظهر رحمة تجاههم. وعبثًا طلبوا مساكنهم ولكن لم ينالوا شيئًا. وكان توران شاه هو الذي طاردهم حتى الجيزة، حيث ذبحهم عن بكرة أبيهم. ولم يحدث بعدها قطُّ أن واجه صلاح الدين تحديًا عسكريًّا في القاهرة(٧).

ولم يكد يتم سحق تمرد السودانيين حتى وصلت الأنباء من دمياط باقتراب قوة فرنجية

وبيزنطية مشتركة من المدينة. وكان اختيار دمياط مقصودًا، حيث يمكن مهاجمتها من البر ومن البحر. وخُطِّط الهجوم بالتنسيق؛ بحيث يقترب «أماليك» برًّا ويقود «أندرونيقوس كونتوستيفانوس» الأسطول البيزنطي. وبدت اللحظة لـ«أماليك» مواتية للاستيلاء على مصر؛ لأن صلاح الدين لم يدعم موقفه بعد. وناقش «أماليك» غزو مصر مع الإمبراطور البيزنطي، الذي تزوَّج حفيدة أخته سنة ١١٦٧م. ومرة أخرى، أدت شبكة مخابرات صلاح الدين دورها، فقد عرف موضع الهجوم، ولكنه لا يزال يفتقد الشعور بالأمان الذي يجعله يغادر القاهرة؛ حيث كانت تصله يوميًّا تقارير عن مؤامرات أخرى؛ ولذلك بعث ابن أخيه، تقي الدين، مع خاله شهاب الدين الحارمي، لحشد الرجال دفاعًا عن دمياط. وحينذاك أيضًا تدفقت المساعدات من نور الدين، الذي أرسل عدة أمراء، من بينهم قطب الدين خسرو، وكان ممن نافسوه على منصب الوزارة ذات مرة. بل إن العاضد، الخليفة الفاطمي، أسهم بإرسال مبلغ هائل وصل إلى مليون دينار. وبدا أن التصميم كان بالقدر نفسه بين الإسماعيلية والسُّنة: ينبغي ألا تسقط مصر بأيدي الفرنج. ما تحقق لا ينبغي أن يضيع. ولم تكن وحدة الفرنج والبيزنطيين تماثل وحدة المسلمين. وسرعان ما ثار التوتر في صفوفهم؛ كان «أندرونيقوس» يحض على القيام بهجوم سريع على دمياط باستخدام السلالم، ولكن «أماليك» أصرَّ على بناء برج من أبراج الحصار. وبدأ الصليبيون في بناء آلات الحرب المطلوبة، ولكنَّ أهل دمياط لم يكن ينقصهم الدهاء والحيلة؛ فقد انتهزوا فرصة الريح المواتية ودفعوا بمركب مشتعل في وسط الأسطول، وقد حالت يقظة «أماليك» دون تدمير الأسطول برمته. وأدى تأخر الوصول أيضًا إلى نفاد أموال البيزنطيين، حيث كان من المقدر أن تستمر الحملة ثلاثة أشهر، ونتيجة تراخي «أماليك» في الوصول، على الرغم من إقلاع الأسطول في أغسطس ١١٦٩م، لم يبدأ الهجوم على دمياط إلا في أكتوبر. وازداد الموقف توترًا عندما طلب البيزنطيون قروضًا، ورفض الفرنج طلبهم. ولما وجد البيزنطيون أنفسهم عاجزين عن الحصول على المؤن واجهوا النقص في الأقوات ونهبوا المناطق الريفية بحثًا عن التمر والعنب وأبي فروة. وعلى مدى خمسين يومًا جرى حصار بلا طائل، وخارت عزيمة مَن فرضوا الحصار بحلول ديسمبر، وحلول الشتاء. ورفع الحصار الفاشل وانسحبت القوات البيزنطية والفرنجية. ومما يزيد من رمزية فشل الحملة، أن عواصف الشتاء أدَّت إلى غرق عدد من السفن البيزنطية وهي في طريق العودة إلى بلادها.

انتهت الأزمة. أخمد صلاح الدين عصيانًا قام به الجيش، ومؤامرة داخلية، وغزوًا خارجيًّا، في ستة أشهر من توليه الوزارة. وخرج من هذا كله أقوى مما كان. وطوال ذلك الوقت لم يستطع مغادرة القاهرة خوفًا من المؤامرات، ولكنَّ النصر الذي أحرزه في دمياط منحه الثقة. وأمر حينذاك بإعدام عدد من الناس في المدينة كان يشك في خيانتهم. ووُزِّعت الممتلكات والأراضي التي كانت ملكًا للفرق السودانية من قبل على أمراء صلاح الدين. وقد قام بهذا لسببين رئيسين: من الواضح أن ذلك كان جزئيًّا مكافأة مقابل الخدمة والولاء، وكان أيضًا محاولة لربط الأمراء الشاميين بالبلاد وبناء رابطة بينهم وبين مصر. ولم ينسَ صلاح الدين كيف كان الخليفة العاضد متذبذبًا ووضعه آنذاك تحت الإقامة الجبرية بالفعل، وصودرت المباني والأملاك التجارية التي كانت ملكًا للفاطميين. أما العاملون في البلاط الفاطمي، بمن فيهم العبيد، فقد فرقهم قراقوش الذي جعله صلاح الدين مشرفًا على القصور. كما بِيع الكثير من الهدايا والتحف في السوق أو أرسلت إلى نور الدين. واختار صلاح الدين لإقامته قصر الوزراء الفاطميين السابقين.

من المؤكد أن صلاح الدين حينذاك بدا أكثر ارتياحًا؛ حيث بعث نور الدين إليه بالأمراء الذين كان يعرفهم جيدًا ويثق بهم. وكان قد واجه أعتى التحديات، ولكنه أظهر الفطنة ورباطة الجأش في كل مرة. ويمكن بالفعل أن نرى الصفات التي يتحلَّى بها في حياته فيما بعد: التخطيط الحذِر، والحيطة والفكر السليم. بالإضافة إلى هذا، وهو ما كان مبعث سرور عظيم له، أنَّ أباه أيوب وصل من بلاد الشام ليتجمع حوله آنذاك أخوه توران شاه وابن أخيه تقي الدين، وأخوان آخران هما العادل وطغتكين(٨). وكان قراقوش الشخص الوحيد الآخر الذي يمكن الاعتراف بأنه على نفس مستوى الرئاسة في هذه الفترة. وبجمع عائلته حوله تواءم صلاح الدين ببساطة مع تقاليد السيادة العائلية الجماعية التي ورثها عن والده، وورثها أيوب عن شادي. وكانوا بدورهم يرون فيه نجمًا صاعدًا، سوف يقود العائلة إلى أمور عظام. وقبل سنة بالضبط كان صلاح الدين يرفض في عناد الرجوع إلى مصر، ولكنه الآن أخيرًا ـ على الرغم من المؤامرات وحركات التمرد التي انكشفت عن بُعد، وكان معناها أن العاصفة لم تهدأ قطُّ ـ استطاع للمرة الأولى أن يقول إنه يسيطر على مصر. وتمثل رمز هذا الإنجاز في ميلاد ابنه الأول، الأفضل، في مصر. وإذ شعر صلاح الدين أخيرًا بأنه أكثر أمنًا في مصر، قام بحركته الأولى ضد الفرنج

عندما هاجم في نوفمبر ١١٧٠م الداروم الواقعة على مسافة ١٥ كيلو مترًا جنوب غزة. كان الهجوم عنيفًا، وكاد حصن الداروم أن يسقط لولا تحرُّك «أماليك» لنجدته. وبدلًا من ذلك تحرَّك صلاح الدين صوب غزة حيث استولى على الخيول وقطعان الماشية. ثم أمَّن أول انتصاراته بالاستيلاء على قلعة أيلة قبل أن يعود إلى مصر في ديسمبر ١١٧٠م.

في يونيو ١١٧١م، كتب نور الدين، بحسب رواية عماد الدين الأصفهاني؛ وكان كاتبًا له في تلك الفترة، إلى صلاح الدين يطلب منه إقامة الخطبة للخليفة العباسي في صلاة الجمعة. وفي الحقيقة أن صلاح الدين، الذي زادت قوته بعائلته ومستشاره القاضي الفاضل، كان قد بدأ بالفعل في هدم الخلافة الفاطمية وإدخال مبادئ العقيدة السُّنية في مصر. وبحلول صيف ١١٧٠م حذفت عبارة «حي على خير العمل» الشيعية من الأذان. وبعدها بوقت قصير وضعت أسماء الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل في خطبة الجمعة مجددًا قبل اسم عليٍّ. وفي الصيف نفسه عُيِّن عيسى الهكاري قاضيًا شافعيًّا بالقاهرة. وفي مارس ١١٧١م طرد صلاح الدين قاضي القضاة الإسماعيلي في مصر وعيَّن بدلًا منه قاضيًا شافعيًّا كان كرديًّا أيضًا ـ وهو صدر الدين بن درباس الهذباني، الذي لم يضيِّع وقتًا في إحلال القضاة السُّنة محل القضاة الشيعة. وفي نهاية صيف ١١٧١م ظهرت أعراض مرض خطير على العاضد. وعرف صلاح الدين أن عليه أن يتحرك بسرعة لضمان عدم وجود من يخلف الخليفة الفاطمي على العرش. وفيما بعد، عندما تلقَّى دعوة من العاضد لزيارته في القصر، رفض صلاح الدين الحذِر أن يذهب؛ لأنه خاف من الغدر، على الرغم من أننا عرفنا أنه ندم على هذا فيما بعد. وفي ١٠ سبتمبر ١١٧١م، أسقط اسم الخليفة الفاطمي من خطبة الجمعة، لكنه في هذه المرحلة لم يعلن اسم الخليفة العباسي. وتفسير ذلك واضح؛ فقد كان صلاح الدين يخشى رد فعل المصريين. ولأنه كان ميالًا للتجربة بطبيعته، فقد فضَّل أن يعطي نفسه فسحة من الوقت. وكان من دواعي سروره أن إسقاط اسم العاضد لم يستفز أحد؛ وهو ما شجعه إلى حد كبير. وفي اليوم التالي، وهو يوم السبت، مضى صلاح الدين في استعراض واضح للقوة، واستعرض عساكره على مرأى من المصريين، وأهم من ذلك على مرأى من المبعوثين البيزنطيين والفرنج الذين كانوا حاضرين. وعندما وصلت الأنباء إلى العاضد الهزيل المريض بإسقاط اسمه من الخطبة في صلاة الجمعة، سأل عن الاسم الذي تم تعيينه. وعندما أخبروه أنهم لم يسموا أحدًا، أجاب: «في الجمعة التالية يخطبون لرجل مسمًّى». ولم يعش

ليرى الجمعة التالية؛ لأنه في يوم الاثنين ١٣ سبتمبر ١١٧١م، تُوفِّي العاضد ولم يكمل الحادية والعشرين من عمره. وصلت أخبار وفاة الخليفة العاضد إلى صلاح الدين وكان جالسًا مع القاضي الفاضل، وكشفت ردودهما المباشرة بشكل درامي عما في عقليهما؛ كان أحدهما من الأرستقراطية العسكرية، والآخر من أرباب الأقلام الذين تدرَّبوا في رحاب الاحتيال السياسي. وقال صلاح الدين في أريحية: «لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة». والتفت القاضي الفاضل وقال مُعلقًا على هذه الملاحظة: «لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت». وعلى الرغم من أن العاضد خلف من بعده ولدًا صغيرًا، فيبدو أنه لم يكن هناك نية للاستمرار مع الخلافة الفاطمية. وفي مساء اليوم التالي ـ ١٤ سبتمبر ـ ظهر صلاح الدين علنًا أمام تجمع في القصر. ولم يتم اختيار خليفة، كما فوجئ الذين تجمعوا ذلك المساء للاستماع إلى ما يقوله صلاح الدين حول الموضوع، بأنه آثر الصمت. وتلقى الذين لا يزالون على تمسكهم بأمل إنقاذ ما تبقى من السلالة الفاطمية الرد، يوم الجمعة ١٧ سبتمبر، حينما ذكر اسم الخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة.

إدخال المذهب السُّني إلى مصر

وصلت أفكار وروح نظام الملك إلى مصر بوجود صلاح الدين بها. وربما لم تكن لديه خصال نور الدين وميوله العلمية أو العادات الأدبية لأقرب مستشاريه القاضي الفاضل، الذي زعم أنه نَظَم ٢٥٠ ألف بيت من الشعر، ولكن صلاح الدين في تصرفاته العامة على الأقل كان وريثًا حقيقيًّا لنظام الملك، وكرَّس الأشهر القليلة الأولى من حكمه لاستقرار البلاد التي ماجت بالتمرد والمؤامرات. وعندما استقرت الأمور، وتجمعت عائلته من حوله، بدأ صلاح الدين يكشف عن أنه حقًّا من أبناء الإحياء السُّني، وكان يتقبل بسماحةٍ الاتجاهات المختلفة في الإسلام، ولكنه كان حازمًا ضد الديانات الأخرى، مثل المسيحية. وكان مثل معظم الأكراد على المذهب الشافعي، مع أنه في مصر أظهر ميلًا كبيرًا تجاه المذهب المالكي والمذهب الحنفي. ومن الناحية الفقهية كان أشعريًّا مع أن الفقه المذهبي لم يظهر بقوة في تدينه على الإطلاق. وكان إسلامه مطبوعًا بالتصوف بعمق، وإن كان ذلك بشكل سلبي. وقد تحدثنا عن تأثير عبد القادر الجيلاني على المقربين إلى صلاح الدين، وهم رجال مثل قطب الدين النيسابوري، وموفق الدين بن قدامة، وزين الدين بن نجا.

وكان متأثرًا أيضًا بالنزعة العامة للوزير العباسي، ابن هبيرة، الذي كان صلاح الدين يشاركه في جهوده للتكامل بين المذهب الشيعي المعتدل والعقيدة السُّنية. ومن حُسن حظنا أن لدينا شاهد عيان هو ابن جبير، الذي كتب في وقت كان فيه صلاح الدين في ذروة قوته، ولاحظ أنه في خطبة الجمعة، سواء في مكة أو في القاهرة، كان الخطيب يُثير المشاعر وقتًا طويلًا وهو يتحدث عن فضائل النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين الأربعة، وأعمام النبي ﷺ، والحسن والحسين، وبعد ذلك أزواج النبي ﷺ، وبذلك كان يُقدم معادلةً تُوحد بين السُّنة والشيعة.

وربما نفهم مدى انتشار هذا الإحياء السُّني الجديد وشموله على نحو أفضل إذا ما نظرنا إليه من منظور مختلف. وهنا نتجه إلى البحث الذي قام به طباع عن التطور المذهل الذي جرى في مجال كتابة القرآن في تلك الفترة؛ فعلى مدى القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام، كما يلاحظ طباع، كان القرآن يُكتب بالخط الكوفي ذي الزوايا - وهو خط تصعب قراءته، وغير مقروء تقريبًا في بعض المواضع - حيث كان الغرض من كتابة القرآن إضفاء الصدق والشرعية على التلاوة أكثر من توفير النص للقراءة(٩). ومع ظهور المذهب السُّني الجديد، تغيَّر خط كتابة القرآن تدريجيًّا من الخط الكوفي إلى خط النَّسخ الذي وصل قمته في الامتياز بفضل أقلام ابن مقلة وابن البواب. ولم يكن هذا التحول مصادفة؛ ذلك أنه يجب النظر إلى الوضوح القاطع للخط الجديد باعتباره انعكاسًا مباشرًا لإيمان الخليفة العباسي بالحقيقة الوحيدة والجلية في القرآن(١٠). وكان عدم وضوح الخط الكوفي يُستخدم بشكل رمزي من جانب الفاطميين للتأكيد على البعد الباطني لمذهبهم. وعلى النقيض من ذلك كان وضوح خط النسخ تأكيدًا على رسالة السُّنة. وبعبارة أخرى، لم تكن مجرد الكلمة، ولكن صورة الكلمة هي التي صارت رمزًا على المذهب السُّني الجديد. وسرعان ما اتخذت هذا الرمز الأسر الحاكمة التي حملت رسالة السُّنة في الشرق، مثل محمود الغزنوي أو نور الدين في بلاد الشام، وصلاح الدين في مصر. وكان وضع الخط المناسب لكتابة القرآن عملًا من أعمال الولاء للخليفة الذي كان رمزًا للمذهب السُّني الصحيح، كما كان محاولة لإضفاء الشرعية على الأسرة الحاكمة التي تدين بالولاء للخلافة. وبعبارة أخرى، حل محل الوحدة السياسية، التي كان من المستحيل إنجازها، الولاء للخليفة الذي هو رمز لها. وكان التحول في الخط إحدى العلامات الأكثر وضوحًا ومباشرة على تبني الإحياء السُّني. وسرعان ما انتشر خط النسخ الجديد في نقوش المباني

العامة تكريسًا للمذهب السُّني ومصادقة عليه. وبحلول سنة ١١٧٤م، وبفضل نور الدين إلى حد كبير، انتشر استخدامه على نطاق واسع في بلاد الشام وأعالي العراق. والواقع أن المكان الوحيد الذي قاوم هذا الخط الجديد كان مصر تحت الحكم الفاطمي، وكان صلاح الدين هو الذي أدخله، وكان إدخاله تصريحًا سياسيًّا بقدر ما كان بيانًا إبداعيًّا؛ فمع وصول صلاح الدين إلى مصر، لم يعد الخط الكوفي الفاطمي، الذي كان بمنزلة مجد الفن الفاطمي وفخره، يُستخدم في النقوش. ولم يقتصر الأمر على تغير الخط فقط، وإنما تم النزول بحجم النقوش وطولها من موضعها العالي في الأفاريز القريبة من الأسقف لتوضع بحيث تتقاطع على الجدران وتدعم المبنى. وخلق المزج بين الوضوح المتزايد في الخط مع النزول بالنقوش صورة رسالة واضحة ومباشرة كانت إعلانًا ببداية عصر سُني جديد(١١). وفي الباب المدرج بقلعة القاهرة يوجد نقش يرجع إلى فترة صلاح الدين. وكما يشير طباع، كان الوجه الأكثر إثارة للدهشة رداءة نوعية الخط؛ فهو خط طويل ورفيع للغاية، وأشكال الحروف غير متسقة، وليس به تنقيط أو علامات النطق، وهو ما يعكس عدم خبرة الخطاطين في هذا النمط الجديد من الخط(١٢). ويتصور المرء صلاح الدين مشغولًا باستقدام الخطاطين من بلاد الشام ليعلموا أقرانهم المصريين خط النسخ الجديد.

وفي أثناء حصار الإسكندرية تعرَّف صلاح الدين للمرة الأولى على اثنين من عمالقة العلوم الإسلامية: السلفي وابن عوف. وسارع بتقديم الولاء لكل من الرجلين، وكثيرًا ما كان يسافر إلى الإسكندرية، حيث يحضر في مدرستيهما ويستمع إلى دروس الحديث من كليهما. وبوصف صلاح الدين من أتباع المذهب الشافعي، فلا شك في أنه ظل قريبًا جدًّا من السلفي واتجه نحوه في مناسبات عديدة، مثلما كان يفعل أخوه العادل وابن أخيه تقي الدين. وعلى سبيل المثال، عندما واجهه سؤال شائك يتعلق بمواريث اليهود تحت حكمه، اتجه صلاح الدين إلى الرجلين طالبًا الرأي الشرعي: السلفي لمعرفة رأي الشافعي وابن عوف لمعرفة رأى مالك. وعلى أية حال، لم يكن صلاح الدين دارسًا جادًّا، كما اتضح في إحدى المناسبات عندما حضر هو وأخوه العادل أحد دروس السلفي. استمع الأخوان بانتباه لبرهة، ثم تشتت انتباههما وبدآ في الثرثرة، فوبخهما السلفي بحدة. وعلى أية حال، لم يكن من المستغرب أن يحظى السلفي بسرعة، باعتباره القاضي الشافعي الأبرز في مصر، باهتمام صلاح الدين، وكان بحاجة ماسة إلى قضاة من الشافعية لمساعدته في الإدارة. وما يلفت النظر هو عدد الذين خدموا تحت إمرة صلاح الدين ممن درسوا في

إحدى المراحل بمدرسة السلفي، وكان أشهرهم قاطبة القاضي الفاضل وعيسى الهكاري، لكنهم لم يكونوا جميعًا من الشافعية، على سبيل المثال، كان عبد الماجد الإسكندراني، والمعروف باسم كمال الدين، مالكيًّا، وكان رئيس ديوان مصر العليا ودرس الحديث على يد السلفي(١٣).

وإذا كان القصد من تأسيس المدارس تخريج قضاة سُنة يمكنهم تولي الإدارة، فإن إسهام ابن عوف لم يكن أقل أهمية من إسهام السلفي، ومن بين تلاميذه ـ وهو ما عكس النوع الجديد من العالِم الإداري الذي كان من نِتاج المدرسة ـ ابن المجاور، الذي صار وزيرًا لابن صلاح الدين، وقد وُلِد في إيران وتولَّى السُّلطة في مصر. وثمة شخص آخر كان هو أبو القاسم المخزومي، المعروف باسم الأشرف، الذي لحق بحكومة صلاح الدين رئيسًا للجهاز الإداري، وكان إداريًّا وعالمًا أيضًا، ولم يوقفه عمله في الحكومة عن تدريس الحديث في الإسكندرية ودمشق وبغداد.

وما إن وطَّد صلاح الدين موقفه من الناحية السياسية حتى بدأت تهيمن على تفكيره مسألة تحديد مكان يبني فيه مدرسته. وكان يعرف الإسكندرية جيدًا، ويُحبها؛ لأن أهلها وقفوا صامدين بقوة معه في أثناء حصار شاور لها. وفوق هذا، بنيت جميع المدارس من قبل في الإسكندرية. لكن الإسكندرية لم تكن مصر، الأرض التي يحكمها صلاح الدين حينذاك. وكان لا بد من بيان علني وجسور؛ أي إعلان موجَّه إلى سادته السياسيين في دمشق وبغداد، وكذلك لزيادة شعبيته بين السُّنة في مصر. وهكذا اختار صلاح الدين أن يبني مدرسته الأولى في الفسطاط؛ الفسطاط وليس القاهرة. لقد جعلته طبيعته الحذِرة قلقًا، وربما لم يكن يشعر بأن موقفه قوي بحيث يختبر رد الفعل الشيعي الذي لا يمكن التكهن به إذا ما بُنيت مدرسة سُنية في عاصمتهم. وفي هذه المرحلة لم يكن هناك داعٍ للاستفزاز، وكان اختيار الفسطاط مثاليًّا ـ لا القاهرة، لكنها كانت قريبة بما يكفي لتُلقي بظلال سُنية. ولا يمكن للمرء أن يغفل الطموح الشخصي للعظماء. وربما أدرك صلاح الدين أنه لن يجني أي مكاسب من وراء بناء مدرسة في الإسكندرية. وعلى أية حال، كانت هذه المدينة موالية له بالفعل. وفي الوقت نفسه، وعلى المستوى الشخصي، كان واضحًا أنه يريد لمدرسته أن تشرق وتشع، فكان من أول القرارات التي تعيَّن عليه اتخاذها تعيين أستاذ بالمدرسة. في ذلك الحين كانت الإسكندرية واثقة من مركزها العلمي في عصر كان الحكم فيه على التعليم محكومًا بالأساتذة وليس بأماكن التدريس(١٤).

لم يكن يهم كثيرًا أين يدرس الطالب، بينما كانت الأهمية الكبرى للأستاذ الذي يتعلَّم على يديه. وتواجَد بالإسكندرية، كما رأينا، اثنان من عمالقة الفكر، وكان الباحثون عن المعرفة في المدينة ينعمون بمزية الاختيار، وكان صلاح الدين يحترم الرجلين، ويمكن للمرء أن يعتقد أنه تلقَّى النصيحة بأن وجود مدرسة أخرى في سوق المعرفة المزدهرة هذه، سوف يتوارى في الظلال.

وهكذا وقع الاختيار على الفسطاط؛ ليس أي مكان بالفسطاط، ولكن بجوار مسجد عمرو بن العاص مباشرة - قلب المجتمع السُّني، الذي تتجه المدرسة للوصول إليه مباشرة. وبالإضافة إلى ذلك، كان مقر صلاح الدين قريبًا بحيث يراقب البناء يوميًّا. ولم يُترك شيء للمصادفة. وكان صلاح الدين طوال حياته يختار مواعيده بعناية بسبب ما تحمله من رموز دينية. ولم تكن مصادفة أن بدأ بناء مدرسته في يوم رأس السنة الهجرية ٥٦٦هـ (١١٧٠م)، وكان الموضع ينطوي على أهمية رمزية؛ فقد هُدِم أحد السجون إلى الجنوب مباشرة من جامع عمرو لإفساح المكان. وكانت الرسالة أوضح ما تكون؛ ذلك أن المبنى الذي كان يُمثل القوة القهرية للنظام الفاطمي تحوَّل إلى مؤسسة ترتبط بالإسلام السُّني (١٥). وخُصِّص وقف للحفاظ على المدرسة - التي عُرفت بالناصرية - تضمن سوق الصاغة وقرية، ربما كانت في الفيوم، فضلًا عن أملاك مجاورة لها مثل فرن وحمام وحوانيت. وكانت جزيرة الفيل أيضًا ضمن الوقف، وبالطبع كانت مدرسة شافعية. وكان أول مدرس يُعين بها ابن زين التجار؛ وكان من دمشق أصلًا، وربما جاء إلى مصر مع شيركوه، ويبدو أن صلاح الدين عرفه في دمشق. كان الاختيار محل موافقة الجميع، وربما كان صلاح الدين في هذه المسألة حريصًا أكثر من اللازم؛ لأن ابن زين استمر يدرس في الناصرية على مدى خمسة وعشرين عامًا من دون أن يترك تأثيرًا مُهمًّا. وباختصار، وبالمقارنة مع العملاقين في الإسكندرية، كانت مكانة الأستاذ أدنى من عظمة المدرسة ومكانتها. ومثل هذا المظهر المتواضع يغري بطرح السؤال عما إذا كان صلاح الدين قد تعمد اختيار مدرس ذي قدرات متواضعة يمكن أن يتحكم فيه بسهولة(١٦). والمرجح أنه اختار شخصًا يعرفه جيدًا ويثق فيه وتحول ببساطة إلى مدرس قليل البضاعة في العلم. وربما كان نور الدين يكرس المزيد من الاهتمام في اختيار أستاذ مناسب أكثر لمثل هذا المنصب المهم. ولم تكن المرة الأولى، كما سنرى، التي يسيء صلاح الدين الاختيار فيها. ويكفي أن نقول إن أصالة المدرسة الناصرية تتمثل في أنها المدرسة الأولى في الفسطاط، وفي مجاورتها لجامع عمرو بن العاص، التي

ضمنت لها مكانتها، وهو ما يناقض المبدأ المعتاد في التعليم الإسلامي بأن أستاذ المرء هو المهم، لا مكان التدريس.

وبقي التعليم الإسلامي في أثناء هذه الفترة غير رسمي ومرنًا إلى أقصى درجة. لم يكن هناك مقرر دراسي ولا أي محاولة لوضع التعليم في مؤسسة، ولم يكن هناك أي إجراء رسمي للالتحاق بالدراسة قائم على المؤهلات الدراسية السابقة. كل ما كان مطلوبًا هو الإذن من الأستاذ، وفيما عدا ذلك كان باستطاعة الطلاب حضور أي حلقة دراسية يرغبون فيها. ويبحث المرء من دون طائل عن برنامج لتدريب موظفي الإدارة، والواقع أن مثل هذا المقرر الدراسي كان يبدو غريبًا تمامًا، ويبدو أن وجود خلفية من الشريعة الإسلامية كان كافيًا. وفوق هذا وذاك، كان ولاء الطلاب غالبًا للأستاذ وليس للمكان. وكان الأستاذ هو الذي يصنع المدرسة، لا العكس. كانت المعرفة عملية شخصية إلى حد كبير وتعتمد على العلاقة بين المدرس والطالب. وهكذا فإن تراجم العلماء البغداديين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر لا تكاد تذكر المدارس التي درسوا فيها، مع أن هذه المعلومات كانت معروفة على نطاق واسع، وبدلًا من ذلك تضع قوائم بالمدرسين الذين درس المرء على أيديهم. ويمكن استنتاج المكان الفعلي الذي كانت تجري فيه الدراسة من السياق. وكان السبب في هذا أن المدرسين كانوا يضفون على تلاميذهم ما هو أكثر من المعرفة، كما أنهم أيضًا كانوا يضفون الجدارة والثقة على النصوص والتعليم الذي لم يكن ممكنًا نقله إلا من خلال شكل ما من الاتصال الشخصي المباشر(١٧). وكان هذا النقل يأخذ شكل الإجازة التي يمنحها شيخ لطالب، وسرعان ما صارت الإجازة الوسيلة القياسية لنقل العلوم الإسلامية(١٨). بل إن الذين كانت لديهم الكتب ولم يكن لهم شيوخ يدرسون على أيديهم كانوا يحاولون الاقتراب من المؤلف ـ ونقرأ عن دارس كان يدرس ابن العربي فقام بزيارة قبره ليقرأ كتبه هناك. وكان السبب وراء هذا أن المعرفة كانت تعتبر شكلًا من أشكال البركة، وكانت مستقلة عن الكتاب الذي يحتويها، وكان الشيوخ الذين يدرسونها يشاركونها ويمتزجون بها بطرق تستعصي على فهم العقل العلماني اليوم. كان الدمشقيون، على سبيل المثال، يبحثون عن البركة بشرب الماء الذي توضأ به ابن تيمية. وفي كثير من الأحوال كانت الكتب نفسها مجرد مساعدة على التذكُّر: حكى ابن خلكان قصة عالم زعم أنه لو أُحرقت كتب الشافعي لما ضره ذلك كثيرًا، لأنه يمكنه كتابتها من الذاكرة.

وكان كثير من الطلاب يسافرون للدراسة على الشيوخ، ولجمع الأحاديث النبوية والحصول على الإجازات قبل أن يستقروا. وكان من المعتاد بالنسبة إلى الطلاب، وغالبًا ما كانوا في العشرينيات من العمر، وأحيانًا أكبر سنًّا، أن يتركوا مسقط رأسهم ويتجهوا إلى مدن أخرى للدراسة، وكانت تسمى الرحلة. كما كانت المسافات التي يقطعونها بالسفر شاسعة. وكان الطلاب في إيران وفي إسبانيا يقرأون كتبًا أُلِّفتْ في مصر، وكانت وظائف شيوخ الشريعة في بغداد يشغلها علماء وُلِدوا في دمشق. وكان من المألوف أن عالمًا وُلِد في الإسكندرية يختم حياته ويُتوفَّى في الصين. وحسن الأندلسي مثال جيد، لكنه ليس مثالًا نادرًا. كان موطن حسن في «فالنسيا»، وقد سافر في شبابه إلى الصين لجمع الأحاديث النبوية، قبل أن يشق طريقه نحو المدرسة النظامية في بغداد ليدرس الشريعة مع الغزالي. وكان بعض الطلاب يدرسون مع شيوخ كثيرين، والبعض الآخر يلازمون الشيخ نفسه لسنوات عديدة، وغالبًا ما يقومون بدور الرفيق. وحتمًا كانت الروابط الاجتماعية تتكون وتتطور. وكثيرًا ما كان التلميذ الشاب يتزوج ابنة الشيخ من أهل البلد؛ وبهذه الطريقة بدأت تظهر الزيجات بين المدن. كذلك لم يكن السفر يعني أن العلماء لم يكونوا يتواصلون بعضهم مع بعض، فقد كانت الرسائل شكلًا سهلًا من أشكال الاتصال يمكن استخدامه. ولم تكن الرسائل تهتم بالموضوعات العلمية وحدها، وإنما كانت الأمور السياسية محل مناقشات مستفيضة. وإذا تُوفِّي أحد العلماء البارزين، حزن عليه الناس في جميع أنحاء العالم الإسلامي[١٩]. ولا جدال في أن هذا تمخض عن تكوين نخبة عالمية قوية من المفكرين[٢٠]. كما أن تأسيس شبكات من التعليم والمعرفة ربطت العالم الإسلامي معًا بطرق لم تكن الحوادث السياسية، مهما كانت مزلزلة، تطمح إليها. وإذا كنا قد ركزنا على هذه النقطة، فذلك لأن مغزاها كان عميقًا.

الفصل السابع

جائزة الشام

والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا... وهو أقوى منا لأن له مثل مصر.

كمال الدين الشهرزوري

من المستحيل تجاوز تأثير نور الدين على صلاح الدين، وقد ترعرع صلاح الدين في بلاطه، كما خدمه أبوه وعمه بإخلاص. وفي ذلك الحين، وحتى عندما أصبح حاكمًا على مصر، كان يعيش في ظل نور الدين. ومن الناحية الفكرية كانا متفقين، على الرغم من اختلاف طبيعتهما؛ كان نور الدين مفكرًا عميقًا وجامعًا وقارئًا للحديث بشغف شديد، وكان صلاح الدين أقل ثقافة بشكل واضح، لكنه كان يضاهيه في الالتزام بمبادئ المذهب السُّني. وكان كلاهما يُكن احترامًا هائلًا للأولياء، وينجذب نحو التصوف، وقد كان صلاح الدين ينحني احترامًا لمن يحملون قدرًا أكبر من المعرفة. وكانت هناك نزعة زهد ونسك في كلٍّ من الرجلين. يخرج المرء بانطباع بأنه كانت هناك صرامة في نور الدين تقابلها في صلاح الدين نعومة بسبب رقته الطبيعية التي كثيرًا ما كانت تجعله يذرف الدموع. ولم يكن لدى عماد الدين الأصفهاني، الذي خدم كلًّا من الرجلين كاتبًا لهما (وتصادف أنه خدم ابن هبيرة أيضًا)، شك في الدَّيْن الفكري الذي كان صلاح الدين يَدين به لنور الدين؛ فقد كتب أن صلاح الدين تشكَّل وفقًا لجميع سجايا نور الدين.

ومع هذا، وبينما كان وضع صلاح الدين في مصر يبلغ مكانه الطبيعي، كان لا بد أن

يظهر بعض التوتر بين الرجلين. وكانت جذور هذا التوتر واضحة: ماذا ستكون عليه مصر؟ ومرة أخرى لخص عماد الدين الأصفهاني المعضلة:

> وكان نور الدين مذ مُلكت مصر، وتوجه له فيها النصر، يؤثر أن يقرَّ له فيها مال محمول، يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل... وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيد.

بعبارة أخرى، كان نور الدين بحاجة إلى مصر لتمويل حملاته في بلاد الشام. وكانت الحقيقة أن كلًّا من الرجلين وصل إلى السُّلطة من خلال قوته العسكرية، ولم يكن له حق إسلامي في الحكم، ولم يكن أي منهما يتوافق مع متطلبات الشريعة(1). وبهذا المعنى كانا بحاجة إلى تبرير شرعي لما استوليا عليه بالقوة، ولم تكن الشرعية لتتأتى إلا عبر الخليفة. وكان نور الدين يريد أن يظهر للخليفة أنه استعاد مصر من الإسماعيلية إلى رحاب المذهب السُّني، كما كان يزداد تململه كلما تردد صلاح الدين في القيام بهذا. ولم يكن صلاح الدين، من ناحية أخرى، مندفعًا؛ وعلى أية حال لم يكن التسرع من خصاله. كذلك كان نور الدين أيضًا غير مدرك لمخاطر العصيان والمؤامرات التي تكمن في ظلال القاهرة؛ ذلك أن خطر المتاعب الداخلية، مع أنه تضاءل، لم يكن قد انحسر تمامًا وحتى إبريل سنة ١١٧٤م حينما أُخمِدتْ مؤامرة فاطمية أخرى. وقيل إن المؤامرة ضمت خليطًا ممن كانوا يحقدون على صلاح الدين؛ من الفاطميين والأرمن والسودانيين وغيرهم ممن أُخذت منهم أراضيهم. وكُشِفت المؤامرة بسرعة وسحقها على الرغم من وجود عالم من المخبرين والعملاء المهيجين. والرجلان اللذان اخترقا صفوف المتآمرين هما: ابن مصال؛ وقد صار قريبًا من صلاح الدين عندما كان تحت الحصار في الإسكندرية، والغامض ابن نجا؛ الذي يبدو أنه كانت له قدمٌ في معسكر نور الدين وقدمٌ في المعسكر الفاطمي.

ولا شك في أن صلاح الدين كان يشاطر نور الدين رغبته في إنهاء ما اعتبراه زندقة شيعية، لكن أولويته كانت بناء قوة متينة للسيطرة على مصر.

ولم تكن مصر قادرة على تلبية طلبات بلاد الشام. وفي الوقت نفسه، ربما تكون العوامل الشخصية قد لعبت دورها وصلاح الدين يبدأ تقدير الثروة والمصادر الهائلة الموجودة في أرض النيل. وربما تذكَّر ذلك عندما رجع مع عمه بعد الحملة الثانية، حيث عوضه نور الدين بحُكم حمص، ورأى آنذاك أن إمارة حمص بأسرها أصغر

من القاهرة، ناهيك عن مصر كلها. فإذا ما تعيَّن عليه الرجوع إلى الشام، فهل يمكن أن يتوقع ما هو أفضل من حمص؟ كان مترددًا في الرجوع إلى مصر، ولكنه فهم الآن أنه سيكون أحمق إذا ما غادرها. لكن يصعب تقدير مدى عمق التوتر الذي نشب بين الرجلين. ويكتب ابن الأثير عن «مجلس عائلة» عقده الأيوبيون أظهر فيه تقي الدين مروقًا صريحًا تجاه نور الدين، على حين انتحى الحكيم أيوب جانبًا بصلاح الدين ونصحه بالفطنة والتبصر. وبما أن ابن الأثير؛ الموالي للزنكيين والمشهور بعدائه لصلاح الدين، ذكر أن هذه المحادثة كانت خاصة بين الرجلين، فإن المرء ليعجب كيف أمكنه أن يطَّلع عليها! ويساورنا الشك في أن يكون الخبر مجرد اصطناع مما يصطنعه المؤرخون، يجدُر بالمؤرخ «ثوكيديدس». وهناك بعض المؤرخين أصروا على أن نور الدين كان سريعًا في تقويض سلطة صلاح الدين من خلال مواقف وإجراءات تعرقله، وحسبوا أنها سوف تؤدي إلى تقويض سلطته[٢]، وذكروا أن مصادرة نور الدين أراضي شيركوه في حمص برهان على عدم رضاه. ويمكن أن يفسر المرء سرعة نور الدين في التصرف في ضوء مختلف؛ فقد كان إدراكه واضحًا أن ابن شيركوه، نصر الدين، أصغر من أن يتولى مثل هذا الموقع المهم على الحدود.

والحقيقة أننا لا نعرف إلى أي مدى تدهورت العلاقة بين الرجلين. ومن المُسلَّم به أنه بحلول صيف ١١٧٤م بدأ نور الدين في حشد القوات من الموصل وأعالي العراق، ولكن هل كان يفكر جديًّا في الزحف على مصر؟ وعلى أية حال، لم يتردد من قبل في إرسال القوات لمساعدة صلاح الدين عندما هاجمه «أماريك» والبيزنطيون، ولا بد أنه كان يعرف أنه من المفيد للفرنج أن ينشب صراع بين الشام ومصر. وعلى الرغم من أن الموقف كان يتحرك نحو نقطة القطيعة، ظل هناك مجال للدبلوماسية. وفي شتاء ١١٧٣م قرر نور الدين أن يرسل الموفق بن القيسراني ليحمل إليه كشفًا كاملًا بموارد مصر وعوائدها. والواضح أنه كان يتطلَّع إلى أن يتلقَّى جزية سنوية من مصر، وأن يؤكد أيضًا سلطته على صلاح الدين. ولو وصلت العلاقات بين الرجلين إلى نقطة القطيعة، يمكن أن نفترض أن صلاح الدين كان سيقاوم مثل هذه الحركة الاستفزازية، ولكن يبدو أن ابن القيسراني لم يواجه أي عقبات، وأن صلاح الدين سمح له بالاطلاع على كل الحسابات. ومن المثير أن نلاحظ أن صلاح الدين اختار عيسى الهكاري، الذي لعب دورًا مهمًّا في تعيينه وزيرًا، ليصحب ابن القيسراني إلى مصر.

لم يتلقَّ نور الدين تقرير ابن القيسراني عن الحسابات؛ لأنه مَرِض في مايو ١١٧٤م ومات فجأة. وقبل ذلك بأشهر قليلة رحل أيوب، وبذلك خسر صلاح الدين، في فترة وجيزة، الرجلين اللذين أثَّرا عليه أكبر تأثير. ومع قيام توران شاه بحملة على اليمن، وجد صلاح الدين أنه أكبر أعضاء أسرته سنًّا. ولو أن نور الدين ظل على قيد الحياة في ذلك الوقت لتراجع صلاح الدين إلى هامش التاريخ، وصار هذا الكتاب سيرة لنور الدين؛ فمع وجود بلاد الشام ومصر تحت حكم نور الدين وسيطرته، والموصل في يدَي أخيه، فلا شك في أنه كان سيحول اهتمامه صوب بيت المقدس. لكن مع مثل هذه الأحداث المواتية، مثل الموت الطبيعي، يتحول التاريخ، وكذلك أقدار الرجال. ومنذ لحظة وفاة نور الدين، قام صلاح الدين بدور ربيبه الذي ينعم برعايته ووريثه الفكري. من دون نور الدين لم يكن ليوجد صلاح الدين، وكان ما يميز بينهما أمران لا ثالث لهما: يتمثل الأول بوضوح في حقيقة أن صلاح الدين فتح القدس، وكان الثاني أقل وضوحًا، ولكنه على القدر نفسه من الأهمية، وهو أن نور الدين لم يكن لديه عبقري مثل القاضي الفاضل ليهذب صورته ويُضفي عليها البريق. ولو ظن صلاح الدين أن وفاة نور الدين سوف تزيح ظل سيده، فلا بد أنه كان على خطأ، لأن ظل آل زنكي كان نذيرًا بشرٍّ أشد وطأة. إن ما جمعه نور الدين بفضل قوة شخصيته بات حينذاك مفككًا، عندما بدأ أفراد عائلته، الذين شاركوه طموحه ولم تكن لهم قدراته، يتزاحمون ويتدافعون لملء الفراغ السياسي. وكان نور الدين قد خلَّف وراءه ولدًا عمره إحدى عشرة سنة، هو الصالح، ويمكن للمرء أن يرى في شخصيته المليئة بحيوية الشاب، وفي تصرفاته، خصائص من خصائص أبيه. ولكن نور الدين خلَّف وراءه أيضًا اثنين من أولاد إخوته، عماد الدين زنكي في سنجار، وسيف الدين غازي في الموصل، لم يتمتعا بفضائل مماثلة لتلك التي تمتع بها. وكان الحب مفقودًا بين الأخوين، وكان المبجل كمال الدين الشهرزوري قد حذَّر نور الدين ذات مرة من أن بيت آل زنكي سوف يلقى نهايته على يديهما.

عندما انتشرت أنباء وفاة نور الدين في الموصل، اختار سيف الدين أن يحتفل، لا أن يعلن الحداد. وفعل هذا بالإعلان عن إجازة عامة، وسمح بشرب الخمر علنًا في المدينة، وأعاد فرض الضرائب غير الشرعية التي ألغاها نور الدين. وإذ تحرر سيف الدين من ولي أمره، كان واضحًا أنه اعتبر نفسه العضو الأكبر في آل زنكي، وفي الحال

استولى على نصيبين وحران والرها والرقة وكل أراضي الجزيرة (أعالي العراق) باستثناء سنجار. وكاد أن يعبر نهر الفرات، لكنَّ التعقل حكم الموقف وانسحب جيش الموصل نحو الشرق. وفي الوقت نفسه، حددت حلب موقفها طبقًا للواقع، وبعد كثير من الاحتيال والمكر، نجحت في الإمساك بالصالح، ابن نور الدين ووريثه الظاهري، وكان أصغر من أن يحكم وأثمن من أن يُترك تحت سيطرة دمشق. وحيث إن الصالح كان تحت سيطرة حلب، فقد زعمت بحسم أنها تمسك بمفاتيح الشرعية والسُّلطة. وفي دمشق حذَّر، في الوقت نفسه، عدد من موظفي نور الدين من التطورات الجارية في حلب، وخافوا من عدوان المملكة اللاتينية، وأقسموا على العمل معًا، وعينوا أحد كبار قادة صلاح الدين، ابن المقدم، قائدًا على الجيش.

وبالنسبة إلى المملكة اللاتينية، أزاحت وفاة نور الدين محمود أخطر أعدائهم من الخريطة السياسية. اكتمل توحيد بلاد الشام تحت لوائه، وبإضافة مصر صارت إمكانية القيام بحركة إحاطة إسلامية من الشمال والجنوب حقيقة تنذر بالخطر. وقد سعى «أماريك» لمنع مصر من السقوط في يدَي نور الدين، ولكنه خاب في مسعاه. وعندئذ لم يضيِّع وقتًا في انتهاز فرصة التشرذم الشامي وهاجم بانياس، وكانت تتحكم في الطريق الرئيسة بين دمشق والجليل الأعلى. وعلى أية حال، لم يضع في حسبانه وجود زوجة نور الدين التي كانت في بانياس، وتدخلت وحشدت الرجال للدفاع حتى تم التوصل إلى هدنة واضطر «أماريك» إلى رفع الحصار.

لكن ظلت عيون الجميع - الموصل وحلب ودمشق وبيت المقدس - مفتوحة في قلق على مصر وصلاح الدين. وحتى ذلك الحين لم يكن قد تحرَّك بعد، وكان واضحًا من الثروة التي توفرها له مصر، أنه إذا ما تحرَّك فسوف يكون قوة يُحسب حسابها. ونصح المستشار الحكيم لزنكي ونور الدين، كمال الدين الشهرزوري، بالحذر؛ لأنه كان يعرف صلاح الدين جيدًا: «والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا؛ لأن له مثل مصر».

وكان السؤال الذي طرحه الجميع: إلى أين تتجه نية صلاح الدين؟ هل هو حقًّا من أبطال الجهاد أم من سادة الحرب يغتصب السُّلطة؟ هذه أسئلة قسمت المؤرخين على مدى السنين، لدرجة أنه يصعب أن نفكر في شخصية تاريخية أخرى تسببت في الانقسام

بمثل هذا القدر من الانبهار والخزي. هل هو صلاح الدين الذي يكتب عنه المؤرخ «جب»: «في لحظة وجيزة وحاسمة، وبطيبة خالصة وثبات الشخصية، رفع الإسلام بعيدًا عن مستنقع الانحطاط الخلقي السياسي»(٣)، أم أنه صلاح الدين الذي يجب أن تنسب أهم إنجازاته التاريخية، بحسب تعبير «إهرينكروتز»، إلى اضطهاده لخصومه السياسيين وإعدامهم، وإلى نزعته الحربية الشرسة، وإلى انتهازيته المحسوبة واستعداده للمساومة على المبادئ الدينية لاستغلال الظروف السياسية(٤)؟

لا نعرف ما تنطوي عليه قلوب الرجال، لكن يمكن للمؤرخ أن يصدر أحكامًا على أفعالهم. وكان المذهل فيما يتعلق بصلاح الدين الإصرار العنيد والتصميم في دعواه بأنه بطل الجهاد. وسواء كان مؤمنًا بهذا أم لا، فقد واصل مساره بإصرار مثل امرئ يكرس حياته لهدف واحد ارتبط بعدد من الشخصيات العظيمة على مرِّ العصور(٥). زعم أنه الوريث السياسي والفكري الطبيعي لنور الدين، وسواء كان صادقًا أم لا، فإنه لم يخرج قطُّ عن هذا الخط.

ربما كان صلاح الدين مؤمنًا بالجهاد حقًّا، ولكنه اضطر إلى القبول بالانشغال بالشؤون السياسية كذلك؛ وهو ما أوجد التناقض الذي تولَّدت عنه الآراء المتباينة. وقبل كل شيء، كان هو والرجال المحيطون به عمليين ـ لا يعرفون الأوهام. ومن المرجح أنه شخصيًّا لم يرَ أي تناقض في أن يكون مجاهدًا وشخصًا يلعب لعبة شؤون السُّلطة السياسية، وفوق هذا كان أبوه هو الذي يتولى إنجاز المهام الصعبة. كان صلاح الدين يرنو إلى بناء دولة كبرى، شأنه شأن زنكي ونور الدين، وكان ذلك يستدعي التوسع الدائم إرضاء لطموحات أمرائه وضمان ولائهم. وحتى لو كان تطلعه انعكاسًا للطموح الشخصي والعائلي والرغبة في تأسيس أسرة حاكمة، فربما كان ضربًا من الجنون لو فكر على نحو آخر. ولم يكن للأمور الشخصية دخل، كانت مسألة حياة. كان الفضاء السياسي في ذلك العصر يحترم القوة أكثر مما يحترم الأفكار.

ومع هذا، عندما رأى صلاح الدين التطورات السياسية في بلاد الشام كان الأمر أكبر من مجرد الطموح. كانت هناك أفكار تجمع بين نور الدين وصلاح الدين، ويمكننا أن نتحدث عن تحالف كان يتم بناؤه بين القيادة العسكرية والفئات الدينية. وليست مصادفة أن كلًّا من الرجلين أيضًا من الأبطال الكبار في عملية الإحياء السُّني في بلاد الشام ومصر،

كما كان كلٌّ منهما راعيًا لعدة مدارس ومؤسسات دينية. وكانت الدعوة إلى الجهاد ـ وقد نادت بها في البداية أصوات في البرية مثل السلامي ـ تردد صداها بعد ذلك في أركان جميع المدارس في بلاد الشام ومصر والعراق، بحيث خلقت قوة دافعة لا يمكن تجاهلها أو مقاومتها. وقد تحدثنا عن تحالف سابق في بغداد بين الغزالي ونظام الملك، وفي ذلك الحين ظهر تحالف آخر بين العلماء رجال الإدارة الذين حملوا رسالة الإحياء الروحي والجهاد وبين الأمراء العسكريين الذي تولوا تنفيذ هذه الرسالة. وأفاد هذا التحالف كلًّا من الجانبين: إذ إن أولياء النعمة من العسكريين بنوا المدارس التي اجتذبت الأساتذة والطلاب، الذين قاموا بدورهم بالدعوة إلى الجهاد. وكلما زاد عدد المدارس، كان الضجيج أكبر، وكان الصخب أكبر، وزاد الضغط على القيادة العسكرية للتصرف حتى لم يعد من الممكن مقاومته. وفي هذا التحالف وضع علماء الدين جدول الأعمال. وبالنسبة إليهم، سواء كان صلاح الدين مخلصًا للجهاد، أو انتهازيًّا من زعماء الحرب شغوفًا بتحسين أوضاعه، كانت مسألة تدخل في علم الله؛ فقد كان صلاح الدين قادرًا على القتال في سبيل الجهاد، سواء بكامل إرادته أو وهو متردد، ولكن المهم أن يحارب من أجل الجهاد. وإلى حد ما، كان نجاح صلاح الدين في البداية قد ألزمه بمسار سياسي كان مضطرًّا إلى السير فيه؛ فقد صعد في شبابه إلى أعلى ما يمكن في السلم السياسي بحيث لم يكن بوسعه أن يتراجع أو حتى يبقى في مكانه(٦).

وحتى لو أراد أن يتصرف على نحو آخر، ما كان يمكن للعلماء، الذين كانوا بحاجة إليه، أن يسمحوا له بهذا.

سمع صلاح الدين نبأ وفاة نور الدين من الفرنج، وكتب في الحال إلى دمشق ليتأكد أن الخبر ليس مجرد شائعة. وعندما تأكد الخبر، أقام الحداد ثلاثة أيام، كما كتب أيضًا إلى الصالح معربًا عن تعازيه. وفي أول يوم جمعة بعد وفاة نور الدين كانت الخطبة باسم الصالح. وعندما استعرض صلاح الدين من القاهرة المشهد السياسي في الشام، ثارت في ذهنه عدة مسائل، كما أثار اعتقال الحلبيين للصالح غضبه. وكتب إلى ابن المقدم يقول كيف واتتهم الجرأة على فعل هذا؟ وفي الحال كتب إلى حلب، ولكن يبدو أن الحلبيين لم يفكروا في أنه يمكن أن يغادر مصر ويزحف صوب بلاد الشام(٧). لكن صلاح الدين تمهل، لأنه كان يدرك أنه لا يستطيع الإفراط في استخدم القوة؛ كان الغضب الشديد من «سَجْن» الصالح بالغ الأهمية، لكن الإفراط في الاحتجاج كان لا بد أن يشعل نيران

التوجس الذي كان يراود بعض العناصر في بلاد الشام حول مقاصده. وفي الوقت نفسه، كان انقضاض «أماليك» على بانياس تحذيرًا له. وعندما سمع عن تقدم الفرنج، خرج بقواته، لتصله أخبار الاتفاق على هدنة. وكانت الهدنة، في رأي صلاح الدين، علامة على ضعف دمشق. وهنا كانت الفرصة كامنة، بطبيعة الحال، لكنَّ الخطر كان كامنًا أيضًا وبالقدر نفسه؛ لأن دمشق الضعيفة يمكن أن تسقط بسهولة في فلك الموصل، وهو ما قد يعني بدوره أن تُبعَد بلاد الشام عن مصر ـ ولن يكون ذلك في صالح أحد سوى الفرنج. وعلى أية حال، إذا زحف صلاح الدين على بلاد الشام فسوف يبدو في صورة المغتصب؛ لأنه كان واضحًا أن الصالح قد عُيِّن خليفة لنور الدين ولم يكن صلاح الدين ليقدر على أن يبدو في صورة من يسير عكس رغبات سيده، وقال مدافعًا عن نفسه: «إنا في وادٍ، والظانون بنا ظن السوء في وادٍ». ولكن في الوقت نفسه، كان صلبًا في رسالة خاطب بها ابن المقدم، فقال إنه لو كان لدى نور الدين قائد يثق فيه أكثر من صلاح الدين لعهد بمصر إليه. ثم واصل بشكل مراوغ إلى حد ما ليجادل بأنه لو عاش نور الدين لَعهد إليه بتربية الصالح. وعلى أية حال، فمن بين جميع الحقائق كانت هناك حقيقة واحدة هي الأكثر وضوحًا، مؤداها أن الموقف في بلاد الشام كان مشتتًا إلى أن تصرَّف صلاح الدين.

ما كان واضحًا بالقدر نفسه أنه إذا كانت الدعوة إلى الجهاد دعامة الشرعية لحكم صلاح الدين فيجب أن تكون بلاد الشام مركز دولته. وليس من الواضح في أي مرحلة خطرت فكرة الانتقال من مصر إلى الشام على بال صلاح الدين، ولكن إذا كان له أن يكون وريثًا لنور الدين فعليه أن ينتقل إلى دمشق ليواصل الحفاظ على تراث آل زنكي في توحيد بلاد الشام. ولم يؤخذ الانتقال إلى بلاد الشام، من الناحية السياسية والناحية الرمزية على السواء، بخفة، ولا كان بلا منتقدين، وكان على رأس المنتقدين القاضي الفاضل نفسه، الذي كان يعتقد أنه قد تم التخلِّي عن مصر لمصلحة الشام. ولم يكن صلاح الدين بحاجة للانتقال إلى بلاد الشام؛ فقد كان بوسعه أن يبقى في مصر، حيث نجح في توطيد سلطته، وحيث المزيد من الثروة والفرص التي يمكن كسبها بقدر أكبر من بلاد الشام بأسرها. كذلك لم يكن هناك ضغط يدفعه إلى الانتقال إلى بلاد الشام، ولم تجذبه إلى هناك الحوادث الخارجية، وإنما شده فراغ السُّلطة. ولكن ما إن اتخذ قرار الانتقال إلى بلاد الشام، لم يكن ممكنًا تغيير الهدف. وهكذا طرح عماد الدين الأصفهاني السؤال، في رسالة يسأل فيه عما تساوي الأهرام القديمة مقارنة بالحرم القدسي الشريف.

لعب التأكيد على أن بلاد الشام هي المؤدية إلى بيت المقدس دورًا مركزيًّا في مجادلات كُتَّاب صلاح الدين في تلك الفترة.

وبينما كان صلاح الدين يمعن التفكير في هذه المعضلة، وصله نبأ أشد درامية: مات «أماليك»! عاد من بانياس معتلًّا، وبدأ يعاني من «الدوسنتاريا»، ومات في ١٤ يوليو ١١٧٤م. في شهرين رحل عملاقا بلاد الشام، نور الدين محمود و«أماليك»، عن هذا العالم. وفي مُستهل حياة صلاح الدين فتح الموت الذي خطف شيركوه، ثم الخليفة الفاطمي العاضد، أمامه أبواب السُّلطة في مصر؛ والآن فتحت وفاة نور الدين و«أماليك» أمامه أبواب بلاد الشام. وإذا ما كانت هناك حاجة لاعتبار الحظ ضمن عوامل صعود رجل عظيم إلى السُّلطة، فلا بد أن صلاح الدين كان محظوظًا. وثمة وفاة أخرى جاءت بعد ذلك لتسهِّل وصوله إلى السُّلطة، ونكتب عنها فيما بعد. ولا بد أن صلاح الدين كان سيزحف على دمشق بقدر أقل من الثقة لو أن «أماليك» لا يزال على قيد الحياة؛ لأن «أماليك» ربما تحدى حتمية انتصار الإسلام[^8]. وقد قبل البارونات تتويج ابنه «بلدوين الرابع»، وكان في الثالثة عشرة من عمره، ملكًا، وكان الأمير الوحيد الباقي من البيت الملكي. وُلِد الملك الشاب سنة ١١٦١م، وقد تمت تسميته باسم الأخ الأكبر لأبيه الملك «بلدوين الثالث»، الذي صار الأب الروحي له. وتُحكى قصة أنه عندما سُئل عن الهدية التي سيعطيها للطفل، «أماليك»، بمناسبة تعميده، أجاب «بلدوين الثالث»: «مملكة بيت المقدس». قيلت هذه العبارة، بالطبع، على سبيل المزاح، لأن «بلدوين الثالث» كان في الحادية والثلاثين من عمره، وقد تزوَّج حديثًا، وكان افتراض وصول ابن أخيه إلى العرش بعيد المنال. لكنه مات بعد أقل من عامين من دون أن يخلف ذرية وصار «أماليك» ملكًا.

لم يكن هناك مَن يُنازع «بلدوين الرابع» العرش. وتُوِّج في الاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين لاستيلاء الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس، وكان الملك السادس على المملكة اللاتينية في بيت المقدس. وعلى الرغم من عدم وجود نزاع على العرش لم يكن ارتقاؤه تلقائيًّا، فقد مرت عدة أيام قليلة قبل التتويج؛ وهي حقيقة لاحظها صلاح الدين. وكان سبب هذا التأخير دراميًّا تمامًا. ذات يوم، و«بلدوين» وأصدقاؤه يلعبون ويتصارعون، مثل الفتيان في سنه، لاحظ مؤدبه «وليم الصوري» شيئًا غريبًا جدًّا في الملك الشاب؛ إنه لا يشعر بأي ألم. لم يبالِ بمدى القسوة التي ينشب بها أصدقاؤه مخالبهم في ذراعه، ولم يكن يتراجع. وفي الحال اضطرب «وليم الصوري»؛ لأنه يخشى الأسوأ، وتأكدت

مخاوفه فيما بعد؛ كان «بلدوين» مجذومًا وحياته قصيرة، ولم يكن من الواضح مدى طول فترة حكمه. وعُيِّن «ريمون» أمير طرابلس؛ «وكان رجلًا طويل القامة نحيفًا، داكن الشعر والبشرة، ويملأ وجهه أنف كبير»[٩]، يتحدث العربية بطلاقة ويفهم أساليب المسلمين مثل أي فرنجي، عُيِّن وصيًا على الملك الشاب.

صراع السُّلطة في بلاد الشام

كان واضحًا للجميع أن مملكة بيت المقدس تواجه خطرًا داهمًا من جانب الصحوة الإسلامية[١٠]. عرف «وليم الصوري» سنة ١١٧٥م أن صلاح الدين يختلف عن القادة المسلمين الآخرين، وكان التهديد الذي يمثله واضحًا: «كانت أي زيادة في قوة صلاح الدين مثارًا للشك من جانبنا... لأنه كان رجلًا حكيمًا في المشورة، جسورًا في الحرب، وكريمًا بلا حدود». ثم حث الفرنج على دعم الصالح في حلب «ليس من أجله هو، بل لتشجيعه باعتباره خصمًا لصلاح الدين». واتجهت سياسة الفرنج في الشام في السنوات التالية إلى منع صلاح الدين من السيطرة على الإمارتين الزنكيتين في حلب والموصل. وكانت الرها قد ضاعت منهم بالفعل، وجعل انتصار نور الدين في حارم أنطاكِية عاجزة عن تقديم المساعدة. وكان معنى هذا أنهم بحاجة ماسة إلى الدعم العسكري لمنع المسلمين من تطويقهم. وأول مكان سعوا لطلب المساعدة منه غرب أوروبا. ومنذ سنة ١١٦٠م فصاعدًا، عندما بدأ يتضح، مع ظهور نور الدين، أن الانتقام الإسلامي يحتشد بسرعة تنذر بالشر، أرسلت الرسائل وسافر المبعوثون إلى أوروبا يتوسلون لطلب حملة صليبية جديدة. ومن المُسلَّم به أن بعض هذه التوسلات لقيت استجابات إيجابية من أفراد قاموا بحملاتهم الصليبية الخاصة، مثل «فيليب الفلندري»، لكن المستوطنين الفرنج كانوا بحاجة ماسة إلى حملة صليبية كبرى، وركزوا توسلاتهم من دون طائل على «لويس السابع» ملك فرنسا و«هنري الثاني» ملك إنجلترا. وفي الوقت نفسه، حوَّلت المملكة اللاتينية انتباهها تجاه بيزنطة؛ حيث اختار الملك «بلدوين الثالث» أن يقيم علاقات وثيقة مع القسطنطينية، وفي ١١٥٨م تزوج من إحدى بنات العائلة الإمبراطورية البيزنطية. وبعدها بتسع سنوات فعل «أماليك» الشيء نفسه. والحقيقة أن رحلة «أماليك» الدرامية إلى القسطنطينية كانت علامة على مدى تردي الموقف. وقد استُقبل بحفاوة بالغة، واعترف بسيادة الإمبراطور البيزنطي «مانويل» عليه[١١]. ولا شك في أن هذا التحالف ساعد الفرنج،

وصار نور الدين، نتيجة خوفه من ثأر بيزنطة، أكثر حذرًا في الاستفادة من موقفه. ومع هذا، كتب «وليم الصوري» أن الفرنج كانوا تحت ضغط جعلهم يبدون كأنهم بين شِقي الرحى. وكما يظهر بمرور الزمن، خلق اتحاد دمشق والقاهرة موقفًا يُمثل أكثر التهديدات خطرًا على وجود الدويلات الصليبية اللاتينية في بلاد الشام[١٢].

وفي أثناء ذلك، كان موقف ابن المقدم في دمشق حرجًا؛ لأن المدينة كانت مكشوفة بدرجة خطيرة، ولا يمكنها البقاء طويلًا في خضم هذا البحر من الفوضى الشامية؛ كانت من ناحية تواجه تهديد حلف حلبي موصلي، ومن ناحية أخرى تواجه خطر الفرنج. ولم تكن نوايا صلاح الدين ومقاصده معلومة لابن المقدم، ولكن شخصيته وخلفيته لم تكن مجهولة. كانت دمشق على أية حال، مدينة صلاح الدين؛ ترعرع فيها، ولعب أبوه دورًا بارزًا في الحياة السياسية بالمدينة، وكان يحظى باحترام كبير. ورأينا في وقت سابق أن كمال الدين الشهرزوري حذِرٌ من تجاهله. ومن المثير أن كمال الدين كان واحدًا من أوائل من زارهم صلاح الدين بعد دخوله المدينة. وكان هناك، بالطبع، خطر في دعوة قوة مصرية إلى دمشق، ولا بد أن ابن المقدم كان يُدرك ذلك تمامًا، ولكن الحقائق السياسية والعسكرية على الأرض والحاجة إلى ضمان عدم ترك دمشق من دون حراسة أجبرته على هذا، وهكذا كتب إلى مصر وإلى صلاح الدين، وبهذا كان أول شخص يدعوه إلى بلاد الشام. وكانت الفرصة التي ينتظرها صلاح الدين، فتخلَّى عن حذره المعتاد، وتصرَّف بسرعة تلفت النظر. أخذ معه ٧٠٠ فارس فقط وانطلق في أكتوبر ١١٧٤م، ووصل ضواحي دمشق مع نهاية الشهر. وهناك حيَّاه عدد قليل من الأعيان، ومن بينهم ابن عمه شيركوه، نصر الدين. وأخذت المفاجأة الشاميين بسبب السرعة التي تصرَّف بها صلاح الدين، وأزعجتهم حقيقة أنه جاء بهذا العدد القليل من الرجال. وعندما سأل شمس الدين البصري، وكان أيضًا ممن دعوا صلاح الدين إلى بلاد الشام، وربط مصيره به نتيجة لهذا، مستفسرًا من القاضي الفاضل عن مبلغ المال الذي جلبه صلاح الدين معه، مؤكدًا أنه إذا كان قد جلب مبلغًا كبيرًا من المال فإن بلاد الشام ستدين له، أجاب القاضي الفاضل بأن صلاح الدين حمل معه خمسين ألف دينار فقط. عند ذلك ضرب شمس الدين، الذي صدمته المفاجأة، رأسه في رعب وصاح: «لقد ضِعتم وضَيعتمونا». والحقيقة، كما كتب القاضي الفاضل، أن صلاح الدين لم يكن يملك سوى عشرة آلاف دينار.

وهنا نرى كيف يفسر المرء تصرفات صلاح الدين المتسرعة، وخصوصًا أنها تبدو

متناقضة كثيرًا مع شخصيته؟ ربما كان إغراء الشام أقوى من أن يقاومه صلاح الدين، وأنه اندفع، لكن ذلك من قبيل إساءة الحكم على صلاح الدين، الذي نادرًا ما تسرَّع في قراراته. كانت حركة جسورة وذكية حقًّا؛ لأنه على الرغم من أنه لم يكن يعرف ما سوف يقابله في بلاد الشام، فقد كان يعرف البلاد أكثر من أي شخص. ولا شك في أنه كان يرى في نفسه الوريث الروحي والفكري لنور الدين، وكان بحاجة إلى أن يتصرَّف وفقًا لهذا. ومن ثَمَّ كان هدفه ألَّا يهزم البيت الزنكي بالقوة العسكرية، وإنما بالإقناع الخُلقي. وكان يعرف أنه يحتاج إلى جيش نور الدين ليقف إلى جانبه، إذ كان رجال نور الدين قد تفرقوا عقب وفاته وذهب قُرابة ثلثي جيشه لخدمة الصالح في حلب، وكان الباقون تحت قيادة ابن المقدم في دمشق. كانوا المفتاح؛ لأنهم كانوا موالين بشدة لنور الدين وابنه، ولا بد لصلاح الدين من أن يكسبهم إلى جانبه. وإذا ما استخدمنا تعبيرًا حديثًا عن ذلك يمكن أن نقول إنه سعى لكسب قلوب أهل الشام وعقولهم. وللوصول إلى ذلك كان عليه أن يخلق تيارًا خُلقيًّا ونفسيًّا في صالحه. ولكن لا بد أن يخفف من ذلك بشيء من التحرر والكرم؛ فأهل الشام لم يكونوا سوى تجار. ونرى أن أول سؤال طرحه شمس الدين على القاضي الفاضل عن كمٍّ النقود التي جلبها صلاح الدين معه. وحقيقة أن صلاح الدين جلب معه قدرًا صغيرًا من المال لم تكن تهم كثيرًا في الواقع؛ لأن تحويل الأموال عن طريق الحوالة التي تشبه الائتمان حاليًّا كان شائعًا، ولكنْ ما كان يهم هو طريقة دخول صلاح الدين إلى بلاد الشام: ليس باعتباره غازيًا أجنبيًّا على رأس جيش، بل بوصفه ابنًا طبيعيًّا عاد إلى حضن الوطن، لا ينبغي أن يدخل دمشق بالقوة العسكرية، بل يدخلها ظافرًا. وفي أثناء اقترابه من المدينة كان عدد الأمراء الذين ينضمون إليه يزداد باطراد. والحقيقة أنه كان هناك قليل من التسرع وكثير من الفكر في تخطيط صلاح الدين.

دخول صلاح الدين الشام وتحدي حلب

فتحت دمشق أبوابها لصلاح الدين. وكان أول ما فعل الصلاة في المسجد الأُموي، وبعد ذلك أمضى الليل في بيت أبيه: فعلان رمزيان محسوبان بدقة. وفي الحال صدرت الأوامر بفتح الأسواق وحُذِّر اللصوص من العقوبة القاسية، كذلك أنفقت الأموال بسخاء لكسب ود الناس، وجاءت النتيجة كما تمنى صلاح الدين: عدم وجود معارضة جدية، وترحيب قلق من المدينة التي ترعرع فيها. وحتى ذلك الحين كانت الأمور تمضي كما

توقع، ولكن من الواضح أنه كان يفهم أمرين: الأول، أنه ما دام قد انطلق في مغامرة في بلاد الشام فلا يمكنه أن يتوقف عند دمشق؛ لأنه على الرغم من كونها مفتاح جنوب بلاد الشام، فمن دون السيطرة على حلب تبقى مكشوفة أمام الهجمات من الشمال، والثاني، أن حملته لن تكون سهلة. ولم يكن صلاح الدين تحت وطأة أي أوهام بأن حلب والموصل لن تقاوماه، ولكن ربما ما لم يتيقن منه صلاح الدين مدى إمكانية تحول الأمر إلى خطورة عليه شخصيًّا. وكانت المشكلة أن الزنكيين في حلب والموصل اعتبروه مجرد مغتصب، ويمكن تفنيد مزاعمه بأنه الوريث الروحي والفكري لنور الدين بالازدراء الذي عاملته به عائلة نور الدين ومماليكه ـ النورية ـ الذين بقوا مخلصين بشدة لذكرى سيدهم. وكان تشبيه صلاح الدين بالكلب الذي ينبح على سيده من الإهانات التي لحقت به. وكان أيضًا، وهذه نقطة مهمة، كرديًّا لا تركيًّا، في عصر كان الأمراء الأتراك في الشام ـ وفي الموصل على وجه الخصوص ـ يعتبرون الأكراد أقل منهم بلا جدال. وعلى نحو ما لم يكن وضعه يختلف عن موقف نابليون ـ الكورسيكي ـ في فرنسا ما بعد الثورة.

وظهرت أولى دلائل المتاعب وصلاح الدين لا يزال في دمشق. وصلت سفارة من حلب، على رأسها قطب الدين إينال، وهو رجل كان صلاح الدين يعرفه جيدًا لأنه رافقه في حملة شيركوه الأولى على مصر. ولم تمضِ المقابلة المتوترة بشكل جيد؛ فقد أشار قطب الدين إلى سيفه وحذَّر صلاح الدين طالبًا منه أن يعود من حيث أتى. لم تكن حلب تُرحب به في بلاد الشام لأنه كان معتديًا جاء ليخون سيده. وأجاب صلاح الدين على هذا بأنه جاء لتوحيد الشام والإشراف على تنشئة الصالح حتى يصل إلى سن الرشد. ومع هذا كان واضحًا أن صلاح الدين هزته العداوة البادية وانعكس هذا في رسالتين كتبهما فيما بعد: الأولى إلى ابن نجا في مصر، وفيها أصر على أن حركته لم تكن «لكي نخطف مملكة لأنفسنا، وإنما لنرفع راية الجهاد». ثم كتب عن الرجال الذين انقلبوا أعداء يَحُولون دون تحقيق غرضه فيما يتعلق بالجهاد. ومن المثير أن الرسالة الثانية كُتبت إلى قطب الدين النيسابوري، وفيها يشكو من العقول الضعيفة التي تعارضه. تلقى هاتين الرسالتين الرجلان اللذان كان لهما أقوى تأثير روحي على صلاح الدين بحق. ولا بد من اعتبار الرسالتين محاولة للحصول على موافقتهما. كما تشير أيضًا محاولة تبرير تصرف صلاح الدين إلى أنه كان يعي تمامًا الانتقادات التي توجَّه إليه.

وكان من دواعي الحسم أن يتواصل الزخم الذي كسبه في الزحف على دمشق.

وقبل كل شيء لم يكن صلاح الدين قادرًا على أن يسمح لنفسه بالسقوط في فخ حصار المدن ومن ثَمَّ يُنظر إليه باعتباره غازيًا. وكان يأمل أن تفتح حلب، مثل دمشق، أبوابها من دون إراقة الدماء. كذلك عرف صلاح الدين أن عليه أن يتحرك بسرعة ليحافظ على الزخم، وهكذا كان يعسكر خارج حمص في غضون أربعين يومًا من فتح دمشق أبوابها له، وكانت حمص في منتصف الطريق بين دمشق وحلب. وينبغي أن نتذكر أن نور الدين كان قد منح حمص إلى شيركوه، ثم أخذها من ابن شيركوه في أعقاب وفاة أبيه ثم منحها لفخر الدين الزعفراني. ومن المفهوم أن صلاح الدين كان قلقًا وهو يقترب من حمص؛ لأنه لم يكن بوسعه أن يعرف إن كانت المدينة سترحب به. ولم يكن هناك مدعاة لقلقه لأن فخر الدين التحق بخدمته. وكان فخر الدين مهمًّا لسبب آخر؛ وهو أنه كان واحدًا من القادة الكبار لجيش نور الدين، وكان صلاح الدين يحتاجهم قبل غيرهم. وفي ١٠ أكتوبر ١١٧١م فتح صلاح الدين حمص، ومرة أخرى وُزِّعت الأموال بكثرة للتخفيف من حدة الفوضى. ثم حول صلاح الدين انتباهه إلى حماة التي كان يحكمها شخص يعرفه تمامًا، وهو عز الدين جرديك، وكان قد ساعده في القبض على شاور في مصر، وربما ساعده في ذبحه. وتقابل الرجلان واتفقا على أن تستسلم حماة لصلاح الدين وأن يتولى القلعة أخو جرديك. ويرحل جرديك نفسه إلى حلب لجس النبض، ويرى إذا ما كان هناك مجال للمفاوضات. ومن الواضح أن صلاح الدين كان يثق به وعهد إليه بمهمته الدبلوماسية، ولكن الأمور جرت في الاتجاه الخطأ بشكل مرعب؛ لأنه ما كاد جرديك يصل إلى حلب حتى تم القبض عليه وألقي في الجب. ومع هذا ظل صلاح الدين عازمًا على أن حلب سوف ترحب به وكان واثقًا بما فيه الكفاية بحيث قال إنه وحده الذي عليه أن يقوم بحلْب حَلَب التي ستكون له. وكان يعرف المدينة جيدًا، ربما ليس مثل معرفته بدمشق التي تربى فيها وشب صبيًّا وشابًّا، لكنه كان قد سافر إلى الشمال في مناسبات عديدة مع عمه شيركوه الذي كان نائبًا لنور الدين هناك. وكان يعرف أيضًا أن الفرنج لم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة قطُّ، ولن يكون من السهل دخولها بالقوة، لأن تحصيناتها منيعة. وكانت المشكلة الرئيسة التي واجهت صلاح الدين أن حلب لم تكن لديها نية للاستسلام. وهكذا فإنه عندما وصل حلب في النهاية، في الأيام الأولى من سنة ١١٧٥م، وجد مدينة تتحداه وعلى أُهبة الاستعداد للمقاومة. وكان ترحيبًا باردًا في عز الشتاء البارد، وكان المطر ينهمر بلا انقطاع على الخيام المحيطة بالمدينة ليطفئ النيران الموقدة التي أشعلها الرجال ليستدفئوا بها.

وطالما كان الحلبيون يسيطرون على الصالح الصبي، كانوا يعرفون أن معهم استحقاق شرعي قوي. وفي ذلك الحين أخرجوا الصالح بن نور الدين ليخطب في الجموع، وعندما انفجر باكيًا زاد عزم الحلبيين على المقاومة. ومن الواضح على أية حال، أن دموع الصبي لم تكن كافية للدفاع عن المدينة، وبدأت حلب تسعى لوقف تقدم صلاح الدين. وكانت هناك مخاوف من قيام السُّنة بتسليم المدينة لصلاح الدين؛ ولذلك تم التقارب مع الشيعة في المدينة، لأن نفوذهم كان كبيرًا - إذ يتذكر المرء كيف عارضوا بقوة بناء نور الدين للمدارس السُّنية. وفي ذلك الحين ارتفع الأذان الشيعي مرة أخرى في حلب، ولم تفت الرمزية الكامنة في ذلك على صلاح الدين بالتأكيد في وقت أبطل فيه الأذان الشيعي في مصر. في حلب، كما في الموصل، كانت المبادئ الصارمة للإحياء السُّني التي فرضها نور الدين تتهاوى بسرعة. لكنَّ الشيعة لم يكونوا الحزب الوحيد الذي لجأ إليه الحلبيون، بل اتصلوا أيضًا بالفرنج و«ريمون» أمير طرابلس الصليبي، والذي رحب بالطبع بتقارب أهل حلب. وكانت النتيجة أن صلاح الدين واجه صورة مكررة لما واجهه نور الدين. وعندما كان نور الدين يسيطر على شمال الشام ودمشق وتعيَّن عليه أن يناضل من أجل السيطرة على مصر ذات مرة، فإن الموقف انعكس آنذاك؛ سيطر صلاح الدين على مصر، ولكنه ناضل من أجل السيطرة على حلب والموصل. وفي الوقت نفسه، انعكس الموقف أيضًا بالنسبة إلى الفرنج؛ لأنهم كانوا يبذلون ما في وسعهم للحيلولة دون سقوط مصر في المدار السُّني. وحينذاك كان عليهم أن يهبوا لمساعدة حلب والموصل لضمان فشل سياسة صلاح الدين في السيطرة عليهما.

وعلى الرغم من التصالح الشيعي والتقارب الفرنجي، كان الحلبيون لا يزالون على خوفهم من صلاح الدين، وقرروا القضاء عليه إلى الأبد. ولذلك أُرسِلتْ رسالة سرية إلى راشد الدين سنان، الرئيس الأسطوري لطائفة الحشاشين الإسماعيلية، مصحوبة بشكل طبيعي بالعطايا المالية طلبًا لرأس صلاح الدين. وحينذاك كان صلاح الدين يعسكر جنوب حلب، وكانت العادة أن يقيم مآدب مشتركة بالقرب من خيمته، حيث يفد الأمراء والزوار المهمون للجلوس معه دقائق قليلة. وحدث - لحسن حظ صلاح الدين - أن كان خمارتكين، وهو أمير منطقة مجاورة، في صحبة صلاح الدين عندما رصد مجموعة من الرجال يقتربون من الخيمة. وفي الحال عرف أنهم ينتمون إلى الحشاشين، فصاح محذرًا. وبسرعة هاجم الحشاشون صلاح الدين الذي أحاط به أمراؤه واندفع آخرون لمساعدته.

وفي أثناء المعركة الهائجة الدموية واختلاط الحابل بالنابل، اخترق أحد الحشاشين الصفوف وجاء قبالة صلاح الدين وجهًا لوجه، لكنه تلقى طعنة قاتلة بيد أحد الأمراء وهو يهمُّ برفع سيفه. وعندما انتهى القتال كانت الجثث متناثرة في أنحاء الخيمة، ومن بينها جثة خمارتكين. ولم يصب صلاح الدين نفسه بأي أذى، لكنه اهتز كثيرًا بسبب قوة الهجوم. وإذا لم يكن قد عرف ذلك من قبل، فقد فهم آنذاك طبيعة غزوته في بلاد الشام؛ بات واضحًا أن حلب لن تفتح أبوابها مثلما فعلت دمشق. وفي الوقت نفسه، أدرك صلاح الدين أنه لو لم تسقط المدينة بسهولة، فإنه لن يستطيع أن يفرض عليها الحصار؛ حيث سيكون عرضة لهجوم من الفرنج أو من الموصل. وكان لديه ما يدعو إلى القلق؛ لأن كمشتكين حاكم حلب أرسل رسالة عاجلة إلى «ريمون» أمير طرابلس، الذي جمع قوة وتحرك نحو حمص، مما شكل خطرًا على خطوط إمداد صلاح الدين. وبالإضافة إلى هذا وصلت الأخبار إلى صلاح الدين عن جيش نجدة يقترب قادمًا من الموصل، ولم يكن أمامه من خيار سوى رفع الحصار عن حلب ليسرع إلى الجنوب لمواجهة «ريمون» الذي تراجع بسرعة. وبصورة مؤقتة رُفع التهديد عن حلب. وردًّا للجميل مقابل المساعدة الفرنجية أطلقت حلب من سجونها عددًا من الأسرى الصليبيين، من بينهم «رينالد دي شاتيون»، الذي يظهر بعد ذلك باعتباره العدو الشرس لصلاح الدين. ويمكن القول من دون مبالغة إنه كان من الأفضل لمصير المملكة اللاتينية أن يبقى حبيس الجُب في حلب.

وإذ تشجع الحلبيون بما فسروه على أنه تراجع من جانب صلاح الدين، وتقوَّوا بقوة الإنقاذ التي وصلت من الموصل، خرجوا لمواجهة صلاح الدين. والحقيقة أن قوة الإنقاذ التي وصلت من الموصل لم تكن بقيادة سيف الدين غازي، بل بقيادة أخٍ أصغر سنًّا هو عز الدين مسعود. وكان سبب ذلك أن ابنَي أخي نور الدين، سيف الدين غازي وعماد الدين زنكي، كانا قد انقلب أحدهما على الآخر. وكان كمال الدين الشهرزوري قد حذَّر نور الدين ذات مرة من أن نهاية البيت الزنكي ستكون على أيديهما، وبدا أن نبوءته أخذت تتحقق. وما كان فيما يبدو معروفًا بدرجة أقل هو أن صلاح الدين لعب دورًا في الوقيعة بين الأخوين ليضعفهما، بل إنه أرسل بعض القوات لمساعدة عماد الدين زنكي(١٣). وهو دليل، إذا كنا في حاجة إلى دليل، على أن صلاح الدين كان يمكنه أن يلعب لعبة الشطرنج السياسية شأنه شأن أي واحد آخر من منافسيه. وفي الوقت نفسه، سُلمت بعلبك، التي نشأ فيها، سلميًّا لصلاح الدين. لكن أخبار اقتراب جيش الموصل

كانت تدعو إلى الحذر. وكان صلاح الدين يعرف أن حلب والموصل عقدتا حلفًا مع الفرنج، وكتب إلى الخليفة يشكو من هذا الاتفاق؛ فقد كان التحالف الموصلي الحلبي الفرنجي يعني أن صلاح الدين لم يكن ليستطيع محاربة القوات الحلبية من دون أن يخشى هجوم «ريمون» على خطوط إمداده. كان موقفًا مربكًا، ولكن صلاح الدين واجه مواقف حرجة مربكة من قبل. ولما كان بحاجة إلى الرجال كتب بسرعة يطلب إرسال القوات من مصر. وفي الوقت نفسه، كان واعيًا بأنه لا يمكن أن يحارب على جبهتين، ولذلك دخل في هدنة مع الفرنج ليحمي أجنحة جيشه - وأسرع بوصف هذا بأنه «تصرف مؤسف» - ولكنه شعر بأن لا خيار أمامه؛ لأن أهل حلب والموصل أجبروه على هذا. وفي المقابل وافق صلاح الدين، ليضمن ألا يُهاجَم، على إطلاق بعض الأسرى الفرنج. قوَّت هذه الهدنة موقف صلاح الدين في شمال الشام، وجعلت كثيرين من الفرنج أسرى الغضب والحيرة. وليس هناك ما يفوق «وليم الصوري» الذي تحسَّر على هذه الهدنة وقال إنها:

> تمت ضد مصالحنا؛ لأن كرمنا امتد إلى رجل كان ينبغي مقاومته بقوة لئلا يتصرف، إذا ما صار أكثر قوة، بمزيد من الاحتقار والإهانة تجاهنا، وهكذا جرؤ على أن يضع آماله فينا، على الرغم من أنه طوال الوقت كان يزيد من قوته على حسابنا.

وعلى أية حال، وإلى حد بعيد، لم تكن هناك خيارات أمام «ريمون» أمير طرابلس، وكان يتصرف باعتباره وصيًّا على العرش، سوى الاتفاق مع صلاح الدين؛ لأن دلائل الجذام باتت واضحة بشكل محزن على الشاب «بلدوين الرابع»، وكانت الأولوية بالنسبة إليه أن يجد زوجًا لأخت «بلدوين»، «سيبيلا»، التي تستطيع أن تقوم بدور الوصي على العرش وتخلفه في الوقت المناسب. ولكن حتى مع عقد الهدنة كانت قوات صلاح الدين لا تزال أقل من قوات الموصل وحلب. وكان وضعًا هشًّا، وكانت الإستراتيجية الطبيعية تقتضي أن يتراجع نحو الجنوب. وربما لو كان صلاح الدين أصغر سنًّا لفَعل هذا، ولكنَّ الخبرة التي اكتسبها عندما كان وزيرًا أكسبته الجسارة، وكان يثق في حدسه ورجاله. وهكذا تعمَّد أن يبقى في وضع هش وعرَّض جيشه للهجوم ليبين للجميع، وخصوصًا الخليفة العباسي، أنه هو الذي تعرض للعدوان، ولم يكن المعتدي. وبذلك نصب صلاح الدين فخًّا عن عمد، وفاق أعداءه في المناورات بحيث جعلهم يفقدون مزاياهم بالهجوم عليه(١٤).

وجرت المعركة نفسها عند قرون حماة يوم ١٣ إبريل، إذا كان من الجائز أن تسمى

معركة؛ لأنها كانت اندحارًا؛ فقد كان صلاح الدين يعرف أن الحلبيين أفضل في التمركز منهم في القتال، ومن المؤكد أنهم ما كانوا يبارون أبطاله الذين حنكتهم المعارك. وبتعبيره تكسر العدو «مثل الزجاج». وعندما شاهد مناورة عز الدين مسعود العسكرية ابتسم في نفسه وقال معلقًا لأمرائه: إما أنه أشجع الرجال قاطبة، وإما أنه لا يعرف من أمور الحرب شيئًا. وصدرت الأوامر الصارمة لجيشه بأن يحافظ على النظام؛ لأن صلاح الدين كان يدرك أن مسائل أكبر من النصر العسكري على المحك. وكان يأمل أن يأتي يوم يخدم فيه أعداؤه الحاليون تحت رايته، وكان بحاجة إلى أن يتصرف وفقًا لهذا. ولذلك أمر بفتح ثغرة في خطوط القتال للحلبيين المنهزمين، وأصدر تعليمات صارمة بعدم مطاردتهم. وبالإضافة إلى هذا منع قتل الهاربين أو الجرحى، وأمر بإطلاق سراح الأسرى. وفي هذا كله نخرج بانطباع مؤداه أن صلاح الدين كان يسيطر تمامًا على الموقف، وقد أدت الهزيمة الحلبية إلى معاهدة، جعلتهم ينقضون معاهدتهم مع الفرنج. وبالإضافة إلى ذلك أخذ صلاح الدين أراضي تم التنازل عنها في بلاد الشام، واحتفظ باسم الصالح على العملة وخطبة الجمعة داخل ممتلكات صلاح الدين، ووافق الحلبيون على إمداده بالرجال للجهاد، وأُطلِق أيضًا سراح عز الدين جرديك ودخل في خدمة صلاح الدين. كانت معاهدة مواتية لصلاح الدين وفي صالحه؛ حيث أرسى دعائم وضعه في الشام على أساس ثابت، كما كسبت له دبلوماسيته الحلفاء، لأن جيشه تضاعف عشر مرات(١٥). لكنه أخفق في السيطرة على حلب، حيث بقي الصالح بعيدًا عن متناوله، ولم يستطع أن يؤسس سلطة تشبه السُّلطة التي كانت لنور الدين على بلاد الشام. وفي الحال كتب إلى الخليفة يطلب منه توقيعًا يؤكد أفضاله لأنه قام بأعباء الجهاد ويطلب وثيقة من الخليفة بتنصيبه على بلاد الشام، ولكن يبدو أنه فعل هذا فقط على سبيل الاستعراض لأنه كان يعرف أن الخليفة لن ينحاز لأي طرف. والواقع أنه سرعان ما تلقى خلع التشريف ووثيقة بتنصيبه على البلاد التي كانت في حوزته بالفعل. ولكي يبرهن الخليفة على أنه لم يكن مستعدًّا للانحياز، أرسل خلعًا مثلها إلى الصالح في حلب.

ويغض النظر عن حلب، سيطر صلاح الدين على بلاد الشام، وكما فعل في مصر، جمع عائلته حوله. وأعاد حمص إلى ابن شيركوه وليس إلى فخر الدين الزعفراني. وأدى هذا إلى غضب فخر الدين الذي شعر أنه تعرَّض للخيانة، وترك صلاح الدين ودخل معسكر الموصل. وعلى أية حال، لم تكن آخر مرة يتقابل فيها الرجلان. لم يكن أمام صلاح الدين

اختيار ـ كان بحاجة إلى الاعتماد على عائلته لأنهم قاعدة مساندته والمنصة التي تقوم عليها السلالة الحاكمة التي يرغب في بنائها، وكانوا بدورهم في حاجة إلى تعويض. وهكذا سلَّم صلاح الدين حماة إلى خاله شهاب الدين الحارمي وعين ابن أخيه تقي الدين واليًا على دمشق، وعاد فروخ شاه إلى مصر مع القوات المصرية، وآثر صلاح الدين العودة إلى دمشق، لأنه بقي حذرًا من دوافع الموصل. وكان محقًّا في ذلك، فقد وصلته أنباء بأن سيف الدين حاكم الموصل انتهز فرصة غياب القوات المصرية التابعة لصلاح الدين ليعقد اتفاقًا سريًّا مع حلب ويُحرك قواته إلى نصيبين ليهدد حصن كيفا وماردين. وفي الحال كتب صلاح الدين إلى الخليفة مشيرًا إلى أن تصرفات سيف الدين خرقٌ للمعاهدة التي عقدها مع حلب، ولكن بحلول ربيع ١١٧٦م عبر سيف الدين الفرات ليتصل مباشرة بحلب، بل وبدأت المفاوضات حول كيفية توزيع غنائم بلاد الشام إذا ما دُفِع صلاح الدين عائدًا إلى مصر. وعندما وصلت أخبار هذه المفاوضات صلاح الدين انطلق في الحال من دمشق، وبحلول إبريل ١١٦٧م كان في حماة. كان الموقف خطيرًا، وبسرعة طلب صلاح الدين التعزيزات. طلب من توران شاه، الذي آزره بطريقة حاسمة في مصر، وكان في اليمن، أن ينضم إليه بأسرع ما يمكن. ووصل توران شاه إلى دمشق بنهاية إبريل. وفي الوقت نفسه، تحرك سيف الدين جنوب حلب، وجمع صلاح الدين جيشه لمواجهته. وجرت المعركة عند تل السلطان، ومن المؤكد أن جيش سيف الدين كان يفوق جيش صلاح الدين عددًا. وكان على الجناح الأيسر لسيف الدين، مظفر الدين كوكبوري، الذي حارب في ذلك اليوم ضد صلاح الدين، ولكنه صار فيما بعد واحدًا من أشهر قادته.

مرة أخرى كانت المعركة بلا نتيجة؛ لأن القوات الموصلية تفرقت. وكما حدث من قبل، كان صلاح الدين كريمًا في انتصاره وسمح للموصليين المبعثرين بالفرار من دون مطاردة لأنه كان يتوق إلى كسبهم إلى جانبه، ولم تكن الشهامة وقت النصر مسألة صعبة. وكان بين الذين فرُّوا سيف الدين نفسه، الذي هرب من خيمته مهرولًا، وكانت مليئة بأقفاص الطيور المدهشة «من القماري، والبلابل، والهزار، والببغاء». وعندما علم صلاح الدين بهذا أمر بإعادة بعض الطيور إلى سيف الدين، ومعها رسالة تقول: «قل له أن يبقى في البيت ويلعب بهذه الطيور ويترك الأمور الخطيرة لغيره». وفي غضون شهر، على أية حال، يكتشف صلاح الدين أن سيف الدين ما زال يحمل بعض الضغينة؛ لأنه في ٢٢ مايو عاود الحشاشون ضربتهم، عندما نجح أربعة منهم في التسلل بين حراس

صلاح الدين وحاولوا قتله. واقترب أحدهم من صلاح الدين حتى طعنه بسكين، وجرح خده قبل أن يسقط ذبيحًا. وقُتل الثلاثة الآخرون في الحال، ولكن بينما اصطحب الحرس صلاح الدين الذي تدفق الدم من وجهه، انتشر الذعر في المعسكر وتم القبض على الغرباء. ومنذ ذلك الحين رفض صلاح الدين التحدث مع أحد لا يعرفه، وصار يطلب إبعاد الذين لا يتعرف عليهم، على الرغم من أنه كان يرسل رسولًا خلفهم يسمع طلباتهم وينفذها.

كان الموقف في بلاد الشام محبطًا للغاية؛ ذلك أن الانتصارات العسكرية لم تؤدِ إلى حل سياسي مُرْضٍ. وطالما كانت حلب تقاوم بعناد، كان صلاح الدين يعرف أنه لا يمكن أن يتحمل عمليات الحصار الطويل من دون أن يسيء إلى سمعته. وما زاد من تفاقم الإحباط أن القاضي الفاضل طلب الرجوع إلى مصر، حيث كانت أمور البلاد تتطلب مساعدته. شعر صلاح الدين بغيابه وكان يعتمد عليه بدرجة كبيرة. وأوصى بشخص يكون نائبًا عنه، وهو عماد الدين الأصفهاني ذو النسب الشريف، وكان قد خدم تحت إمرة اثنين من أعمدة الإحياء السُّني. وُلِد سنة ١١٢٥م في أصفهان لعائلة محترمة، ودخل المدرسة النظامية في سن صغيرة، حيث بقي يدرس ويعلم الفقه على مدى السنوات الخمس عشرة التالية. وفي سنة ١١٥٧م، وهو في الثانية والثلاثين، أُرسِل لإدارة واسط والبصرة لمصلحة الوزير ابن هبيرة الذي كان على علاقة طيبة بنور الدين. وفي سنة ١١٦٧م، أي بعد سنتين من وفاة الوزير، انتقل إلى بلاد الشام، حيث خدمته علاقاته بشكل جيد ووجد وظيفة مع نور الدين. وكان أيضًا يتصل كثيرًا، في أثناء هذه الفترة، بشيركوه وأيوب، وبدأ صداقة عُمر طويلة مع صلاح الدين. ويبدو أن عماد الدين عرف أيوب والد صلاح الدين، منذ فترة مبكرة، ربما عندما كان يخدم تحت رئاسة ابن هبيرة. وبعد وفاة نور الدين، انتقل عماد الدين إلى الموصل، ولكنه عندما سمع أن صلاح الدين يزحف في طريقه إلى دمشق أسرع إلى هناك. وكان حصيفًا بحيث فهم أنه بحاجة إلى كسب مودة القاضي الفاضل، وكان مفتاح الحصول على منصب مُهم في ظل حكم صلاح الدين، ويبدو أن القاضي الفاضل أُعجب به ـ خصوصًا لإتقانه اللغة الفارسية. وكان كلٌّ من الرجلين قارئًا نهمًا للمهندس الروحي للإحياء السُّني، الإمام الغزالي، وكان القاضي الفاضل هو الذي جعل عماد الدين يترجم كتاب الغزالي «كيمياء السعادة» من الفارسية إلى العربية. ونعرف أن الأمر استغرق أربعة أشهر لاستكمال هذه المهمة. وما يثير الاهتمام بدرجة كبيرة أن الرجل الذي قدَّم عماد الدين الأصفهاني إلى القاضي الفاضل كان ابن مصال، الذي صار، في أثناء حصار

الإسكندرية، صديقًا مقربًا من صلاح الدين. ولا بد أن القاضي الفاضل انبهر من أن عماد الدين كان على ألفة بالأمور الداخلية في بلاط نور الدين ويبدو أنه ساعده على التخفيف من وطأة بعض المشكلات المالية، وأوصى بوجوب تعيينه للعمل في ديوان صلاح الدين.

وبسرعة ثبَّت عماد الدين الأصفهاني نفسه في الدوائر الداخلية في حاشية صلاح الدين. وكان ينتمي إلى تلك الدائرة من المقربين الذين كانوا يبقون بعد أن يترك الأمراء والموظفون الاجتماع العام. وكان هذا يمنحهم امتياز الوصول إلى أذن السلطان[١٦].

ويبدو أن صلاح الدين كان يستدعيه نهارًا وليلًا، لدرجة أن عماد الدين بنى لنفسه بيتًا مجاورًا لقلعة دمشق ليكون مستعدًّا في أي وقت؛ ويمكن القول بأمانة إنه قدم لنا «وجهة نظر حقيقية لشخص عليم ببواطن الأمور»[١٧]. خدم عماد الدين الأصفهاني كلًّا من نور الدين وصلاح الدين، ومن المؤكد أنه أُعجب بهما كثيرًا؛ والواقع أن أهم مؤلفاته، «البرق الشامي»، الذي يغطي الفترة من سنة ١١٦٦م إلى سنة ١١٩٣م، ويمكن القول إنه مذكرات عماد الدين الأصفهاني، كُتب على وجه التحديد لأنه خشي أن يضيع اسم صلاح الدين في غياهب النسيان. ومن عدة جوانب يبقى أفضل مصدر عن حياة صلاح الدين، ويذهل المرء من عدم انحيازه تجاه الرجلين اللذين خدمهما. كان عماد الدين الأصفهاني رمزًا، حتى أكثر من القاضي الفاضل، لنموذج العالِم الإداري الذي كان هدف المدارس. ذلك أنه لم يكن درس وعلم في المدرسة النظامية في بغداد فقط، ولكنه أيضًا خدم أصحاب السُّلطة. وفي الوقت نفسه، احتفظ برباط قوي بالدين والعلم، وهو ما ينعكس بصورة جزئية في اختياره مقابر الصوفية ليدفن فيها بعد وفاته. ومن المؤكد أن قراءة مؤلفات عماد الدين الأصفهاني تعطينا لمحة عن الرؤية العامة لطبقة العلماء أو الكتبة، وكيف كانت مختلفة عن نظرة الطبقة العسكرية. يؤكد في إحدى النقاط على سلطة قلمه، ويساوي بينه وبين سيف صلاح الدين، ويسوق هذا في إحدى المناسبات اللافتة عندما طُلب منه إعدام أسير حرب ولكنه أحجم عن فعل هذا، شارحًا أنه يعتمد على القلم، لا السيف. وكان ذلك يبعده عن الانحياز لطرف أو لآخر. وكان عليه أن يتذكر أن الطبقة العسكرية تتألف إلى حد كبير من الأكراد والأتراك، وكانت طبقة الكتبة والعلماء من العرب والفرس، وفي بعض الأحيان كان عماد الدين الأصفهاني، عندما يتذكر خلفيته باعتباره من أهل العلم، يتصرف بنوع من التعالي. على سبيل المثال، انتقد قراقوش، وكان عضوًا بارزًا في دائرة صلاح الدين العسكرية وتولى الدفاع عن عكا،

باعتباره تركيًّا لا يعرف شيئًا عن الكتب، وكان ذلك مبالغة منه وقد صححه ابن خلكان، وذكر أن صلاح الدين والإسلام يدينان بدين كبير لقراقوش. ومع هذا احتفظ عماد الدين الأصفهاني بالموضوعية، حتى إنه سخر من نفسه في إحدى المناسبات وفقد أعصابه وانسحب من حملة عسكرية. وبالقدر نفسه كان يفهم أمور السياسة الواقعية التي كانت تدفع الرجل وهي الطموحات والمصلحة الخاصة(١٨). كما كان أيضًا يجيد تمامًا قراءة ما بين السطور، وكيف لا يمكن أن يكون كذلك وقد أمضى حياته كلها يستخدم اللغة الدبلوماسية إلى أقصى حد؟ وفي إحدى المناسبات وصلاح الدين غائب في إحدى الحملات، سمع عماد الدين الأصفهاني أن المنادي العام أعلن أن السلطان قد عاد بسلام، فعرف أنه هُزم، فقال إنهم لم يكونوا ليذيعوا أنباء جيدة عن سلامته لو لم تلحقه الهزيمة. ومن الصعب أن نبالغ في مدى أهمية كلٍّ من عماد الدين الأصفهاني والقاضي الفاضل بالنسبة إلى صلاح الدين؛ لأن الرجلين حوَّلا ديوانه إلى أداة عظمى وفعالة جدًّا في الدعاية.

وكان السؤال الذي أقض مضاجع صلاح الدين يتعلق بما يجب عمله مع حلب. ومن الواضح أن الحلبيين لم يكونوا على استعداد للاستسلام، ولم تكن المدينة لتسقط بالقوة لأن المغامرة بإراقة الدماء كانت أكبر مما يُحتمل. وهكذا كانت الإجابة عن هذا السؤال محبطة؛ فليس هناك شيء يمكن عمله في هذا الوقت. وفي الوقت نفسه، حوَّل صلاح الدين انتباهه إلى مصياف، وكانت معقل الحشاشين؛ لأن الوقت حان للتعامل معهم. وما حدث بعد ذلك في غاية الغموض؛ فرض صلاح الدين الحصار، ثم رفعه فجأة وانسحب إلى دمشق. ولم يُعرف قطُّ السبب الذي جعله يتصرف على هذا النحو. ووفقًا لبعض الروايات أن رسالة أُرسِلتْ إليه مفادها أنه إذا لم يرفع الحصار فإن خاله شهاب الدين الحارمي وعائلته سيتعرضون للذبح. وربما يكون هذا ما حدث، ولكن يبدو فعلًا من غير المحتمل أن صلاح الدين أذعن لمثل هذه التهديدات لأن ذلك ليس من سمات شخصيته. والأكثر أهمية أن صلاح الدين بعد أن انسحب لم يعد الحشاشون مصدر تهديد له إطلاقًا؛ وهو دليل على إبرام صفقة ما. وعندما عاد صلاح الدين إلى دمشق اكتشف أن كمال الدين الشهرزوري تُوفِّي، وعين في مكانه قاضٍ موصلي على دمشق، هو ابن أبي عصرون، قيل إنه لم يرتكب مرة خطأً أو يأخذ رشوة(١٩). وابن عصرون له أهمية خاصة؛ لأنه ارتقى مكانة كبيرة تحت حكم صلاح الدين. وهو الذي حمل الصليب المقدس، بعد انتصار حطين، مثبتًا على حربة، إلى داخل دمشق. ولكن ابن عصرون يثير الاهتمام لسبب

آخر؛ أنه كان يمثل مدى تأثير عبد القادر الجيلاني على الذين كانوا يحيطون بصلاح الدين ويؤثرون عليه. وقد وُلِد ابن عصرون في الموصل، ودرس المذهب الشافعي في المدينة قبل أن يرحل إلى بغداد للدراسة في المدرسة النظامية. وفي تلك المدينة تعرَّف على الجيلاني، واتخذه صديقًا.

وبينما كان صلاح الدين في دمشق تزوج عصمة الدين خاتون، أرملة نور الدين. وعلى الرغم من أنه كان زواجًا سياسيًّا من دون شك؛ لأنها كانت في خمسينيات عمرها، فقد انطوى على الكثير من الحب والرقة. عندما تُوفِّيت بعد عدة سنوات، كان صلاح الدين مريضًا في إحدى الحملات ورؤي أنه من الأفضل حجب الأخبار عنه؛ وهكذا نرى صورة له وهو يستمر في كتابة الرسائل لها. ترك صلاح الدين أخاه توران شاه نائبًا عنه وعاد إلى مصر في سبتمبر ١١٧٦م. وفي الشهر نفسه، وهو متوجه إلى القاهرة، وصلته الأخبار بأن السلطان السلجوقي قلج أرسلان ألحق هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في «ميريوكيفالون». وكانت ضربة مهمة للفرنج في المملكة اللاتينية؛ لأنه على الرغم من عدم الثقة المتبادلة بينهما كان وجود الجيش البيزنطي بمنزلة تأمين ضد المسلمين. وربما لم يدركوا تمامًا في البداية ما حدث، ولكن عندما زار «وليم الصوري» القسطنطينية بعد ذلك بثلاث سنوات وعلم بما حدث، أدرك المخاطر التي تنتظرهم[٢٠]. وتلقَّى صلاح الدين خبر انتصار قلج أرسلان بمشاعر مختلطة؛ نعم، تم إنزال هزيمة مهمة بجيش مسيحي، ولكن يوجد الآن من يتحدى زعمه بأنه بطل الجهاد. وكان بوسع قلج أرسلان أن يزعم ـ كما كان يفعل غالبًا ـ أنه كان يقاتل المسيحيين في وقت كان صلاح الدين لا يسمح لنفسه فقط بأن ينزلق إلى قتال إخوانه المسلمين، بل إنه تمادى لدرجة عقد هدنة مع الفرنج. وكان ذلك زعمًا وجد صلاح الدين أن من الصعب نفيه.

الفصل الثامن

صلاح الدين والخبوشاني

لا سلطان لنا على هذا الشيخ، فأرضه.

صلاح الدين

بناء المدارس في مصر

استطاع صلاح الدين في مصر أن ينسى مشاكله في الشام لبعض الوقت ويركز جهوده على إدخال المذهب السُّني إلى أرض النيل. وبغض النظر عن المدرسة الناصرية التي تحدثنا عنها من قبل، فإننا على يقين من أنه بنى على الأقل خمس مدارس في مصر، وإن كان بوصفه شافعيًّا قد أعطى الأولوية لهذا المذهب، فليست هناك دلالة على أنه قد فضله على المذاهب الأخرى. ولهذا أمر، والمدرسة الناصرية تُبنَى، بالعمل في بناء مدرسة مالكية، وقامت هذه أيضًا، إلى جوار جامع عمرو بن العاص، وبُنيت على موقع سوق مغطاة، وأوقف صلاح الدين على المدرسة سوقًا لبيع الكتب، تبعد عنها مسافة قصيرة، وقريتين في الفيوم، توفران القمح للطلاب الدارسين فيها، ومن وقتها عُرِفتْ باسم المدرسة القمحية. وكانت عوائد سوق بيع الكتب تدعم الشيوخ والطلاب. كذلك أظهر صلاح الدين اهتمامًا شخصيًّا بأتباع المذهب المالكي، وكانت أصول كثير منهم ترجع إلى المغرب العربي؛ فقد كانت طريق الحج من المغرب تنطوي على رحلة برية شاقة حتى يصل الحُجاج إلى الإسكندرية، وأدرك صلاح الدين هذا، فأصدر مرسومًا بجراية يومية من الخبز لجميع الحُجاج المغاربة، تغطي الأوقاف الدينية نفقاتها، وعند وصولهم إلى القاهرة كانوا يعاملون بطريقة لائقة لا تقل عن معاملتهم في الإسكندرية، وكان بوسع

الحُجاج البقاء والدراسة في جامع ابن طولون، وكانت السلطات تتكفل بنفقات إقامتهم. كذلك لم ينسَ صلاح الدين أتباع المذهب الحنفي، مع أن عددهم كان قليلًا في مصر. وفي سنة ١١٧٦م أسس مدرسة لهم في القاهرة، ومرة أخرى اختير موقعها بعناية سعيًا وراء القيمة الرمزية؛ موضع بيت عدد من الوزراء الفاطميين، ولم يكن أي بيت، كان تاريخه معروفًا تمامًا، كما ارتبط بالفضائح، فهناك كما سَرَت الشائعات، كان الخليفة الظافر يقيم علاقة جنسية شاذة مع ابن الوزير الفاطمي، الذي ذُبح فيما بعد وتُركت جثته مُعلقة حتى تعفنت على باب زويلة. ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يختار موقعًا أفضل من هذا؛ ولا شك في أنه كان واعيًا بالقصة الفاضحة، وأدرك أن تحويل البيت إلى مدرسة بمنزلة إشارة درامية عن التطهر من الماضي. وسُميت المدرسة باسم المدرسة السيوفية نظرًا لقربها من سوق السيوفيين، وكان دخل المدرسة يأتي من وقف اثنين وثلاثين حانوتًا في سويقة أمير الجيوش.

وتوفر المدرسة لنا فرصة إلقاء الضوء على بعض الشخصيات التي ارتبطتْ بصلاح الدين؛ حيث ارتبط عدد من الشخصيات اللامعة بالمدرسة السيوفية. وتكشف نظرة إلى الموقِّعين على الإجازة التي منحت المدرسة حق التدريس عن أن من بينهم زين الدين بن نجا، الذي وصفه صلاح الدين بأنه عمرو بن العاص بالنسبة إليه بمساعدته في إعادة المذهب السُّني إلى مصر. ويعجب المرء متسائلًا عما فعله الصوفي، عبد القادر الجيلاني، بتلميذه ومريده؛ لأن من المعلوم عمومًا أن الزهد الروحي المفترض في ابن نجا لم يمنعه من اقتناء ثروة طائلة، منها عشرون جارية، قيمة الجارية منهن ألف دينار، ومطبخ كان محل حسد المدينة. ويقدم أول شيوخ المدرسة السيوفية مثالًا لكيفية ارتحال العلماء في تلك الأيام. وُلِد مجد الدين الخاتوني في خوتان، تركمانستان الصينية حاليًّا، ودرس الحديث في سمرقند وبخارى وخراسان، وقادته أسفاره إلى العراق وبلاد الشام، حيث حارب ضد الصليبيين، ولفت انتباه نور الدين الذي عينه شيخًا للتدريس في المدرسة الصدرية في دمشق، حيث ألقى دروسه لبعض الوقت قبل الرحيل لأداء فريضة الحج، وتوجَّه بعدها إلى مصر، حيث عينه صلاح الدين شيخًا للمدرسة السيوفية. ومما حدث بعد ذلك نرى أن العلاقة بين الحكام والعلماء ستكون أحيانًا عاصفة، ونرى أيضًا مدى قلق العلماء من الارتباط بمن يمسكون بزمام السُّلطة: سمع الخاتوني، وهو يدرس في المدرسة، عن بعض النصوص غير الشرعية

التي كان من الواضح أن صلاح الدين لم يبطلها، وفي الحال ترك الخاتوني المدقق كل شيء؛ ترك المدرسة ورحل إلى إسبانيا. ويبدو أن ما أغضب الخاتوني على هذا النحو الشديد قد حُلَّ، وربما تصرف صلاح الدين بشكل مناسب، لأن الخاتوني عاد إلى المدرسة وبقي بها حتى وفاته سنة ١١٩٠م.

وكان البجلي، الشيخ الثاني للمدرسة السيوفية، شخصية جذابة مثل سلفه. وُلِد في بغداد، ودرس في دمشق وعاش بها، حيث كان على علاقة وثيقة بصلاح الدين، وبشيركوه على وجه الخصوص، وكان له تأثير كبير عليه. وتُجمع الروايات على أنه كان سلفيًّا متشددًا، لم يكن لديه وقت للشيعة. وكان من الذين حثوا شيركوه على الزحف إلى مصر والقضاء على الفاطميين. وبعد أن صار صلاح الدين وزيرًا، لحق به البجلي في القاهرة. وليس هناك شك في أن أكثر المدارس التي بناها صلاح الدين هيبة وأعظمها مكانة كانت الصالحية، ويفسر موقعها أهميتها: بُنيت قرب ضريح الإمام الشافعي. ولأن صلاح الدين كان مسلمًا شافعيًّا فقد كان من الطبيعي أن يكرم مؤسس المذهب الشافعي بهذا القدر الكبير. لسنوات عديدة كان الضريح مقصدًا للزيارة، يزوره السُّنة والشيعة على السواء. وتتكشف أهمية الإمام الشافعي عند المصريين من خلال حكاية مثيرة: عندما بنى نظام الملك، وكان شافعيًّا، المدرسة النظامية، أراد نقل رفات الإمام إلى بغداد لتدفن داخل جدران المدرسة، وكان الوزير الفاطمي بدر الجمالي، وكان مسيحيًّا أرمينيًّا اعتنق الإسلام، لا يهتم بمثل هذه الأمور، فوافق على هذا الطلب، ولكنه أجبر على التراجع عندما قوبلت محاولات نقل رفات الإمام بمظاهرات عارمة من السُّنة في القاهرة الذين يبدو أنهم لم يكونوا على استعداد للسماح بخروج رفات إمامهم المحبوب من مصر. ولا بد أن صلاح الدين سمع بهذه الحادثة التي كان نظام الملك ضمن أبطالها، ورأى حينذاك فرصة سانحة لتقليد تصرفات وزير فارسي عظيم ببناء مدرسة تضم ضريح الإمام الشافعي، ولم يدخر في الإنفاق عليها شيئًا، لا في بنائها ولا في الراتب الهائل الذي يُدفَع لشيخها، وكانت حقًّا لا تبارى في مصر. وانبهر الرحالة ابن جبير بالمبنى، الذي لا بد أنه ساد الجبانة بأسرها، لدرجة أنه شبهه بمدينة منفصلة[1]. وكانت المدرسة تتسع على الأقل لمائة طالب يقيمون بها. ومما يجدر ذكره أيضًا أن أحد النقوش القليلة التي بقيت في مصر من المدرسة الصالحية، وكان مكتوبًا بالخط النسخ الذي جلبه صلاح الدين من بلاد الشام، كان واضحًا ومقروءًا، وكانت الحروف نفسها كافية للإعلان عن أن عصر

السُّنة الجديد وصل إلى مصر بصورة مؤكدة. وكان محتوى النقش أيضًا مثيرًا للاهتمام بدرجة كبيرة؛ لأنه ضم شرطًا ساد في المدارس التي أنشأها صلاح الدين، ينص على تعليم المذهب الأشعري؛ المذهب الأشعري الذي ساعد الغزالي على إدخاله في طيات المذهب السُّني، وبهذه الطريقة صار عمودٌ آخر من أعمدة الإحياء السُّني ـ المذهب الأشعري ـ مذهب مصر.

وإذا كان لنا أن نزعم أن ابن زين التجار ـ أول شيخ للمدرسة الناصرية، وهي أول مدرسة بناها صلاح الدين ـ لم يكن له حضور ظاهر، فإننا لا يمكن أن نقول الشيء نفسه عن أول شيوخ المدرسة الصالحية، وهو رجل برهن وحده على أن صلاح الدين أيضًا كان لديه شيخه المتطفل. كيف يمكن للمرء أن يبدأ في رواية قصة نجم الدين الخبوشاني، التي هي أكبر من حياته؟ ومن المؤكد أن أصل معرفته لا تشوبه شائبة، عالمًا ومتصوفًا. وُلِد في خبوشان، في مقاطعة نيسابور، ودرس الصوفية مع محمد بن يحيى، وكان من تلاميذ الغزالي، وكتب كتابًا من ستة عشر مجلدًا بعنوان «تحقيق الوسيط»، تعليقًا وشرحًا على كتاب الغزالي، وارتحل الخبوشاني إلى دمشق حيث أمضى بعض الوقت في الخانقاه الصوفية نفسها التي كان الغزالي يقيم بها، حيث كان من الواضح أنه عاش في فقر ومارس عملية إماتة الجسد[٢]. واتصل في أثناء وجوده بدمشق للمرة الأولى بوالد صلاح الدين، وأسد الدين شيركوه. كان فصيحًا في الكلام ضد الإسماعيلية. وكان يعتبر مذهبهم زندقة خطيرة، ولذلك كان شديد العنف في تحريض شيركوه على التقدم نحو مصر، متباهيًا بأن يذهب هو نفسه ويتخلص من الخليفة الفاطمي. وفي تلك الفترة أيضًا تقابل الخبوشاني مع صلاح الدين لأول مرة.

وبعد ستة أشهر من تعيين صلاح الدين وزيرًا، وصل الخبوشاني إلى مصر وكانت شخصيته الحادة التي لا تخشى المواجهة تعني أنه لن يمر وقت طويل حتى يشعر الناس بوجوده. كان يجهر بالقول ضد الفاطميين بدمشق، ومن المؤكد أنه لم يكن مستعدًّا لأن يمسك لسانه في القاهرة، حتى لو كانت أمور المواءمة تملي عليه ذلك؛ لأن صلاح الدين في ذلك الوقت كان في خدمة الخليفة الفاطمي وزيرًا له. وتعمَّد الخبوشاني اختيار مسجد لا يبعد عن القصر الفاطمي ليعيش فيه. ولم يضيِّع وقتًا في النيل من المذهب الإسماعيلي علنًا. ومن الواضح أن سلوك الغزالي في التصوف، باتخاذه العزلة والتأمل، لم يكن المسار الذي كان الخبوشاني على استعداد للسير فيه. إننا هنا أمام ناسك صاحب موقف. وقبل أن

يمر وقت طويل كانت إدانته العلنية فعالة بالقدر الذي جعلها تصل إلى أسماع الموجودين في القصر الفاطمي، وبُذلت محاولة لتهدئته، وربما كانت هديةٌ تُمنح له تُسكت خطبه المزعجة. وهكذا جاءه رسول يحمل له أربعة آلاف دينار، وهو مبلغ كان يكفي تمامًا لتهدئة معظم الخطباء. لكن الرسول لم يضع في حسابه كراهية الخبوشاني للخروج على المذهب السُّني، ولم يتوقع أن يواجه عالمًا نافد الصبر، سريع الغضب والانفعال. عندما رأى الخبوشاني الرجل انفجر غضبًا وضربه على رأسه، بحيث أسقط عمامته، ثم قذف بالرجل يتعثر على الدرج وهو يقذف بالدنانير على رأسه، وكل هذا مصحوب بلعنات لا ينبغي لرجل من أهل الله أن ينطق بها. وثمة قصة أخرى تُروى عنه أيضًا وعن الفاطميين: رأى الخليفة العاضد حلمًا شاهد فيه عقربًا تبرز من مسجد لتلسعه، واستيقظ من نومه منزعجًا وأمر بإحضار ساكن هذا المسجد إليه. وكان الرجل، بالطبع، الخبوشاني. ومن المستبعد أن يكون الخليفة الفاطمي قد تقابل مع الخبوشاني بالمرة. ولنا أن نتساءل إذا كان قد حدث ذلك، فهل كان الخبوشاني يستطيع أن يمسك لسانه؟ لكن من المؤكد أنه عندما عزم صلاح الدين في النهاية على القبض على العاضد وإنهاء الخلافة الفاطمية رسميًّا، طلب من الفقهاء أن يعطوه رأيهم الشرعي، واتفق الفقهاء على أن من الجائز شرعًا قتل الخليفة، وكان الأكثر تشبثًا وإصرارًا هو الخبوشاني.

ومن الواضح أن عنف هذا العالم وانفلات لسانه اللاذع لم يترك أحدًا، ولا حتى صلاح الدين: في إحدى المناسبات، والسلطان يستعد للرحيل في حملة ضد الفرنج، ذهب الخبوشاني لوداعه، وفي الوقت نفسه انتهز الفرصة وطلب منه إسقاط بعض الضرائب غير المناسبة عن الرعية، وأعلن أنها ضرائب غير إسلامية، ولكن صلاح الدين الذي كان مشغولًا بالحملة الوشيكة رفض ذلك، وعندها وبشكل أربك جميع الحاضرين وحيرهم، انفجر الخبوشاني غاضبًا حانقًا ووبخ السلطان بقوله: «إن الله لن ينصره». وإذا كانت هذه الحادثة غريبة، فقد كان ما أعقبها مدهشًا بصورة أكبر: تقدم نحو صلاح الدين ورفع عصاه وضرب السلطان بحيث أسقط خوذته على الأرض. ومن الواضح أن الخبوشاني الذي عرف صلاح الدين وأباه منذ أيام دمشق، شعر بأنه يستطيع التصرف على هذا النحو المنفلت. ويقال إن صلاح الدين تركه ولم ينطق بكلمة. ولكن القصة لم تنته عند ذلك، فلم تكن الحملة موفقة، وعند عودته ذهب صلاح الدين إلى الخبوشاني وقبَّل يده وطلب عفوه. إن إظهار مشاعر الندم بهذه الطريقة يبدو مدهشًا، فهل كان صلاح الدين

يعتقد حقًّا أن النكسة العسكرية التي حلت به راجعة إلى سحب مباركة الخبوشاني؟ أم أن هذا التصرف كان محاولة محسوبة هدفها أن يربط نفسه برجل دين - واضعين في الاعتبار ما كان يحظى به أمثال هذا الرجل من الاحترام والتبجيل من عامة المسلمين؟ والحادثة نفسها مدهشة بحيث لا يمكن الوصول إلى استنتاج أو خلاصة، ومن الواضح أن صلاح الدين كان يُكن للخبوشاني قدرًا كبيرًا من الاحترام، على الرغم من أنه لم يكن بأية حال مدرسًا عظيمًا - فمن المؤكد أنه لم يكن بمستوى ابن عوف أو السلفي - ولكننا لا نعرف لماذا منحه صلاح الدين مثل هذا الاستثناء. والتعليق الوحيد الذي لدينا من صلاح الدين يتعلق بحادثة أخرى: عندما شكا الخبوشاني لصلاح الدين من تقي الدين، قائلًا إنه يمتلك عدة أماكن تُباع فيها الجعة، وإنه يجب أن يتوقف عن ذلك في الحال، ولا بد أن صلاح الدين قد تنهد عندما تلقى الرسالة، وهو يمررها إلى ابن أخيه قائلًا: «لا سلطان لنا على هذا الشيخ، فأرضه».

ومما يجدر ذكره عن الخبوشاني أنه، على الرغم من طبيعته التصادمية، كان صارمًا في تمسكه بالشريعة الإسلامية؛ وقد وقعت هذه الحادثة مع صلاح الدين لأنه لم يكن مستعدًّا لإلغاء الضرائب غير الشرعية، فاختار الخبوشاني أن يترك مدرسته بهدوء ويرحل إلى إسبانيا - حيث كان يزرع التمر الذي يعطيه للفقراء - وأصلح صلاح الدين خطأه وجعله يعود، أما الخبوشاني فقد اختار موقفًا أكثر تصادمية، وفي جميع الأحوال كان صلاح الدين رجلًا معتدلًا. ويتصور المرء أنه لو تصرف الخبوشاني على هذا النحو مع شيركوه لكان ذلك آخر عهدنا بهذه الشخصية المشاكسة، لكن المسألة أشد عمقًا؛ إذ إن صلاح الدين لم يتدخل قطُّ في الشؤون الدينية للعلماء؛ لأنه كان يعتقد أن علماء الدين، وخصوصًا الفقهاء وأهل الحديث، حراس على مؤسسة أساسية للمعرفة، التي كان نقلها وحده يحدد شريعة الملوك[٣]. ولم تكن تصرفات الخبوشاني مخالفة لتصرفات الحنابلة الذين، في أجيال سابقة، ضايقوا نظام الملك على هذا النحو. وكان الخبوشاني يمثل القوى العنيفة في الإحياء السُّني، وهو ما يعني أنه لم يرغب فقط في اقتلاع المذاهب الخارجة عن الدين من جذورها، بل كان على غير المسلمين ألا يبرحوا أماكنهم؛ إذ تخبرنا المصادر أن المسيحيين واليهود كانوا يخافون الخبوشاني ويتجنبونه بقدر المستطاع؛ لأنه لم يكن هناك ما يغضبه أكثر من رؤية واحد من غير المسلمين على صهوة جواد[٤].

كان الحكام أو مؤسسو المدارس حريصين للغاية على عدم التدخل في الأمور الدينية. كانوا يعرفون القليل عن التفاصيل الفقهية والمجادلات الشرعية، كما كانوا يبتعدون تمامًا عن أي تدخل في العقيدة. وكانت المجادلات الفقهية تُترك للعلماء بدرجة كبيرة، ولم يكن الحكام يتدخلون إلا عندما يشعرون أن الأمور قد تخرج عن السيطرة، وأن هناك خطرًا يتهدد النظام العام، ولم يكن صلاح الدين يسعى إلى تغيير الشريعة أو تبديل المذهب. وعلى أية حال، لم يكن العلماء يقبلون مثل هذا التجاوز. ولكن كان على الحاكم أن يضمن - من خلال تأسيس المدارس - فرض رؤيته للمدرسة، وطالما لم ينتهك مبادئ الإسلام، فإن للمؤسس الحرية في إملاء شروطه؛ لأن الأملاك الموقوفة على المدرسة ملكه[٥]. كانت المدارس مؤسسات خيرية، تُؤسَّس عن طريق الوقف، وكان بوسع المؤسِّس أن يستغل الوقف ليحدد مَن الذي يلقي الدروس وما يمكن تدريسه[٦]. كان قطب الدين محمد، وهو من سلالة زنكي، على سبيل المثال، متحمسًا للمذهب الحنفي مع عزوف عن المذهب الشافعي لدرجة أنه عندما بنى مدرسة سنجار لم يشترط تدريس المذهب الحنفي بها للطلاب الحنفية فقط، وإنما اشترط أن يكون جميع العاملين فيها، بمن فيهم البواب والحارس، من الحنفية[٧]. وربما لم تكن تلك هي السياسة العامة التي كان نظام الملك أو نور الدين محمود سيوافقان عليها، ومع هذا كان هذا الطلب مشروعًا.

كان احترام صلاح الدين البالغ للعلماء ناتجًا عن أنهم حماة الشريعة. وكانت الشريعة بالنسبة إلى صلاح الدين هي التي تحافظ على وحدة المجتمع الإسلامي، ويجب أن تكون الأولوية المطلقة للحفاظ عليها. فهم صلاح الدين أنه لا يستطيع تفسير الشريعة - كان هذا واجب العلماء - ولكنه، بصفته حاكمًا، يستطيع تطبيقها، وكان هذا واجبًا أخذه بمنتهى الجدية. كان صلاح الدين يجلس يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع للحكم في جلسة عامة، يحضرها العلماء الذين يقدمون مشورتهم، ولذلك كان يأمر بفتح الباب أمام كل من له قضية، بحيث كان بوسع أي شخص أن يقدم إليه التماسًا. وفي إحدى المناسبات فيما بعد سنة ١١٨٨م، اقترب رجل من ابن شداد، وكان قد التحق بخدمة صلاح الدين، وبيده وثيقة قضائية، وعندما سأله ابن شداد: «مَن خصمك؟» قال: «خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا أنك لا تحابي». ثم مضى الرجل يشرح قضيته فقال إنه كان لديه مملوك «وكانت في يده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها

السلطان وأنا مطالبه بها». واندهش ابن شداد من هذه الدعوى وطلب فحص الحجة التي صدرت في دمشق، وأبرزها الرجل وكان من المؤكد أنها حقيقية، وقال ابن شداد للرجل: «سوف أتحدث مع السلطان». وعندما ذكر الموضوع للسلطان صلاح الدين «استبعد ذلك استبعادًا عظيمًا»، فأخبر ابن شداد السلطانَ، وهو في شيء من الحرج، أن الرجل مُصرٌّ على رفع قضيته. نزل صلاح الدين وقال: «نستدعي الرجل للمحاكمة، ونعمل في القضية بما يقتضيه الشرع». وعندما جاء اليوم ووصل الرجل، نزل صلاح الدين عن كرسيه، وجلس إلى جانبه مساويًا الرجل، وقال: «إن كان لك دعوى فاذكرها». وحكى الرجل الأحداث كما حكاها لابن شداد، وكان حاضرًا أيضًا، ولكن عندما ذكر الرجل التاريخ الذي استولى فيه صلاح الدين على مال المملوك، قاطعه صلاح الدين وقرر أنه كان في مصر في هذا التاريخ ولديه شهود على ذلك. وفهم ابن شداد ما يجري فهمس للسلطان بأن الرجل فعل هذا كله على أمل أن ينال منه بعض المال، وربما كان ذلك أفضل؛ حتى لا يرجع خائبًا، فأجاب صلاح الدين: «هذا باب آخر». ورُفضت القضية وغادر الرجل بعد أن حصل على خلعة. ويذهل المرء من مدى احترام صلاح الدين لإجراءات الشريعة، مثلما يعجب من عدم غضبه عندما ظهر أن القضية زائفة.

وهناك حكاية أخرى عن الخبوشاني تخص ابن أخي صلاح الدين، تقي الدين. ولتصفية الجو معه في مسألة إن كان يبيع الجعة في حوانيته، ركب ابن أخي صلاح الدين إلى المدرسة للقاء الخبوشاني، حيث حيَّاه البواب وطلب منه الانتظار بالخارج ودخل ليبلغ الخبوشاني بأن تقي الدين يرسل تحياته، فردَّ الخبوشاني بقوله: «ليس تقي الدين وإنما شقي الدين». ثم أخبره البواب أن تقي الدين يُصرُّ على أنه ليست لديه أماكن لبيع الجعة، فرد الخبوشاني بأنه يكذب. وكان البواب يدرك أن الخبوشاني يستبقي في الخارج رجلًا مهمًّا، فأسرع في الجواب بأنه إذا كان يكذب، فبيِّن لنا أين تباع الجعة. طلب منه الخبوشاني أن يقترب زاعمًا أنه لم يسمعه، وعندما اقترب منه البواب أمسكه من شعره وبدأ يصفعه متسائلًا في غضب إن كان شكله يبدو رجلًا يبيع الجعة حتى يعرف أين تباع الجعة، ثم ركله إلى الخارج ووقف البواب المذعور أمام تقي الدين ليخبره بأنه كاد يضحي بروحه من أجله.

تحكَّم الخبوشاني في المدرسة الصالحية، لا بسبب عبقرية تعاليمه وعمقها، ولكن بفضل شخصيته القوية الآمرة التي جعلت أصدقاءه قليلين والمعجبين به أقل. وحتى

القاضي الفاضل ناله نصيب من لسانه الحاد. تخبرنا المصادر أن القاضي الفاضل ذهب لزيارة المدرسة، فوجد الخبوشاني يُلقي درسًا، جالسًا على كرسي صغير في أحد جوانب ضريح الإمام الشافعي، وقرر القاضي الفاضل أن يجلس إلى جواره، ولكنه ما كاد يجلس إلى جواره حتى صاح الخبوشاني فيه: «انهض! انهض! إن ظهرك للإمام». رد القاضي الفاضل بأنه إذا كان ظهره للإمام فإن قلبه ليس كذلك، لكن هذه الإجابة تسببت في ردٍّ أشد حدة، وتحيَّر القاضي الفاضل من هذا التصرف الشاذ فنهض وغادر المكان. وعلى أية حال، لم يكن هناك تصرف أكثر استفزازًا من قيام الخبوشاني بإخراج جثة الكيزاني من قبره. كان الكيزاني هو الصوفي الحنبلي والشاعر الذي كان مع ابن مرزوق الشخصية الفاعلة في مساعدة شيركوه في حملته الأولى على مصر، وقد قابل صلاح الدين وأثَّر فيه بشعره. ونعرف أنه تُوفِّي نحو سنة ١١٦٥م ودُفن إلى جوار الشافعي. وبعد سنوات قليلة ظهر الخبوشاني في مصر، وعندما بدأ العمل في المدرسة، أمر بنبش رفات الكيزاني وبعثرتها، زاعمًا أن تعاليمه قدَّمت البدع، وأنه لم يكن يستحق أن يُدفن بالقرب من الإمام الذي وصفه الخبوشاني بأنه الصدِّيق الذي لا يجب أن يُدفن مع زنديق. وكان الخبوشاني طبعًا يشير إلى النزاع الذي نشب بين الحنابلة والشافعية الأشاعرة، وكان سائدًا في الشرق، ويبدو أنه أراد أن يجلب معه النزاع الفقهي إلى مصر، وكان هذا تصرفًا صادمًا بكل المقاييس. وهناك دلائل على أن صلاح الدين في ذلك الحين سئم السباب والشتائم الصادرة عن ذلك الشيخ العنيد، وكما يَروي عماد الدين الأصفهاني، قابل صلاح الدين ظاهر الدين الفارسي، وكان عالمًا مشهورًا من أصفهان، درس مع الفقيه ذائع الصيت والفيلسوف فخر الدين الرازي، ومن الواضح أن صلاح الدين انبهر بهذا العالم، ولكي يقنعه بالبقاء في مصر عرض عليه منصب شيخ الصالحية. وعلى أية حال، رفض الفارسي العرض وعاد إلى بلاد الشام. ويبدو أن صلاح الدين فاض به الكيل من الخبوشاني، وربما يكون من الأمور ذات الدلالة أنه عندما مات الخبوشاني سنة ١١٩١م عين صلاح الدين مكانه صدر الدين الجويني؛ وهو رجل كان متزوجًا من ابنة قطب الدين النيسابوري، وكان قطب الدين طبعًا شيخ صلاح الدين عندما كان شابًّا، ولا بد أن طريقة صدر الدين المعتدلة كانت مصدر راحة بعد العاصفة التي تمثَّلت في الخبوشاني.

بنى صلاح الدين عدة مدارس أخرى، ولكنْ هناك عدد قليل للغاية من السجلات التاريخية عنها، وعلينا أن نفترض أنها كانت أقل أهمية من المدارس التي سبق ذكرها.

ومن المؤكد أن هناك دليلًا على وجود مدرسة بُنيت في الإسكندرية عند ضريح أخيه توران شاه. ويكتب ابن خلكان أن صلاح الدين بنى مدرستين في دمشق، مع أن هذا ليس مؤكدًا. ويبدو أيضًا أن صلاح الدين بنى مدرسة في المدينة، قبالة قبر النبي ﷺ، حيث دفن أبيه وعمه شيركوه بعد نقلهما. وفي الوقت نفسه، مثلما فعل في بناء المدارس عيَّن صلاح الدين الشيوخ في عدد من الأماكن بالقاهرة، مثل: ضريح الحسين، وجامع عمرو بن العاص، والجامع الأقمر. وكان الجامع الأقمر، على سبيل المثال، يقع في قلب الأرض التي كانت مركز السُّلطة الفاطمية، بين القصر الشرقي والقصر الغربي. وبتعيين مدرس بارز من الشافعية في الجامع الأقمر تحوَّل من مسجد شيعي إلى مسجد سُني، وتمثَّلت مساندة صلاح الدين للصوفية في أحسن صورها في بنائه خانقاه سعيد السعداء للصوفية في القاهرة، ومع أن هذه الخانقاوات لم تكن مدارس - إذ لم تكن تضم أي فصول دراسية منظمة - فإن التمييز بين المؤسستين سرعان ما تلاشى، وكانت أماكنها موجودة حيث لم يكن الصوفية والطلاب يقومون بوظيفتهم جنبًا إلى جنب فقط، ولكنهم كانوا في الحقيقة شيئًا واحدًا؛ كانوا طلابًا وصوفية[٨]. وكان مصطلح شيخ، بطبيعة الحال، يشير إلى كل من المُدرس والمُدرس الصوفي.

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين تجاهل الصعيد تمامًا، ولم يبنِ أي مدرسة هناك. ويعود بنا هذا إلى نقطة مهمة؛ فإذا كان الهدف من المدرسة ضرب المذهب الشيعي فعدم وجود المدارس في الجنوب يبدو غريبًا. وعلى أية حال، كان هناك كثير من مؤيدي الفاطميين، وكان على المرء أن يتوقع برنامجًا حيًّا لبناء المدارس وصولًا إلى النوبة، بل الأغرب أن صلاح الدين اختار أن يبني مدرسة واحدة في القاهرة؛ قلب الدولة الفاطمية، ومرة أخرى، إذا كان المذهب الشيعي يقلقه إلى هذا الحد، فلِمَ هذا الإهمال الواضح؟! وكانت الحقيقة أن الإسماعيلية لا يشكلون سوى تهديد ضئيل لصلاح الدين، واهتمت المدارس أكثر بتخريج القضاة السُّنة.

ثمة حقيقة مذهلة عن المدارس الأربع الرئيسة التي تحدثنا عنها في السطور السابقة، وهي أن سبعة عشر شيخًا، من بين ثمانية وعشرين شيخًا، كانوا من خارج مصر[٩]. وعلى الرغم من وجود عدد قليل جدًّا من الحنفية في مصر، وهو ما كان يعني أنه كان لا بد من استقدام المدرسين لهذه المدرسة من الخارج، لم تكن الحال كذلك مع الشافعية؛ كانت مصر حافلة بالشافعية، حتى قبل أن يتولى صلاح الدين الحكم، وعلى الرغم من هذا،

اختار صلاح الدين الاعتماد على مَن كان يعرفهم من بلاد الشام ويثق فيهم، ولم يكن يثق كثيرًا في سكان مصر من السُّنة، الذين تأثروا بمائتي سنة من الحكم الشيعي. وبالإضافة إلى ذلك، تولَّى أغلبية الشيوخ، في هذه الفترة، مناصب غير تعليمية في الحكومة[10]. وهو ما كان يعني أنهم يرتبطون بروابط وثيقة مع النخبة الحاكمة. وقد رأينا علامات على هذا التقارب، وخصوصًا تحت حكم نور الدين في الشام، حيث جمع كمال الدين الشهرزوري بين وظيفة مدرس ووظيفة قاضٍ ووزير. وفي مصر كان صلاح الدين يواجه مشكلة خاصة؛ كان هناك نقص في المصريين السُّنة من خريجي المدارس، والقادرين على العمل في الشؤون الإدارية، وكان معنى هذا أنه على المدى القصير لا بد من استقدام القضاة السُّنة الذين يمكنهم الإدارة أيضًا من الشرق، ومنذ البداية كانت هناك روابط وثيقة بين المدرسين في مصر والمدارس النظامية، وخصوصًا المدرسة النظامية في بغداد، ولم تكن هناك رابطة أكثر مباشرة بين نظام الملك وصلاح الدين من حقيقة أن نظام الملك طبع الحياة الفكرية في مصر بالطابع النظامي، وخيَّم ظل المدارس النظامية على مصر بدرجة كبيرة؛ إذ إن عددًا كبيرًا من المُدرسين الشافعية الذين وصلوا إلى مصر درسوا في مدرسة بغداد، فتلوَّنت أغلب دراستهم ورؤيتهم للعالم بوجهة نظر نظامية، وكان جميع هؤلاء الرجال تقريبًا من غير المصريين. والخلاصة أن نموذج المدارس المصرية - وبالتالي نموذج الإحياء السُّني - يجب البحث عنه في بغداد وليس في القاهرة؛ ذلك أن النضال الفكري بين بغداد السُّنية والقاهرة الإسماعيلية انتهى أخيرًا، وبذلك حقق صلاح الدين رؤية نظام الملك.

ولم يكن صلاح الدين بالطبع الشخص الوحيد الذي بنى المدارس في مصر، إذ إن ابن أخيه، تقي الدين، بنى مدرسة منازل العز التي كانت من قبل قصرًا فاخرًا، حيث كان الخليفة الفاطمي يذهب طلبًا للراحة. لكن ابن أخي صلاح الدين لم يكن ينقصه شيخ عنيد صلب الرأي هو الآخر، فإذا كان لدى صلاح الدين، الخبوشاني الذي ضايقه، فقد كان لدى تقي الدين، شهاب الدين الطوسي، الذي وُلِد في طوس سنة ١١٢٨م، ودرس في أصفهان، وفي المدرسة النظامية في بغداد، وعندما وصل إلى مصر استرعى انتباه تقي الدين الذي عيَّنه شيخًا لمدرسة جديدة، وكان سنيًّا متشددًا، ولا ينقصه العنف. كما كان عنيفًا في عداوته للمسيحيين بحيث يمثل الجانب المتشدد من الحركة السُّنية البازغة. في إحدى المناسبات منع أسقفًا أرمنيًّا من أخذ كنيستين مع أن الأسقف حصل على الإذن بذلك

من صلاح الدين نفسه. وفي مناسبة أخرى عاقب مسيحيًّا لأنه تكلم علنًا ضد الإسلام. وبغض النظر عن طبيعته التصادمية، لا بد أن الطوسي ظل قريبًا من الأسرة الحاكمة؛ لأنه عند وفاته، سنة ١٢٠٠م، حمل أبناء صلاح الدين نعشه إلى المدافن.

كذلك بنى عدة أمراء في خدمة صلاح الدين المدارس، منهم سيف الدين يازكوج، وكان في الأصل من مماليك شيركوه، ثم صار أحد أمراء صلاح الدين وممن يثق بهم ثقة كاملة[١١]، وقد أسَّس مدرستين: الأولى في الفسطاط والأخرى في القاهرة. كما أسست زوجته مدرسة لدراسة الشرع، وبنى «مسرور»؛ وكان خصيًّا فاطميًّا سابقًا وقائد الحرس الشخصي لصلاح الدين، مدرسة أيضًا. وكذلك حسام الدين لؤلؤ؛ قائد أسطول صلاح الدين، الذي اشتهر بتقواه وكرمه. وكان ما يحرك هؤلاء الأمراء، شأنهم شأن الآخرين، مزيج من العوامل: خليط من الحياة العسكرية، والتقوى وعمل الخير، والحرص على نيل الثواب[١٢]. ولم تكن التقوى في بعض الحالات مرتبطة بالفضيلة، كما في حالة ابن شكر الذي صار وزيرًا تحت حكم العادل أخي صلاح الدين، وأسس المدرسة الصاحبية. وكان ابن شكر مشهورًا بجشعه وقسوته؛ فقد أصيب ذات مرة بـ«دوسنتاريا» خطيرة، ويئس أطباؤه من شفائه، وبينما كان الألم يعذبه استدعى عشرة شيوخ كان قد سجنهم، وعذَّبهم في حضوره، حتى اختلطت تأوهاته بتأوهاتهم ليجد راحته في عذابهم.

واستمر بناء المدارس بسرعة لافتة، في مصر والشام على حد سواء، وبوفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣م كانت هناك ثلاثون مدرسة في دمشق، وبحلول سنة ١٢٥٠م كانت هناك مائة وستون مؤسسة دينية وخيرية تأسست في دمشق الأيوبية، مما شكل دفعة لافتة في حركة البناء التي نمت بمعدل متوسط يقترب من مبنيين في كل سنة، ومن هذه المباني المائة والستين، كانت هناك ثلاث وستون مدرسة، وتسع وعشرون خانقاه للصوفية[١٣]. وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كانت القاهرة والفسطاط تتباهيان باثنتين وثلاثين مدرسة فيهما. والحقيقة أن هذا الرقم متحفظ للغاية؛ لأن المدارس كان يمكن أن توجد حيثما وُجد المُدرس الذي يتولى التدريس، ومثلما يؤكد «بيركي»، كان أي فضاء مفتوح ـ أرضية مسجد، أو خانقاه صوفية، أو غرفة نوم خاصة ـ يُعتبر مكانًا مناسبًا لمدرسة[١٤]. ويكشف السؤال عمن كان وراء هذا النمو اللافت في البناء عن إجابة مذهلة ومدهشة: كان نصف عدد الذين يرعون هذا البناء من نساء البيت الأيوبي[١٥]. ويبدو أن تراث

صلاح الدين من المدارس لم ينقذ على أيدي الرجال، بل على أيدي النساء من سلالته، صاحبات الصوت المهم في التعريف بحقيقة الإسلام وطبيعته[١٦]. ذلك أن خوتلو خير، وكانت زوجة أكبر إخوة صلاح الدين، شاهنشاه، أوقفت مدرسة على الشرف الأعلى غرب أسوار مدينة دمشق، باعتبار ذلك عملًا من أعمال الخير[١٧]. وكذلك فعلت أختها عذرا خاتون، التي أسست مؤسستين: المدرسة العذراوية (لكل من الحنفية والشافعية)، وخانقاه للصوفية داخل أسوار المدينة. أما عصمة الدين خاتون، التي تزوَّجت كلًّا من نور الدين وصلاح الدين، فقد تركت بصمتها أيضًا على المدينة، وأسست مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية. وينبغي أن نذكر أيضًا أختين من أخوات صلاح الدين: رابية خاتون، وقد بنت مدرسة للحنابلة في دمشق، من المرجَّح أنها نتيجة لزواجها من واحد من أهم قادة صلاح الدين، وهو مظفر الدين كوكبوري، وكان حنبليًّا، وست الشام زمرد، وقد أسست مدرستين. وكانت هذه المدارس مرتبطة بأفعال الخير. ولا يمكن للمرء أن يقلل من أهمية دور التدين الشخصي والرغبة في نيل الثواب الذي كان فاعلًا في بناء المدارس. والواقع أن التأكيد على الغرض «السياسي» من المدارس اتجه غالبًا إلى تجاهل عنصر التدين الشخصي والرغبة في الاقتراب من الله ـ بتعبير المقدسي ـ والرغبة في القيام بأعمال الخير وترك رصيد من الأعمال الطيبة التي يرضى الله عنها[١٨].

نشر المذهب السُّني في مصر

ولكن إذا كان لا بد من الاعتراف بعنصر التدين فكذلك يجب الاعتراف بالإمكانية السياسية الملازمة للمدرسة، وربما لم يفهم أحد هذا على نحو أوضح مما فهمه القاضي الفاضل؛ لأنه كان إلى حد كبير مفتاح التحول السُّني الذي حدث في مصر تحت حكم صلاح الدين. كان بالتأكيد السُّلطة النهائية في إدارة الأوقاف الدينية وتمويلها[١٩]. وبوصفه رجلًا ذا خبرة كبيرة في الإدارة فقد فهم بوضوح نافذ ما كان مطلوبًا، وانعكس هذا في المدرسة التي أسسها في القاهرة سنة ١١٨٤م. وإذ كان منفتحًا على المالكية والشافعية، فقد كان غرضه أن يؤكد على أن هناك وحدة معينة في القصد تتمثل في تقوية الرابطة التي تصل ما بين الحكومة والمذهب السُّني. وصارت هذه المدرسة مرتبطة بشهرة القاسم بن فيرة الشاطبي، وكان يُلقي دروسه ويتلو القرآن هناك، وكانت حلقات دروسه تلقى إقبالًا لدرجة أن الطلاب كانوا يتدافعون للحصول على مكان. وصارت هذه المدرسة واحدة

من أبرز مدارس مصر، وكان السبب الرئيس في ذلك مكتبتها التي كانت أكبر مكتبة في البلاد، وكانت تضم نسخة القرآن العثماني، المنسوبة إلى عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين. وكان القاضي الفاضل نفسه أديبًا بارزًا، وعندما أغلق صلاح الدين دار الحكمة الفاطمية وباع كتبها، اشترى كثيرًا منها. وثمة حكاية تكشف أيضًا عن عمق تعليمه: إذ تخبرنا المصادر أن صديقًا اقترب منه بطلب، فقد كان ابنه يريد أن يقرأ كتابًا بعينه في الشعر ولم يكن الأب متأكدًا إذا ما كانت سِنُّه مناسبة، فبمَ نصحه؟ نادى القاضي الفاضل الخادم ليحضر له نسخة، وجاء الخادم حاملًا خمسًا وثلاثين نسخة، كُتبت كلها على أيدي ناسخين مختلفين، وفتح القاضي الفاضل كل نسخة، وفي الحال عرف خط ناسخ معين. وأخيرًا نصح صديقه أن الكتاب ليس مناسبًا للفتيان. كان هدف القاضي الفاضل واضحًا؛ وهو تخريج «جيش من الخريجين»[٢٠] لملء المناصب في سلم الوظائف الدينية الإسلامية، وكذلك نسب نغمة عسكرية إلى المدارس، ورؤية أن الجيش والمدرسة هما الأداة في سحق المسيحيين في مصر والشام. وبالإضافة إلى هذا فإن الشخص الذي يخدم في أكثر من وظيفة في الوقت نفسه، مثل أن يكون مدرسًا في مدرسة وكاتبًا في ديوان، يساعد من شدة هذا الأداء[٢١].

كان صلاح الدين واثقًا من أن الخطر على الإسلام لا يأتي من جانب الشيعة، بل من جانب المسيحيين، وانعكس هذا في حقيقة أنه لم يقم بأي تصرفات ضد الإسماعيلية، وبدلًا من ذلك حوَّل انتباهه تجاه المسيحيين. حرص على ألا يتمتعوا تحت حكمه أبدًا بالنفوذ النسبي الذي كان لهم فيما سبق، وأخذ بمشورة القاضي الفاضل، الذي حذَّر من استخدام النصارى في أي فرع من فروع الإدارة، ومنعهم من تولِّي أي مناصب إشرافية على الخزانة أو مناصب المفتشين، ثم أمر بإزالة الصلبان الخشبية من فوق جميع الكنائس، ومنع دق النواقيس، وكذلك مواكب «أحد السعف» أو «الشعانين». كذلك مُنِع المسيحيون من ركوب الخيول أو البغال، وزاد التحول من المسيحية إلى الإسلام في تلك الفترة، ويرجع هذا بشكل يكاد يكون مؤكدًا إلى حقيقة استبعاد المسيحيين من الوظائف الحكومية. ومثال ابن مماتي، الذي كان في البداية كاتبًا في ديوان الجيش وعيَّنه صلاح الدين في النهاية مسؤولًا عن الدواوين كلها، مثال جيد. تحوَّل أبوه المهذب من المسيحية إلى الإسلام ليترقى في وظيفته، ونال ابنه حظوته تحت حكم الأيوبيين. وسواء كانت حالات اعتناق الإسلام في هذه الفترة تظاهرية تمامًا أم لا، فهو أمر يصعب التكهن به، على الرغم من

أنه يجب أن نلاحظ أن ابن مماتي درس على يدَي السلفي. ومرة أخرى يمكن أن يكون هذا لأسباب عملية خالصة، فقد كانت معرفة الشريعة ضرورية للعمل في الدواوين.

أسند تطهير الجهاز الإداري للقاضي الفاضل وحده تقريبًا، فقد لعب دورًا رئيسًا في اختيار أعضاء النخبة المدنية، وأوصى بهم في خدمة السلطات الجديدة في البلاد. والواقع أن توصية منه كانت مهمة على الدوام لفتح الطريق أمام رجال الإدارة الفاطمية السابقين لخدمة صلاح الدين[٢٢]. على سبيل المثال، التقط القاضي الفاضل الأثير بن بونان، وقد خدم من قبل في الإدارة الفاطمية، وقُبِل في خدمة صلاح الدين حيث خدم مفتشًا في الإسكندرية. وثمة مثال آخر هو فخر الدولة الأسواني، وكان ابن زوجة رشيد بن الزبير، وقد ساند صلاح الدين علنًا في أثناء حصار الإسكندرية، وأعدمه شاور فيما بعد. ومن المثير أن نرى كيف قدمت مدينة الإسكندرية عددًا كبيرًا ممن خدموا صلاح الدين، لكنه ليس غريبًا بالنظر إلى تاريخها. وحذر القاضي الفاضلُ صلاحَ الدين من عدد النصارى واليهود في الحكومة وشدد في نصحه بألا يعين أيًا منهم في المناصب المهمة. وطرد هو نفسه من عدة دواوين مختلفة عددًا من الإداريين والكتبة اعتبرهم خطرًا على نظام صلاح الدين، وهم رجال كانت أقلامهم «حادة مثل الأشواك» بحسب وصفه. ويكتب المقريزي أن القاضي الفاضل طرد اليهود والنصارى كلهم تقريبًا من الديوان.

ومع أن الغرض الأصلي من المدرسة لم يكن نشر الإسلام على حساب غير المسلمين، فقد أسهم الدور الذي تعين أن تلعبه في هذا الغرض نفسه. في أعقاب الحملات الصليبية، أنتجت المدارس هُوية سُنية متشددة ووعيًا جماعيًّا تراثيًّا[٢٣]. وعملية نشر المذهب السُّني حاسمة في فهم الصورة الأكبر. في غضون مائتي سنة بعد وفاة صلاح الدين كانت جميع المناصب الرئيسة في الحكومة يشغلها مسلمون ممن درسوا في المدارس، وفي أثناء هذه الفترة تنافس المسلمون مع النصارى على مناصب كانت تقليديًّا احتكارًا للكتبة والمحاسبين والمفتشين المسيحيين[٢٤]. وبالتدريج تفوَّق هذا العدد من المسلمين الذين تلقوا تعليمهم في المدرسة على المسيحيين، وبهذا المعنى برهنت المدرسة على أنها المؤسسة الرئيسة المسؤولة عن تقويض سيطرة المسيحيين على الحكومة[٢٥]. لكن التأثير الأكبر للمدرسة لم يكن وقفًا على الفقهاء والإداريين، بل أثرت جذورها على حياة المسلمين العاديين في حياتهم اليومية؛ لأن المدارس وفَّرت للعلماء المنصة التي يقدمون من فوقها الإرشاد المباشر والسريع على المستوى الشرعي والديني للمجتمع

الإسلامي؛ ذلك أن عبارات مثل: «أفتى الناس» أو «انتفع الناس به» تظهر بشكل متواتر في تراجم العلماء خلال تلك الفترة[٢٦]. وكان وجود مفتين شرعيين محترفين يعني أيضًا أن للمسلمين آنذاك وسيلة متاحة للوصول إلى معرفة الشريعة الإسلامية على أساس مباشر لمساعدتهم في تناول مشكلاتهم اليومية، وفي ذلك لعبت الفتوى دورًا حاسمًا. ونقرأ أن ابن أخي ابن عساكر كان يجلس في المسجد الكبير بدمشق مرتين في الأسبوع حيث يُصدر فتاويه التي كان الناس يطلبونها من جميع أرجاء العالم الإسلامي[٢٧]. والفرق الأساسي بين العلماء قبل تأسيس المدارس وبعدها، أن علماء الشرع الذين كانوا يعملون لبعض الوقت منذ القرن السابع حتى القرن الحادي عشر للميلاد كانوا يدرسون ويعطون فتاواهم على أسس مؤقتة؛ كان هدفهم الأساسي متابعة دراساتهم وتحسين معارفهم الذاتية. وأكد العلماء المحترفون في القرن الثاني عشر على نشر التعاليم الدينية والشرعية في المجتمع، فقد أتاحت المدارس للعلماء المحترفين جلب الشريعة الإسلامية والحديث النبوي مباشرة إلى المجتمع والتفاعل مع الناس مباشرة، مما زاد في الوعي الديني ومشاركة المجتمع[٢٨]. وثمة معلومة تكشف عن هذا؛ فوفقًا لابن عساكر، الذي تُوفِّي سنة ١١٧٦م، كان هناك ٢٤٩ مسجدًا في دمشق وضواحيها، وبعد سنوات قليلة، أعد ابن شداد، الذي تُوفِّي سنة ١٢٣٤م، قائمة تضم ستمائة وتسعة وأربعين مسجدًا في المنطقة نفسها. وأية عملية حسابية أولية تكشف عن بناء أربعة مساجد سنويًّا في تلك الفترة.

وقامت المدارس بعمل مهم أيضًا لوحدة الإسلام السُّني وقوته واندماجه. كانت إحداها نُزلًا للمسافرين، وكان لهذا مضامينه الاجتماعية بعيدة المدى؛ لأنه يعني أن كثيرًا من التجار، من غير العلماء، كانوا يستفيدون من فرصة التعليم المجاني والفتاوى الشرعية التي تقدمها المدارس، وكانوا يذهبون أحيانًا لأمور عملية، ليحصلوا مثلًا على إجابة عن سؤال شرعي يتعلق بصفقة عمل، وكان الغرض غالبًا يتمثَّل في طلب العلم والتدين الشخصي. وهناك وظائف اجتماعية نمت حول المدارس؛ إذ يبدو أن المدارس كانت الأماكن المثالية لعقد الزيجات، ويبدو أنها صارت دائمًا وظيفة من وظائف المدارس، وساعدت مثل هذه الوظائف الاجتماعية على تعزيز دور المدرسة بوصفها مركزًا لنشاط المجتمع. وقدَّمت المدرسة الفرصة لأي مسلم سُني، مهما كان فقيرًا أو مهما كانت أصوله العِرْقية أو خلفيته اللغوية، ليتلقى تعليمًا عاليًا. ولم تكن هناك قطُّ أي تفرقة أو قيد على أساس من الثروة، أو الأصل أو اللغة. كانت المدارس مفتوحة للجميع، بحيث يمكن

لابن الفلاح من قرية نائية في صعيد مصر أن ينال فرصة الذهاب إلى القاهرة أو بغداد أو أي مدرسة لينال تعليمًا يؤهله ليكون قاضيًا أو موظفًا حكوميًّا[٢٩]. وأدى هذا إلى تقارب المسلمين معًا، ومسايرتهم للمشكلات الفقهية والسياسية، وأسهم في الإجماع على مبادئ الإسلام الأساسية. وباختصار لا يجب التقليل من شأن دور المدرسة في خلق مفهوم «العالم الإسلامي» نفسه[٣٠].

من بغداد إلى الشام، ومن الشام إلى مصر، انتشرت المدارس بسرعة عبر العالم الإسلامي. كما أن المواد الدراسية الموحدة بها (وكانت مقرراتها فضفاضة) سمحت بأن تسبغ روحًا من التآلف بين العلماء جعلتهم مستقلين عن الظروف السياسية المحلية. ومن الصعب أن يكون نظام الملك قد توقَّع بمثل هذه الأشياء، ولكن لا شك في أنه كان وراء مؤسسة أثَّرت تأثيرًا عميقًا بشكل غير متوقع على الإطلاق. خلقت المدارس تجانسًا فكريًّا، وكان هذا التجانس هو المنصة التي حقق صلاح الدين عليها أعظم إنجازاته، وبتعبير المؤرخ «ڤيت»: «شكلت المدرسة عقول أولئك الذين أسهموا فيما بعد بصورة جوهرية في مقاومة الصليبيين والمغول على السواء، ويمكن الزعم بحق بأن المدرسة أنقذت الإسلام»[٣١].

الفصل التاسع

صلاح الدين والملك المجذوم

ظهر الفرنج، وفرقة منهم تهاجم؛ في خفة الذئاب، يعوون مثل الكلاب،
كتلة من الفرسان يتحرقون للقتال.

عماد الدين الأصفهاني

«بلدوين الرابع» ومملكة بيت المقدس

في يوليو ١١٧٦م، بلغ «بلدوين الرابع» سن الرشد، وانتهت وصاية «ريمون» أمير طرابلس عليه. ولم يكن «بلدوين» قد صادق على معاهدة الصلح التي وُقِّعتْ بين صلاح الدين و«ريمون» في سنة ١١٧٥م؛ وهو ما عكس التأثير المتزايد للصقور حول الملك الشاب، وهم رجال من أمثال: «جوسلين» أمير الرها، و«رينالد دي شاتيون» (أرناط). كان «جوسلين» أخا «آجنيس دي كورتناي»، زوجة «أماليك» وأم «بلدوين الرابع»، ومن ثَمَّ أحسَّ أن بوسعه أن يمارس نفوذًا كبيرًا على ابن أخته. وفي سنة ١١٦٤م كان قد وقع أسيرًا في يدَي نور الدين في معركة حارم، ودفعت «آجنيس» فدية له قدرها خمسون ألف دينار. أما «رينالد» فقد كانت أصوله غامضة، على الرغم من أنه ربما كان ابن «هنري دي شاتيون»، لورد «شاتيون ـ سور ـ لوا». كان من صغار النبلاء وكانت قصته مألوفة؛ لم يكن له ميراث في أوروبا، فسافر إلى الأرض المقدسة لا تدفعه حماسته الدينية ـ وهي فضيلة يبدو من الواضح أنها كانت غائبة تمامًا عن شخصيته ـ بل الرغبة في تكوين ثروة، وعند وصوله إلى الشرق دخل في خِدمة «كونستانس» أميرة أنطاكِية، التي تزوجها سرًّا، وكان الزواج مثار استياء عم «كونستانس»، «بلدوين الثالث»، بسبب

وضاعة أصل «رينالد». وبسرعة ترك «رينالد» بصمته عندما رفض بطريرك أنطاكِية تمويل حملة ضد قبرص، حيث أمر بالقبض على البطريرك، وعُري من ثيابه، ثم دُهن بالعسل، وترك تحت أشعة الشمس اللافحة أعلى القلعة. وفي سنة ١١٦٠م وقع «رينالد» أسيرًا في أيدي المسلمين في أثناء غارة للنهب، واحتُجِز في حلب تسعة عشر عامًا، حتى أطلق سراحه ضمن شروط الهدنة التي عقدها صلاح الدين مع «ريمون» أمير طرابلس. وكان الرجلان ـ «جوسلين» و«رينالد» ـ يشتركان في كراهية «ريمون» الذي أضعف المملكة، وفقًا لزعمهما.

وعقب وفاة نور الدين كان وضع صلاح الدين غير مستقر في فترة ما، ولا تزال هناك فرصة جيدة، لا لهزيمته، وإنما على الأقل لتفادي محاصرة المسلمين للفرنج، ولكن بحلول سنة ١١٧٦م انكمشت مساحة المناورة المتاحة أمام الفرنج كثيرًا، واقتنع «جوسلين» و«رينالد» أن هذا يرجع بدرجة كبيرة إلى سلوك «ريمون» في الشؤون الخارجية عندما كان الوصي على العرش(١). وكان المزيد من معاهدات الهدنة يساعد صلاح الدين على أن يشدد قبضته على بلاد الشام في بطء. وكان لا بد للفرنج من انتهاج سياسة أكثر عدوانية في محاولة لكسره بصورة عاجلة قبل فوات الأوان، وبقيت مصر المفتاح، وهو ما أدركه الفرنج وعرفوا أنه محور قوة صلاح الدين(٢). ولذلك خطَّط «بلدوين»، الذي استمر على سياسة أبيه، لشن هجوم شامل، والواقع أن أحد أفعال «بلدوين» المبكرة تمثَّل في منح إقطاعيات من الأرض في مصر لفرسان «سان جون» (الإسبتارية)، كما وعد قائدهم «جوبرت» بثلاثين ألف بيزنت إضافية من الدخل لدعمه. وكان أي هجوم يتطلب بطبيعة الحال دعمًا ومساندة بحرية؛ ولذلك اتجه «بلدوين» إلى البيزنطيين، وأرسل «رينالد» إلى القسطنطينية، حيث اتُّفِق على القيام بهجوم مشترك، وفي المقابل يتم الاعتراف بالحماية البيزنطية على المملكة اللاتينية وإعادة البطريرك الأرثوذكسي لبيت المقدس، وتقبل الإمبراطور «مانويل» عرض الفرنج، لأنه كان يسعى إلى الثأر بسبب الهزيمة المدوية على يدي قلج أرسلان في «ميريوكيفالون»؛ وهي المعركة التي سقط فيها ابن «رينالد» قتيلًا. وبالإضافة إلى ذلك، تمثَّل جزء من اهتمام «مانويل» بمصر في رغبته في منع الصقليين من أن يكون لهم موطئ قدم هناك، فيسيطرون على الموانئ المصرية ويقدمون شروطًا مغرية للتجار الإيطاليين.

وظهر في أثناء تلك الفترة أن توسلات الفرنج لغرب أوروبا آتت ثمارها مع وصول

«فيليب» أمير الفلاندرز إلى الأرض المقدسة، وكان «فيليب» ابن الكونت «ثيري» و«سيبيلا» أميرة آنجو، ومن ثَمَّ كان ينحدر من نسب صليبي ممتاز؛ لأن أباه ذهب في أربع حملات صليبية، كما كانت أمه ابنة الملك «فولك» ملك بيت المقدس. ولذلك كان طبيعيًّا أن تنتعش الآمال في أن يؤدي وصول «فيليب» إلى إعطاء دفعة جديدة للحملات العسكرية. ولا بد أن الاستقبال الذي لقيه «فيليب» قد أدهشه. وقد انطلق في حملة صليبية متوقعًا أن يقوم بعملية عسكرية ما، تجعل وضع الصليبيين أكثر أمنًا وتزيد من هيبته، وبدلًا من هذا وجد نفسه محل ترحيب باعتباره الحل لمشكلات المملكة(٣).

وعلى الرغم من مرض «بلدوين»، فقد انتقل محمولًا على محفة لتحية ابن عمه، وعرض عليه الوصاية على العرش. وعلى أية حال، رفض «فيليب» العرض؛ لأن الموقف في الفلاندرز لم يكن يسمح له بأن يغيب وقتًا طويلًا، ثم أوضح أنه مستعد لقيادة هجوم على مصر، ولكنه غير مستعد لتحمل اللوم إذا ما ساءت الأمور، ولا لتسليم المناطق المفتوحة إلى بيت المقدس وبيزنطة، في حال نجاح الحملة، قبل عودته إلى بلاده(٤).

وبحثًا عن أعذار لكي لا ينضم إلى الحملة جادل في البداية بأن موسم الخريف يجعل فيضان النيل وقتًا مهلكًا لغزو مصر، ثم أعلن عن نيته في الانضمام لأي حملة في أي مكان آخر، مع أنه كان واضحًا أن الأسطول البيزنطي لا يوجد في أي مكان آخر، ووضعت مراوغة «فيليب» الفرنج في موقف مريع؛ لأنهم شعروا بأنهم مضطرون للوفاء بالاتفاق مع القسطنطينية، إلا أنهم عندما أعلنوا عن نيتهم شن حملة من دون «فيليب»، رفض قبول هذا لأنها وصمة في حقه أن يبقى في القدس في الشتاء والجيش يهاجم مصر. كان جيشه صغيرًا، وكان بحاجة لمساعدة الفرنج المحليين لشن أي حملة. وكانت المشكلة أنه إذا ما شارك معه أحد من أولئك الفرنج المحليين في حملاته الأخرى فلن يكون بوسعهم الانضمام إلى الحملة على مصر. وعندما زاد الإحباط على الجانبين، قطع البيزنطيون المفاوضات وعادوا إلى القسطنطينية، والممرات البحرية لا تزال مفتوحة للإبحار قبل دخول الشتاء. وعندما تعرَّض «فيليب» للضغط وسُئل عن الغرض من زيارته، اعترف أخيرًا بأنه جاء وليس في ذهنه الحرب وإنما الزواج؛ وتحديدًا زواج ابني عمه اللذين كان يبحث لهما عن عروسين مناسبتين. أثار هذا الاعتراف غضب «بلدوين» أمير إبلين، الذي تجسَّد رد فعله في قوله: «حسبنا أنك جئت لتقاتل في سبيل الصليب، فإذا بك تتكلم عن زيجات».

أخيرًا، في نهاية سنة ١١٧١م، وقد فاتت فرصة الهجوم على مصر، انطلق «فيليب» ليشن حملة على شمال الشام، وزحف مع «ريمون» على مدينة حماة. حال التأجيل دون شن هجوم على مصر، وبذلك فشل الفرنج في اغتنام أفضل فرصة سنحت لهم على الإطلاق لكسر قوة صلاح الدين[٥]. وعلى الرغم من أن النجاح لم يكن مضمونًا بحال من الأحوال، فلا شك في أن الجمع بين الأسطول البيزنطي والدويلات الصليبية وجيش «فيليب» أمير الفلاندرز كان سيسبب قلقًا خطيرًا لصلاح الدين في مصر، ويمنعه على الأقل من الوقوف ضد الفرنج في الشام والخطر يتهدد مصر. ومن المؤكد أنه كان سيخفف من الضغط على حلب. وما حدث فعلًا كان استبعاد البيزنطيين، وبذلك قويت شوكة صلاح الدين من دون أن يضطر إلى القتال. وتُظهر حملة «فيليب» الصليبية إلى الأرض المقدسة مدى ما بات عليه الاختلاف بين مسيحيي أوروبا والذين يعيشون في الأرض المقدسة. واكتشف الصليبيون الذين استمروا في القدوم إلى الدويلات الصليبية في القرن الثاني عشر أن في الشرق قومًا كادوا لا يعرفونهم. ومن المُسلَّم به أنهم كانوا يتحدثون اللغة نفسها، ولكنهم لم يعودوا يشاطرونهم الثقافة نفسها. على سبيل المثال، عندما دُعي أسامة بن منقذ إلى وليمة في بيت أحد الفرنج أكد له مضيفه أنه لا يوجد لحم خنزير على المائدة، وتكشف حادثة أخرى مع أسامة عن مدى الاختلاف، فقد كتب: «عندما كنت أذهب إلى بيت المقدس اعتدت أن أذهب إلى المسجد الأقصى... الذي كان بأيدي الداوية الذين كانوا من أصدقائي». ويستمر أسامة ليحكي أن الداوية كانوا يرتبون له ليؤدي صلاته في أحد الأركان: «وذات يوم دخلت هناك ونطقت: الله أكبر، وقمت للصلاة فإذا بإفرنجي يندفع من خلفي، ويوجهني إلى المشرق، وهو يقول: هذه هي طريقة الصلاة». ثم تدخل أحد الداوية ليزيح الفرنجي بعيدًا، وواصل أسامة أداء الصلاة، ولكن الرجل ظهر ثانية ليجبر أسامة على الاتجاه صوب الشرق ثانية، ومرة أخرى أخذ الداوي الرجل بعيدًا واعتذر لأسامة قائلًا: «إنه غريب وصل اليوم فقط». وتكشف كلماته لنا مدى ما صاروا عليه من اختلاف عن الذين كانوا يفدون من أوروبا. كان قد مرَّ ما يزيد على ثمانين عامًا على سقوط القدس بأيدي الفرنج، والجيل الذي وُجد حين ذاك لم يولد في أوروبا. كان معظمهم يتحدثون العربية، وكان الدفاع عن القدس بالنسبة إليهم دفاعًا عن الأرض الوحيدة التي عرفوها أكثر منه دفاعًا عن مدينة مقدسة، وهو موقف لا يختلف عن موقف ما عُرف بـ«الأقدام السوداء» في الجزائر في خمسينيات القرن العشرين، فمع

الجيل الثاني كان الصليبيون القادمون من الغرب أجانب، ولم يكونوا أجانب بالنسبة إلى المسلمين وحدهم.

هزيمة صلاح الدين عند تل الجزرة

لا بد أن صلاح الدين تلقَّى تحذيرًا مسبقًا من الهجوم المحتمل على مصر، فقد أمضى معظم شتاء ١١٧٦م في تقوية حصون الإسكندرية ودمياط. ولا نعرف كيف فسَّر تصرفات «فيليب»، لكن من الواضح أنه اندهش وبدا له أن ذلك من حسن حظه. لم يفشل فقط الهجوم المشترك على مصر، لكنه اكتشف أن عددًا كبيرًا من فرسان الفرنج ذهبوا مع «فيليب» لمهاجمة حماة، تاركين الطريق إلى القدس مفتوحة. وبدأ يحرك قواته في الحال، وأثارت الأخبار مخاوف «بلدوين» الشاب بدرجة كبيرة، ولم يكن صاحب خبرة عسكرية، واعتاد أن يعتمد على «همفري التوروني»، ولكنه كان معتلًّا ومتوعكًا بشدة. واتجه «بلدوين» زاحفًا إلى عسقلان ليواجه صلاح الدين، وفي صحبته أسقف بيت لحم يحمل صليب الصلبوت، وكان الموقف يدعو إلى اليأس لدرجة أنه أصدر قرارًا بإلزام جميع القادرين جسديًّا بالخدمة العسكرية، وكان هذا لا يحدث إلا في أسوأ الظروف(٦).
ومع أن «بلدوين» وقف بقواته خارج عسقلان، فقد نُصح بعدم الاشتباك مع صلاح الدين، وبالتالي، تراجع بعد بعض المناوشات ليحتمي بأسوار المدينة، وهنا ارتكب صلاح الدين خطأ خطيرًا في التقدير وسمح لقواته بالخروج سعيًا وراء الغنائم، ولم يفكر في أن قوته الرئيسة يمكن أن تتعرض لتهديد خطير، ولم يحسب حساب شجاعة «بلدوين» ـ ولم تكن سنه تزيد على ١٥ عامًا. وبفعل «شجاعة اليأس»(٧) خرج الملك من عسقلان حيث انضم إليه بعض فرسان الداوية، وهاجم قوات صلاح الدين عند «مونت جيسار» ـ وهو تل الجزرة على ما يُرجَّح، الذي يبعد أربعين كيلو مترًا عن عسقلان ـ وأخذ صلاح الدين على حين غرة. كانت قواته التي تفرَّقت بلا أسلحة أو دروع. وحاول الجيش الإسلامي أن يتجمَّع، وتميز تقي الدين في ذلك اليوم بشجاعته، كذلك حارب أحمد بن تقي الدين بشجاعة مماثلة وهاجم الفرنج، ثم بعثه أبوه في هجمة ثانية، حيث قُتل. وعندما اشتد القتال دفع الفرنج المسلمين حتى تفرقوا ولحقت بهم الهزيمة. وتعرَّضت حياة صلاح الدين نفسه للخطر، وأنقذه حرسه عندما هاجمه ثلاثة من فرسان الفرنج. وتراجع مسافة قصيرة على أمل أن يحشد جيشه الهارب، ثم شعر بالراحة عندما سمع أن «بلدوين» قنع بهذا النصر

وعاد إلى عسقلان. وعلى امتداد الأيام العشرة التالية وجد صلاح الدين نفسه بلا مؤن تحت وطأة انسحاب خطر في جو شديد القسوة، حيث لا يتوقف المطر والبرد. وعندما وصل الصحراء كان على جيشه أن يواجه مشكلة نقص المياه وموت الخيول التي راحت ضحية الإنهاك. ويعود الفضل في إنقاذهم للقاضي الفاضل، الذي استأجر البدو وخرج بنفسه إلى الصحراء بحثًا عن صلاح الدين، واتفق معهم على تأمين العودة إلى القاهرة بسلام. وكان آخرون أقل حظًّا، فقد خان البدو عيسى الهكاري وأخاه وأَسَرهما الفرنج. وفي وقت بدا أن المملكة اللاتينية على وشك الضياع حققتْ شجاعة الملك المجذوم الشاب نصرًا كبيرًا.

توجَّه صلاح الدين، بعد عودته من تل الجزرة، لزيارة الخبوشاني في تواضع. وعلى أية حال، كانت الأمور الروحية تأتي في المرتبة الثانية، وكانت الأولوية بالنسبة إلى صلاح الدين تتمثل في إعادة تجهيز جيشه بأقصى سرعة. وهنا ينبغي الحديث قليلًا عن الجيوش الإسلامية. كان هناك عامل أساسي في التاريخ العسكري لبلاد الشام في أثناء هذه الفترة، وهو أن أي حملة هدفها طرد الفرنج عمل طموح يستدعي وجود جيش كبير(٨). ولكن كان يكفي في الغارات المحدودة وجود قوة من العسكر تتألف من المماليك والجنود الأحرار، لكن أي حملة طموحة كانت تتطلب مشاركة الحكام الإقليميين بقواتهم. بالإضافة إلى ذلك، كانت الحرب عملًا موسميًّا، فما إن تهطل الأمطار حتى تصير الأرض غير مناسبة للتحرك العسكري. وكانت أشهر الشتاء توفر للأمراء فرصة العودة إلى بلادهم. ولهذه الأسباب لم تكن الجيوش الكبيرة، والتي تهدد وجود الدويلات اللاتينية، تبقى في الميدان وقتًا أطول من موسم الحرب. ومن الواضح أن الفرنج كانوا مدركين لهذا العامل. لم يكن هناك ضغط يدفعهم للاشتباك مع العدو، وكانت الحملة الناجحة بالنسبة إليهم هي تلك التي يتجنبون فيها القيام بشيء، سوى المناوشات، إلى حين تتفرق القوات الإسلامية. وكان هناك عامل ثالث يثقل على ذهن القائد، وهو رغبة رجاله في الحصول على الغنائم. ربما اجتذبت الأهداف النبيلة البعض للجهاد، لكن السعي للغنائم كان الحافز الأكثر قوة. ترجع هزيمة صلاح الدين في تل الجزرة على وجه التحديد إلى أن قواته، التي اجتذبتها الغنائم، فقدت تماسكها. وكان جمع العناصر المختلفة التي يتألف منها أي جيش إسلامي وإبقاؤه في الميدان يتطلب وجود قائد ذي قدرة استثنائية وصبر بلا حدود. وبالإضافة إلى جوانب القصور التي سبق ذكرها ينبغي

ذكر معضلة ومفارقة: تتمثل المعضلة في أن هزيمة الفرنج تتطلب قوة أكبر مما تستطيع بلاد الشام توفيره. وعرف صلاح الدين أن قوات مصر ودمشق في ذاتها لا تستطيع إحراز النصر؛ ولا بد من إضافة القوة البشرية لحلب وأعالي العراق. وتتمثل المفارقة في أنه كلما كان الجيش أكبر، زادت المشاكل. وكلما زاد عدد الأمراء، زادت فرصة المنازعات؛ وكان بعد المسافات يجعلهم يبكرون بالمغادرة حتى يكونوا في بلادهم قبل حلول فصل الشتاء؛ وكلما زاد عدد المحاربين، قل نصيب كل منهم في الغنائم.

ومع هذا فإن السرعة التي أعاد بها صلاح الدين تجهيز جيشه ـ انطلق بجيشه من القاهرة بحلول فبراير ١١٧٨م ـ كانت درسًا نافعًا للفرنج. كان انتصار «بلدوين» في تل الجزرة حاسمًا، ولكنه كان الوحيد. وفهم الفرنج أنه لا يمكن إلحاق هزيمة كاملة بالمسلمين، وكانوا يقدرون أن غنائم النصر لم تكن حافزًا كافيًا للمخاطرة بالوقوع في هزيمة يمكن أن تكون ساحقة. وباختصار، كان يمكن للمسلمين أن يتحملوا كثيرًا من الهزائم، ولكن الفرنج كانوا يعرفون أن المعارك لا تستحق خوضها؛ لأن عواقب الهزيمة يمكن أن تكون جسيمة(٩). كان من الأفضل لهم تجنب المعارك، وليتحقق لهم هذا كان على الجيش أن يكون منظمًا وأن يتجاهل الاستفزازات، مثل حالات التظاهر بالتقهقر، أو الهجمات على أجنحة الجيش ومؤخرته. وفوق هذا وذاك كان نجاح الجيش الصليبي برمته يعتمد على التعاون الفعال بين الفرسان والمشاة؛ كان على المشاة أن يحافظوا على كونهم القلعة البشرية التي يمكن للفرسان الانسحاب إلى داخلها(١٠). وكان يمكن أن يؤدي الفشل في الحفاظ على النظام وحماية الفرسان إلى عواقب وخيمة. وطالما بقي الفرنج منظمين وحافظوا على الصلابة والصمود السلبي(١١)، لم تكن الجيوش الإسلامية قادرة على تحقيق النجاح، لأن الفرق العسكرية التي تُجمَع لحملات الربيع والصيف تتفرق مع حلول أشهر الشتاء. كان هذا هو الدرس الجوهري في الشؤون الحربية، وهو درس لم يكن الفرنج يستطيعون تحمل عواقب نسيانه. وكان صلاح الدين يعرف هذا بطبيعة الحال، كما كان يعرف أيضًا أن الفرنج يحتاجون إلى قوتهم العسكرية كاملة ليواجهوا جيشه الرئيس، ولذلك انتهز الفرصة لشن غارات أخرى لإلحاق الدمار بالأراضي التي يعجزون عن الدفاع عنها، وكان هدف هذه الهجمات دائمًا تدمير محاصيل الغذاء، لأن صلاح الدين كان يدرك تمامًا أن الفرنج يعتبرون مثل هذا النشاط سببًا رئيسًا لفقرهم، وبالتالي عجزهم عن تنظيم مقاومة عسكرية كافية(١٢).

رُفِع الحصار الذي فرضه «فيليب» أمير الفلاندرز على حماة عندما جاء الكردي المشطوب، الذي تطلَّع ذات مرة إلى منصب الوزارة في مصر، لنجدتها، وفي الوقت نفسه تُوفِّي شهاب الدين، عم صلاح الدين. ثم تحرك «فيليب» وقواته لحصار قلعة حارم، التي تبعد مسافة ستين كيلو مترًا غرب حلب وثلاثين كيلو مترًا فقط عن أنطاكِية شرقًا. وكان نور الدين قد استولى على القلعة، وكانت إعادة الاستيلاء عليها توفر تعزيزًا كبيرًا لأنطاكِية. ونظرًا لقرب حارم من أنطاكِية كان لا بد من سقوطها، ولكنها قاومت وطال الحصار حتى دخل الشتاء. وغيَّر تحرك صلاح الدين بجيشه، الذي أعاد تجميعه في بلاد الشام، من ملامح الصورة؛ لأنه لا حلب ولا الفرنج كانوا يريدون له أن يستولي على حارم لنفسه، وبالتالي رُتِّبت الشروط على يد الصالح في حلب، وصولح الفرنج على مبلغ من المال لقاء رحيلهم، وحينئذ قام «فيليب» أمير الفلاندرز بالحج إلى بيت المقدس، قبل أن يبحر عائدًا إلى أوروبا. لم يحقق شيئًا وكانت حملته الصليبية فاشلة. لكن لا يمكن للمرء أن يشك في إخلاصه؛ لأنه أحضر جيشًا إلى الأرض المقدسة بتكلفة مالية عالية، وهو يعرف أنه يهمل شؤون بلاده. كما لا يمكن للمرء أن يشك في شجاعته؛ لأنه عاد إلى فلسطين مشاركًا في الحملة الصليبية الثالثة، حيث مات في أثناء حصار عكا.

وصل صلاح الدين إلى دمشق من مصر ليكتشف همهمة تنم عن الاستياء من سلوك توران شاه، الذي تركه فيها نائبًا عنه. برهن توران شاه على أنه إداري غير كفء ومبذر، ولم يكن أمام صلاح الدين من خيار سوى عزله. كان توران شاه جنديًّا من النوع الذي يخرج من لهيب المعركة حيًّا ويقف صامدًا صلبًا فيها، وفي أوقات السلم يصير مستهترًا منهمكًا في الملذَّات. وفي ذلك الحين زاد من تفاقم مشكلات صلاح الدين بإصراره على أن يأخذ بعلبك، لأنه لم يكن ليقبل بسهولة مثل هذه الإهانة من أخيه الأصغر. ومن الواضح أن صلاح الدين شعر أنه غير قادر على معارضته من دون صراع مرير [١٣]. وكانت المشكلة أن بعلبك كانت في يدَي ابن المقدم، الرجل الذي خدم نور الدين بإخلاص ودعا صلاح الدين إلى بلاد الشام. ومن الواضح أن حل هذه المسألة كان يحتاج إلى دبلوماسية واعية، ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يقول لا لأخيه، لأنه يعتمد في نهاية الأمر على مساندة عائلته لبناء أسرته الحاكمة. ومن ناحية أخرى، برهن ابن المقدم على أنه مؤيد مخلص ولم يكن هناك سبب لتنازله عن ممتلكاته. وفي ذلك الحين كتب صلاح الدين إلى الخليفة يخبره أنه سوف يتحرك بجيشه إلى بعلبك مبررًا تصرفه بأن عليه أن يحرس

المحاصيل من غارات الفرنج. كان هذا نموذجًا لحذر صلاح الدين. كان يستعد لكل حركة برسالة إلى الخليفة ـ يحررها في الغالب عماد الدين الأصفهاني ـ يسعى بها إلى إسباغ الشرعية على تصرفه. وكان حجم الرسائل التي تُرسل إلى بغداد كبيرًا بدرجة جعلت القاضي الفاضل يحثه على التوقف، حتى لا تشعر بغداد بأنه يحتج أكثر مما ينبغي. وفي أواخر سنة ١١٧٨م، مع تساقط الثلوج، سار صلاح الدين بجيشه إلى بعلبك، ووفقًا لعماد الدين الأصفهاني، لم يكن هذا أكثر من استعراض للقوة من دون نية في القتال؛ لأن صلاح الدين كان يمضي معظم الوقت في الصيد في أرض يعرفها جيدًا منذ طفولته. والحقيقة أن كلا الجانبين كان بحاجة إلى استعراض القوة؛ يقوم صلاح الدين بعرض علني لقوته، ويبين ابن المقدم أنه لن يسلم ممتلكاته بسهولة. والحقيقة أن صلاح الدين دلل ابن المقدم مع كبر سنه كما لو كان طفلًا، بتعبير عماد الدين الأصفهاني، وتم التوصل إلى اتفاق كريم وتعويض ابن المقدم بمكافأة جيدة في مكان آخر نظير إخلاصه وولائه. كان هذا صلاح الدين: خطاب إلى الخليفة لتبرير تصرفاته، واستعراض للقوة لتأكيد زعامته، ثم كلمات طيبة لحل الموضوع، ثم حل كريم لضمان الولاء.

وفي الوقت نفسه، قضى «بلدوين الرابع» سنة ١١٧٨م في تقوية دفاعات مملكته. وأُعيد بناء أسوار مدينة القدس، وفي الجليل الأعلى أعاد «همفري التوروني» بناء حصن «شاستلنيف» (القلعة الجديدة)، وكان مهجورًا. وفي خريف ١١٧٨م نُفِّذ مشروع كبير، بناء قلعة «لوشاستيليه» في مخاضة يعقوب ـ وتُعرَف أيضًا ببيت الأحزان. كانت حصنًا ضخمًا ذا أهمية كبيرة ـ لأنها تقع على إحدى الطرق المؤدية إلى دمشق، على مسيرة يوم واحد فقط من المدينة ـ لدرجة أن «بلدوين» وجيشه بقوا هناك لحماية قوة العمل. وما إن اكتمل الحصن، في إبريل ١١٧٩م، حتى عهد بها إلى الداوية، وبقي ثمانون فارسًا في حاميتها مع قوة إجمالية قوامها ألف رجل. ولم يبذل صلاح الدين أي محاولة لمنع بناء القلعة، وعندما وصله الخبر بأنها على وشك الاكتمال كانت إجابته غامضة: «عندما ينتهون من بنائها، سوف نذهب لتدميرها». وعلى الرغم من رباطة جأشه، فإن قرب القلعة من دمشق كان يعني أنه يتعين عليه أن يستبقي هناك قوة كبيرة حتى لا تكون الحامية قادرة على شن الغارات على أراضيه متى شاءت. وبالإضافة إلى ذلك، حدثت مسألة بعلبك، التي طالت، في وقت بناء قلعة بيت الأحزان. وبحلول مارس ١١٧٩م بدأ القلق ينتاب القاضي الفاضل، وكتب إلى عماد الدين الأصفهاني عن خوفه من أن

صلاح الدين بدأ ينشغل عن الجهاد. ولا شك في أن سنة ١١٧٩م كانت جيدة لكلٍّ من «بلدوين» والمملكة اللاتينية.

وفي ربيع ١١٧٩م وصلت أخبار إلى صلاح الدين بأن الفرنج يخططون لشن غارة على المناطق المتاخمة لدمشق. ولم يتوقع الجيش الذي قاده «بلدوين» أي مقاومة، لكنه فوجئ بفروخ شاه، ابن أخي صلاح الدين، يهزمهم. في البداية لم يكن صلاح الدين، الذي استُدعِي برسالة على جناح الحمام الزاجل، يعرف بمدى الانتصار الذي حققه فروخ شاه، وكان يفترض أنها مجرد مناوشة، وسرعان ما اكتشف أن فروخ شاه أحرز نصرًا مؤزرًا، وأن من بين فرسان الفرنج الذين ذبحوا «همفري التوروني»؛ وهو فارس قابله صلاح الدين من قبل في أثناء حصار الإسكندرية، وانبهر، كما تقول الأسطورة، ببسالة صلاح الدين التي أبداها في أثناء الحصار لدرجة أنه منحه وسام فارس. وكان موته، كما يقول «رنسيمان» المؤرخ المعروف، ضربة رهيبة للمملكة الصليبية؛ لأنه كان الوحيد من رجال الدولة الذين يحظون باحترام الجميع[١٤]. ولاحظ المؤرخون المسلمون بسالة هذا الفارس: علَّق ابن الأثير على موته بقوله إن اسمه كان مثالًا على الشجاعة والمهارة في الحرب. وبعد شهرين، في يونيو ١١٧٩م، حقق صلاح الدين نصرًا ثانيًا على «بلدوين» عند مرجعيون، عندما تبعثر الجيش الفرنجي وأنقذ «بلدوين» واحدٌ من خدمه، وعُرِض ما يزيد على مائتين وسبعين فارسًا أمام خيمة صلاح الدين، من بينهم أحد الداوية، «أودو»، الذي رفض أن تتم مبادلته بأمير كان أسيرًا بسجن القدس، فقد أغضبه وأهاجه أن صلاح الدين فكر في أن أميرًا مسلمًا صنو له. ولذلك أُرسِل إلى دمشق، حيث مات بعد سنة. وعلى أية حال، تم تعويض خسائر «بلدوين» بوصول تعزيزات من أوروبا، وعلى رأسها «هنري» أمير شامباني.

تحقق نصران عارضان وحاسمان، الواحد تلو الآخر، وحينذاك انتهز صلاح الدين فرصة الفوضى لدى الفرنج وحوَّل انتباهه إلى قلعة بيت الأحزان، وفرض عليها الحصار. وفي الأسبوع الأخير من أغسطس ١١٧٩م سقطت القلعة وأُسِر سبعمائة من الفرنج. وفي ذلك اليوم اختفت الرحمة؛ أمر صلاح الدين بقتل جميع فرسان الداوية ورماة القوس من الخيالة الذين كان المسلمون يخشونهم واعتبروهم أعداء خطرين. ثم دُمرت القلعة حجرًا حجرًا. وكان صلاح الدين واقفًا برجاله يساعد في تقويض حجارة أساسها بيديه، لكنه دفع ثمنًا باهظًا؛ لأن رائحة عفن القتلى تسببت في انتشار الأمراض، وسقط مريضًا

كلٌّ من ابن أخيه تقي الدين وابن عمه نصر الدين بن شيركوه. وعلى الرغم من أنهما شُفيا من المرض، فقد سقط عشرة من أمراء صلاح الدين صرعى العدوى، وكانت تلك خسارة أكبر من أي خسارة في الأرواح لحقت بصلاح الدين في ميدان المعركة حتى ذلك التاريخ. وعلى الرغم من أن سقوط القلعة كان ضربة لمعنويات الفرنج، فإن الضرر الذي أصابهم لم يكن كبيرًا. وبحلول شتاء ١١٧٩م، كان يمكن الظن بأن مستقبل المملكة اللاتينية يبدو مضمونًا أكثر مما كان منذ موت الملك «أماليك»[١٥]. والحقيقة أن ذلك كان خادعًا، حيث كانت مملكة بيت المقدس تقف وحدها عشية أعظم محنة تعرَّضت لها.

تم الاتفاق على هدنة رحب بها الجانبان. كان صلاح الدين يريد هدنة توفر له الوقت لتوجيه انتباهه صوب الشمال للحد من خطر حلب والموصل. بالإضافة إلى أن وفاة الخليفة العباسي، المستضيء بالله، كان يعني أنه لا ضرر من الدخول في هدنة يمكن أن تساعد صلاح الدين على رؤية الوضع على الأرض في بغداد. وبالنسبة إلى «بلدوين»، أدَّت صحته الآخذة في التدهور إلى انقسامات عميقة في المملكة حول من يتزوج أخته، ومن ثَمَّ يرث المملكة اللاتينية في بيت المقدس. وبالإضافة إلى هذا، كانت هناك موجة جفاف شديدة اكتسحت بلاد الشام لعدة سنوات، ولم يكن أي من الجانبين قادرًا على أن يخرب المزيد من الأرض المزروعة، ولذلك وافق الجانبان على الهدنة من دون شروط ـ وكانت أول مرة يضطر الفرنج فيها للتوقيع من دون وضع بعض الشروط على الأقل. وبذلك تغيَّر توازن القوى من الجانب الفرنجي.

وفي يونيو ١١٨٠م، وصلت الأنباء إلى صلاح الدين عن وفاة ابن أخي نور الدين، سيف الدين أمير الموصل، وقد حكم المدينة بنجاح ـ على الأقل بالمعنى السلبي الذي يعني أنه لم يخسر أيًّا من أراضيه أمام صلاح الدين[١٦]. كان سيف الدين يريد أن يترك الموصل لابنه ذي الاثني عشر عامًا، سنجر شاه، لكنَّ الحكماء فرضوا أن يكون أخوه عز الدين مسعود ـ وكان صلاح الدين قد هزمه بسهولة في المعركة ـ خليفته. وبالنسبة إلى صلاح الدين كانت وفاة سيف الدين تعني أن المعاهدة التي عقدت بعد أن هزم القوات الموصلية والحلبية انتهت، فكتب إلى الخليفة مطالبًا بمدن الرها وسروج وحران، وكانت ملكًا لنور الدين ولكنَّ سيف الدين أخذها سنة ١١٧٤م. وكانت هذه المدن الثلاث مهمة للغاية من الناحية الإستراتيجية، وإذا نجح صلاح الدين في الحصول عليها يكون بذلك قد فصل بين الموصل وحلب. وعلى أية حال، لم تُلقِ بغداد بالًا لدعواه، وجاءت وفاة

أخرى بعد وفاة سيف الدين، ولكن هذه المرة على مستوى شخصي جدًّا، فقد سمع صلاح الدين، في أثناء قيامه بحملة عسكرية، بوفاة أخيه توران شاه وكان الخبر صدمة قاسية عليه. لم ييسر توران شاه حياة صلاح الدين، فقد أدى استهتاره ورعونته إلى تراكم الديون والاضطراب السياسي، لكن وصلاح الدين يواجه أعظم المخاطر التي تعرَّض لها في مصر آزره توران شاه ووقف إلى جانبه بصلابة. وذكر عماد الدين الأصفهاني أنه عندما وصل الخبر إلى صلاح الدين طلب إحضار كتب الحديث وطلب أن يتركوه وحده طوال اليوم.

وفي الوقت نفسه، كانت المملكة اللاتينية تعاني متاعبها الداخلية الخاصة عندما تقدم «ريمون» أمير طرابلس و«بوهيموند» أمير أنطاكِية، بدافع من القلق على تدهور صحة الملك، نحو بيت المقدس لإرغام «بلدوين» على تزويج أخته لـ«بلدوين» أمير إبلين. وبسرعة واجه «بلدوين الرابع» تحركهم بترتيب زواجها من «جاي لوزنيان»، وبهذا واجه المتمردين بالأمر الواقع، ولم يلقَ اختيار «جاي» الرضا العام، ولكن من الواضح أنه جاء نتيجة تفكير عميق؛ كان «جاي» من «بواتييه»، وكانت جزءًا من أملاك «هنري الثاني» ملك إنجلترا، وكان الحاكم الواقعي الوحيد الذي يمكنه مساعدة المملكة اللاتينية؛ لأن الملك الفرنسي مات سنة ١١٨٠م مخلفًا ابنًا صغيرًا ـ مما يعني بالفعل أنه لم يكن هناك أمل في حملة صليبية فرنسية لعدة سنوات. وفي الوقت نفسه، لم يردْ «بلدوين» استبعاد الدعم البيزنطي، وأرسل «جوسلين» أمير الرها إلى القسطنطينية. وعلى أية حال، تصادف وصول «جوسلين» إلى المدينة مع موت الإمبراطور «مانويل»، ونتيجة لهذا، أمضى الشتاء هناك حيث استكمل المفاوضات مع الحكومة الجديدة بقيادة «أليكسيوس الثاني»، وكان في الحادية عشرة من عمره، وأمه «ماري الأنطاكية» التي كانت وصية عليه.

وفاة ابن نور الدين والصراع على شمال الشام

في ديسمبر ١١٨١م، وصلاح الدين في القاهرة وصله الخبر الذي غيَّر الصورة السياسية بطريقة مذهلة وغير متوقعة بالمرة: تُوفِّي الصالح بن نور الدين بمدينة حلب، وربما كانت وفاة الصالح ميمونة للغاية في سلسلة وفيات جاءت في وقتها وتركت بصمتها على مسيرة حياة صلاح الدين[١٧]. لو قُدِّر للصالح أن يعيش لسن الرشد لكان من الصعب أن نرى ازدهار مسار حياة صلاح الدين. ومن المُسلَّم به أن

صلاح الدين كان سيبقى قويًّا في مصر، ولكن مبرر وجوده في بلاد الشام كان لأنه الوريث السياسي والروحي لنور الدين. وهناك حقيقة بسيطة مؤداها أن نور الدين كان له وريث بالفعل، ولو عاش الصالح وطلب من صلاح الدين أن يعيد دمشق إليه، لكان من الصعب أن نراه يرفض، من دون أن ينال من صدق نواياه وصورته في أعين الناس، الصورة التي بناها بصبره ومثابرته، ومن ثَمَّ يظهر في صورة الغاصب غير الشرعي التي زعم آل زنكي في حلب والموصل أنها صورته. لكن تغيرت الخريطة السياسية، بوفاة الصالح، على نحو مذهل، وكانت الغنائم من نصيب المنتصر. وفي الحال أرسل صلاح الدين تعليمات عاجلة إلى فروخ شاه وتقي الدين بمنع قوات الموصل من الاستيلاء على حلب. وفي الوقت نفسه، وصل بيت المقدس خبر وفاة الصالح، وفهم الفرنج أيضًا جسامة ما حدث، ولذلك تصرف «بلدوين» في الحال لضمان ألا تقع حلب في يدَي صلاح الدين. ومن ثَمَّ لم يكد فروخ شاه يغادر دمشق حتى قاد «رينالد دي شاتيون» قوة من الفرسان صوب أيلة، ولم يكن أمام فروخ شاه سوى العودة لشن هجوم على شرق الأردن، وتسببت هذه الأخبار في عودة «رينالد». وكانت النتيجة موافقة لرغبات الفرنج. لم يستطع فروخ شاه منع قوات الموصل من الاستيلاء على حلب سلمًا. وينبغي أن نلاحظ أن هجوم «رينالد» على أيلة جاء والهدنة سارية، لكنَّ الفرنج فهموا مدى الخطر الذي يحيق بهم إذا ما سقطت حلب في يدَي صلاح الدين. وبالهجوم على أيلة، ونقض الهدنة، حركهم دافع أقوى من الرغبة في الحفاظ على السلام مع صلاح الدين؛ وهو الحفاظ على مكانة حلب مستقلة عن صلاح الدين. ناضل «أماريك» من قبل للاستيلاء على مصر من صلاح الدين، وناضل «بلدوين» آنذاك لضمان ألا تسقط حلب في يديه. ولا شك في أن الفرنج والموصليين كانوا على اتصال وثيق، لأنه ما كاد «رينالد» يتحرك صوب أيلة، ويشتت انتباه فروخ شاه، حتى عبر سيف الدين أمير الموصل نهر الفرات ليصل إلى حلب. وهناك تزوَّج أم الصالح - ليضفي المزيد من الشرعية على تصرفه - وأفرغ القلعة من السلاح. كما أسرع بعقد مصالحة مع الشيعة في المدينة، وأعاد لهم امتيازاتهم. وحُلَّتْ مسألة مَن يحكم حلب بالنسبة إليه آنذاك عندما قابل أخاه، عماد الدين أمير سنجار، واتفقا على مقايضة سنجار مقابل حلب. وبهذه الطريقة سيطر أبناء إخوة نور الدين وآل زنكي على حلب والموصل، وهذا ما كان يخشاه صلاح الدين.

وفي الوقت نفسه، جهَّز صلاح الدين جيشه، وعشية رحيله من القاهرة جلس مع بعض الرفاق يروون الشعر، وكان الطقس معتدلًا أواخر الربيع، وعلَّق على أن النسيم كان منعشًا وهو يحمل أريج الأزهار معه. وعلى هذا التعليق علَّق أحد المجتمعين فورًا، ودونما تفكير، ببيت من الشعر:.

تَمتَّع من شَميـمِ عَـرارِ نجْـدٍ فمـا بعـد العَشيَّـة مـن عَـرارِ

وأزعجت الكلمات صلاح الدين وتشاءم بها. وكانت كذلك إلى حد ما؛ لأنه لم ير مصر ثانية قطُّ، وهي البلاد التي أقسم ذات يوم ألا يعود إليها، ولكنه تحوَّل إلى عاشق لها. وفي مايو ١١٨٢م غادر صلاح الدين القاهرة، ومعه نصف جيشه وعدد كبير من التجار وأرباب الحرف، وعندما وصلت الأخبار بيت المقدس، جمع «بلدوين» مجلسًا لتقرير ما يكون عليه ردهم، وحث «رينالد دي شاتيون» المجلس على أن يزحف الجيش على الكرك لسد الطريق على الجيش المصري، وكان «ريمون» أمير طرابلس قلقًا من ترك هذا المملكة من دون حماية. وعلى أية حال، تم تجاهل كلمات «ريمون»؛ لأنهم اعتبروا أن تقسيم الجيش عمل أحمق، والحقيقة أن الفرنج كانوا مشغولين بحماية المحاصيل أكثر من انشغالهم بالاشتباك مع العدو. كذلك لم يكن صلاح الدين مهتمًّا على نحو خاص بالقتال في هذه المرحلة، وعندما علم أن الجيش الفرنجي كله تجمع في مكان واحد، انتهز الفرصة لشن هجمات ثانوية تسببت في تدمير محاصيلهم وتخريب المناطق الريفية المزروعة، وهكذا أمر فروخ شاه بغزو الجليل. وما أفزع «ريمون» بدرجة كبيرة، هو نهب أراضي الفرنج. وفي الوقت الذي وصل فيه صلاح الدين دمشق وصلته الأخبار عن الانقلاب الذي جرى في القسطنطينية التي شهدت صعود «أندرونيقوس كومنين» الذي اشتهر بعدائه للاتينيين. وكان «أندرونيقوس» معروفًا في الشرق اللاتيني، لأنه تسبب في فضيحتين: في الأولى أغوى أخت الإمبراطورة البيزنطية، «فيليبا الأنطاكية»، ونتيجة لذلك هرب إلى بيت المقدس، حيث منحه «أماليك» حق اللجوء. وهناك تسبب في الفضيحة الثانية؛ حيث هرب سرًّا مع أرملة «بلدوين الثالث»، «تيودورا». وفي هذه المرة سعى إلى اللجوء إلى بلاط نور الدين، ولا نعرف حظ نور الدين الزاهد من تصرفات هذا الرجل المنفلت، ولكن «أندرونيقوس» عاش مع المسلمين عدة سنوات حتى تصالح مع «مانويل» وعاد إلى القسطنطينية. وبعودته إلى السُّلطة اطمأن صلاح الدين، وعرف أنه لن يأتي لمساعدة المملكة اللاتينية إذا ما قرر أن يشن هجومه عليها. وفي سنة ١١٨١م

كان الإمبراطور البيزنطي قد أرسل سفارة إلى القاهرة وتم توقيع اتفاقية. وهذه الاتفاقيةُ، واتفاقية أخرى وقَّعها «أندرونيقوس» وصلاح الدين سنة ١١٨٥م، حررتا صلاحَ الدين من الخوف من هجوم البيزنطيين.

وفي غضون أيام تحرَّك صلاح الدين من جديد، ولم يتأخر في غزو مملكة بيت المقدس. في ١٣ يوليو فرضت فرقة من جيشه الحصار على قلعة بيسان جنوب الجليل، وزحف «بلدوين» لنجدتها. وعلى الرغم من وصف ما جرى بأنه معركة فإنه لم يزد على محاولة من المسلمين لفرض الاشتباك على الفرنج الذين رفضوا أن يُستدرجوا للقتال. فقد أمطر النبالة الراكبون الأتراك الفرنج بسهامهم، وردَّ فرسان الفرنج أحيانًا، وكان لشدة الحرارة في ذلك اليوم أثرها، ولاحظ «وليم الصوري» أن كثيرين ماتوا في ذلك اليوم بضربة شمس، ومنهم قسيس الضريح المقدس وكان يحمل صليب الصلبوت. وانسحب صلاح الدين عندما لم تنجح أساليبه القتالية، ولا بد أن الفضل يعزى لـ«بلدوين» الذي أظهر قوة إرادة كبيرة على الرغم من مرضه، كما أبدى كثيرًا من الإصرار والنظام والشجاعة، لأنه فهم ظروف الاشتباك ورفض أن يبتلع الطُّعم الذي ألقاه المسلمون. وعندئذ حوَّل صلاح الدين انتباهه إلى مدينة بيروت، التي يعرف أنها أضعف نقطة في السيطرة الفرنجية على الساحل الشامي، وقد بنى وهو في مصر أسطولًا يتكون من ثلاثين إلى أربعين سفينة حربية(١٨)، وشن آنذاك هجومًا بحريًّا وبريًّا على المدينة. وفي الوقت نفسه، أمر أخاه العادل بشن غارات حول الداروم وغزة، وبدا أنه هجوم خطير مُنسَّق بشكل جيد(١٩). وعندما سمع «بلدوين» بهذه التطورات كان عليه أن يقوم باختيار صعب: أن يقسم جيشه لمواجهة التحديين أو يبقيه موحدًا ويدافع عن بيروت. وإذ علم أن ضياع بيروت يمثل ضربة أكبر كثيرًا لمعنويات الفرنج، فقد اختار الخيار الثاني. وعلى مدى أيام ثلاثة شن صلاح الدين قصفًا مكثفًا على بيروت بالسهام ـ بتعبير «وليم الصوري» ـ وكانت تملأ الهواء مثل البَرَد. وفي الوقت نفسه، أمر «بلدوين» السفن بالإبحار من عكا وصور للتخفيف عن بيروت. ومع أن الاستيلاء على المدينة كان يُمثل بالضرورة نصرًا مؤزرًا لصلاح الدين، فقد انسحب بعد ثلاثة أيام فقط من الحصار لعلمه أنه لن يستطيع الاحتفاظ بالمدينة حتى لو سقطت، ولم يكن الفرنج هدفه أو شاغله في تلك المرحلة(٢٠). ومع أنه تحرك آنذاك شمالًا، فإن الفرنج لم يكونوا مستقرين، وعلى عكس التصرف المنتظر تعمد ألا يعقد هدنة.

تخلَّى صلاح الدين عن مهاجمة بيروت، وزحف إلى بعلبك، وقد وصلها في منتصف

أغسطس ١١٨٢م. وكان الزحف بطيئًا بشكل متعمَّد، وقد أمضى أربعين يومًا للوصول إلى الفرات. كان الهدف جمع المساندة على طول الطريق بحيث يكتسب زخمًا. وكتب أن أمراء البلاد كانوا يرسلون إليه الرسل والمساندة. وبالقرب من حلب انضم إليه مظفر الدين كوكبوري، وكان صاحب مدينة حران وقلعتها، وقد حارب ضد صلاح الدين في معركة تل السلطان. وآنذاك أخبر صلاح الدين بأنه مستعد لتغيير موقفه، وحثَّه على عبور نهر الفرات والمطالبة بالأراضي شرق النهر، وقال له إن هذه الأرض ملك له. وتعزز تغير موقف كوكبوري بزواجه من أخت صلاح الدين: وهكذا كسب حليفًا قويًا، وأغرت كلمات كوكبوري صلاح الدين لأنه كان يعرف أن حلب سوف تقاوم بقوة، وأن أي حصار لا بد أن يتحمل أشهر الشتاء القارص. وعلى النقيض من ذلك، كان أمام الحملة في شرق الفرات فرص للنجاح. وعلى الرغم من ترك مؤخرة جيشه مكشوفة أمام الهجوم الحلبي فقد بقي على ثقة بأن أي هجمات لن تسبب له كثيرًا من المشكلات. وفي أواخر سنة ١١٨٢م وصل إلى ألبيرة، وكانت إحدى نقاط العبور على الفرات، حيث رحب به شهاب الدين محمود، وسلَّم صلاح الدين مفاتيح قلعته، وأعادها له. وكتب صلاح الدين إلى العادل طالبًا منه أن يرسل إليه الأموال التي كان بحاجة مُلحة إليها ليكسب ولاء المدن الباقية أمامه، لأن الكرم مفتاح النجاح. وعندما عبر صلاح الدين الفرات زحف نحو الرها، وكانت بيد فخر الدين الزعفراني، وقد دخل ذات مرة في خدمته، لكنه رحل غاضبًا عندما لم يأخذ حمص. ومع أن عز الدين أرسل بعض القوات من الموصل لمساعدة الرها، فقد وصلت بعد فوات الأوان وسقطت الرها سلمًا في يدَي صلاح الدين. وفي الوقت نفسه، انتهز عماد الدين زنكي في حلب فرصة عبور صلاح الدين نهر الفرات وهاجم سروج، لكن صلاح الدين لم يعد أدراجه لأن الحلبيين لم يكونوا بالقوة التي تمكنهم من الإيقاع به. والحقيقة أنه لم يكن في عجلة من أمره ولم يحث السير في اتجاه الموصل، ويبدو أن دوافعه ـ كما حدث من قبل في زحفه على دمشق ـ كانت نفسية، أي تحويل حملة عسكرية إلى تقدم ظافر(٢١). وهكذا استسلمت له حران والرقة وهو يتحرك في اتجاه الشرق، وكانتا بيد قطب الدين إينال، الذي هدد ذات يوم صلاح الدين بسيفه، ولكنه كسبه حينذاك إلى جانبه بأمواله. وبحلول ١٠ نوفمبر كان صلاح الدين يعسكر خارج الموصل، وعلَّق عماد الدين الأصفهاني بأنه في خلال سنة واحدة كان يسقي فرسه من النيل والفرات ودجلة.

وكتب صلاح الدين إلى فروخ شاه أيضًا، يطلب أموالًا ولم يتلقَّ جوابًا؛ لأن فروخ

شاه مرض ومات. وكان فروخ شاه شاعرًا مفوهًا، له ولع شديد بأشعار المتنبي، كما ترك خلفه سمعة بالبسالة والشجاعة في ميدان القتال. كانت وفاته ضربة شديدة لصلاح الدين الذي عيَّن آنذاك ابن المقدم ـ مما يبرهن على أن النزاع على بعلبك تمت تسويته حقًّا ـ واليًا على دمشق. وفي الوقت نفسه، كان عز الدين أمير الموصل وأخوه عماد الدين أمير حلب، وكانا يراقبان استعراض صلاح الدين السِّلمي عبر مدن الفرات، يقتربان من الفرنج وعقدا صلحًا مع «بوهيموند الثالث» أمير أنطاكِية و«روبين الثالث» أمير قليقية. وبعد أشهر قليلة، وصلاح الدين يعبر الفرات، أرسل عز الدين أمير الموصل رسلًا إلى «بلدوين» في بيت المقدس واتفقا على هدنة مدتها إحدى عشرة سنة، وفي مقابلها وافقت الموصل على دفع عشرة آلاف دينار سنويًّا. وبالإضافة إلى ذلك وافقت الموصل على إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنج، وبدا التحالف الموصلي الفرنجي على صلابته السابقة، وما إن أُقِرَّ الاتفاق حتى شرع «بلدوين» في الحال للعمل على قطع خطوط مواصلات صلاح الدين، وفي البداية شن غارة على دمشق وأراضيها. ولم يكن ابن المقدم، وكان عدد رجاله أقل من أن يغامر بالاشتباك، قادرًا على تحديه. وأحرق «بلدوين» المحاصيل، ثم هدد الملك المجذوم بتدمير مسجد «داريا»، ولكنَّ وفدًا من المسيحيين أخبره أنه إذا ما فعل ذلك فسوف يثير عداوة السكان المسلمين بلا داعٍ ويلحق ابن المقدم في المقابل ضررًا بالغًا بالكنائس المسيحية في إمارته. تراجع عن تهديده، ثم قاد قواته إلى بُصْرَى، على مسافة مائة وخمسة وأربعين كيلو مترًا إلى الجنوب، وكانت أول مستوطنة على الطريق الصحراوية من دمشق إلى مصر، ولو تمكَّن الفرنج من الاستيلاء عليها لما كان أمام صلاح الدين وقتها سوى العودة، ولكن سكانها سدوا جميع الآبار خارج الأسوار، بحيث بات من المستحيل حصارها. ولما كان «بلدوين» يعرف أن صلاح الدين بعيد جدًّا في الشمال، وأن ابن المقدم لا يستطيع أن يقاوم كثيرًا، فقد تحوَّل نحو «حصن الحبيس»، وقد استولى فروخ شاه عليه قبل ذلك أشهر قليلة، وبعد حصار قصير سقط الحصن في يديه. وهكذا أعيدت السيطرة للفرنج على الجليل الشرقي[٢٢].

وكان صلاح الدين على علم بما يجري، ولكنه لم ينزعج، وبدا أنه لا يهتم؛ فقد قال إن الفرنج يضربون القرى ونستولي على المدن. وكانت هناك أسباب وراء سلوكه المتهادي؛ كان يعرف أن الفرنج، وهم يفتقرون إلى الدعم من البيزنطيين، لا يستطيعون

مهاجمة مصر، وأن الغارات التي شنها «بلدوين» لم تكن كافية في ذاتها لإجباره على العودة، وفسَّرها على أنها لا تزيد كثيرًا على تكتيكات لتشتيت الاهتمام، واعتبرها من أعراض الغضب المكبوت الذي شعر به الفرنج نتيجة مغادرته بلاد الشام من دون أن يشغل نفسه بعقد هدنة معهم.

وظل هناك سؤال يزعج كثيرين ـ ومنهم القاضي الفاضل ـ ماذا يفعل صلاح الدين؟ كان واضحًا أن سقوط الموصل يؤدي إلى سقوط حلب، ولكن ما كان أقل وضوحًا ما يفعله صلاح الدين بحصار الموصل، أو في الواقع كيف يمكنه تبريره. وفيما يخص حلب، يمكن أن تكون هناك قضية، لأنه مع وفاة الصالح بن نور الدين توفرت لصلاح الدين أفضل فرصة لتحقيق مطالبه. ولكن مثل هذه المزاعم لم يكن ممكنًا أن تنطبق على الموصل، وكانت هذه نقطة سرعان ما أوضحها الموصليون للخليفة، ولم يستطع صلاح الدين أن يتفاءل عندما رأى كيف حصَّن عز الدين المدينة جيدًا. وعندما اقترح تقي الدين استخدام المجانق أجاب صلاح الدين إن المرء لا يضرب بالمنجنيق مدينة مثل هذه، لأنهم حتى لو دمروا حصنًا، فمَن يستطيع الاستيلاء على المدينة وبها هذه الكثرة من الناس. كان الموقف متأزمًا: لم يستطع الموصليون إبعاد صلاح الدين، ولم يكن يستطيع أخذ المدينة عنوة. وبالإضافة إلى ذلك، كلما طال حصار الموصل، ضعف موقفه في بلاد الشام. وكان الحل الذي ارتآه أن يتحول عن الموصل إلى سنجار، التي استسلمت له صلحًا بعد حصار دام خمسة عشر يومًا وأعطاها لتقي الدين، وخرج أعيان سنجار وجاملهم، وقد صارت المجاملة معتادة من صلاح الدين، وأصلح الدمار الذي حدث في أثناء الحصار، ولم يخرج لنفسه بمزية من الاستيلاء عليها، وبذلك فرض شهرته بالكرم حتى بين من ساورهم الشك في هذا من قبل. ومع أنه لم يتمكن من أخذ الموصل ـ وكان لا يتوقع ذلك حقًّا ـ فقد نجح في فصل الزنكيين في حلب عن الزنكيين في الموصل.

في بداية ١١٨٣م، كتب العادل والقاضي الفاضل يخبران صلاح الدين بخبر مزعج: قام «رينالد دي شاتيون» بهجوم وقح على قلب العالم الإسلامي، وكانا يشيران إلى الغارة التي شنها الفرنج بقيادة «رينالد» على شبه الجزيرة العربية وعلى المدينة المنورة؛ حيث يوجد قبر النبي ﷺ. كانت مغامرة خارجة عن الحد حقًّا: قضى «رينالد» عامين في بناء سفن مجزأة، ثم حملتها الجمال ـ التي استأجرها من البدو ـ وأنزلت في خليج العقبة حيث أُعيد بناء السفن. ثم أبحر «رينالد» في البحر الأحمر ليرسو شمال جدة. وليس من

الواضح إن كان «رينالد» يحاول أن يؤسس وجودًا فرنجيًّا بالقرب منها أو كان ـ كما اقتنع المسلمون ـ يحاول نقل جسد النبي ﷺ، إلى الأراضي الفرنجية. ولكن الغارة الرعناء تسببت في صدمة مزلزلة بين المسلمين. ونسق العادل، وكان مسؤولًا عن مصر، الهجوم الإسلامي المضاد، ودمر الأسطولُ الإسلامي سفنَ الفرنج، ثم استخدم البدو لاقتفاء آثار من نزلوا على الأرض متجهين إلى المدينة المنورة. وعلى مدى خمسة أيام وخمس ليالٍ تعقب الجيشُ الإسلامي الفرقةَ المغيرة، وكان عددهم مائة وسبعين رجلًا، وكلما مرَّ يوم واقتربوا من المدينة المنورة، تزايد قلق المسلمين. ولكن تم القبض عليهم في النهاية، وأُرسِل اثنان منهم إلى مكة، والباقون إلى المدينة المنورة وإلى الإسكندرية، حيث أمر صلاح الدين بإعدامهم. وكانت مفاجأة له أن العادل رفض إعدام الأسرى، وطلب أن يأخذ رأي الفقهاء أولًا. والسبب في هذا أن الفرنج تلقوا في أثناء المطاردة وعدًا بالرحمة. وعلى أية حال، أصر صلاح الدين على مطلبه بقتلهم، وكانت حجته أن الأرض المقدسة هوجمت، وأن أولئك الرجال باتوا يعرفون الطريق إلى المدينة المنورة، ولذلك لا يمكن السماح لهم بالبقاء أحياء. وفي النهاية نُفِّذتْ أوامر صلاح الدين، وكان إصراره وتجاهله لقرار أخيه يكشف عن القلق الذي ساوره بالتأكيد. أما مدى حقيقة محاولة الفرنج فقد بقي غامضًا، ولكن طبيعة توقيتها تسببت في حرج كبير لصلاح الدين. كان غيابه في شمال الشام هو الذي أتاح الفرصة لـ«رينالد» للقيام بهذه الحملة على قلب العالم الإسلامي، كما أن تصميمه على إنهاء النزاع مع الموصل وحلب جعله عرضة للاتهام بوضع مصالحه الأُسرية الخاصة قبل مصالح المسلمين[٢٣]. لم تكن غارة «رينالد» على قلب العالم الإسلامي، بما أحاط بها من ذهول، من دون دافع إستراتيجيّ أيضًا ـ وهو إجبار صلاح الدين على الرجوع عن الموصل ـ وهكذا ساعد الفرنج آل زنكي حلفاءهم وهم يحمون مصالحهم الخاصة بكبح جماح السُّلطة المتنامية لصلاح الدين في بلاد الشام[٢٤].

وبحلول مايو ١١٨٣م، عاد صلاح الدين إلى فرض الحصار على حلب. وفي المدينة كان ابن أخي نور الدين، عماد الدين زنكي، فقد شهيته في القتال طويل المدى؛ كان يحكم سنجار ذات مرة وها هو يسعى للعودة إلى هناك. ولهذا لم يعارض البدء في مفاوضات سرية مع معسكر صلاح الدين، وأعلن في أثناء ذلك أنه على استعداد لمبادلة حلب بسنجار؛ ولهذا، اندهش الناس عندما فتحت حلب أبوابها صلحًا يوم ١٢ يونيو أمام صلاح الدين، وأرسل الحلبيون أميرين للتفاوض، كان أحدهما عز الدين جرديك، الذي كان مسجونًا

ذات مرة في حلب، وهناك نقطة مثيرة في الاتفاق تمثَّلت في قرار صلاح الدين بأن يعين بدلًا من القاضي الحنفي والخطيب الحنفي اثنين من الشافعية، وكان هذا تصرفًا غير مألوف من صلاح الدين، الذي لم يتدخل عادة في مثل هذه الأمور، وربما كان لهذا علاقة بالمساندة التي لقيها الشيعة في المدينة. وفي اليوم التالي، ١٣ يونيو، تقابل عماد الدين زنكي أخيرًا مع صلاح الدين وجهًا لوجه، واستقبله صلاح الدين استقبالًا رائعًا، وفي أثناء هذا الاستقبال جاءت الأنباء إلى صلاح الدين بأن أخاه بوري تُوفِّي بسبب جرح أصابه في مناوشات مع قوات حلب، ولكن صلاح الدين لم يظهر أي تعبير ولم يحدث ما يعكر الاستقبال، وأظهر لعماد الدين كرمه المعهود وسمح له أن يأخذ معه كل ما في مخازن القلعة مما يمكن حمله، وكان أحد الشروط أن يأتي عماد الدين زنكي بقواته عندما يقاتل صلاح الدين الفرنج، وكان كرم صلاح الدين الذي كسب أهل حلب إلى جانبه وخصوصًا مماليك نور الدين الذين انضموا إلى خدمته حينذاك. كانت حلب بالنسبة إلى صلاح الدين عين الشام ـ وعلى الرغم من افتقاره إلى المال، الذي جعله يرسل طلبات عاجلة إلى مصر ـ فقد كان راضيًا، لأنه كسب حلب بثمن زهيد ومن دون خسارة كبيرة، على الرغم من حزنه لموت أخيه.

احتاج الأمر إلى تسع سنوات أمضاها صلاح الدين في القتال للاستيلاء على حلب، وهي مدينة تباهى ذات يوم بأنه سوف يحلبها. وكان آل زنكي قد قاوموا تقدم الأيوبيين وأرسلوا الحشاشين مرتين لقتل صلاح الدين. ولكن حلب لم تستطع أن تقاوم حركة صلاح الدين وضغطه؛ فقد أنفق المال بسخاء ليكسب الأمراء إلى جانبه، وكتب إلى الخليفة في دأب ومثابرة، مجادلًا بأنه من دون حلب والموصل لا يمكن القيام بالجهاد على الوجه الأكمل، وسواء اعتقد حقًّا أن هذه هي القضية أو لا فإن ذلك لم يكن يقلل من حقيقة أنه ثابر على الدعوة لذلك. وسقطت حلب سلمًا ـ وهي شهادة على مهارات صلاح الدين الدبلوماسية ـ وكانت هذه نقطة حاسمة؛ لأن صلاح الدين لم يكن قادرًا على تحمل استدراجه في حصار طويل، ولا كان بوسعه أن يقبل صراعًا دمويًّا يسقط فيه مساعدو نور الدين، لأنه بحاجة إلى أولئك الرجال. وكان محظوظًا أن حلب كانت تحت حكم عماد الدين زنكي، وكانت حياته العملية سلسلة من الإخفاقات[٢٥]. وكان يطمح في العبور إلى غرب الفرات ليثبت قدراته على فرض نفسه هناك. واستشاط الحلبيون غضبًا نتيجة خيانة عماد الدين زنكي لمدينتهم، وشاعت في تلك الأيام أغنية شعبية عن

حمّار باع الحليب مقابل اللبن الرائب. لكن الحلبيين تجارٌ واستطاع صلاح الدين أن يخفف من غضبهم بسرعة؛ بكرمه في توزيع الأموال وسلوكه التصالحي. ويجدر بنا أن نلاحظ أنه صدرت تعليمات صارمة إلى الشيعة بالكفّ عن سبِّ الخلفاء الراشدين. خسر صلاح الدين أحد إخوته ليكسب المدينة، لكنه صار في وضع قوي للغاية؛ لأن جيوش حلب ودمشق ومصر توحدت خلفه، وكادت الحلقة أن تكتمل حول الفرنج. كان قرنا الهلال الإسلامي - مصر وشمال الشام - في القبضة القوية لصلاح الدين. تحققت الوحدة الإسلامية بعد قرن من التشرذم، وكانت دلائل المستقبل تنذر الفرنج بسوء[٢٦].

الفصل العاشر

الإبحار قرب الكارثة
مرض صلاح الدين في حران

لأن الأمور لا تجري على هوى البشر، وما ندري ما بقي من عُمرنا.

صلاح الدين

كان صيف ١١٨٣م وقتًا عصيبًا على المملكة اللاتينية، فما إن رجع صلاح الدين إلى دمشق بعد استسلام حلب حتى بدأ يحشد قواته. وفي الوقت نفسه، تدهورت صحة «بلدوين» حتى لزم الفراش، مع أنه حين عرف أن صلاح الدين حشد جيشه جنوب دمشق، دعا جميع الأعضاء الكبار: «ريمون» أمير طرابلس، و«رينالد دي شاتيون»، و«بلدوين دي إبلين»، إلى اجتماع عاجل. وبطبيعة الحال استدعى «جاي لوزنيان»، وكان يبدو وريث عرش المملكة بعد زواجه من أخت «بلدوين»، وقد عينه «بلدوين» وصيًّا على العرش وقائدًا أعلى، مع أنه كان محل استياء عميق من جانب البارونات، وكان الخطر الماثل من جانب صلاح الدين كبيرًا فطلب المساعدة من مستعمرة جنوا ومستعمرة بيزا على الساحل، واستجابتا بإرسال قوات. واستُدعي الحُجاج، وجُهِّز كل الرجال القادرين جسديًّا للقتال. وفي ٢٩ سبتمبر عبر صلاح الدين نهر الأردن وهاجم بيسان، التي وجدها مهجورة، وعلى مدى الأيام الثمانية التالية كان الجيشان يراقبان أحدهما الآخر، واستمر المسلمون في التحرش بالجيش الصليبي واستفزازه ليشتبك معهم، ولكن «جاي» كبح جماح قواته بشدة ولم يستجيبوا للاستفزاز، واكتفى المسلمون بشن هجمات بالسهام، وحافظ الفرنج على إحاطة فرسانهم بسياج من المشاة لحماية خيولهم من سهام المسلمين. وفي صبر كان صلاح الدين يستطلع وينتظر الفرصة المواتية إذا ما ارتكب أعداؤه خطأ وقاموا بالهجوم.

ولاحظ عماد الدين الأصفهاني أنهم كانوا يوميًّا يتوقعون أن يخرج الفرنج للقتال مندفعين إلى المعركة كالعادة، ولكنهم رفضوا في عناد أن يبتلعوا الطعم وحافظوا على نظامهم، وعندما اقترب أمراء صلاح الدين منه وأبلغوه بنفاد مؤنهم بعد أسبوع من المناوشات أنهى صلاح الدين الحملة.

وعند النظرة الأولى يبدو أنه لم يحدث شيء جوهري، والحقيقة أنه تم إرساء قاعدة صارت لها أصداء عميقة وكارثية في النهاية على المملكة اللاتينية؛ فمع عجز «بلدوين» تولى «جاي» قيادة الجيش - أكبر جيش جمعه الفرنج كما لاحظ «وليم الصوري» - وبقي في وضع دفاعي مما أتاح لصلاح الدين أن يخرب الأراضي التي يحتلها الصليبيون من دون رد. وأثارت هذه الإستراتيجية الاحتوائية النقد من جانب بعض الفرنج الذين اتهموا «جاي» بالجبن وأصروا على أنه كان يجب أن يشن الهجوم. وعلى أية حال، كانت الغيرة مبعث هذه الاتهامات، ولم تكن أحكامًا عسكرية صحيحة، وكان «جاي»، بالنسبة إلى منتقديه، يبدو رجلًا أحمق متغطرسًا وسيم المظهر وفاسدًا ماجنًا[1]. والواقع أن «جاي» تصرَّف باقتدار. والحقيقة أن جيشًا مسلمًا ضخمًا غزا الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون، ولكنه لم يحقق أي مكاسب على الأرض، ولم يتكبد الفرنج أي خسائر. وكانت مشكلة «جاي» أنه لم يكن بوسعه أن يعول على مساندة بعض زعماء الصليبيين، الذين كانوا مستعدين لأن يروه وقد أخفق، لأنهم كانوا يخشون من أن يقوي مركزه أي نصر يحرزه. ومن المُسلَّم به أنه كانت هناك بعض مشكلات التموين والإمداد التي أوصلت الجيش الفرنجي إلى درجة اقتربت من الهلاك جوعًا، ولكن على العموم قاد «جاي» حملة كما تقضي الأصول، متبعًا إستراتيجية دفاعية ناجحة في إطار الحد الأدنى من المخاطرة[2]. وكل ما كان على «جاي» أن يفعله ليكسب أن يُبقي على نظام جيشه، بل إن صلاح الدين نفسه اعترف بأن الفرنج اتبعوا إستراتيجية عسكرية ناجحة، لم يستطع كسرها، ولو اتبعت الإستراتيجية الدفاعية نفسها بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ لكان من الممكن تجنب الهزيمة الساحقة التي لحقت بالفرنج في حطين.

عاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن عبر نهر الأردن، حيث أصدر تعليماته إلى العادل بترك مصر وتولِّي حكم حلب، وأرسل تقي الدين ليتولَّى مكانه في مصر، وفي الوقت نفسه شُفي «بلدوين» بدرجة طفيفة وعاد إلى القدس حيث عزل «جاي» عن الوصاية على العرش واستأنف ممارسة سلطاته. ومع أن «جاي» تلقَّى سهام النقد بسبب حملته العسكرية، فإن

النزاع بينه وبين الملك لم يكن متعلقًا بهذه المسألة، ولا يهم إن كان عزل «جاي» والحط من شأنه على يدي «بلدوين» متعمَّدًا وعلنيًّا، فقد عيَّن الملك حينذاك ابن أخيه «بلدوين الخامس» الصبي وريثًا له، وعيَّن «ريمون» أمير طرابلس ـ وكان معارضًا عنيفًا لـ«جاي» ـ وصيًّا على العرش. وأخذت العلاقة بين «بلدوين الرابع» و«جاي» تتدهور باستمرار، بل حاول «بلدوين» إبطال زواج أخته منه؛ حيث استدعى «جاي» عدة مرات باعتباره تابعه للمثول بين يديه في القدس، وفي كل مرة ينتحل «جاي» عذرًا متعللًا باعتلال صحته، ومن ثَمَّ فإنه بحسب المتبع في بيت المقدس، حُمِل الملك العليل في محفته إلى عسقلان ليطلب حضور «جاي» إليه[٣]، ولكنه وجد بوابات المدينة موصدة في وجهه. واضطر «بلدوين» إلى أن يأمرهم بحمله إلى البوابات ليطرق الباب طالبًا الدخول، ولكن «جاي» تحدَّاه وبقيت البوابات مغلقة في وجهه، وانتاب «بلدوين» غضب شديد جعله يسعى إلى تجريد «جاي» من ممتلكاته؛ لأن مثل هذا التحدي العلني لا يمكن القبول به، ولكن يبدو أنه لم يتخذ أي إجراء أكثر من هذا، واستمر «جاي» يملك عسقلان من دون إزعاج.

بحلول نهاية أكتوبر ١١٨٣م غادر صلاح الدين دمشق. وفي هذه المرة كانت وجهته الكرك، حيث يُحتَفل بزواج «همفري الرابع» أمير تورون من أخت «بلدوين» غير الشقيقة، ومن المؤكد أن صلاح الدين كان على علم بهذا، وكان هجومه على حصن الكرك مخططًا بحيث يجيء متزامنًا مع هذه الاحتفالات، وكان الكرك والشوبك الذي يقع على مسافة نحو مائة كيلو متر إلى الجنوب ـ معقل «رينالد دي شاتيون» ـ مصدر خطر على الطريق ما بين مصر وبلاد الشام ما لم يكن العبور على هذه الطريق مصحوبًا بحامية عسكرية قوية. وسرعان ما كان صلاح الدين يحيط بالحصن، وأخذت سبعة مجانق تدكه بقذائفها ليلًا ونهارًا. وبصورة سريالية كانت تجري مراسم الزواج داخل الحصن الذي يعج بالفنانين والممثلين. وتمضي القصة لتقول إن أم «همفري التوروني» أرسلت طعامًا من مأدبة الزفاف إلى صلاح الدين، ولأنه كان حريصًا على ألا يضاهيه أحد في المروءة والشهامة، فقد سأل عن المكان الذي يجري فيه الزواج، ثم أصدر تعليمات مشددة بعدم قذفه حتى لا يفزع الزوجان الجديدان. وفي الحقيقة لم يضغط صلاح الدين لانتهاز هذه الفرصة، ولم يلبث أن رفع الحصار. وعلى أية حال، كان في الكرك لسبب آخر؛ كان ينتظر قافلة من مصر يقودها العادل في طريقه لتولي مسؤولياته في حلب. وعلى أية حال، فإن «بلدوين» الذي حال مرضه الشديد بينه وبين الركوب حُمل على محفة المرض،

وفي الحال قاد جيشه لنجدة الكرك، وحينذاك كان صلاح الدين قد عاد إلى دمشق التي وصلها في ديسمبر ١١٨٣م.

ومع حلول ربيع ١١٨٤م عاد صلاح الدين إلى الهجوم ثانية، وللمرة الأولى نرى فوائد حملاته التي لم تكن تنتهي في الشمال؛ لأن قوات حلب تحت قيادة العادل انضمت إليه كما انضم إليه الجيش المصري بقيادة تقي الدين. كذلك انضم إليه الأمراء القادمون من شرق الفرات، وأشهرهم أخ آخر لعز الدين أمير الموصل. وحتى لا تفوت الفرصة على ماردين وسنجار أرسلا قواتهما أيضًا. ومن الواضح أن صلاح الدين لم يكن في عجلة من أمره، ولم يصل إلى الأراضي التي يسيطر عليها الفرنج حتى بداية يوليو، وهناك واصل الإغارة عليها حتى تجمَّع الجيش أخيرًا عند الكرك في منتصف أغسطس ١١٨٤م. ونصبت تسعة مجانق قبالة أسوار الحصن وتسببت في دمار هائل. وعندما وصلت الأنباء إلى القدس جُمِع جيشٌ، وحُمل الملك على محفة لأنه لم يكن قادرًا على الركوب. وأدى اقتراب الفرنج إلى رفع الحصار عن الكرك، ثم تحرك صلاح الدين مسافة خمسة وستين كيلو مترًا شمال «حُسبان» حيث اتخذ موقعًا يسد الطريق أمام أي تقدم للفرنج، ثم انتظر ليرى إن كان الفرنج مستعدين للاشتباك معه في المعركة. ولكن عندما لم تبدُ منهم أي إشارة لهذا، وكان يعلم أن قواتهم كلها في الكرك، عرف أن بوسعه نهب الأراضي التي يسيطر عليها الفرنج كما يشاء. وشن غارات على نابلس وجنين وسبتية في تتابع سريع، مع الاستيلاء على غنائم وأخذ أسرى. وبعد ذلك مباشرة، في منتصف سبتمبر ١١٨٤م، عاد صلاح الدين إلى دمشق وصرف جيشه.

موت «بلدوين الرابع»

مع بداية سنة ١١٨٥م كان واضحًا أن «بلدوين الرابع» يُعاني سكرات الموت، وقد رُتِّبت الأمور لتكون ولاية العرش من بعده لابن أخيه «بلدوين الخامس» ـ الذي يُعرف باسم «بودوانت» (بلدوين الصغير) ـ وكان قد رُسم ملكًا مساعدًا في السنة نفسها. وفي يوم موته جمع «بلدوين» الرابع أتباعه الإقطاعيين للمرة الأخيرة لوداعهم، وقد اشتد عليه المرض وأُصيب بالعمى وبات مسخًا عاجزًا. عاش ثلاثًا وعشرين سنة فقط، وحكم إحدى عشرة سنة، وفي ١٦ مايو ١١٨٥م مات «بلدوين الرابع» بعد أن قاسى آلامًا تفوق الاحتمال، ودُفن بالقرب من أبيه في معبد الملوك اللاتينيين في كنيسة الضريح المقدس

عند سفح جبل الجمجمة؛ أقدس الأماكن بالنسبة إلى العالم المسيحي، وهو المكان الذي ناضل من أجل الدفاع عنه طوال عهده[٤]. وعلى الرغم من المرض الرهيب الذي عاني منه «بلدوين» فقد تحلَّى بصبر هائل. وطوال حياته كان بالمرصاد لصلاح الدين؛ إذ كانت كل هجمة من جانب المسلمين تواجه جيشًا صليبيًّا، وتحت قيادته أجهض الفرنج محاولات صلاح الدين للإحاطة بهم. برهن «بلدوين» على أنه ندٌّ لصلاح الدين، لا في مسرح انتصاره الكبير عند تل الجزرة فحسب، وإنما طوال عهده القصير الحافل بالآلام. ووقع الاختيار على «ريمون» أمير طرابلس وصيًّا على «بلدوين الخامس» الصغير، الذي أرسل في الحال رسالة إلى صلاح الدين يطلب هدنة. ومما يثير الدهشة إلى حد ما أن صلاح الدين وافق، لأنه كان متشوقًا إلى عبور نهر الفرات، حيث عاود عز الدين أمير الموصل حيله القديمة، وكان قد تحالف مع البهلوان أمير أذربيجان وشاه أرمن أمير خلاط، وبات يهدد الأراضي التي كسبها حديثًا. وفي سنة ١١٨٢م عبر صلاح الدين نهر الفرات من دون أن يشغل باله بهدنة، ولكن في هذه المرة ساد الحذر وتم ترتيب هدنة عامة، وكان أحد أسباب هذه الهدنة أنه كان مدركًا أن البطريرك «هيراكليوس» ـ وهو قس تباهى على الملأ بعشيقته المعروفة باسم «البطريركة»[٥] ـ أرسل من بيت المقدس إلى الغرب طالبًا النجدة العسكرية بصورة عاجلة. وفي ربيع ١١٨٥م غادر صلاح الدين دمشق في حملة توقَّع أنْ تستمر أسابيع قليلة، ولم يرجع حتى مايو ١١٨٦م، وفي أثناء ذلك وصلت حياته إلى أدنى درجاتها.

وكما سبق القول، غادرت سفارة جديدة بيت المقدس لطلب المساعدة من أوروبا. كان المبعوثون من أعلى شريحة؛ بغض النظر عن «هيراكليوس» بطريرك بيت المقدس تضمنت السفارة أيضًا قائدي الداوية والإسبتارية، وسافرت السفارة أولًا إلى البابا ثم واصلت رحلتها إلى فرنسا، حيث قدمت إلى «فيليب أوغسطس» مفاتيح بيت المقدس والضريح المقدس، وبسرعة رفض «فيليب» هذا العرض، وبقدر ما سمحت الظروف الدبلوماسية وضعهم على السفينة المتجهة إلى إنجلترا، وجاء «هيراكليوس» الذي غالبًا ما تم تصويره شخصًا يبعث على السخرية، يتباهى علنًا بعشيقته، إلى إنجلترا مستعرضًا الكثير من الذهب والفضة والعطور الفوَّاحة التي تعطَّر بها ـ وهو ما كان بالنسبة إلى الإنجليز لا يدل على الزهد أو التقشف. لكنه لم يكن أحمق؛ بمجرد أن هبط على أرض إنجلترا حج إلى مقبرة «توماس بيكيت»، وكانت هذه حركة متعمَّدة قصد بها إحراج «هنري»؛

لأنه كانت قد مرَّت ثلاث عشرة سنة على اغتيال «بيكيت»، فماذا فعل «هنري» من أجل القدس تكفيرًا عن خطاياه؟ كان «هيراكليوس» يحمل رسالة مقصودة حتى وهو في زينته المسرفة. وعلى مدار السنين منح «هنري» مبالغ طائلة للمملكة اللاتينية، ولكن يبدو أنه لم يسمح لأحد بإنفاقها. والواقع أنه احتفظ بحق استرداد أمواله كلها من الشرق في أي وقت يشاء، وقيل إن حسابه الشرقي بلغ ثلاثين ألف مارك من الفضة سنة ١١٨٧م. وظل يعِد بأن يقوم بحملة صليبية، كما استمر في إرسال المال، ولكنه بقي مجمدًا ـ كان بُخل «هنري» نقيضًا لكرم صلاح الدين. وبحلول سنة ١١٨٢م، عندما كتب «هنري» وصيته في «ولتهام»، بلغ حسابه الشرقي من الضخامة حدًّا جعل من الضروري وضع معايير لضمان إدارته على نحو صحيح. بهذا المعنى كانت زينة «هيراكليوس» محسوبة؛ إذ إنه قال موبِّخًا عندما فرغ صبره من مراوغات «هنري»: «نريد أميرًا لا أموالًا؛ لأننا نتلقَّى الأموال من كل مكان، ولكننا لا نجد أميرًا». وجاء فشل بعثة «هيراكليوس» لطمة كبرى لمملكة بيت المقدس اللاتينية، ولكن هذا الفشل خلَّف أثرًا حميدًا وحيدًا؛ كان برهانًا قاطعًا على أن «هنري» لا ينوي القيام بحملة صليبية. ولكن، ماذا عن الثروة الطائلة التي تراكمت في القدس؟ وماذا يفعلون بها؟

زَحفُ صلاح الدين إلى الموصل

في الوقت نفسه، عبر صلاح الدين نهر الفرات في محاولة أخرى لإخضاع الموصل، ومنذ البداية شجعته وفاة شاه أرمن، ولكن طالما كانت الموصل تقاوم وتلقى المساندة من البهلوان أمير أذربيجان، فإن صلاح الدين سيكون غير قادر على كسر حالة الجمود. وفي هذه الفترة نشهد علامات واضحة على التباعد بين القاضي الفاضل وصلاح الدين، وكان من الواضح أن القاضي الفاضل لم يوافق على عودة صلاح الدين لحصار الموصل ـ وكتب ذات مرة يمتدح مياه النيل ويفضلها على ماء الفرات ـ لكن صلاح الدين آثر أن يتجاهل كلماته، وكان في ذهن القاضي الفاضل أن صلاح الدين سمح لنفسه بالتشتت وضاع منه مشهد الجهاد. وفي إحدى رسائله كتب إلى عماد الدين الأصفهاني قائلًا إنه ما زالت هناك أشياء لم يشر إليها ولم يذكرها عن حقيقة أن جميع الوسائل غير قادرة على تحقيق الغاية. ومن مصر أرسل محذرًا صلاح الدين من أن يُضجر الخليفة بالرسائل والطلبات قائلًا إن مياه النبع يجب أن يسمح لها بأن تفيض ـ علامة على إحباطه وخيبة

أمله. وكتب يقول إنه ينوي الذهاب إلى الحج وتلقَّى ردًّا غير مشجع، وفكَّر حتى في الاستقالة وترك خدمة صلاح الدين. ماذا أوصل القاضي الفاضل إلى هذا القرار غير العادي؟ كان على مدى ما يزيد على خمسة عشر عامًا يقف إلى جانب صلاح الدين لدرجة أنه ربما كان أهم ثاني رجل في البلاد، وكرر صلاح الدين عبارته: «إنني لم أفتح البلاد بسيفي، وإنما بقلم القاضي الفاضل». وكان يستمع باهتمام إلى القاضي الفاضل ونصائحه؛ لا في الأمور السياسية والإدارية فقط، وإنما في الشؤون العسكرية أيضًا. ومع ذلك تزايد الابتعاد من جانب القاضي الفاضل، ولا شك في أن مغامرة صلاح الدين في الموصل كانت السبب في هذا.

ماذا كان صلاح الدين يفعل في الموصل على وجه الدقة؟ حتى الذين كانوا الأقرب إليه من غيرهم لم يعرفوا، واستمر هو نفسه في الإصرار على أنه بحاجة إلى قوات الموصل للجهاد، وكتب ذلك في رسائله إلى الخليفة، لكن كلماته لم تكن مقنعة، ومن المؤكد أن طموحاته الشخصية وتطلعه إلى بناء أسرة حاكمة كانت تلعب دورها، فقد كان صلاح الدين ينشئ إمبراطورية لنفسه ولعائلته، وتجاوزت ممتلكاته بالفعل ما فتحه نور الدين من أراضٍ، ومن يدري ما وراء الموصل - جورجيا، والقسطنطينية والأناضول وحتى بغداد. وفي الوقت نفسه، ربما أحس براحة أكثر في رحاب الموصل؛ كان في نهاية الأمر كرديًّا ولم يكن شاميًّا أو مصريًّا. ومن المثير أن نلاحظ أن الرجلين اللذين أصرًّا على متابعة طموحاته تجاه الموصل كانا عيسى الهكاري والمشطوب، وكانا من الأكراد من إقليم هكاري القريب. ونحن ببساطة لا نعرف ماذا كان يدور بخلد صلاح الدين، لكن يمكن أن نجزم بأن الطموح الشخصي والعائلي كان موجودًا، بالنسبة إلى صلاح الدين، إلى جانب الأهداف الخُلقية والأدبية؛ جاهد في مصر لتأسيس مؤسسات الإحياء السُّني بإخلاص شديد، وفي هذا الصدد برهن على أنه رجل عصره، ومما سبب الإحباط للعلماء أن طموحاته شرق الفرات حينذاك تؤكد على أنه رجل زمانه حقًّا.

مرض صلاح الدين

ثم سقط صلاح الدين مريضًا في ٣ ديسمبر ١١٨٥م وانسحب إلى حران، ونتيجة لهذا كان لا بد من رفع الحصار عن الموصل وتفرق جيشه. وفي البداية، لم يُقدِّر القاضي الفاضل خطورة الموضوع، والتمس العذر لعدم السفر إلى صلاح الدين لرؤيته، واتضح

بسرعة أن المرض كان خطيرًا، وأن حياة صلاح الدين في وضع حرج، وحينها كتب القاضي الفاضل رسالة عاجلة إلى عماد الدين الأصفهاني لينقل صلاح الدين إلى حلب بأسرع ما يمكن؛ لأنه كان يخشى من الاضطراب الذي قد ينشب إذا ما قُدِّر له أن يموت. وفي يناير ١١٨٦م تُوفِّيت زوجته عصمة الدين خاتون، وصدرت تعليمات صارمة بإخفاء الخبر عنه، وأُرسِل الأطباءُ بصورة عاجلة إلى حران، وفي فبراير ١١٨٦م تفاقم المرض، ولم يعد بوسع صلاح الدين أن يجلس، وكان يعي ما حوله بصعوبة. وأخذ عماد الدين الأصفهاني وصية صلاح الدين الأخيرة وشهادته؛ لأن الخوف تملَّكهم من أنه على مشارف الموت، وانتشرت أنباء مرض صلاح الدين بسرعة من الموصل حتى القاهرة، ووقع الناس في قبضة الإحساس بالانزعاج والقلق؛ وذلك لأن أحدًا لم يكن متأكدًا مما تنجلي عنه الأمور. واندفع العادل من حلب ـ على مسافة مائتي كيلو متر تحفل بالأخطار في الشتاء ـ ومعه طبيبه الخاص، وكان أخو صلاح الدين الآخر، طغتكين، بعيدًا في اليمن، وكان السؤال على شفاه الجميع عن خليفة صلاح الدين؟ كان ابنه الأكبر، الأفضل، في الخامسة عشرة من عمره في مصر تحت وصاية تقي الدين، ولكن هل كان تقي الدين، الذي ذاق السُّلطة في مصر وعرف ثروتها، قادرًا على أن يتخلَّى عنها ويكتفي بأن يكون وصيًّا؟ في لحظة من لحظات التعقل حاول صلاح الدين أن يجعل أمراءه يبايعون ابنه، ولكن هذه المحاولة لم تثمر؛ لأن مَن كانوا على استعداد لهذا قلة. وقبل سنوات قليلة، كان هناك صبي، هو الصالح بن نور الدين، عجز عن أن يمسك بزمام ما بناه أبوه، وفي تلك الآونة كان واضحًا أن صبيًّا آخر لن يرقى إلى مستوى المهمة. وإذا كان لدى صلاح الدين أي أوهام بأن يتناسى أقاربه اختلافاتهم فقد علمه مرضه الطويل بالحمى في حران غير ذلك(٦).

صلاح الدين والقاضي الفاضل: عهود متجددة

ولا غرابة في أن كلًّا من القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني رأيا مرض صلاح الدين من منظور العناية الإلهية، ولذلك ما إن بدأ يتعافى ببطء، حتى عقدا العزم على ألا يدعا الفرصة تفوت منهما. وفي لطف أدب عماد الدين الأصفهاني بادر بقوله إن المرض الذي أرسله الله كان لمحو الذنوب ولانتشاله من غفلة النسيان، وأحاطه بالوعاظ والفقهاء على الرغم من أن صلاح الدين اعترض على وجود الفقهاء لأنه تعب من مجادلاتهم. وكان القاضي الفاضل أكثر مباشرة: عندما عاد صلاح الدين إلى دمشق

وكان في فترة النقاهة، زاره وحثَّه على أن يقسم ويعاهد الله على أنه إذا ما شُفي لن يحارب المسلمين ثانية، وسوف يكرس نفسه للجهاد. وحينذاك أخذ صلاح الدين بيد القاضي الفاضل وكرر العهد، مضيفًا أنه سوف يذبح «رينالد دي شاتيون» أيضًا. وبهذا التماسك الرمزي للأيدي تجدد الحلف بين العالِم والعسكري. ومنذ خريف ١١٧٤م قضى صلاح الدين ثلاثة عشر شهرًا يحارب الفرنج وثلاثة وثلاثين شهرًا يحارب المسلمين(٧). لكنه لم يقم بحملة شرق الفرات مرة أخرى، وفي غضون سنة من شفائه انهارت المملكة اللاتينية واستُرِدَّ بيت المقدس.

وكان القاضي الفاضل قد انتقد الهدنة التي عقدها صلاح الدين مع «ريمون» أمير طرابلس؛ لأن صلاح الدين لم يكن مضطرًا بأي شكل لعقدها. والحقيقة أن الهدنة خدمت صلاح الدين جيدًا؛ لأن الفرنج في أثناء مرضه، ودمشق معرضة للهجوم، احترموا الهدنة. ولهذا عندما وصل الفرسان الذين استجابوا لـ«هيراكليوس» إلى فلسطين للقتال، لم يسمح لهم بهذا. تحسَّنت صحة صلاح الدين، وتحسَّن حظه أيضًا. مات البهلوان أمير أذربيجان ـ حليف الموصل ـ في الأشهر الأولى من سنة ١١٨٦م، وبموته فقدَ عز الدين أمير الموصل حليفه ووجد نفسه معزولًا، وكان الوقت مناسبًا للتقارب والتصالح مع صلاح الدين. وكان رسول الموصل إلى صلاح الدين هو بهاء الدين بن شداد الذي كتب: «فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت فندبوني لهذا الأمر». وصدر الأمر لابن شداد بالتفاوض لعقد اتفاق. ومن الأمور ذات المغزى أن الأمر انتهى به إلى الدخول في خدمة صلاح الدين قاضيًا وكاتبًا لسيرته. وفي يوم وقفة عرفات أقسم صلاح الدين أخيرًا القسم الذي أرسى السلام بينه وبين الموصل، وكان ابن شداد هو الذي أشرف على أداء اليمين، وهو أيضًا الذي جعل العادل يقسم اليمين. والوفد الموصلي يَهمُّ بالمغادرة، وصلت الأخبار إلى صلاح الدين بوفاة محمد بن شيركوه. وبما أن صلاح الدين ما زال في مرحلة حرجة من مرضه بحيث لا يستطيع أن يجلس فترة طويلة، جلس العادل لتقبل العزاء. وكانت الاتفاقية ـ التي عقدت في ٤ مارس ١١٨٦م ـ قد أرغمت عز الدين على الاعتراف بصلاح الدين سيدًا له، وأن يمده بقواته ضد الفرنج. ورد صلاح الدين بكرمه المعتاد ليؤمِّن وضع عز الدين. وبهذا الاتفاق حقق صلاح الدين أخيرًا ما كان يسعى لتحقيقه منذ سنة ١١٧٤م: حقق كلًّا من الحد الأدنى من أهداف حملته وأحد الأهداف الكبرى لعهده(٨). وعلى الرغم من مرور

اثنتي عشرة سنة، فقد اتفقت في النهاية الموصل وحلب ودمشق والقاهرة على تقديم القوات، واكتملت الدائرة حول الفرنج.

وبحلول نهاية مايو ١١٨٦م عاد صلاح الدين إلى دمشق وتلقى نبأ موت «بلدوين الخامس» الصغير، الذي مات في عكا. وتسبب موته ـ وكان مفاجئًا لكنه متوقَّع؛ لأنه كان طفلًا سقيمًا ـ في تشوب أزمة بالمملكة. وكان معنى هذا الموت صعود «جاي لوزنيان»، وكان الوريث الشرعي بسبب زواجه من أخت «بلدوين الرابع». ومع ذلك انقسمت الآراء: على الرغم من الاتفاق على أن «سيبيلا» صاحبة الحق في اعتلاء العرش، وبناء على ذلك يجب أن يكون «جاي» الملك، شعر البعض الآخر أنه غير مناسب، لأن «بلدوين الرابع» حاول بدأب شديد أن يمنعه وأن يبطل زواجه من أخته[٩]. وأخيرًا وبعد جدال، تم تتويج «سيبيلا» و«جاي»، على الرغم من رفض «ريمون» أمير طرابلس حضور مراسم التتويج، وذهابه إلى طبرية. ورفض أيضًا «بلدوين دي إبلين»، وكان يمقت «جاي»، أن يقسم يمين الولاء للملك الجديد وغادر المملكة ليدخل في خدمة «بوهيموند» أمير أنطاكية. وكان صلاح الدين دائمًا على علم تام بالأحداث الجارية في المملكة الصليبية، ويتابع عن كثب الأحداث التي أعقبت موت «بلدوين الخامس».

لكن ما حدث بعد ذلك جاء مفاجئًا؛ عندما رفض «ريمون» أمير طرابلس أن يقسم يمين الولاء لـ«جاي»، أصر الملك على الزحف إلى طبرية لمواجهته. وانزعج «ريمون» إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن الأحداث التالية ليست واضحة، يبدو أنه اتصل بصلاح الدين ـ عن طريق ابن أخيه تقي الدين ـ ووافق على عقد الصلح مع المسلمين، وأدى هذا إلى انسحاب قوات «جاي»؛ لأنه لم يكن مستعدًّا لمحاربة صلاح الدين ومملكته منقسمة بشدة[١٠]. وعلى أية حال، كانت الهدنة قائمة، مع أن مدتها تنتهي في عيد الفصح سنة ١١٨٧م. واحتار المؤرخون أمام سبب اختيار «ريمون» الاقتراب من صلاح الدين؛ فمع أنه لم يقسم يمين الولاء لـ«جاي»، الذي رأى فيه محدث نعمة وغاصبًا، كان مدينًا بالولاء للمملكة، وبسماحه لقوات صلاح الدين أن تعسكر في طبرية كان يخون رفاقه من الفرنج[١١]. وبوصفه مستوطنًا من الجيل الرابع فيما وراء البحار (فلسطين والشام)، كان يتحدث العربية بطلاقة، وكان له كثير من الأصدقاء المسلمين، بل إن عماد الدين الأصفهاني وصل إلى حد الكتابة أنه لو لم يكن خائفًا من رفاقه النصارى لاعتنق الإسلام. وإذ كان معتادًا على اللعبة السياسية التي تجري في بلاد الشام لعقود، فربما افترض أن

صلاح الدين سوف يدعم مطالبه بالملكية. وما لم يفهمه ـ حتى بعد فوات الأوان ـ أن صلاح الدين لم يكن يقصد اللعب سياسيًّا. وأفضل ما يمكن قوله عن «ريمون» أنه كان قصير النظر؛ لأنِ صلاح الدين كان، وهو حليف، أشد خطورة من «جاي» وهو عدو[١٢]. وفي البداية تشكك صلاح الدين في أن تكون خدعة، ولكنه رأى بسرعة إمكانية انقسام قوات الفرنج. ومن ثَمَّ أطلق سراح عدد من فرسان «ريمون»، الذين كانوا أسرى لديه، ردًّا على تقارب «ريمون».

وفي شتاء ١١٨٦م، مع اقتراب نهاية الهدنة، هاجم «رينالد دي شاتيون» قافلة في الطريق من القاهرة إلى دمشق، وعلى العكس من الاعتقاد الذي شاع على مرِّ السنين، لم تكن أخت صلاح الدين في القافلة، ومع هذا كان تصرف «رينالد» صادمًا. وفي الحال احتج صلاح الدين لدى «جاي» على هذا الانتهاك للهدنة. وطلب صلاح الدين إطلاق سراح الأسرى جميعًا وإعادة كل الممتلكات التي نهبها. وطلب «جاي» من «رينالد» رد الحقوق لأصحابها، ولكن «رينالد» رفض؛ زاعمًا أنه ملك في أرضه مثلما «جاي» ملك في أرضه، ولا تربطه هدنة مع صلاح الدين. والحقيقة أن «رينالد» اختار، في الوقت الذي كان الصليبيون في أدنى قدراتهم لمحاربة المسلمين، أن يخرق الهدنة، وبدا تصرفه بلا معنى واستفزازًا متعمَّدًا، وغالبًا ما تم تصوير «رينالد» في صورة «الولد الشقي» في الدراما التي كانت تجري، لكن الحقيقة كانت أكثر تعقيدًا وربما كانت هناك درجة من المهارة السياسية في تصرفات «رينالد»[١٣]. وظهر بشكل واضح أن صلاح الدين لا ينوي تجديد الهدنة، وكانت تنتهي في عيد الفصح سنة ١١٨٧م. عاد من مرضه عاقدًا العزم على أن يحارب ـ كما حلف وأقسم للقاضي الفاضل ـ وحينذاك كان يُحشَد جيش بصورة متأنية مع القوات القادمة من مصر والشام وبلاد الرافدين. وليس هناك قائد مسلم تعيه الذاكرة جمع مثل هذه القوة الكبيرة. ولا شك في أن «رينالد» أدرك هذه الحقيقة، وكان ينوي البدء بالضرب، وربما افترض أن صلاح الدين كان يستغل السلام لتحريك القوات عبر الأراضي التي يسيطر عليها الفرنج، واعتبر هذا انتهاكًا للهدنة[١٤]. ولا شك في أن الاستيلاء على القافلة كان صدمة لصلاح الدين، والحقيقة أن الحرب كانت على وشك أن تُستأنف من جديد، وقد فهم كلٌّ من الجانبين هذا. وعلى أية حال، كان «ريمون» أمير طرابلس هو الذي اتفق مع صلاح الدين على الهدنة، وكان «رينالد» يمقته ويعتبره خائنًا، كذلك لم ير «رينالد» في خرق الهدنة عملًا من أعمال الخروج على سلطة حاكم بيت

المقدس[15]؛ لأنه كان ماضيًا بالفعل في عملية بناء دولة داخل الدولة، ولن يلبث أن يضغط من أجل الاستقلال عن حكم بيت المقدس، مثل طرابلس أو أنطاكية.

وعلى الرغم من الاستفزاز الذي مارسه «رينالد»، لم ينتهك صلاح الدين الهدنة، فقد كان في شهر المحرم، وهو موعد عودة الحُجاج من مكة. وفي مارس ١١٨٧م أخذ صلاح الدين جزءًا من القوات إلى بصرى ليحول بين «رينالد» ومهاجمة قافلة أخرى كانت فيها أخته التي أدت فريضة الحج. وفي الوقت نفسه، انتظر وصول القوات المصرية. كانت الهدنة على وشك الانتهاء، وصار واضحًا أنه لم يكن في نية صلاح الدين أن يجددها، ومن ثم جمع «جاي» نبلاءه لتقرير ما ينبغي أن يكون عليه الرد. وحثَّه الحاضرون على أهمية الصلح مع «ريمون» أمير طرابلس؛ لأنه لم يكن في وسع المملكة تحمل الانقسام. وفي الحال انطلق وفد، ولكن في الوقت الذي غادر القدس، انتهت الهدنة وأعلن صلاح الدين الحرب. في هذه المرة كان عازمًا على القتال «لأن الأمور لا تجري على هوى البشر، وما ندري ما بقي من عُمرنا».

الفصل الحادي عشر

النصر في حطين

أنت الذي سقيتَه وما سقيتُه أنا.

صلاح الدين

كان «باليان دي إبلين» الأكثر شدة في الجدل بشأن ضرورة إنهاء النزاع بين الملك و«ريمون» أمير طرابلس بصورة عاجلة، من أجل المملكة. بل إنه عرض أن يرأس وفدًا يسافر إلى طبرية حيث كان «ريمون» يقيم مع زوجته «إيشيفا» سعيًا وراء حل ما، ووافق «جاي» على هذا الاقتراح، وانطلق «باليان» في الحال، وانضم إليه «جيرارد ريدفورت»، مقدم فرسان الداوية، و«روجر مولينز» مقدم فرسان الإسبتارية. وفي الوقت نفسه، كان «ريمون» يواجه موقفًا حرجًا؛ لأن ابن صلاح الدين، الملك الأفضل، طلب الإذن بالقيام بحملة استطلاعية عبر أراضي «ريمون»، ولم يكن بوسعه الرفض بسبب المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين، وفي حكمه حدد تحركات الأفضل وتم الاتفاق على أن يعبر الركْب الإسلامي ـ بقيادة كوكبوري الذي ركب معه قايماز النجمي، على رأس فرقة من دمشق ـ نهر الأردن بعد الشروق ويغادر قبل الغروب. وسوف نتكلم عن كوكبوري أكثر فيما بعد؛ لأنه كان مقدرًا له أن يلعب دورًا مهمًّا في أعظم نصر حققه صلاح الدين، ولكن لا يمكن أن نمر على اسم قايماز النجمي من دون تعليق: يكشف اسمه عن أصله التركي ويخبرنا أيضًا أنه كان عبدًا عتيقًا ـ مملوكًا ـ كما أن نسبته «النجمي» تقول لنا إنه اشتُري، ثم أُعتق وعمل في خدمة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين. وكان النجمي قائد المماليك المتمركزين في دمشق برتبة أمير خمسمائة. وكان رجلًا عسكريًّا ممتازًا، تميز في المعارك ولم يقبل العمل في

الإدارة المدنية إلا بعد تردد. ولأن «ريمون» كان قلقًا ويريد تجنب أي صِدامات، أرسل رسالة تفيد بأن المسلمين يعبرون فقط بقواتهم عبر أراضيه ولن يتم الاقتراب منهم أو تحديهم، وعندما وصلته الأنباء بأن وفدًا ملكيًّا يقترب من طبرية برئاسة «باليان»، أرسل الرسل على وجه السرعة لإبلاغ الوفد بالموقف. ولأنه اعتقد أنه فعل ما في وسعه واتخذ جميع الاحتياطات وقف عند أسوار طبرية عند انبلاج الفجر ليشاهد بنفسه القوة الإسلامية، التي يقودها كوكبوري، وهي تمر عابرة.

ولم يضع «ريمون» في حسابه صلابة عقلية مقدم الداوية؛ لأن «جيرارد» ما إن سمع أن قوة من المسلمين تعبر الأراضي الصليبية حتى أحس أن الشرف يحتم عليه أن يهاجمها. كان ذلك تصرفًا مندفعًا وعملًا أحمق. وعندما حاول «جيمس مالي» إقناعه بأن مثل هذا الهجوم يعتبر انتحارًا، سخر منه «جيرارد» وأجاب بحدة: «إنك تحب شعرك الأشقر لدرجة أنك تخشى أن تخسره». كان هذا الاستهزاء الكبير موجهًا إلى أحد الفرسان، وكان تحديًا لشجاعته. استُفز «جيمس» بهذه الطريقة فشن الهجوم مع الصليبيين. وفي البداية أخذوا القوة الإسلامية على غِرة. ولكن عندما قاد كوكبوري وقايماز النجمي الهجوم المضاد بالرماح والسيوف كانت النتيجة مذبحة للصليبيين؛ قُتل الداوية جميعًا ومعهم الإسبتاري «روجر»، باستثناء «جيرارد» واثنين آخرين، استطاعوا الهرب. وقد علم «ريمون» بما جرى عندما خرج إلى شرفات قلعته عند الغروب ليراقب رحيل القوة الإسلامية عن أراضيه، وأذهله أن يرى المسلمين وهم يعبرون النهر ومعهم رؤوس الداوية مُعلَّقة مثل الشعارات على رماحهم. وحتى في ضوء الغسق، كان شعر «جيمس مالي» الأشقر مرئيًّا. ومن الجدير بنا أن نشيد بنظام القوات الإسلامية. ينسب الفضل إلى كوكبوري، وكان القائد العسكري الأعلى؛ لأنه استطاع أن يحافظ على الانضباط بعد نصر عسكري، حتى ورائحة الدماء تفوح في الهواء، ولأن رجاله لم يتسببوا في أي تدمير في الأرض وغادروا أرض «ريمون» كما وعدوا. وأدت الكارثة والمذبحة إلى المصالحة بين «ريمون» و«جاي»، وأنهى «ريمون» معاهدته مع صلاح الدين. لكن لا يمكن وصف المصالحة بين بلاط طرابلس وملك بيت المقدس بأنها مصالحة عميقة؛ لأن الكراهية المريرة بقيت قائمة، ولم ينسَ «رينالد دي شاتيون» لـ«ريمون» ما اعتبره خيانة من جانبه. ولم يكن لمصالحة «ريمون» أن تعوض خسارة الداوية التي أضعفت الجيش الصليبي. وكتب «جيرارد ريدفورت» إلى البابا يخبره بالكارثة. وفي الوقت الذي وصلت فيه رسالته إلى أوروبا كانت هناك كارثة

أكبر على وشك الوقوع؛ وجد «جاي» نفسه في مواجهة موقف خطير متفاقم باستمرار، فأرسل في نهاية مايو دعوة لتجنيد جميع القادرين جسديًّا من الرجال الصليبيين.

صلاح الدين يحشد جيشه

في الوقت نفسه، كان صلاح الدين يحشد جيشه، وكان مشهدًا هائلًا: من شرق الفرات جاءت قوات العراق. ومن دمشق جاءت قوات بقيادة قايماز النجمي. ومن حلب ركب بدر الدين ديلدريم على رأس جيشه. وعقد تقي الدين قبل ذلك بقليل هدنة مع «بوهيموند الثالث» أمير أنطاكِية وهو ما جعله قادرًا على أن يركب مع رجاله متجهًا إلى الجنوب. وقاد قوات الموصل فخر الدين الزعفراني، وقد عاد إلى معسكر صلاح الدين بصورة ثابتة. كذلك توافد الرجال من سنجار ونصيبين وآمد وأربيل وديار بكر. وعندما تجمَّعت هذه القوات جميعًا زاد من قوتهم أولئك الذين وصلوا من مصر. كان أقوى وأكبر جيش إسلامي جُمِع على الإطلاق تحت قيادة قائد واحد، وكان يتألف من أعراق مختلفة يتحدثون خليطًا من اللغات؛ كانوا عربًا وبدوًا وأكرادًا وأتراكًا وفُرسًا ومصريين. وتباهى صلاح الدين بأن الغبار الذي يثيره الجيش في زحفه يحجب الشمس. وقُدِّر عدد الجيش بثلاثين ألف رجل[1]؛ وهو على الأقل ضعف، إن لم يكن ثلاثة أمثال، حجم جيش «جاي». وكان على رأس الميمنة تقي الدين ابن أخي صلاح الدين، وهو رجل اشتهر بشجاعته الجسدية الهائلة، وكان تقي الدين هو الذي أرسل ابنه لمهاجمة جيش «بلدوين» في غمار الهزيمة التي وقعت بتل الجزرة، وعندما رجع ابنه أمره بمعاودة الهجوم، حيث لقي مصرعه، وحينذاك عهد صلاح الدين لابن أخيه بالمهمة الأصعب، أي قيادة ميمنة جيشه؛ لأنه في التكتيكات العسكرية غالبًا ما كان هذا الجناح هو الذي يقوم بالهجوم على حين يتصرف الجناح الأيسر بطريقة دفاعية.

والحقيقة أن الشخص الذي كان يقود الميسرة في جيش صلاح الدين لم يكن أقل قوة وصلابة، كان كوكبوري، وكان متزوجًا من أخت صلاح الدين. وكوكبوري - «الذئب الأزرق» بالتركية - ابن حاكم أربيل، وكان خادمًا مخلصًا لآل زنكي. وقد قاد كوكبوري الجناح الأيمن في القوات الحلبية الموصلية التي هزمها صلاح الدين عند تل السلطان، ولكنه غيَّر انتماءه، وهو الذي شجَّع صلاح الدين على عبور الفرات. ولم يكن هناك شك في شجاعته وجسارته العسكرية، وقد وصفه عماد الدين الأصفهاني بأنه أسد ينقض

على هدفه مباشرة. وكان كوكبوري أيضًا راعيًا مخلصًا للتعليم وبانيًا لكثير من المدارس وخانقاه للصوفية في أربيل. جمع جيش صلاح الدين بين القوة العسكرية العظيمة والعلماء والفقهاء وشيوخ المدارس. ولم يكن ممكنًا أن يكون هناك رمز أكبر للتحالف بين علماء الدين والعسكريين من مشهد صلاح الدين الشافعي وهو يركب على رأس جيشه يصحبه موفق الدين بن قدامة، الفقيه الحنبلي وتلميذ عبد القادر الجيلاني. وكان هناك زمن يسخر فيه الشافعية والحنابلة بعضهم من بعض ويتقاتلون في شوارع بغداد، ولكن في ذلك الحين كان الجندي والفقيه يركبان جنبًا إلى جنب. وكان ابن أخي موفق الدين، عبد الغني، يقف جانبًا، في أثناء مسيرة جيش صلاح الدين، ليقرأ علنًا في كتابٍ كتبه الفقيه الحنبلي ابن بَطة[٢]، وهو الكتاب نفسه الذي قُرِئ بصوت عالٍ عندما ركب شيركوه وصلاح الدين في الحملة إلى مصر.

وكان حجم الجيش يعني بالنسبة إلى صلاح الدين أنه يريد أن يخوض معركة حاسمة؛ لأنه لم يكن متأكدًا من قدرته على جمع مثل هذه القوة مرة أخرى لمواجهة الفرنج. وقد أخبر ابن شداد أنه إذا قدَّر الله موته، فمن المستبعد تمامًا أن تتجمع هذه الأجناد ثانية. ولم يكن مقصودًا بهذه الكلمات أن يتكبر أو يباهي، وإنما كانت إدراكًا للجهود المضنية التي بذلها لجمع مثل هذا الجيش الكبير، ومدى الهشاشة والسهولة التي يمكن أن يتفرق بها. كان صلاح الدين يعلم أنه طالما بقي «جاي» في مكانه بصفورية، بحدائقها وفيرة المياه، فإن بوسعه الاستمرار في مناوأته حتى يتفرَّق جيش صلاح الدين. وليحقق صلاح الدين النصر كان لا بد من إخراج جيش «جاي» إلى الأرض الجافة في الجبل، بين الساحل وبحيرة طبرية، عبر السهل الذي لا ماء فيه، ثم هزيمته. وكان «جاي» يحتاج إلى الصمود في مكانه حتى يظفر بالنصر.

وفي ٢٦ يونيو ١١٨٧م انطلق صلاح الدين، وبعد مسيرة يومين أقام الجيش معسكره عند بلدة الأقحوانة، وهي منطقة مستنقعات بين بحيرة طبرية ونهري الأردن واليرموك. ثم زحف صلاح الدين غربًا من الأردن إلى كفر سبت، ومن هناك كان بوسعه تهديد كلٍّ من صفورية؛ حيث أبقى «جاي» جيشه في موقف دفاعي، وطبرية. وبدا أن صلاح الدين عقد العزم على أن يقاتل. وفي الأول من يوليو تحدَّى الفرنج، لكن «جاي» رفض التقاط الطُّعم، ولم يكن أمام صلاح الدين سوى الرجوع إلى كفر سبت. وكان واضحًا أنه حتى تنشب المعركة كان على صلاح الدين أن يجبر الفرنج على الخروج في العراء؛ وحينها

قسَّم جيشه، وفي الثاني من يوليو هاجم طبرية. إن تصرفات الملك «جاي» عشية معركة حطين ورد فعله إزاء هجوم صلاح الدين على طبرية معروفة جيدًا، لكن لا يزال تفسيرها يشغل المؤرخين. تحكي الرواية التقليدية كيف أن صلاح الدين، ليجبر الجيش الصليبي على مغادرة صفورية، نصب فخًّا لم يكن من السهل على الفرسان الشجعان مقاومته: قرر صلاح الدين فرض الحصار على طبرية، حيث تقيم زوجة «ريمون»، على أمل أن يتقدم الصليبيون لمساعدة سيدة في محنة ويقعوا في الفخ. وترك لتقي الدين وكوكبوري مسؤولية الكتلة الرئيسة في جيشه، وتوجَّه بنفسه ليقود الهجوم على طبرية، وكان الهجوم الأول ناجحًا، فقد انهار أحد أبراج المدينة، وبسرعة فُتِحتْ ثغرة وتدفقت قوات المسلمين داخل المدينة. أما «إيشيفا» زوجة «ريمون»، فقد لجأت إلى القلعة وبعثت باستغاثة عاجلة إلى زوجها، وكان مع «جاي» في صفورية. كان صلاح الدين يدرك أن كشافة «جاي» يراقبون الهجوم على طبرية من التلال، وكان يسعى إلى أن تصل الأخبار إلى «جاي». وقد نصَّ أحد القوانين الأساسية في المملكة على أن الملك مُلزمٌ بأن يهب لنجدة أي واحد من أتباعه إذا ما تعرَّض لخطر هجوم من المسلمين(٣). ولا شك في أنها فكرة نبيلة ـ فروسية ورومانسية ـ لكنها لم تكن حربًا يخوضها شعراء «التروبادور» وإنما محاربون محنكون صقلتهم تجارب القتال من أمثال «ريمون» و«رينالد». كان المسير عبر سهول الجليل في حرِّ الصيف مخاطرة جسيمة، وكانت مواجهة جيش إسلامي في معركة مفتوحة يناقض الإستراتيجية العسكرية الأساسية التي بُنيت عليها الدويلات الصليبية. ومن المؤكد أن «جاي» كان يعي هذا؛ لأنه أبدى على مدى سنوات سابقة الانضباط المطلوب عندما رفض قبول تحدي صلاح الدين وأجبره بالتالي على تفريق جيشه وهو محبط.

المشاورات في معسكر الفرنج

حينذاك جمع «جاي» مستشاريه الرئيسين لسماع رأيهم. احتشد كل الحاضرين، من البارونات حتى الفرسان، وكانوا يعرفون الخطر الذي يتهددهم. ازدحم مئات الرجال داخل خيمة الملك وحولها، وكانت مضاءة بالمشاعل، وفوق همهمة الأصوات يُسمَع صوت «ريمون». تحدَّث بثقة وقال إن هجوم صلاح الدين على طبرية طُعم للإيقاع بهم ولا ينبغي للجيش الصليبي أن يقع في هذه المصيدة، حتى لو كانت زوجته هي المحاصرة في القلعة، وإذا كان لا بد من سقوط طبرية، فإن هذا سيؤدي إلى تفرق الجيوش الإسلامية

التي ستعود إلى الموصل وحلب ومصر، وما يسقط اليوم يمكن استرداده غدًا. وفيما يتعلّق بسلامة زوجته، لم يكن قلقًا؛ لأن صلاح الدين كان معروفًا بمروءته التي تمنعه من إيذاء امرأة، ولكن إذا سارت القوة العسكرية للمملكة كلها إلى الهضبة التي تعوزها المياه والتي تفصل صفورية عن طبرية، فإنهم سيخاطرون بوقوع مصيبة هائلة. كان كلام «ريمون» قويًّا وارتفع صوته في ثقة عندما وجد أن الآخرين - حتى الذين يعتقدون أنه خائن - يستمعون إليه بانتباه، وران الصمت بعد أن أنهى كلامه، حتى أعلن «جاي» أن «ريمون» قال الحقيقة ولن يكون هناك زحف إلى طبرية. وبدلًا من ذلك سيبقى الجيش في صفورية حتى يسرح صلاح الدين جيشه، ولم يكن هناك ما يقال بعد ذلك وعاد الفرنج إلى خيامهم.

في تلك الليلة غيَّر «جاي لوزنيان» رأيه، وبذلك حسم مصير المملكة اللاتينية في بيت المقدس. بقي معه رجلان في الخيمة وخرج الباقون تحت جنح الليل، «رينالد دي شاتيون» و«جيرارد ريدفورت»، وكانا يكرهان «ريمون» كراهية عمياء، وكانا على قناعة بأنه خائن؛ فقبل بضعة أسابيع شهد «جيرارد» ذبح فرسان الداوية الذين كان يرأسهم بأيدي القوات الإسلامية التي اجتازت أراضي «ريمون» بمباركة منه، وكان يغلي بالغضب والهياج. وتذكُر الروايات الواردة عن هذه الحادثة كيف أن الرجلين أجبرا «جاي»، بمناقشات مضنية، على الأخذ برأيهما، حيث تساءلا: ما سر ثقة «ريمون» في ترك زوجته أسيرة لدى صلاح الدين ما لم يكن متحالفًا معه فعلًا؟ أليس بوسع «جاي» أن يرى أن «ريمون» يتطلَّع إلى العرش، وأن أفضل طريقة لعمل ذلك هي الحط من شأن «جاي» في عيون شعبه، عن طريق إظهار أن ملك بيت المقدس عجز عن إنقاذ مدينة تبعد ستة عشر كيلو مترًا؟ بهذه الطريقة رأى المؤرخون أن الملك الضعيف والجبان غيَّر رأيه. غير أن «جاي» لم يكن ضعيفًا ولا جبانًا، كما صوَّره منتقدوه؛ قاد جيشًا قبل ذلك ويقود جيوشًا أخرى بعد ذلك، وحتى لو كان تحت هذا الضغط الشديد من الرجلين لم يكن من المحتمل أن ينحني أمام الإلحاح المضني من جانبهما وينطلق في مثل هذه الحملة المحفوفة بالمخاطر، مهما كانت قوتهما. إذن، لماذا غيَّر «جاي» رأيه؟ كان هناك موضوع آخر غالبًا ما يتم التغاضي عنه، ولكن ورد ذكره من دون شك في وقت متأخر من تلك الليلة الحاسمة. ولنفهم الأمر بصورة أكمل يجب علينا الرجوع إلى «هنري الثاني» والثروة التي جمعها في الشرق، وقد رأينا فيما سبق كيف فشل البطريرك «هيراكليوس» في إقناع «هنري» بالقيام بحملة صليبية، وعلى الرغم من أنه كانت هناك فرصة طيبة لأن يقوم ملك إنجلترا باسترداد أمواله، أقنع «جاي» مقدم

فرسان الداوية بفتح الجزء الذي يخصه من حساب «هنري» الشرقي. كانت هذه المرة الأولى التي تُمَسُّ فيها أموال «هنري»، وكانت حادثة مثيرة؛ لأن الناس كانوا ينتظرون هذا المال على مدى خمسة عشر عامًا على جانبَي البحر[٤]. وكان لا بد للأخبار أن تصل إلى مسامع «هنري»، وعندما يحدث هذا سيكون غضبه رهيبًا. ولتتم تهدئته أمر «جاي» بأن يحارب الجنود الذين تم استئجارهم بالأموال الإنجليزية تحت العلم الإنجليزي، وكان من الواضح أمام عينَي «جاي»، كما كان واضحًا بالنسبة إلى «جيرارد ريدفورت»، أن غضب «هنري» وحنقه سوف يهدآن إذا ما تحقَّق نصر كبير. ولن نعرف أبدًا ما جرى في تلك الخيمة في تلك الليلة الحاسمة، ولكن عندما أشرق الفجر بنوره، في ٣ يوليو ١١٨٧م، انطلق المنادون في جميع أرجاء المعسكر لإعلان الأوامر الجديدة: سوف يزحف الجيش إلى طبرية. ونهض الرجال من نومهم بين النعاس والحَيرة؛ التي لم تلبث أن تحوَّلت إلى الغضب. ماذا حدث حتى يُغيِّر الملك رأيه؟

المسير إلى طبرية

كان صلاح الدين يؤدي صلاة الفجر خارج أسوار طبرية مباشرة عندما وصل الرسل ومعهم أخبار بأن الجيش الصليبي في الطريق. أدهشه الخبر؛ فمع أمله في أن يلتقط «جاي» الطُّعم، إلا أنه لم يكن يتوقَّع ذلك. وفي الحال امتطى صهوة جواده وركب مسافة عشرة كيلو مترات إلى كفر سبت حيث يتمركز جيشه، وهناك تلقَّى التحية من تقي الدين ومن كوكبوري، الذي أكد له الأخبار: كان «جاي» قادمًا حقًّا. وقد أرسلوا بالفعل قوة خفيفة لمناوشة الفرنج، مع أن عددها لم يكن كبيرًا بما يكفي لمنعهم من المسير أو لجعلهم يشكون في أن مصيدة في انتظارهم. ومن الأرض العالية في كفر سبت كان بوسع صلاح الدين أن يراقب الجيش الصليبي وهو يتحرك. وكان في صفوف ثلاثة: «ريمون» أمير طرابلس في مقدمته، والملك «جاي لوزنيان» في المركز ومعه الصليب المقدس، وفي المؤخرة «باليان دي إبلين»، الذي ركب مع أكثر الفرسان خبرة ومع فرسان الداوية. كان موقعًا يحف به الخطر الأكبر، وكان من الأساليب القتالية الشائعة بين المسلمين أن يحاولوا عزل مؤخرة الجيش عن بقيته. وقد فرض التشكيل أن يكون المشاة، بمن فيهم النبالة ورماة السهام، حماية للفرسان الذين كانوا مستعدين لدفع المسلمين بهجمات محكمة. وكان النظام ضروريًّا في أثناء مسير ذلك الدرع الدفاعي. ومن كفر سبت بدا الجيش الصليبي كأنه

سحابة ترابية من مسافة بعيدة، ولكنَّ صلاح الدين لم يساوره شك بشأن مغزى ما يجري. وتوجَّه نحو القائدَيْن اللذَيْن معه وأعلن أن اليوم تتحدد فيه نتيجة الجهاد.

وتتمثَّل مشكلة الكتابة عن معركة حطين في أننا نعرف نتيجتها، وبهذا المعنى فإن البداية تبدو كأنها نذير بمأساة على وشك أن تحل بالمملكة الصليبية. وقيل إن نذر الشر والشؤم كانت في كل مكان ـ رفضت الخيول أن تشرب قبل اصطفافها، وشوهدت امرأة مسلمة مخبولة تصب اللعنات على الجيش الصليبي، وهلم جرا ـ لكن نذر الشر والشؤم لا تُذكَر إلا بعد وقوع الحدث. والحقيقة أن الصليبيين لم يعتقدوا أن الهزيمة سوف تحل بهم، ومن المؤكد أنهم لم يروا في تصرفهم عملًا انتحاريًّا، ومن المهم أن نحاول فهم إستراتيجيتهم في لهيب الأحداث التالية. بحلول منتصف النهار كان الجيش الصليبي قد سار قُرابة خمس ساعات أو ست، وكان معظم الجنود يعانون معاناة رهيبة من العطش والإرهاق، وقد اتجهوا شرقًا في وادي الرمانة قرب جبل توران، حيث كان هناك ينبوع ماء. وعند هذه المرحلة لم نعد نفهم إستراتيجية «جاي»[٥]. كان الملك يعرف أن الجيش الإسلامي يسيطر على الأرض المرتفعة، ويعلم أيضًا أن وراء جبل توران واديًا مفتوحًا يمكن أن يكون ميدان المعركة. ولو استطاع إغراء الجيش الإسلامي بالنزول من الأرض المرتفعة لمهاجمتهم فسوف يثبتهم عند الحافة ويحقق النصر بهذه الطريقة، وإذا لم يقبل صلاح الدين التحدي وينزل من فوق الحافة المرتفعة، فسوف يعود «جاي» إلى نبع الماء في توران حتى ينزل المسلمون إلى القتال أو يتفرَّق جيشهم. ولم يكن قرار المسير قرارًا انتحاريًّا كما ظهر لأول وهلة، لكنه مخاطرة جسيمة. وكان لا بد من المخاطرة؛ فقد ظن «جاي» أن اليوم يتوقف على نتيجة معركة، وبعمله هذا، ولأنه لم يقدِّر قوات صلاح الدين حق قدرها، ساءت حساباته بشكل رهيب.

كانت طبرية لا تزال على بعد أربعة عشر كيلو مترًا عن توران، وقد ولَّى نصف النهار. وعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدور «جاي» أن يتحقق تمامًا من قدرة جيش صلاح الدين، الذي كان متجمعًا على الحافة المرتفعة، فقد بدأ مع حلول الظهيرة يشعر به، حيث تواصلت الهجمات على الجيش الصليبي بلا انقطاع. ووصلت الأنباء إلى «ريمون» الذي يقود المقدمة، بأن مؤخرة الجيش أبطأت سيرها تمامًا. وكان واضحًا أن الجيش لن يصل إلى طبرية قبل حلول الظلام، وفي تلك اللحظة اتُّخِذ قرار ـ بتحريض من «ريمون» على ما يبدو ـ بأن يتوجَّه الجيش شمالًا صوب عيون حطين التي لم تكن تبعد أكثر من ستة

كيلو مترات. ومن هناك يمكن للجيش الوصول إلى بحيرة طبرية في اليوم التالي. وتطلَّب هذا من الجيش أن يسير على منحدر كان من شأنه أن يجعل الحفاظ على التشكيل صعبًا، على الرغم من أنه لم يمثل تحديًا. وعند هذه المرحلة انتشر الجيش على مساحة قدرها ألفان متر على الأقل، مع تعرُّض المؤخرة لهجمات مستمرة من جانب الجناح الأيمن لجيش صلاح الدين تحت قيادة كوكبوري.

ومن التلال إلى الجنوب توفَّرت لصلاح الدين رؤية واضحة لتحركات الجيش الصليبي. وفي الحال رصد التغير في اتجاه الجيش، وتصرَّف لمواجهة الإستراتيجية الجديدة، وكان لا بد له من أن يحاول تطويق الفرنج والالتفاف حولهم، ومن ثَمَّ دفعهم إلى الصحراء بعيدًا عن نبع الماء، وأسندت هذه المهمة إلى القسم الذي يقوده تقي الدين. وأدرك «ريمون» أمير طرابلس، وكان يقود طليعة الجيش الصليبي، ما يحدث وحثَّ السير لئلا يحول تقي الدين دون وصول جيشه إلى النبع، لكن الوقت فات. وحُسِم مصير المعركة بناء على هذه الحركة وتحدد مصير المملكة اللاتينية في بيت المقدس. ثم أصدر صلاح الدين أوامره إلى كوكبوري بمهاجمة جيش «جاي»، فاندفعت موجة عارمة من الأعلام والرايات الملونة والصلب البراق(٦) متدفقة على المنحدرات. كانت صيحاتُ الحرب، ودقات الطبول، وقعقعة الصنوج، والخشخشة، ودقات الألواح النحاسية المستديرة، مصحوبةً بصدى آلاف الأصوات التي تُطلق صيحة «الله أكبر». كان وقتًا حرجًا؛ لأن تقي الدين لم يكن عليه فقط منع «ريمون» من هبوط المنحدر إلى حطين، وإنما كان لا بد أن يكون الجناح الأيمن قويًّا بما يكفي لمنع الصليبيين من الخروج ثانية. وفي الوقت نفسه، صدرت الأوامر إلى كوكبوري بمنع الصليبيين من التراجع مهما كان الثمن. وهجم الداوية بعنف ووحشية على كوكبوري وهم يأملون في فتح ثغرة، ولكن الجناح الأيمن صمد وبقي ثابتًا. وما إن نجح الجناحان في تطويق الجيش الصليبي وتمكَّن صلاح الدين من الحفاظ على الحافة بقواته المصرية، حتى أحاطوا بالفرنج في الصحراء المفتوحة من دون أن يكون لديهم ماء. كان موقفًا رهيبًا؛ وإذا كان على الفرنج أن يبقوا في السهل الخالي من المياه فلن تكون نهاية الجيش فقط، بل نهاية المملكة. ثم أصيب «ريمون» بالدهشة والفزع وهو يرى «جاي» يأمر بالتوقف وإقامة المعسكر في هذه النقطة الجدباء. كان تصرفًا صدر عن رجل مرهق فقد أعصابه في وقت كان التصرف القوي الفعَّال مطلوبًا بشكل حيوي. وأخذ «ريمون» ينوح ويندب

قائلًا: «وا أسفاه! وا أسفاه! يا إلهي!» عندما تسلَّم الأمر الذي أصدره الملك: «انتهت الحرب، قُتلنا وضاعت الأرض». ولم يكن أمام «جاي» سوى إقامة المعسكر، لوجود خطر عظيم يتهدد مؤخرة الجيش بالعزل والذبح. وسرعان ما أرخى الليل سدولَه وحالت حلكة الظلام دون رؤية الجيشين أحدهما للآخر.

كانت ليلة ٤ يوليو ١١٨٧م ليلة رهيبة على الجيش الصليبي، وعصيبة على الجيش الإسلامي. كانت القوات الصليبية مطوقة حتى إنه لم يكن ممكنًا أن تمر قطة من خلال صفوف المسلمين طالبة الهرب، تبعًا لروايات المؤرخين. وكان الجيشان متقاربين جدًّا حتى إن كل جانب كان بوسعه أن يستمع إلى الأحاديث الجارية على الجانب الآخر. وتُليت دعوات الاستغاثة للرب والتضرع إلى الله، وتطلَّع الجانبان تجاه السماء تحت جنح الظلام، كان الرجال على الجانبين يستعدون لطلوع النهار. وطوال الليل استمرت طبول جيش المسلمين في القرع وسيل منهمر من السهام يتساقط باستمرار على المعسكر الصليبي. وكتب عماد الدين الأصفهاني: «وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ».

وقبل الفجر حلَّت فترة قصيرة من الصمت، ولكنها كانت مُقدمة لرفع الأذان عند المسلمين، حيث رددت التلال صدى صوت المؤذن: «الله أكبر الله أكبر...». وفي تلك الليلة كان صلاح الدين مثل رجل استحوذت عليه المعركة، ورفض أن يرتاح. فهِم أن قدره ينتظره مع خيوط الفجر الأولى، ولكنَّ طبيعته الحذرة علَّمته أن المعركة أبعد ما تكون عن النهاية وأن النصر ما زال يراوغه. حتى ذلك الحين لم يهلك إلا عدد قليل من فرسان الفرنج، وعرف أن هناك وقتًا في اليوم التالي يشن فيه الفرسان هجومهم حين لا يكون أمامهم خيار آخر. وإذا ما نجحوا في إحداث ثغرة للوصول إلى نبع الماء سيصبحون آمنين ويكون نصره ناقصًا. وهكذا صدرت الأوامر بضرورة عدم التوقف في اليوم التالي عن رمي السهام على الصليبيين في معسكرهم؛ لأنه إذا ما شعر الفرسان بتناقص السهام فسوف يبادرون إلى شن هجوم عنيف يائس؛ وهو الأمر الذي لا يضمن أحد عواقبه. وفي الوقت نفسه، كانت هناك قافلة متواصلة من جِمال تحمل الآلاف من قِرب الماء المصنوعة من جلد الماعز والمليئة بالمياه، تشق طريقها من بحيرة طبرية إلى معسكر المسلمين؛ لأن الماء وعطش الصليبيين سيلعب من المؤكد دورًا هائلًا عندما تشرق الشمس.

وعندما لاح فجر ٤ يوليو بقي صلاح الدين متشككًا في حِيَل الجيش الصليبي. هل يحاولون التقهقر إلى نبع الماء في توران، أم يندفعون صوب حطين، أم يقومون بشن هجوم عنيف على موقعه لشق طريقهم بالقوة؟ وعندما سطع ضوء النهار أمر «جاي» جيشه بأن يبدأ حركته اليائسة، ولاحظ عماد الدين الأصفهاني أن جنود العدو يتحركون: «وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجها متلاطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة».

ومرة أخرى قاد «ريمون» مقدمة الجيش، والملك ومعه الصليب المقدس في الوسط، و«باليان» والداوية بملابسهم البيض والإسبتارية بعباءاتهم السود يحمون المؤخرة الهشة. وفي ضوء الشمس الساطع سار الجيش الصليبي إلى حتفه. وظل صلاح الدين ثابتًا، ولم يحدث سوى اختراقات متقطعة ضد المؤخرة، على الرغم من أنه خسر بعض الرجال، كما قُتل واحد من أكثر الأمراء الذين يثق فيهم. وعندما أخذت حرارة الشمس في الارتفاع وثبت جناحا الجيش الإسلامي، أثار رعب الفرنج وفزعهم أن عدة فرسان كسروا التشكيل وخرجوا سعيًا إلى ملاذ عند المسلمين، وهم على استعداد لاعتناق الدين الإسلامي، وحينذاك أمر صلاح الدين بإضرام النار في الأعشاب والشجيرات الجافة؛ لأنه عرف أن الرياح الغربية سوف تدفع بالدخان والرماد في وجوه الفرنج، مما يُحدث المزيد من الفوضى والارتباك ويتيح للخيالة شن هجمات مميتة.

عند هذه النقطة انهارت معنويات المشاة، وواحدًا تلو الآخر أخذوا ينفصلون عن الصف ويبدأ التشكيل يتداعى، ولم يعد يجمع هؤلاء الرجال سوى الإرهاق والمعاناة الشديدة فأخذوا يتعثرون وهم يصعدون بالآلاف المنحدرات الصخرية السوداء عند قرون حطين[٧]. وحينذاك أقيمت خيمة الملك الحمراء في محاولة يائسة لأن تكون نقطة تجمع المشاة، الذين تبعثروا ولا يمكن حشدهم. ولم يستطع الأساقفة الذين يحملون الصليب المقدس إقناع الجنود المشاة، فقد كانوا ينادون على رجال أذعنوا للموت[٨]. كان تفرق المشاة حاسمًا، لأنهم كانوا مسؤولين عن حماية الفرسان. وفي غيابهم نجح المسلمون بسهولة في قتل خيول الفرسان، ومن ثَمَّ لم تعد لهم أي فعالية. وانقسم الجيش الفرنجي ثلاثة أقسام، تجمع النبلاء وفرسان المملكة وهم محاصرون مرعوبون حول خيمة الملك. وعلى طليعة الجيش واجه «ريمون» موقفًا يائسًا. وكان الملاذ الوحيد، وهو حل حض عليه باستمرار، مهاجمة جناح تقي الدين لإحداث ثغرة فيه. وكان معنى هذا أن يتخلى عن الملك والصليب المقدس، لكن المعركة انتهت بالهزيمة، وقد جلب «جاي» هذه المصيبة

على رأسه. عندئذ أمر «ريمون» رجاله وهو في حال من اليأس بالاصطفاف لشن حملة واستثمار مزية المنحدر الهابط. ورأى ابن شقيق صلاح الدين بوضوح ما في ذهن «ريمون»، وعندما شن الفرسان هجومهم أمر قواته بفتح صفوفهم ليتيحوا لهم فرصة الانسياب من خلالها. وعندما مرَّ الفرسان أغلق تقي الدين الصفوف مرة أخرى. ووجد «ريمون» نفسه خارج المعركة، وبالخيول المتعبة والرجال الذين نال منهم الإرهاق لم يقدر على أن يقاتل ليعود إلى ما كان عليه. وعلى أية حال، لم يكن هناك ما يمكن أن يفعله آنذاك لتغيير نتيجة المعركة. وهكذا ركب «ريمون» إلى قلعة صفد في التلال الواقعة إلى الشمال. وصحب هربه اتهامات له بالجبن والخيانة، لكن من الصعب أن نرى ما كان يمكن أن يفعله غير ذلك. وعلى أية حال، قد فعل كل ما بوسعه لتجنب الكارثة، وبعد أسابيع قليلة مات «ريمون» في طرابلس. وقال البعض إنه مات بفعل شعوره بالعار.

الاستيلاء على الصليب المقدس

وعندما لاح أن كل شيء ضاع، وبدأ فرسان الجيش الفرنجي يقاتلون في يأس مَن يطلب الموت، والمشاة يتزاحمون على جوانب التلال؛ اختار الفرسان الملتفون حول «جاي» شن الهجوم على صلاح الدين نفسه يحدوهم الأمل في قتله، وشنوا هجومًا هائلًا مرتين حتى وصل القتال إلى خيمة صلاح الدين تقريبًا. وكان الأفضل بن صلاح الدين وابن شداد في صحبته ذلك اليوم، وحكى الأفضل أن والده كان قلقًا من هجوم الفرسان وأنه نظر إليه ووجد أن لونه شحب وانزعج وأمسك ذقنه بيده. ودُفِع الفرسان وصاح الأفضل فرحًا وقال: «لقد هزمناهم»، لكن أباه أسكته بقوله إنهم لن يهزموهم حتى تسقط خيمة الملك الصليبي الحمراء. ولم يكد صلاح الدين ينتهي من كلامه حتى قُطعت حبال خيمة الملك وانهارت الخيمة وعرف صلاح الدين أن المعركة انتهت، وأن النصر حالفه. وفي الحال نزل عن فرسه وسجد وقبَّل الأرض حمدًا لله. وفي الوقت نفسه، ألقى «جاي لوزنيان»، الذي غلبته القوات الإسلامية التي تدفقت حول خيمته، بسيفه جانبًا، وغطى رأسه بيديه وانهار يائسًا. وفي الوقت نفسه، نشبت معركة قاسية قادها تقي الدين حول الصليب المقدس، وكان يحميه أسقف عكا وأسقف اللد. وحدث قتال وحشي متلاحم وتُركت السهام واستخدمت السيوف، وعلى الرغم من أن أسقف عكا ذُبح وهو يحمي الصليب، فلم يتردد زميله أسقف اللد في أن يمسك سيفًا ويقاتل قتال محارب محنك. كان قتالًا

عظيمًا ومؤثرًا، ولكنه كان عبثًا ومن دون طائل. وتساقط المحاربون الذين يحمون الصليب والقوات الإسلامية تشق طريقها للأمام، واخترق ابن شقيق صلاح الدين الدفاع الصليبي واستولى على الصليب، وأمسك به عاليًا والزغاريد وأغاني المسلمين تملأ الهواء.

رفع النصرُ المؤزر في معركة حطين صلاحَ الدين إلى مصاف القادة العسكريين العظام في التاريخ، وهو أمر مضلل إلى حد ما؛ لأنه على الرغم من أن النصر تحقق في ميدان المعركة فقد كانت عظمة صلاح الدين كامنة في مكان آخر. ذلك أن الدراسة المتأنية لحوادث تلك الأيام المصيرية تكشف قدرًا كبيرًا من شخصيته ودوافعه. وجادل المؤرخون ـ استنادًا إلى بعض الحقائق ـ قائلين إن الملك «جاي» خسر معركة حطين بدلًا من القول إن صلاح الدين كسبها. ومن المؤكد أن «جاي» ارتكب خطأين قاتلين: كان الخطأ الأول واضحًا؛ اختار أن يسير بجيشه من موقع دفاعي وآمن إلى طبرية. وقد مررنا بهذا الأمر وتحيَّرنا من السبب الذي جعله يغيِّر رأيه في تلك الليلة المصيرية، ولكننا أكدنا أيضًا على أن المسير بالجيش إلى طبرية ـ في طقس غير محتمل ـ لم يكن مؤشرًا تلقائيًّا على هلاكه. ومن المؤكد أن «جاي» أتاح فرصة لصلاح الدين، لكن المعركة كانت على المحك بعيدة عن النصر أو الهزيمة. ويجب أن نلاحظ أيضًا أن قرار «جاي» بالمسير كان لأن صلاح الدين هاجم طبرية ونصب له فخًّا بناء على ذلك. وكانت دهشة صلاح الدين عندما علم أن «جاي» يسير بجيشه؛ لأنه لم يكن يتوقع منه أن يلتقط الطعم. وكان الخطأ الثاني الذي ارتكبه «جاي» أشد خطورة؛ فقد أساء تقدير حجم جيش صلاح الدين.

أتت السنوات الصعبة والمساعي المكثفة من صلاح الدين في حلب والموصل ثمارها؛ فكان الجيش الذي جمعه من أنحاء العالم الإسلامي عظيمًا. وربما كانت المعلومات التي وصلت «جاي» عما يجري في معسكر صلاح الدين أقل من معلومات صلاح الدين عن الانشقاق الداخلي بين الفرسان الصليبيين، ولكن من الصعب أن نرى ماذا كان يمكن لـ«جاي» أن يفعله حينذاك. وكان أعظم إنجاز حققه صلاح الدين نجاحه في جمع أكبر جيش إسلامي منذ العصور العباسية، جيش ظل متماسكًا بفضل قوة شخصيته. وكانت هناك معركة يجب خوضها، بطبيعة الحال، وكان من الواضح أن السنوات التي أمضاها صلاح الدين في البرية لم تكن عبثًا. ولكن حتى في ذلك الوقت، لم يكفل الخطآن اللذان ارتكبهما «جاي» تحقيق النصر لصلاح الدين. ومع أن «جاي» خسر المعركة فقد كانت في حاجة لمن يكسبها.

ومنذ اللحظة التي انطلق فيها الجيش الصليبي للمسير نحو طبرية، أطلق صلاح الدين قوى جيشه ضد الفرنج. وكانت الهجمات التي قادها كوكبوري عنيفة حتى اضطرت مؤخرة الجيش الصليبي إلى إبطاء سيرها، وكان هناك خطر حقيقي من أن يتركها «جاي» و«ريمون» خلفهما. وطالما كان المشاة يحمون الفرسان من هجمات المسلمين كان بوسع الجيش الصليبي أن يتحرك بلا عائق نسبيًّا، ولكن انهيار معنويات المشاة وما أعقبه من انهيار وهرب، يرجع جزئيًّا بطبيعة الحال إلى شدة الحرارة وعطش الجنود، ويرجع أيضًا بدرجة كبيرة إلى استمرارية هجمات المسلمين وعنفوانها. وإذا كان هدف صلاح الدين الأول أن يبطئ من حركة الجيش الصليبي فقد كان هدفه الثاني منع هذا الجيش من الوصول إلى نبع الماء عند حطين. وما إن رأى صلاح الدين أن «ريمون» غيَّر اتجاهه سائرًا صوب حطين، حتى أمر تقي الدين بسد الطريق أمامه، وكان تحقيق هذا الهدف نهاية المرحلة الأولى من القتال عندما هبط الليل. حتى ذلك الحين كانت المعركة تسير وفقًا للخطة، ولكن المرء يتصور أن ليلة ٤ يوليو كانت ليلة طويلة؛ لأن صلاح الدين عرف أن النصر لم يكن مؤكدًا، وأن الصليبيين يخوضون حربًا مقدسة، غالية بالنسبة إليهم بقدر ما كان الجهاد عزيزًا بالنسبة إليه. وهكذا حينما انبلج الفجر كان لا بد من نظام صارم لضمان عدم ضياع ما تحقق. والواقع أن الجيش الصليبي اختبر عزم المسلمين حتى النهاية؛ ضد كوكبوري في ميسرة الجيش، وضد تقي الدين في الميمنة، بل حتى ضد صلاح الدين في الوسط. ولكن الثلاثة جميعًا ظلوا راسخين، وفي ذلك اليوم تحقق النصر لصلاح الدين. ويمكن للمرء أن يجادل بأن أخطاء «جاي» كانت حاسمة فيما أسفرت عنه حطين، ولكن في الوقت نفسه أرغم صلاح الدين أعداءه على القتال، حيثما أراد وكيفما أراد(٩)، وكان ذلك في ذاته إنجازًا هائلًا.

ولما ركب صلاح الدين متوجهًا ببطء نحو المعسكر، بدأ كل شيء يهدأ، وتم تطويق الفرنج المقهورين وأُخذوا أسرى، وأمر صلاح الدين بإرسالهم إلى دمشق. وكان الأسرى من الكثرة حتى إن ابن شداد شهد منظر رجل مسلم يمشي وهو يسحب حبل خيمة خلفه ربط فيه ثلاثين فرنجيًّا أسيرًا كانوا يتبعونه راضخين بوجوه مكفهرة. كان النصر كبيرًا لدرجة أن فدية الأسير كانت أقل من دينار، وقيل إن أسيرًا في دمشق بيع مقابل حذاء. وقد ثُبِّت الصليب مقلوبًا وحمله ابن أبي عسرون ـ وقد صادق في شبابه عبد القادر الجيلاني في بغداد ـ ودخل به ظافرًا إلى دمشق. وكانت قائمة النبلاء الذين أُسِروا هائلة، وكان فيها

الملك بطبيعة الحال، وكان هناك أيضًا إخوته والماركيز «وليم مونتفورت»، و«رينالد دي شاتيون»، و«جوسلين كورتناي»، و«همفري التوروني»، ومقدم الداوية «جيرارد ريدفورت»، وأسقف اللد، ومقدم الإسبتارية، ومئات الرجال من ذوي الرتب والمكانة الأدنى(١٠). ومن الصعب ألا نبالغ في مقدار النصر؛ لأنه في يوم واحد ـ رهيب على الصليبيين، مجيد للمسلمين ـ دُمِّر جيش الفرنج ومعه المملكة اللاتينية في بيت المقدس. وحينئذ صدرت تعليمات صارمة بأخذ الداوية والإسبتارية جانبًا؛ لأن مصيرًا مختلفًا كان في انتظارهم، على حين دُفعت الفدية للأسرى الآخرين.

صلاح الدين يذبح «رينالد دي شاتيون»

أُحضِر الملك «جاي» و«رينالد دي شاتيون» إلى خيمة صلاح الدين. وفيما يتعلق بـ«جاي» حافظ صلاح الدين على شهامته المشهورة وقدَّم له قدحًا من الماء المثلَّج ليروي ظمأه. ولكن عندما مرر الملك القدح إلى «رينالد»، تجهَّم صلاح الدين وقال للملك: «أنت الذي سقيتَه وما سقيتُه أنا». وكان مغزى ذلك واضحًا؛ لأنه كان من التقاليد الراسخة بين المسلمين أنه إذا ما أعطى شخصٌ طعامًا أو شرابًا لأسير فقد أمَّنه على حياته. ثم وبَّخ صلاح الدين «رينالد» على أفعاله الماضية وهجومه على القافلة، وبقي «رينالد» على عناده، زاعمًا أنه لم يفعل سوى ما يفعله الأمراء. وظل صلاح الدين سلبيًّا، ولم يظهر على وجهه أي تعبير. وللحظات قليلة ران الصمت على الجالسين، ثم وقف صلاح الدين، وغادر الخيمة. وعندما عاد أُخذ «رينالد» إلى خيمة الانتظار، وجاءوا به إلى حضرة صلاح الدين. وفي هذه المرة كان صلاح الدين جافًّا مقتضبًا في كلامه، وببساطة عرض على «رينالد» اعتناق الإسلام. وهو خيار كان يعرف جيدًا أنه لن يقبل به أبدًا، ولكن من الناحية الشرعية كان على صلاح الدين أن يُقدِّم هذا العرض. وما إن رفض «رينالد» حتى سحب صلاح الدين سيفه وضرب عنقه. أوقعت الضربة «رينالد»، ولكنها لم تقتله، وتقدَّم أحد الحراس ليفصل رأسه عن جسده. ثم سحبت الجثة إلى الخارج مرورًا بـ«جاي» الذي شحب وجهه وبدأ يرتعش، خوفًا من أن يُذبح بدوره. ولكن صلاح الدين ظهر بسرعة ليُطمئن «جاي» على سلامته؛ وأخبره بأنه ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده. وقد أوفى صلاح الدين بالعهد الذي قطعه لصديقه القديم القاضي الفاضل.

وفي تلك الأثناء جُمِع الداوية والإسبتارية الذين كان صلاح الدين يمقتهم. وقد أقسم صلاح الدين ذات مرة أن يُطهر الأرض من الجنسين النجسين، وأوفى بقسمه؛ لأنه كان يعرف أنه إذا أطلق سراحهم مثل الأسرى الآخرين فسوف يعودون ثانية لمحاربته؛ لأنهم أقسموا على ذلك. ومن المثير أن الذين أوكلت إليهم مهمة الإعدام لم يكونوا جنود صلاح الدين، بل الصوفية. وربما كان صلاح الدين يقصد بهذا أن يكون عملًا رمزيًّا؛ حيث يسمح للصوفية بالمشاركة في إراقة دماء الكفار؛ وبذلك يزيد من قوة التحالف بين الصوفية ورجال السيف. ومع هذا، من الصعب تفسير الدوافع الكامنة وراء قرار صلاح الدين في ذلك اليوم. ولم يُقتَل أحد من دون أن تُعرض عليه أولًا فرصة اعتناق الإسلام، وقبِل عدد قليل هذا العرض. ومن المثير أن الذين قبلوا ذهبوا للعيش بين المسلمين وأخلصوا لدينهم الجديد، وسُلِّم الآخرون إلى الصوفية وذُبحوا عن بكرة أبيهم. وفي ذلك اليوم القاتم بالنسبة إلى الصليبيين أُعدِم مائتان وثلاثون من فرسان الداوية.

الفصل الثاني عشر

استرداد بيت المقدس

وجلس [السلطان] للهناء، ووجهه بنور البِشْر سافر،
وأمله بعزِّ النُّجْح وافر.

عماد الدين الأصفهاني

دُمرت مملكة بيت المقدس في معركة واحدة، وما استمر تسعين سنة اختفى في ثلاثين يومًا! وضمن نصر حطين سُمعة صلاح الدين في التاريخ، لكنه لم يقدِّم له الأمان في الوطن؛ لأنه كان يعرف أن الأخبار إذا ما وصلت أوروبا فسوف تكون هناك استجابة سريعة ورهيبة. لكن حينما كانت السرعة مهمة، بدا أن تصرفات صلاح الدين تفتقر إلى العجلة، وكان هناك سبب كبير لذلك: أرهقت حملة حطين الرجل، ولم يكن قد استعاد صحته وأعصابه تمامًا بعد مرضه الخطير، كما أن أعباء المسؤولية الثقيلة على كتفيه - على الرغم من انتصاره الفذ - أخذت نصيبها من صحته. وصلاح الدين ينعم بانتصاره كانت مملكة بيت المقدس عاجزة عن تجنيد جيش يدخل ميدان القتال، وكان «جاي» قد أخرج الحاميات لتجهيز جيشه، تاركًا المدن بلا دفاع. كان الخيار الماثل أمام صلاح الدين: أيُّ المدن يستولي عليها أولًا: هل المدن الساحلية مثل عكا وصيدا وصور حيث يتمركز الصليبيون بدرجة كبيرة، وسوف تأتي عن طريقها أي نجدة من أوروبا؟ أم يجب عليه أن يتحول إلى الأراضي الداخلية ويأخذ القلاع والحصون الخالية من الحاميات ثم تكون الجائزة النهائية، القدس؟

ومن حطين سار صلاح الدين إلى عكا؛ «قسطنطينية الشام». وفي إيماءة رمزية

صحب معه أمير المدينة المنورة. ولم يكن المسلمون يتوقعون أي مقاومة، واندهش صلاح الدين في البداية عندما شاهد الأسوار تكتظ بالجنود الصليبيين والرايات ترفرف عليها في شجاعة، وكانت حركة تحدٍّ، ولكنها كانت حركة فارغة؛ لأنه ما إن اصطفت القوات الإسلامية للمعركة حتى فُتحت بوابات المدينة على مصراعيها وظهر ممثلو المدينة لمناقشة شروط الاستسلام. وكالعادة، كان صلاح الدين كريمًا مع مَن حوله، وهكذا أعطى المدينة وضياعها لابنه الأفضل، وأخذ رفيقه القديم عيسى الهكاري ممتلكات فرسان الداوية، وأعطى تقي الدين معمل السكر. وحرر صلاح الدين أربعمائة أسير مسلم في عكا، واستحق ثناء الناس، وصلَّى في جامع المدينة، وكان قد استُخدم على مدى الأعوام التسعين السابقة كنيسة. وبينما كان كرمه في عكا نمطيًّا، أشار عليه عماد الدين الأصفهاني بحفظ ثروة عكا في بيت المال بدلًا من تبديدها، لتمول جميع حملاته، لكن التدبير لم يكن قطُّ من شمائل صلاح الدين، حتى عندما كاد الكرم يفلس إمبراطوريته. وتذكر المصادر التاريخية صورة الدهشة التي تستولي على ضباطه من أن الممتلكات الشخصية ـ وكانت الهدف الأول لأي أمير، بمن فيهم آل بيته ـ لم تكن تعنيه[1]. ونقرأ أن عمال بيت المال كانوا يحتفظون بمبالغ سرية لا يخبرونه بشأنها، خوفًا من أن ينفق كل الأموال.

انهيار المملكة اللاتينية

في تلك الأثناء كانت هناك مملكة عليه أن يملكها، وقسَّم صلاح الدين جيشه. وبشكل معتاد جعلته طبيعته الحذرة يتردد في إصدار أمر بمفرده؛ فقد قال إنه لم يرسل أحدًا قطُّ من أصحابه أو من عائلته في حملة من دون أن يخاف عليه. وبما أنه لم يكن هناك خطر من جيش صليبي، قرر أن يرسل قواده، وكانوا مثل النمل الذي غطى وجه البلاد من صور إلى القدس وإلى كل أركان المملكة: فتح كوكبوري الناصرة، وفتح حسام الدين نابلس، واستولى بدر الدين ديلدريم على حيفا وأرسوف وقيصرية، وأخذ العادل يافا، ثم أرسل صلاح الدين تقي الدين، أقدر قادته ليستولي على صور وتبنين، وهناك ارتكب صلاح الدين خطأً عاد عليه بالوبال: واجه تقي الدين مقاومة شديدة عند تبنين، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب المساعدة، والحصار مفروض أخذ اللاجئون الصليبيون من حطين يتدفقون داخل صور، وكانت صور، لا تبنين، هدف المسلمين؛

لأن بها الميناء الإستراتيجي الذي يحتاج صلاح الدين إليه لمنع المساعدات القادمة من أوروبا للصليبيين. وحتى عندما سقطت تبنين أظهر صلاح الدين تسامحه ولين جانبه المعتاد؛ فقد سمح للصليبيين بخمسة أيام يجمعون فيها ممتلكاتهم ثم سمح لهم بالمسير إلى صور.

كانت صور المفتاح، لكن الاستيلاء عليها كان يتطلب حصارًا طويلًا وتجاهلها صلاح الدين، مفضلًا المسير شمالًا إلى صيدا وبيروت، وكان دفاع الصليبيين عنهما هزيلًا فسقطتا بسهولة. وفي بيروت سقط عماد الدين فريسة للمرض، عندما استسلمت المدينة، ورأى صلاح الدين أن أي شخص يمكنه أن يكتب ما يريد، وطلب تسجيل شروط الاستسلام في وثيقة، ولكن لم يجد مَن يقوم بهذه المهمة بشكل يرضيه. انتهى الأمر بالمجيء إلى عماد الدين الأصفهاني ليُملي الشروط من سرير مرضه. ثم اتجه صلاح الدين جنوبًا، ومرة أخرى مرَّ بصور، ولكنه لم يبذل جهدًا لحصارها. وكتب ابن شداد أن الجنود كانوا متعبين من القتال، وأن كل رجل كان يأخذ ما يقدر عليه لنفسه. وعند ذلك تلقى صلاح الدين رسالة من أخيه في مصر، وفي هذه الرسالة حثه العادل على الاتجاه صوب الجائزة الكبرى، القدس. وفيما بعد تذكَّر العادل ما كتبه إلى أخيه، وقال:

> إن إحدى الحجج التي ساقها عندما كان يكتب إلى صلاح الدين ويحثه على انتهاز الفرصة للاستيلاء على بيت المقدس، كانت أنه عُرضة للمرض، وربما أصابته أزمة هذه الليلة، وإذا ما مات فستبقى القدس في يد الفرنج.

كان الاتجاه صوب القدس رمزيًّا. لو سقطت صور، لتعيَّن على الصليبيين الأوروبيين أن يناضلوا من أجل موطئ قدم في المنطقة يشنون منه الحملة الصليبية الثالثة. كان خطأ إستراتيجيًّا؛ لأن صلاح الدين ترك بابًا مفتوحًا دخل منه «ريتشارد»؛ ألد أعدائه بلا منازع[٢]. كان الرأي العسكري هو الاستيلاء على صور، لكن الشعور الديني كان متجهًا إلى القدس. ومنذ زمن نور الدين تحول المسلمون بنظراتهم، بكثافة متزايدة، تجاه القدس؛ فقد بنى نور الدين دعايته بأسرها حول القدس وبنى منبرًا ليوضع في مكانه الصحيح في المسجد الأقصى، ومنذ وفاة نور الدين زعم صلاح الدين أنه وريثه الروحي وربيبه الفكري، وصارت القدس بؤرة حملاته. كانت حملة أسهمت فيها الطبقات الدينية مساهمة نشطة وبحماسة متزايدة. ومن على المنابر وفي المدارس والأسواق،

كانت الرسالة نفسها: القدس، القدس، القدس. ربما لم يكن لهذا أهمية إستراتيجية، وهو أمر لم يهتم به، لأن القدس كانت كل شيء. ببساطة كان لا بد من تحرير المدينة المقدسة(٣). وكان تحرير القدس ضروريًّا لصلاح الدين، كان برهانًا على إخلاصه وصحة مقاصده. ومنذ سنة ١١٧٤م كان يكتب باستمرار إلى الخليفة، ويزعم أنه بطل الجهاد، وأنه لم ينحرف قطٌّ عن رسالته ـ أو بالأحرى أن مستشاريه الذكيين عماد الدين الأصفهاني والقاضي الفاضل لم يسمحا له قطٌّ بأن ينحرف عنها ـ وكانت الرسالة نفسها واضحة: كان يقاتل جهادًا في سبيل الله، فإذا حصل على القوات التي يحتاج إليها، فسوف يستعيد بيت المقدس للمسلمين. وحتى في أثناء الفترة غير المواتية التي قضاها في قتال حلب والموصل، لم تتغير الرسالة قطٌّ. وها هو آنذاك تسلَّم أسمى جائزة ممكنة. وكان هو الذي أعاد المذهب السُّني إلى مصر، وحسم بالفعل مصير المملكة الصليبية في بيت المقدس نتيجة لهذا. وكان عليه أن يعيد الإسلام السُّني إلى بيت المقدس.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين لم يشعر بهذا مباشرة، فإن إعادة بيت المقدس إلى أيدي المسلمين كانت تتويجًا، ليس فقط لجهوده التي لم تكل ولدعوة نور الدين التي لم تتوقف، لكن أيضًا لذروة الإحياء السُّني، الذي نشأ في مدينة أخرى في وقت مختلف. وقد حجبت سجايا صلاح الدين، المثيرة للإعجاب، وتقديس شخصه بالنسبة إلى مَن حوله، النقطة الأساسية لديه، ولكن إذا كان هذا الكتاب بدأ في بغداد مع نظام الملك، فقد كان السبب في ذلك أنه من دون الأفكار التي ارتبطت بتجديد المذهب السُّني، لم يكن صلاح الدين لينتصر أبدًا. وما إن بدأت تلك الأفكار تتخذ مسارها الطبيعي، لم يكن ممكنًا ألَّا ينتصر صلاح الدين، ذلك أن العبقرية الفقهية للإمام الغزالي تجلَّت في فهم الحاجة الماسة إلى إسلام كوني داخلي يسمح للمسلمين من مختلف المدارس الفقهية ومن مختلف الاتجاهات الروحية ـ من أصحاب الاتجاهات الباطنية، وأصحاب الاتجاهات العقلانية، والمتصوفة، والمعتزلة ـ باتباع المذهب السُّني نفسه. إن صورة صلاح الدين، الكردي الشافعي العسكري، الذي يركب في حملة حطين ومعه موفق الدين بن قدامة، وهو قاضٍ فلسطيني حنبلي، صورة أخَّاذة. ولم يكن التقارب مقصورًا بين السُّنة؛ لأن محاولات مخلصة بذلت لضم الشيعة الاثني عشرية. ومن الجدير بالملاحظة أن الشيعة في حلب وشمال الشام، وقد حاربهم نور الدين في عدة مناسبات، ساعدوا صلاح الدين في حملاته ضد الصليبيين. وكما ذكرنا من قبل،

فإن محاولة التفاهم بين السُّنة والشيعة كانت حجر الزاوية عند ابن هبيرة الذي عمل في خدمة اثنين من الخلفاء العباسيين. وعلى الرغم من أن ابن هبيرة وصلاح الدين لم يتقابلا قطُّ، فإن عبد اللطيف البغدادي كتب أنه عندما كان في دمشق سنة ١١٩٠م قابل ابن هبيرة الذي كان يعمل في خدمة صلاح الدين. تمثَّلت عبقرية نظام الملك السياسية في ابتداع المدرسة - أو نقلها وتحويلها إن شئنا الدقة - لتكون الوسيلة التي حملت رسالة التقارب عبر العالم الإسلامي في المدن والبلدات. ولكن إذا كانت رسالة الإحياء السُّني عالمية في جوهرها، فقد اتسمت بالصلابة في مظهرها، ومع أنها وُلِدت في البداية لضرب المذهب الإسماعيلي، لكن القَدَر شاء أن تصل الأفكار السُّنية إلى بلاد الشام وقت وصول الصليبيين. وكان الجهاد نتيجة ذلك.

وبالطبع، كان ازدهار الأفكار السُّنية يتطلَّب الإخلاص في الالتزام بمبادئها، وكان الانتشار المدهش للمدارس - رمز المذهب السُّني المتجدد - شهادة على ذلك الإخلاص. وما يلفت النظر في هذه الفترة أن الجميع أسهموا في بناء المدارس للتأكيد على تدينهم، من العسكريين، أمثال شيركوه الذي لم يكن لديه الوقت للمناقشات الفقهية التي تدور داخلها، إلى العدد غير المتناسب من الرجال والنساء الذين لم يدخلوا قطُّ المدارس التي قاموا برعايتها. وأسهم صلاح الدين نفسه، بشكل نشط، في عملية الإحياء هذه، ولم يكن هناك ما يضاهي جهوده في مصر في هذا المضمار. وربما لم يكن على المستوى الفكري قادرًا على رؤية المشهد برمته. ويمكن القول بأمانة إن جهوده نتجت عن بساطة شخصيته التي أتاحت له الالتزام تمامًا بعقيدته السُّنية. وكانت هذه البساطة التي تكملها التقوى الطبيعية والتواضع، تجعله يشعر بأنه مدفوع بتيار شديد.

وقبل أن يتمكن صلاح الدين من مغادرة الساحل والتوجه إلى الأراضي الداخلية تجاه القدس كان عليه أن يحل مسألة عسقلان. اتجه إلى أغلى أسراه وعرض على الملك «جاي» حريته إذا أقنع حامية عسقلان بالاستسلام. وافق «جاي»، وعندما حاول أن يقنع الحامية سخر منه سكانها الصليبيون ووصموه بالجبن، وبقي أسيرًا سنة أخرى في نابلس. وفي الوقت نفسه، عندما رأى صلاح الدين أن عسقلان لن تستسلم اقتحمها واستولى عليها أخيرًا. وأثار خبر سقوط عسقلان أشجانًا، خصوصًا لدى القاضي الفاضل، لأنها المدينة التي وُلِد وعاش بها. ولم تلبث الأنباء أن جاءت باستسلام غزة والداروم، وكان معنى هذا أن الساحل صار ملكًا لصلاح الدين، الساحل باستثناء صور. وفي تلك

الأثناء، وصلاح الدين يزيل المعاقل الصليبية في فلسطين، كانت القدس تستعد للنهاية المحتومة. كانت المدينة تعاني نقصًا حادًّا في الطعام، خصوصًا أن معركة حطين جاءت في وقت الحصاد والمحاصيل لم تُجمع بعد. وصار نقص الطعام أكثر حدة عندما تدفَّق اللاجئون إلى بيت المقدس من معظم المناطق المحيطة بها: تضاعف عدد سكان المدينة من ثلاثين ألفًا إلى ستين ألفًا.

في أثناء هذه الفترة كانت تصرفات صلاح الدين محل إعجاب الصديق والعدو، وترددت الحكايات التي تدور حول تصرفاته في كل مكان حتى اكتسبت صورة أسطورية. وقد ذكرنا سابقًا مدى كرمه الذي أوقعه في مصاعب مالية كبيرة. وتعدَّى كرم صلاح الدين المسائل المادية، ونرى مدى كرم خُلقه في معاملاته مع الغير في القصة التالية: عندما تلقَّى طلبًا من «باليان دي إبلين»، وقد هرب من ميدان المعركة في حطين يشغله همٌّ واحد: ضمان سلامة زوجته الملكة «ماريا كومنينا»، وكانت متزوجة قبل ذلك من «أماليك»، وقد هربت إلى القدس مع أطفالها. وكان «باليان» يعرف أن بيت المقدس سوف يسقط حتمًا في يدي صلاح الدين، واعتقد أن الملاذ الآمن الوحيد للصليبيين مدينة صور. وكان السؤال: كيف يمكنه إحضار زوجته من القدس وإرسالها في خِفارة إلى مأمنها؟ وقد اشتهر صلاح الدين بالطيبة حتى إن «باليان» لم يتردد في أن يتوسَّل إليه ويطلب منه أن يمنحه الأمان ليتوجه إلى بيت المقدس لإحضار زوجته. كان طلبًا غير عادي، ولكنَّ صلاح الدين ارتقى إلى مستوى شهرته ووافق، بشرط أن يمضي «باليان» ليلة واحدة فقط وألا يرفع السلاح ضده مرة أخرى. وأقسم «باليان» على هذا وأُمِّن مساره. وعندما وصل «باليان» القدس وجد مدينة تحكمها الهستيريا تعاني انهيارًا عصبيًّا. ومع أنه قصد دخول القدس متخفيًا، فقد تم التعرف عليه واصطُحب إلى البطريرك «هيراكليوس»، وقد سافر ذات مرة إلى إنجلترا متوسلًا إلى «هنري الثاني» أن يقود حملة صليبية من دون طائل. وأصر «هيراكليوس» على أن يتولى «باليان» الدفاع عن المدينة ضد صلاح الدين، وعندما أخبره «باليان» بالقسم الذي أقسمه لصلاح الدين، لم يتزحزح البطريرك عن موقفه وأعلن أن «القسم الذي يُقطَع لكافر ليس قسمًا». لكنَّ «باليان» عرف أن الشرف الذي يتمتع به صلاح الدين أكثر من شرف بطريرك بيت المقدس. كان موقفًا مستحيلًا بالنسبة إليه؛ فالعهود لا ينبغي أن تنكث من دون أن يفقد المرء شرفه، ولكن الناس في مدينة القدس رفضوا أن يتركوه يغادر المدينة وتمسكوا به، وعندئذ أرسل رسالة عاجلة

إلى صلاح الدين يوضِّح فيها المعضلة التي يواجهها، ولم يوافق صلاح الدين على إعفاء «باليان» من قسمه فحسب، وإنما تعهد شخصيًّا بضمان المرور الآمن لزوجته وأطفالها إلى صور. ولأن الرحلة كانت متعبة، فقد عمل صلاح الدين على الترفيه عنها في خيمته وأعطى الأطفال ملابس وجواهر على سبيل الهدية بمناسبة رحيلهم.

صلاح الدين يحاصر القدس

حان الوقت لتحرير القدس. أخبر المنجمون صلاح الدين ذات مرة أن النجوم تنبأت له بأنه سوف يدخل القدس ويفقد إحدى عينيه، لكن صلاح الدين لم يأبه، وأجاب ببساطة أنه لا يبالي حتى لو فقد بصره إذا ما أخذ المدينة. وبينما كانت المدينة على وشك السقوط، كان من دواعي السخرية أن «باليان دي إبلين» هو الذي وقف في طريقه. وكان المسلمون يعتبرون «باليان» ملكًا لأنه الأعلى رتبة بين نبلاء بيت المقدس. وفي بيت المقدس اكتشف «باليان» أن في المدينة أقل من أربعة عشر فارسًا، وأن عليه أن يُولِّي ستين فارسًا جديدًا، بعضهم لم يتعدَ الستة عشر عامًا. وخزن الطعام والأموال المتاحة توقعًا للحصار المحتوم الذي بدأ مع وصول جيش صلاح الدين خارج أسوار القدس، يوم ٣٠ سبتمبر. وكان يوسف بطيط أحد أفراد الإكليروس والأرثوذكس الشرقي قد توسَّط بين صلاح الدين و«باليان». وأوضح صلاح الدين أنه يُفضِّل أخذ المدينة من دون إراقة الدماء، ولكن مَن في الداخل بقوا على تحدِّيهم وعنادهم ورفضوا الاستسلام، وأقسموا على تدمير المدينة وقتل خمسة آلاف أسير مسلم في المدينة بدلًا من تسليمها سِلمًا إلى صلاح الدين. وهكذا بدأ الحصار، وعلى مدى أسبوع كان جيش صلاح الدين، في مواجهة برج داود وبوابة دمشق، يمطر الشرفات بالسهام والقذائف والمجانق. ودُفِعت آلات الحصار قرب الأسوار، ولكن كانت تُصَدُّ في كل مرة. ثم تحرَّك صلاح الدين يوم ٢٦ سبتمبر، ونقل معسكره إلى جزء آخر من المدينة - إلى جبل الزيتون حيث لم تكن هناك بوابة رئيسة يمكن للصليبيين من خلالها مواجهة الهجوم. وبعد ثلاثة أيام نجح المسلمون في تقويض جزء من السور وفُتِح منفذ لم يستطع الصليبيون الأقل عددًا الدفاع عنه. وفي المدينة نفسها استشرى اليأس لأن الناس استولى عليهم الذعر والهلع عندما شاهدوا الرايات الإسلامية ترفرف على أسوار المدينة.

وفي نهاية سبتمبر ركب «باليان» إلى خارج المدينة في سفارة لمقابلة صلاح الدين.

وكان «باليان» مستعدًّا آنذاك لقبول الاستسلام الذي رفضه في البداية، وكان صلاح الدين مترددًا. وسرعان ما تم الاتفاق على استسلام المدينة واعتُبِر أهلها أسرى حرب؛ وكان معنى هذا أن عليهم افتداء أنفسهم، وحُددت الفدية بعشرة دنانير للرجل، وخمسة دنانير للمرأة ودينار للطفل. وأُمهل السكان الصليبيون أربعين يومًا لجمع الفدية، يُستَرَقُّ كل مَن لا يدفع الجزية بعدها. وعندما مرت الأيام الأربعون أطلق أمراء صلاح الدين ألفًا ممن لم يستطيعوا دفع الفدية. وأهم ما يلفت الانتباه أن العادل وكوكبوري وصلاح الدين نفسه أطلقوا سراح كل المُسنين الذين عجزوا عن دفع الفدية. كان تصرفًا يشي بالكرم الهائل، وبذلك اكتسب صلاح الدين في أثناء سقوط بيت المقدس إعجاب الصليبيين واستحق مكانة عالية في التاريخ. وقد استُغلت قلة الشروط التي فرضها صلاح الدين، وكان أكثر هؤلاء انتهازية البطريرك «هيراكليوس»؛ دفع خمسة عشر دينارًا فدية لنفسه ولعشيقته، وأخذ في تحميل العربات ليملأها بكؤوس العشاء الرباني الذهبية والأطباق والسجاجيد ليخرج بها من المدينة. وكان سلوكًا ينضح بالفضيحة؛ كانت هذه الكنوز تكفي لافتداء خمسة عشر ألفًا من الصليبيين الذين سرعان ما وقعوا في ذل العبودية، ولكن عندما شكا أمراء صلاح الدين غاضبين من سلوكه لوَّح لهم بيده وأجاب: «إنني أُفضل أن أجعلهم يطبعون شروط الهدنة، حتى لا يتهموا المؤمنين بأنهم قد خلفوا وعدهم». واعترف فيما بعد في حديث خاص بأنه صُدم من تصرف هذا الرجل «غير المقدَّس». ومنذ خرج «هيراكليوس» من بيت المقدس متسللًا ومحملًا بالذهب لم نسمع عنه، ولخص كاتب مسيحي حياته في عبارة واحدة: «عاش خسيسًا ومات مجهولًا».

ليس هناك تناقض أكبر مما كان بين دخول المسلمين القدس في أكتوبر ١١٨٧م والاحتلال الذي تعرضت له في الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م، عندما فاضت الشوارع بدماء المسلمين واليهود. وعندما غادرت الطوابير الثلاثة للصليبيين بيت المقدس: أحدها بقيادة «باليان» نفسه، والآخران نظمهما الداوية والإسبتارية، وضع صلاح الدين جنوده في جميع أنحاء المدينة لضمان ألا يكون هناك نهب أو سلب. وبالإضافة إلى ذلك ضمن أن تكون الطوابير تحت حماية المسلمين حتى لا يتعرضوا للاغتصاب من جانب البدو. ومن مائتين وعشرين ألف دينار توفَّرت من الفدية في القدس لم يحتفظ صلاح الدين بشيء، وطلب عدد من المسيحيين المحليين الإذن من صلاح الدين للبقاء في القدس، ووافق بشرط أن يدفعوا الجزية، وكانت تُفرض على

غير المسلمين. ومقابل الجزية سُمح لهم بالتعبُّد بحرية في كنائسهم. وتسلَّم البطريرك البيزنطي شؤون المسيحيين.

الدخول الظافر إلى القدس

بقدر متزايد من الإثارة والقلق تجمَّع المسلمون في الشوارع ليشهدوا دخول صلاح الدين في احتفال إلى بيت المقدس، ولاحظ ابن شداد توافد المسلمين من كل حدب وصوب ـ وبتعبيره: قَصَده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد من الحضور ـ ليشهدوا الدخول الظافر واستعادة القدس إلى الحظيرة الإسلامية: علماء وصوفية، شعراء وقضاة، مدنيون وعسكريون، اصطفوا جميعًا في الشوارع وكل العيون على صلاح الدين، ولكن صلاح الدين طبقًا لطبيعته، تحلَّى بالصبر واختار ألا يدخل المدينة حتى يكون الوقت ميمون الطالع، وهكذا انتظر حتى ٢٧ رجب ٥٨٣هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧)، ذكرى الإسراء، ودخل المدينة المقدسة. كانت الرمزية القوية في اختيار مثل هذا التاريخ عن قصد بالطبع لتُحدث تأثيرًا قويًّا. ولاحظ عماد الدين الأصفهاني الذي صحب صلاح الدين إلى بيت المقدس أن المهمة الملحة هي إعادة ترميم قبة الصخرة والمسجد الأقصى بحيث يصير مناسبًا للصلاة. وعلى أية حال، لم تكن الأعمال التي قام بها صلاح الدين آنذاك مجرد احتفالات بإعادة تأهيل المباني الدينية؛ كانت مراكز الإسلام المقدسة هذه بحاجة إلى التنظيف والتطهير من النجاسة التي أحدثها الفرنج فيها(٤). ونقشت عبارة على قبة الصخرة مؤداها أن صلاح الدين طَهَّر هذا البيت المقدس من الكفار. وفي الحال انطلق المسلمون للاستعداد لصلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وكانت أول صلاة جامعة منذ ثماني وثمانين سنة. وثبت أن المهمة كانت أصعب مما خطر على البال، كان عليهم أولًا إزالة كثير من المباني التي بناها الفرنج. وحكى عماد الدين الأصفهاني أن الداوية بنوا مساكن لهم غرب المسجد الأقصى، وجهزوها بمخازن للغلال ومراحيض، وأُدخل جزء من المسجد في المباني، وأمر صلاح الدين بإزالة هذه المباني وكلَّف تقي الدين بمهمة الإشراف على تطهير المكان، وفي البداية أزيلت كل الزينة التي وضعت في أثناء الاحتلال الصليبي من المباني، كما أن المحراب الذي أخفاه فرسان الداوية كُشف. وعندما أزيلت كل الصور والأيقونات والزينة التي وضعها الصليبيون، غُسلت الحوائط والأرضيات في المسجد الأقصى وقبة الصخرة بماء الورد،

ثم أطلق فيهما البخور الكثيف، وغُطيت الأرضيات بالسجاجيد الثمينة بدلًا من الحصير المنسوج من القش، ووُضع المنبر، الذي أمر نور الدين بصناعته، في مكانه. وحتى ابن الأثير، الذي أظهر في جميع كتاباته عداوة سافرة تجاه صلاح الدين واتهمه باغتصاب مكان سادته الزنكيين، فهم الرمزية الكامنة فيما حدث، وقال إن صلاح الدين أمر بتطهير المسجد الأقصى وقبة الصخرة من جميع النجاسات والأوساخ. وكان اختيار ابن الأثير لكلمة «نجاسات» مقصودًا، ويعكس الرؤية الإسلامية التقليدية للفرنج الذين تعدوا على الأماكن الإسلامية المقدسة.

مَن يلقي الخطبة الأولى في صلاة الجمعة التي أعقبت الدخول إلى بيت المقدس؟ يتصور المرء أنه كانت هناك منافسة حامية من أجلها بين الفقهاء، فلم يكن ثمة شرف أكبر من هذا الشرف، ومن الطبيعي أن يكون الخطيب شافعيًّا، تعبيرًا عن المذهب الذي يعتنقه صلاح الدين، ووقع الاختيار أخيرًا على محيي الدين بن الزكي الدين قاضي حلب. وصور عماد الدين الأصفهاني تلك اللحظة:

> وجلس [السلطان] للهناء، ووجهه بنور البِشْر سافر... وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جالسون يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف يُنشدون وينشدون، والأعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتُبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع.

وفي الخطبة ركَّز ابن الزكي الدين على موضوع الطهارة، وتحدَّث عن عطر القداسة والتشريف. وتؤكد القصة في مضمونها بشكل مقصود على وحدانية الله، وتنتقد بشكل لاذع مسألة ألوهية المسيح والثالوث. وحثَّ ابن الزكي السامعين على استمرار الجهاد قائلًا إنه الوسيلة المثلى لعبادة الله، وأفضل عمل ممكن في الحياة، ولم ينسَ صلاح الدين وأسرف في مديحه، ودعا بأن يمنحه الله خير الثواب لقاء الخدمة التي أسداها لنبيه محمد. وعندما أنهى ابن الزكي خطبته التفت صلاح الدين إلى زين الدين بن نجا، الرجل الذي وصفه ذات مرة بأنه بمنزلة عمرو بن العاص بالنسبة إليه، وكان من أقرب مستشاريه في مصر، وطلب منه أن يعظ جمهور المصلين. وتحدث ابن نجا، وكان من مريدي الجيلاني، بفصاحة وقوة فتساقطت دموع الجمهور.

وبعد ذلك بوقت قصير اقترب بعض المسلمين من صلاح الدين وطالبوا بتدمير كنيسة القيامة، وكانت حجتهم أن تدميرها يمنع الفرنج من القدوم إلى القدس. وجادلوا:

«إذا هُدمت مبانيها، وأُلحقت بأسافلها أعاليها، ونُبشت المقبرة، وعفيت، وأُخمدت نيرانها وأطفيت، ومُحيت رسومها ونُفيت، وحُرثت أرضها، ودُمر طولها وعرضها، انقطعت عنها أمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار».

واستمع صلاح الدين إلى كلماتهم، ورفض مطلبهم، لا لأن ذلك كان ضد الشريعة الإسلامية فحسب، وإنما أيضًا لأنه فهم أن تدمير الكنيسة لم يكن ليمنع المسيحيين من القدوم إلى القدس. ولا بد أن صلاح الدين كان يعرف أيضًا أنه عندما فتح الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس سنة ٦٣٧م، أمر بعدم هدم الكنيسة، وبأن من حق المسيحيين ممارسة شعائرهم بها، ومع هذا، ليزيد من الوجود الإسلامي في المدينة، أسكن صلاح الدين عددًا من القبائل العربية في بيت المقدس وحولها.

ومن الواضح أن استرداد القدس على يدَي صلاح الدين ترك أثره على كثير من المسلمين. وفي أثناء هذه الفترة اقترب ابن شداد من صلاح الدين، وألَّف له كتابًا بعنوان «فضائل الجهاد». وكان الرجلان قد تقابلا من قبل؛ ففي سنة ١١٨٤م زار ابن شداد دمشق وانبهر به صلاح الدين حتى إنه عرض عليه وظيفة التدريس في مدرسة بمصر، لكن ابن شداد لم يقبل(٥). وكانت المرة الثانية في فبراير ١١٨٦م، عندما صحب ابن شداد وفدًا موصليًّا آخر لعقد شروط الصلح مع صلاح الدين، الذي كان مريضًا في حران، وابن شداد هو الذي شهد قسم اليمين لصلاح الدين. ولا بد أن صلاح الدين تذكَّره لأنه منعه من العودة إلى الموصل وبعث عيسى الهكاري ليخبره أن صلاح الدين يرغب في أن يلحقه بخدمته، وعين ابن شداد قاضيًا للجيش، وظل طوال ما بقي من عمر صلاح الدين الشخص الأثير لديه. والحقيقة أنه بغض النظر عن الفترة بين أكتوبر ١١٨٩م وربيع ١١٩٠م، عندما ذهب إلى بغداد في بعثة دبلوماسية(٦)، يمكن أن نزعم أن ابن شداد لم يفارق صلاح الدين قطُّ.

وفي بيت المقدس حافظ صلاح الدين وعائلته على تقاليد أيوب وشيركوه، وقبلهم نور الدين محمود، من حيث التزامهم بمبادئ الإحياء السُّني. وفي كنيسة القديسة «آن» ـ ويعتبرها التراث المسيحي مكان ولادة العذراء ـ أمر صلاح الدين ببناء مدرسة فخمة للمذهب الشافعي، وقام كذلك ببناء الخانقاه الصالحية، وكانت مكانًا لإيواء الصوفيين المنقطعين للذكر وقراءة القرآن. وعلى خطى أبيه بنى الأفضل مدرسة مالكية

لإيواء الحُجاج القادمين من شمال إفريقيا وأكثرهم يتبعون المذهب المالكي. وأمر أخو صلاح الدين العادل ببناء مكان للوضوء داخل حرم المسجد، وبنى ابنه المظفر مدرستين في مدينة القدس. أحيا صلاح الدين قبل ذلك بعشرين سنة تقريبًا المذهب السُّني في مصر، وكان أول من أدخل الإحياء السُّني في القدس وذلك ببنائه المدارس. أثبتت إنجازات صلاح الدين في مصر مدى أهميتها الإستراتيجية، فقد كانت السند الاقتصادي والعسكري لنجاحه في بلاد الشام، وعلى الجانب الآخر كان إنجازه في القدس ذا قيمة رمزية. ضَمِن استرداد ثالث الأماكن المقدسة للمسلمين لصلاح الدين مكانة في التاريخ.

الفصل الثالث عشر

وصـول «ريتشـارد»

والناس من جريح الجسد وجريح القلب.

ابن شداد

«كونراد» يُحصِّن صور

اتجهت الأنظار جميعًا آنذاك صوب صور. وأخبر المشطوبُ صلاحَ الدين أنها السهم الأخير في جعبة الكفار، ولكن حين نطق المشطوب بهذه الكلمات كانت المدينة تتسرب من قبضة صلاح الدين؛ لأن «كونراد مونتفورت» وصل إليها. وصل «كونراد»، الابن الثالث للماركيز «وليم مونتفورت»، إلى الأرض المقدسة مصادفة. قضى حياته المبكرة في البلاط البيزنطي، ولكن شخصيته المستقلة لم تقبل حياة البلاط الخانقة في القسطنطينية وقرر الإبحار إلى عكا، وهو لا يدرك الكارثة التي وقعت في حطين. وعند اقترابه من ميناء المدينة، وجد قاربًا للجمارك، أخبره أن عكا في أيدي المسلمين، فأسرع بالإبحار بعيدًا، وتوجَّه إلى صور، حيث أرسى. ورحب أهلها بهذا الفارس الإيطالي كأنه جلب معه الخلاص(1). وبالإجماع اختار الفرسان والبارونات في المدينة «كونراد» قائدًا لهم حتى وصول حملة صليبية جديدة من أوروبا. وكان الجميع متأكدين من شيء واحد: أنه لو لم يصل «كونراد» لسقطت صور. ووصلت إلى صلاح الدين أنباء تحدي «كونراد» واستعداده في صور، فحث السير إلى أسوار المدينة يصحبه رجل مُسِن ـ من الأسرى ـ اعتقد أنه مفتاح المدينة. كان الرجل «وليم مونتفورت»، والد «كونراد»، وأُخرج في تلك اللحظة ليراه «كونراد»، وكان يراقب الموقف من شرفات القلعة. وأُنذر بأن يسلم المدينة أو يُعدَم «وليم». وفشلت الحيلة،

عندما جاءت إجابة «كونراد» بأن أباه عاش عمرًا طويلًا، وغلبت صلاح الدين طبيعته فأطلق سراح الرجل المُسِن.

والحقيقة أن كثيرًا من الوقت الثمين ضاع في بيت المقدس، وبرهن حذَر صلاح الدين، وكان مصدر قوته، على أنه نقطة ضعفه. وفي الوقت نفسه، انتهز «كونراد» الفرصة وعمل بحمية على تقوية تحصينات المدينة. وحُفِر خندقٌ عميق عبر الجسر من الساحل مما جعل صور فعلًا جزيرة، وأتاح لها أن تصمد في مواجهة حصار طويل وهي تنتظر النجدة من جنوا وبيزا. وحين وصلت جيوش المسلمين إلى صور، يوم ١٢ نوفمبر ١١٨٧م، كانت المدينة العنيدة بأسوارها التي ترتفع ستة أمتار، وقد زاد من همتها الفارس الإيطالي الشجاع، مستعدة للصمود أمام الحصار الطويل وقذائف مجانق صلاح الدين. والحقيقة أن جيش صلاح الدين كان يعاني نقصًا في الرجال، وكان الشتاء يقترب، وأصر كوكبوري على الذهاب للحج، وكان تقي الدين يريد العودة إلى دياره. وكان هناك تفاؤل في البداية، وكتب عماد الدين الأصفهاني، وكان برفقة صلاح الدين إلى القاضي الفاضل أن صور سوف تسقط، على الرغم من أنه أضاف أن المسلمين اعتادوا الانتصارات السهلة، وأن عليهم أن يتخلوا عن حياتهم الناعمة عند صور.

في الوقت نفسه، أُصيب صلاح الدين بالإحباط من الاستقبال الفاتر من الخليفة العباسي، الذي كان يخشى من القوة التي يستطيع صلاح الدين استخدامها. وكان عماد الدين قد نبه صلاح الدين إلى توخي الحذر في اختيار رسوله إلى بغداد، وبسبب تعجله في إرسال أخبار استرداد القدس، اختار شابًا عراقيًا تباهى وهو سكران بطموحات صلاح الدين. وبدلًا من المديح تلقَّى صلاح الدين توبيخًا لأنه اتخذ اسم الخليفة ـ الناصر ـ لنفسه. وفوق هذا وذاك ذُكِّر صلاح الدين بفتور: ألم يفتح القدس بجيش الخليفة وتحت رايته؟ وأدى توبيخ بغداد إلى غضب صلاح الدين غضبًا شديدًا، وقال إذا زعموا أنني فتحت القدس بجيشهم وتحت راياتهم فأين كانوا؟ وترددت أصداء غضب صلاح الدين عند العادل وتقي الدين، على الرغم من أن القاضي الفاضل حثهم على ضبط النفس إزاء بغداد. وكان من الواضح تمامًا أنه حتى استعادة القدس لم تستطع أن تغير نظرة الخليفة من انتشار نفوذ صلاح الدين[٢]. وذلك أنه عندما وصلت الأنباء إلى بغداد بسقوط القدس، يوضح لنا رد فعل أحد مستشاري الخليفة كل ما نود معرفته قائلًا: «هذا الرجل [صلاح الدين] يظن أنه سوف يقلب الخلافة العباسية رأسًا على عقب».

وهدأ روع صلاح الدين بوصول أخيه العادل وابنه الأفضل، ولكنَّ الطقس كان متجهمًا مثل حالته النفسية، والثلج يتساقط. وأمر صلاح الدين بإبحار السفن الحربية من بيروت لدفع سفن الفرنج داخل الميناء، وفي ٣٠ ديسمبر شن «كونراد» هجومًا جسورًا حول الحصار بصورة قوية، وباستخدام القوة الكاملة للدعم البحري الذي وفرته صور له، فاجأ الأسطول الإسلامي وتسبب في دمار كبير. وفقدَ صلاح الدين السيطرة على البحر، وفي الوقت نفسه أخذ القلق يتزايد بين أمرائه؛ كان العام على وشك الانتهاء، وكانوا بحاجة للرجوع إلى بلادهم. وعندما رأى صلاح الدين جيشه يتفرق أمام ناظريه لم يكن أمامه بُد من صرف الجيش والراحة فترة الشتاء. وكان هو نفسه مرهقًا جسديًّا وذهنيًّا، وكان اعتلال صحته يرهقه بشكل متزايد حتى صار ظلًّا للرجل المنتصر في حطين قبل أشهر قليلة فحسب. وغادر تقي الدين بقوات الموصل وسنجار(٣)، ورحل العادل إلى مصر، وتوجَّه الظاهر بن صلاح الدين، إلى حلب. والأميران الوحيدان، ممن يستحقون الذكر، اللذان بقيا معه في أثناء الشتاء هما عز الدين جرديك وعيسى الهكاري، وكان يعرفهما منذ أيامه في مصر. وفي أشهر الشتاء زاد تدهور العلاقات مع الخليفة، في أعقاب حادثة مأسوية جرت خلال الحج. كان ابن المقدم، وكان أول من دعا صلاح الدين لدخول دمشق بعد وفاة نور الدين، يقود ركب الحُجاج الشاميين إلى مكة في تلك السنة، ويبدو أنه أصر على رفع راية صلاح الدين عند جبل عرفات، واصطدم بالحُجاج العراقيين الذين أرادوا إنزالها وتمزيقها. وجُرح ابن المقدم ومات متأثرًا بجراحه بعد وقت قصير، وأدى ما يجب أن يكون شعيرة دينية سلمية إلى المزيد من التوتر بين دمشق وبغداد.

ولم تسقط صور ـ وكانت الوصمة الوحيدة في سنة متميزة للغاية. لكن من المبكر تقدير هذا الأمر، فقد أنجز صلاح الدين كل ما وعد به: دمر جيش الفرنج، واكتسح مملكة الصليبيين في بيت المقدس، واسترد القدس. وكان صلاح الدين يأمل في أن تسقط صور بين يديه في الربيع التالي، ويخشى في أعماقه ألا يحدث ذلك. ووصله المزيد من الأخبار المزعجة على شكل خطاب من الإمبراطور الألماني «فردريك بربروسا»، وقد أخذ شارة الصليب بمجرد علمه بالكارثة التي حلَّت بالصليبيين في حطين، ووعد باستخدام كامل قوة الجنس الألماني لاستعادة بيت المقدس. ولم يكن ممكنًا آنذاك أن يساور صلاح الدين شك في أن سحابة سوداء تقترب، مهددة بتدمير كل ما أنجز، ومنحه وصول عماد الدين زنكي من سنجار مع قواته في مايو ١١٨٨م بعض الأمل، وإلى حد ما كان صلاح الدين

قلقًا إزاء الزنكيين، الذين أرسلوا القوات على مضض، وبقوا يشعرون بالمرارة، ومن المؤكد أنه لم ينسَ المتاعب التي تسببوا له فيها. وعلى أية حال، حرص صلاح الدين على أن يُبدي أكبر قدر من كرم الضيافة واللطف؛ كان بحاجة إلى تهدئة خاطره، وخرج ليُحيي عماد الدين شخصيًّا، ونزل كلٌّ من الرجلين لتأكيد المساواة في المكانة بينهما. وقُدمت الهدايا إلى عماد الدين والأطعمة الشهية - المشمش الشهي الذي وصل من دمشق - وجلس إلى جوار صلاح الدين الذي فرش ثوبًا من الحرير ليسير فوقه، ولم يكن هناك ما يمكن لصلاح الدين أن يدخره في سبيل الإبقاء على التحالف الإسلامي.

ومع صمود صور، حوَّل صلاح الدين اتجاهه صوب أنطاكِية، وكان الاستيلاء عليها ذا أهمية كبرى؛ لأنه يسد الطريق البري أمام أي جيوش صليبية. وزحف صلاح الدين في اتجاه الشمال وعماد الدين زنكي يقود ميمنة الجيش. وفي يوليو ١١٨٨م سقطت طرطوس وتلتها اللاذقية، ولم يحدث أي هجوم على أنطاكِية. كان صلاح الدين نفسه يريد أن يهاجم ويفرض الحصار عليها، لكنه لم يستطع إقناع عماد الدين زنكي، الذي لم يكن يرى أي فائدة في مساعدة صلاح الدين الأيوبي. وعلى أية حال، كان سقوط أنطاكِية يقوي صلاح الدين أكثر من ذي قبل، ولكن لم تكن نجاتها تمثل خطرًا على بلاده، ولم يكن لديه سبب لإظهار المزيد من الحماسة(٤). وكان رجوع صلاح الدين من أسباب الإحباط الكبير الذي عانى منه القاضي الفاضل. وبالنسبة إلى المنافسة الزنكية الأيوبية، فقد ظهر أن النصر في الجهاد لا يكفي في ذاته لالتئام الجراح القديمة(٥). وخفف من خيبة الأمل بشأن أنطاكِية جزئيًّا وصول أنباء إلى صلاح الدين بسقوط الكرك، حصن «رينالد دي شاتيون»، في يدَي العادل. وفي يناير ١١٨٩م سقط حصن كوكب أيضًا، لكن صور استمرت في المقاومة. وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك نقص حاد في الأموال، وتجنَّب كثير من الأمراء صلاح الدين حتى لا يطلب منهم المال. وكتب عماد الدين الأصفهاني في إبريل ١١٨٩م من دمشق إلى القاضي الفاضل، وكان في مصر، يشكو من سوء الموقف، ورد القاضي الفاضل زاعمًا أنه بالمقارنة مع مصر تبدو مشكلات دمشق قطرة في المحيط. وكان الموقف المالي لعماد الدين الأصفهاني نفسه غير جيد، وفي إحدى المراحل فكر في ترك صلاح الدين ليبحث عن حظه في مكان آخر. وإذا كان الشخص الأكثر حبًّا لصلاح الدين قد فكر، ولو بصورة نصف جدية، في التخلِّي عنه، فإن ذلك يكشف عن مدى المشكلات التي كان يعاني منها(٦).

عندما أخرج صلاح الدين «جاي لوزنيان» إلى أسوار عسقلان للتفاوض من أجل استسلام المدينة، واجه الملك السخرية والشتائم من المدافعين عن المدينة. وكان هدفًا لمذمة الجميع منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها في فلسطين، وعمل على كسب قلب «سيسل» ليرث مملكة بيت المقدس. واستاء الفرنج الذين وُلِدوا في فلسطين من هذا الوافد الجديد، بل إن «بلدوين الرابع» حاول عبثًا أن ينهي زواجه من أخته. وتعرَّض «جاي» بسبب تردده في حطين لاتهامات تصمه بالضعف والجبن، ومع انهيار الخيمة الملكية بدا كأنه قدَّم آخر إسهاماته التافهة في الدراما المعروضة، وكان هناك المزيد لـ«جاي» مما لا يبدو أن أحدًا يتوقعه، وها هو يبرز مكللًا بالعار. أطلق صلاح الدين سراحه على وعد بألا يحارب ضده ثانية، ولكنَّ «جاي» سرعان ما وجد قسيسًا حلَّه من قسمه. ثم سار إلى صور وطلب الدخول إلى مدينته، ولكن «كونراد» رفض وأهانه بفظاظة؛ لأنه لم يكن ينوي تسليم ما كسبه مرة أخرى. ووجد «جاي» بوابات المدينة موصدة في وجهه مثلما هي موصدة أمام صلاح الدين. لكن «جاي» كان عنيدًا، وعندما بدأت التعزيزات الصليبية تصل الأرض المقدسة جمع قوة مختلطة وسار إلى عكا. وكانت مسيرة تنم عن حماقة ـ مسيرة قامت على أساس الجهل التام من دون تقدير لثمن فعلته(٧). ومن الواضح أن «جاي» بقي على حماقته؛ ولكن الحظ ابتسم له هذه المرة على أية حال بشكل يستلفت النظر تمامًا. وكما يستنتج «تيرمان»، كان تصرف «جاي» مغامرة يائسة لم ينلها التدمير بسبب حرص صلاح الدين فقط(٨).

والحقيقة أن صلاح الدين كانت لديه أسباب قوية تمامًا للحذر، لأنه على الرغم من تلقيه أخبارًا عن مسير «جاي» بارتياب، كان أكثر اهتمامًا بالعاصفة الألمانية التي تتجمع نذرها في الأفق. عندما وصلت أنباء كارثة حطين إلى أوروبا، كانت الصدمة هائلة. مات البابا «أوربان الثالث» كمدًا عندما سمع عن الكارثة، وأُصيب «هنري الثاني»، وكان قد وعد بالقيام بحملة صليبية في عدة مناسبات، بصدمة أخرسته ولم ينطق بكلمة على مدى أربعة أيام. وكان فرسان ألمانيا أول المستجيبين. أخذ أول الحُجاج الألمان شارة الصليب في ديسمبر ١١٨٧م، وتبعهم الإمبراطور بعد ثلاثة أشهر، وكتب يتحدى صلاح الدين. وكانت الاستجابة كبيرة بحيث لم يكن ممكنًا العثور على أسطول يحمل الصليبيين، وأشارت التقديرات إلى أنه بحلول مايو ١١٨٩م خرج ما يزيد على خمسين

ألفًا من ألمانيا. وأُشيع أن ملكي فرنسا وإنجلترا كانا يجتمعان لتسوية الخلافات للقيام بحملة صليبية انتقامًا للقدس.

وبحلول ربيع ١١٨٩م، بدأت القوات في العودة لدعم صلاح الدين، ومن بين أوائل الذين وصلوا حفيد شيركوه ونجل ابن المقدم. وفي إبريل حقّق صلاح الدين نجاحًا بسقوط قلعة «بوفور أرنون». وكانت ملكًا لـ«رينالد» أمير صيدا، وعندما حاصرها صلاح الدين بعد حطين، طلب «رينالد» مهلة ثلاثة أشهر، مع وعد بأن يسلمها بعدها. ودُهش مستشارو صلاح الدين لأنه وافق على طلب «رينالد». لكن سرعان ما ظهر واضحًا أن «رينالد» خدع صلاح الدين، ولذلك عندما رجع يطلب مهلة ثانية اكتشف أن لكرم صلاح الدين حدودًا، وحُبس في دمشق، وفي الوقت نفسه عندما سقطت قلعة «بوفور» في النهاية، أُطلِق سراح «رينالد». وفي الوقت نفسه، كانت القوة التي تحاصر عكا بقيادة «جاي» تزداد قوة يوميًّا. ذلك أن «لودفيج الثورينجي»، وقد نزل في صور، نجح في المصالحة بين «جاي» و«كونراد» الذي سار معه آنذاك للانضمام إلى الحصار، على الرغم من أن «كونراد» رفض الاعتراف بـ«جاي» ملكًا. ويوميًّا كانت القوات الصليبية تزيد وزن الذين يفرضون الحصار؛ حيث تدفق آلاف من الصليبيين الفرنسيين والإيطاليين ودعمتهم قوة كبيرة من الداوية تحت قيادة «جيرارد ريدفورت»، وكان صلاح الدين قد أطلق سراحه وأقسم ألا يقاتل ثانية ضده، ولكنه أخذ فيما بعد بالرأي القائل بأن العهود التي تُقطع للمسلمين ليست سارية. وعلى أية حال، لم يكن المسلمون قد نسوا العهد الذي أقسم عليه «جيرارد»، ولذلك عندما أُسر في أعقاب هجوم على عكا أعدموه. وكان واضحًا باستمرار، وبشكل متزايد، أن صلاح الدين سيهاجم «جاي» قبل أن يصل عكا، ولكنه بدلًا من ذلك كان أكثر اهتمامًا بالحملة الصليبية الألمانية التي تقترب ولا يريد أن يشغل الكثير من رجاله بعكا؛ ولذلك لم يستطع حتى حلول الخريف أن يركز قوته كلها لنجدة عكا. وفي الوقت نفسه، في أغسطس ١١٨٩م، انتهز «جاي» فرصة انشغال صلاح الدين ليشن هجومًا على المدينة، وكانت على وشك السقوط بين يديه لولا وصول قوة نجدة إسلامية. وأعقب ذلك قدوم صلاح الدين على رأس الجيش، وتعزز بوصول تقي الدين وكوكبوري، وقوات من الموصل وسنجار.

وأخيرًا، عندما تجمَّع الجيش الإسلامي، كان بوسع صلاح الدين أن يتصرَّف، وكان أمله أن يخرج الفرنج ويهاجموا، ولكنهم رفضوا، وبدلًا من ذلك شعروا بأنهم أقوياء بما

يكفي لإحكام الحصار حول عكا. وعلى مدى يومين هاجم الجيش الإسلامي وجرى قتال شرس. وكان أول قتال ميداني منذ معركة حطين، لكن الفرنج ظلوا متماسكين في وجه الهجمات، وراقب صلاح الدين في قلق الهجمات عن قرب، ولاحظ ابن شداد أنه على مدى اليومين لم يلمس الطعام إلا نادرًا. وفي الوقت نفسه تزايدت القوات الفرنجية بمعدل مزعج. ويحلول أكتوبر ١١٨٩م وصل عددهم إلى مائة ألف؛ لتدفق المزيد من الصليبيين إلى فلسطين. ولاحظ عماد الدين الأصفهاني أنهم يحتشدون مثل النمل، وقد زادوا من عمق خنادقهم حتى صار من المستحيل مهاجمتهم. واستمر القتال، على الرغم من هبوط معنويات الجيش الإسلامي باطراد. كانوا على ظهور الخيل منذ خمسين يومًا، وقد حان الوقت لإعادة تجمعهم. وعلى الرغم من الضغط المتزايد الذي أثر على صحة صلاح الدين، فقد كان يركب يوميًّا، عاقدًا العزم على القتال. وشكا لابن شداد من أنهم لن يفعلوا شيئًا ما لم يكن راكبًا معهم يراقب أفعالهم. وعانى شخصيًّا من الخسارة بموت ابن أخيه، وصديقه العزيز الكردي عيسى الهكاري؛ الذي لعب دورًا مهمًّا في تعيينه وزيرًا في مصر، وكان إمامًا له ولشيركوه في الصلاة. وعلى الرغم من زيادة قوة صلاح الدين بوصول العادل من مصر على رأس قوات جديدة، فقد حال جو الشتاء دون أي قتال خطير.

وزاد مشهد وصول المزيد من الصليبيين من يقظة صلاح الدين. عرف أنه إذا لم يتصرَّف على وجه السرعة فقد يفوت الوقت، فأرسل ابن شداد شمالًا يحمل رسائل إلى الموصل وسنجار وأربيل، وإلى الخليفة في بغداد، مشيرًا إلى الفرق بين حماسة الصليبيين الألمان والاستجابة الفاترة من المسلمين، كما بعث برسالة إلى أخيه طغتكين في اليمن، يطلب رجالًا، وكتب إلى قيزيل أرسلان؛ سيد همدان. وبعد وقت قصير جاء رد الخليفة: بدلًا من الرجال تلقى صلاح الدين مذكرة تخوله اقتراض عشرين ألف دينار من التجار على حساب بغداد. وكان مبلغًا تافهًا، ولم يأخذه صلاح الدين الذي كان ينفق ما يصل إلى عشرين ألف دينار يوميًّا. وربما عاد بذهنه إلى الوقت الذي أعطاه الخليفة الفاطمي العاضد مليون دينار للدفاع عن دمياط. وصاغ ابن شداد، كما جرت عادته، مسألة نفاد الأموال، فكتب يقول بدبلوماسية إن السلطان سعى إلى خفض النفقات والعبء الذي تفرضه. ومن الصعب، كما يكتب «ليونز» و«جاكسون»، ألا نستنتج أن العلاقات كانت متأزمة للغاية بين بغداد وصلاح الدين، حتى إن هِبة الخليفة كانت إهانة دبلوماسية(٩).

ولإحكام الحصار على عكا بنى الفرنج أبراجًا متحركة تُطل على المدينة، وانزعجت الحامية حتى إنهم بدأوا التفاوض حول شروط الاستسلام. وفي إبريل ١١٩٠م جاءت فرق السباحة إلى صلاح الدين بأنباء حزينة تخبره بأن المدينة في خطر، وحاول صلاح الدين أن يخفف الضغط عن المدينة، فأرسل رسائل عاجلة يطلب قوات، وعلى الرغم من انتهاء الخطر المباشر على عكا، فقد سببت أنباء مسير الحملة الصليبية الألمانية عبر آسيا الصغرى صدمة في العالم الإسلامي. صدرت الأوامر في حمص وحماة بتخزين الغلال، وعُزِّزت التحصينات في الإسكندرية ودمياط. لكن بقي صلاح الدين مهمومًا. وكتب أن سيطرة الفرنج على البحر تعني أنه مقابل كل فرنجي يُقتل يأتي ألف على الأقل بدلًا منه. وعندما وصلت الأنباء بأن الألمان عقدوا الصلح مع قلج أرسلان، مما سمح لهم بالعبور الآمن، بات الموقف حرجًا، ولهذا أرسل صلاح الدين قوات في اتجاه الشمال، على رأسها تقي الدين، وكتب ابن شداد عن قلج أرسلان: «إنه يظهر عداوة للسلطان، وهو في الحقيقة على اتفاق معه». ولا غرابة في أن موت «فردريك بربروسا» كان مبعث راحة، وتولَّى القيادة على الجيش ابنه الأصغر دوق «سوابيا»، وسرعان ما تفكك الجيش. ومع هذا أجبر اقتراب الحملة الألمانية صلاح الدين على اتخاذ موقف دفاعي، ولم تلتحق قوات الظاهر وتقي الدين بصلاح الدين حتى نوفمبر ١١٩٠م عندما زال الخطر. وأعقب ذلك قتال شرس ـ أشرس قتال منذ حطين ـ لكن المسلمين لم يتمكنوا من زحزحة الفرنج أو تخفيف الضغط عن عكا. وعلى أية حال، كشف القتال عن لمحات من شخصية صلاح الدين: في إحدى المناسبات أُسِر عدد من الصليبيين وطلب الأبناء الصغار من صلاح الدين السماح بقتلهم، ولكنه رفض؛ لئلا يذوقوا طعم الدماء. وفي مناسبة أخرى، سُرِق رضيع عمره ثلاثة أشهر من معسكر الفرنج ونصح الفرنج أمه ـ بناء على سمعة صلاح الدين ـ أن تذهب لتتوسل إلى صلاح الدين، وأخبروها أنه رجل رحيم القلب. أحضرها حراسه إليه واكتشف بسرعة أن الرضيع بِيع في سوق النخاسة، فأمر بِردِّ الرضيع وأعاده إلى أمه، وأمر بإحضار فرس لإعادة المرأة إلى معسكر الفرنج.

وطوال سنتي ١١٨٩ و١١٩٠م تفاقم قلق المسلمين من قيام الفرنج بهجوم مضاد، وازدادت قوة الصليبيين بوصول دوق «سوابيا» وبقايا الحملة الصليبية الألمانية. وكان الأكثر سوءًا وصول «بلدوين»؛ رئيس أساقفة «كانتربري»، الذي صحبه حرس المقدمة في الحملة الصليبية الإنجليزية، وكان في الطريق وراءهم «ريتشارد الأول» ملك إنجلترا. جاء

تدفق القوات الصليبية بالنجدة إلى الفرنج، ولكن لكثرة عددهم ساءت أحوال المعيشة وانتشرت الأمراض لتحصد أرواح كثيرين منهم. وكانت الملكة «سيبيلا» إحدى ضحايا التيفوس في ذلك الوقت، وكان «جاي» قد اعتلى العرش بزواجه منها، وكان موتها يعني أن هناك من يمكن أن ينازعه الحق في العرش. ورأى «كونراد» فرصته في أن طالب بالعرش بالزواج من أختها «إيزابيلا». وكانت المشكلة ذات وجهين إن لم يكن ثلاثة أوجه: أولها أن «إيزابيلا» كانت متزوجة من «همفري» أمير تورون. وثانيها أن «كونراد» كان متزوجًا بالفعل. وثالثها أن «كونراد» تزوج مرة أخرى؛ لأنه لم تكن له زوجة واحدة، بل زوجتان على قيد الحياة وغير مطلقتين. ويتخيل المرء أن هذه العقبات لا يمكن تجاوزها، ولكن بالنسبة إلى «كونراد» الذي أبدى بالفعل طاقة لا تعرف الكلل في التغلب على العقبات، كانت مجرد تفاصيل. وهكذا عندما عارض كبير الأساقفة اقتراحه، وجد ببساطة واحدًا من بني جلدته الإيطاليين، كبير أساقفة بيزا مستعدًّا (مقابل توسيع نطاق الامتيازات التجارية لمدينته في المملكة) للتغاضي عن كل شيء[١٠]. ثم تزوَّج «كونراد» من «إيزابيلا»، على الرغم من وجود عقدة أخرى - غير مهمة بالمقارنة - وهي أنها كانت حاملًا بالفعل. وبتعبير لاذع لعماد الدين الأصفهاني: «يبدو أن الحمل ليس مانعًا يحول دون الزواج في ديانة الفرنج». وفي الوقت نفسه، كانت قوة الصليبيين تزداد يوميًّا، ويزداد حصارهم لعكا إحكامًا. وفي سنة ١١٩٠م وصل «هنري»، أمير شامباني، على رأس قوة فرنسية كبيرة، وتبعه فيما بعد ملك فرنسا نفسه، «فيليب أوغسطس».

تفكك جيش صلاح الدين

وبالنسبة إلى صلاح الدين، كان أكبر تحدٍّ يواجهه يتمثل في كيفية الحفاظ على جيشه من التفكك. وجيشه يحاصر مَن يحاصرون عكا، تذمر أمراؤه ونفد صبرهم. بدأوا يتعبون من هذا الجهاد، وقد بدا بلا فائدة وبلا مكاسب مادية. وحينذاك أخذوا يسعون الواحد تلو الآخر لالتماس الأعذار للعودة إلى بلادهم: جاء سنجر شاه، ابن سيف الدين أمير الموصل، الذي سبَّب كثيرًا من المتاعب لصلاح الدين، طالبًا الإذن بالرحيل، وقيل له إن الوقت غير مناسب، فانحنى وقبَّل يد صلاح الدين، ولكنه ما كاد يغادر الخيمة حتى أمر رجاله بفك المعسكر. وعندما سمع صلاح الدين بهذا أرسل إليه رسالة تقول: «إنك قصدت الانتماء إليَّ ابتداء، وراجعتني في ذلك مرارًا، وأظهرت الخِيفة على نفسك وبلدك من أهلك،

فقبلتك وآويتك ونصرتك... وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فانظر لنفسك وأبصر مَن تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك، فما بقي إلى جانبك التفات».

وتقابل سنجر شاه مع تقي الدين، وكان عائدًا إلى المعسكر ونصحه تقي الدين بالعودة إلى المعسكر قائلًا: «المصلحة لك أن ترجع إلى الخدمة وتلازم، إلى أن يأذن لك، فأنت صبي ولا تعلم غائلة هذا الأمر». وعلى أية حال، كان سنجر شاه مصممًا على ألا يعود، وأعلن عن استحالة عودته، ورد تقي الدين، الذي لاحظ ابن شداد أنه «شديد البأس، مِقدامًا على الأمور، ليس في عينه من أحد شيء»، بكلام خشن قائلًا: «ترجع من غير اختيارك»، فانصاع سنجر شاه لتقي الدين وعاد أدراجه، مع أنه خاف من غضب صلاح الدين وبقي بالقرب من تقي الدين طلبًا لحمايته. وفضَّل صلاح الدين ألا يقوم بأي فعل إزاء هذا الهرب، ولكن نُقل عنه فيما بعد قوله إنه لم يسمع قطُّ عن أحد سوءًا إلا واكتشف أن السوء أقل مما حُكي له، فيما عدا حالة سنجر شاه. وكان الثاني في محاولة الرحيل، عماد الدين زنكي، الذي أرسل مذكرة لصلاح الدين مهددًا بأن ينقض معسكره ويرحل في اتجاه الشرق. وأعاد صلاح الدين الرقعة وكتب على ظهرها بيتًا من الشعر للشريف الرضي:

مَن ضَاع مِثلي من يديـــــهِ فليتَ شِعري ما استفادَا

وفهم عماد الدين التهديد الضمني الذي تنطوي عليه الرسالة وبقي في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من قلق الزنكيين ورغبتهم في العودة إلى بلادهم، لم يكن ذلك مفاجأة لصلاح الدين، فقد بدأ أقرب الناس إليه يتطلعون إلى أماكن أخرى. وليس هناك شيء يرمز إلى تفكك جيش المسلمين من حقيقة أن كلًّا من تقي الدين وكوكبوري تركا خدمة صلاح الدين آنذاك. وبالنسبة إلى ابن أخيه تقي الدين فقد جاء في خدمته بشجاعة هائلة على مر السنين، وتولَّى قيادة جناح جيش صلاح الدين بقوة واقتدار، وحتى هو ناله التعب حينها. وذات مرة قبل ذلك بعدة سنوات، نصح الوهرانيُّ الساخرُ تقيَّ الدين بأن يتوقف عن الجهاد ويستقر في دمشق ويستمتع بملذات الحياة، وقد بدأ حينذاك يفكر في بناء إمبراطورية لنفسه وبناء أسرة حاكمة تخصه. ولنفهم ونقدِّر إنجاز صلاح الدين في الحفاظ على الجيش متماسكًا في ميدان القتال على مدى ثلاث سنوات من الضروري أن نفهم الطبيعة المستقلة للأمراء. نعم لقد خدم تقي الدين عمه بإخلاص، ولكن إذا مات صلاح الدين ـ ألم يكن

على عتبة الموت في حران؟ ـ فهل يكون أبناؤه كرماء مثلما كان صلاح الدين؟ في سنة ١١٨٦م سعى تقي الدين إلى ترسيخ استقلاله في المغرب وشن حملة ضد الموحدين، ولكن صلاح الدين طلب منه ألا يفعل ذلك. لكن صبر تقي الدين كان محدودًا، وقد أدى دوره في الجهاد. ألم يستولِ هو نفسه على الصليب المقدس؟ وفي ذلك الحين كانت هناك بلاد يود فتحها وأسرة حاكمة يريد تأسيسها، فترك المعسكر في عكا واجتاح أراضي أعالي العراق، بل وغزا أرمينيا. وكان صلاح الدين قد حذره من أن يخاطر بانتهاك أي معاهدة عقدها، ولكنَّ تقي الدين لم يعبأ بهذا. كان الدمار الذي أحدثه كبيرًا للغاية وهو يستولي على مدينة بعد أخرى ـ أحيانًا باسم صلاح الدين، وأحيانًا أخرى باسمه هو ـ لدرجة أن الحكام المحليين رفضوا إرسال أي قوات أخرى للمشاركة في الجهاد. وحتى الخليفة، الذي انزعج من تحركات تقي الدين وثارت شكوكه، كتب بصورة عاجلة إلى صلاح الدين يطلب منه أن يتدخل ويكبح جماحه. ولم يكن صلاح الدين، طبعًا، قادرًا على هذا، وكان الخيار الوحيد المتاح أمامه ـ وهو الخيار الذي حثَّ عليه القاضي الفاضل، الذي كان قادرًا على رؤية الدمار الذي أحدثه تقي الدين ـ أن يتنصل منه علنًا. ولا شيء يوضح العصر الذي عاش فيه صلاح الدين أكثر من هذه القصة التي جرت مع ابن أخيه. كانت تصرفات تقي الدين تُمثل الشيء المعتاد ولم تكن استثناء؛ كان الجهاد سرابًا. وبطبيعة الحال، كان صلاح الدين يفهم هذا شأنه شأن الآخرين جميعًا. وعلى أية حال، بنى هو نفسه إمبراطورية خاصة به في مصر، ولم يحل دون المواجهة سوى وفاة نور الدين.

وبالنسبة إلى كوكبوري، كانت أسباب رحيله مختلفة: وفَّرت وفاة أخيه له بالفعل السيطرة على أربيل، ورحل تصحبه بركات صلاح الدين، ومع هذا فإن خسارة رجل تميز في المعركة وكان راعيًا لعدة مدارس ـ وكان بالإضافة إلى هذا مقربًا إلى صلاح الدين من خلال ارتباطه المحسوس بالعائلة ـ خسارة مؤثرة. وبقي الرجلان على اتصال من خلال الرسائل، والمثير أنه عندما طلب صلاح الدين من كوكبوري العودة والانتقام لمذبحة المسلمين في عكا لم يستجب.

سقوط عكا ومذبحة الآلاف الثلاثة

وفي ٨ يونيو ١١٩١م علت أصوات الأبواق بالضجيج في أرجاء معسكر الصليبيين الذين يحاصرون عكا، إشارة إلى وقوع حدث جلل: وصل «ريتشارد الأول» ملك إنجلترا

إلى عكا. وسجَّل ابن شداد: «وكان أمراؤهم يتوعدوننا به». وبوصول «ريتشارد» إلى عكا نجد أمامنا أكثر فصول سيرة صلاح الدين تأثيرًا وروعة. حتى ذلك التاريخ لم يكن الصليبيون الذين وقفوا ضد صلاح الدين يطاولون قامته. ولم يكن «جاي» أو «رينالد» أكثر من ممثلين في هذه الدراما. ومن المُسلَّم به أن «بلدوين الرابع» حارب بشجاعة وقوة تحمُّل عظيمتين للإبقاء على تماسك مملكته، ولكن حياته المأسوية القصيرة كانت فترة عارضة قاسية. ومن ناحية أخرى كانت شهرة «ريتشارد» في القتال قوية وسبقته إلى الشرق؛ وصلت أنباء نهبه قبرص إلى صلاح الدين. ومن المؤكد أن ابن شداد لم يبخس قدره: «إنه ذو رأي في الحرب مجرب، وأثَّر قدومه في المسلمين خشية ورهبة». نعم، كان ملك فرنسا أيضًا في الأرض المقدسة، لكنه لم يكن ليقارن بقلب الأسد. وعلى أية حال، كان الحب مفقودًا بين الرجلين. وكان «ريتشارد» يتباهى علنًا بأنه من نسل الشيطان نفسه، وبوصوله تعرض صلاح الدين أخيرًا للاختبار أمام ملك حقيقي. كان متوحشًا، قوي الإرادة، فخورًا وقادرًا. وفي تلك المحنة كان على صلاح الدين أن يتحمَّل شدائد عظمى.

أعقب وصول «ريتشارد» قتال شرس، وفي ١١ يونيو أحرز نصرًا مبكرًا وذلك بإغراق سفينة للمسلمين عليها سبعمائة محارب. وفي الوقت نفسه، تعرَّضت عكا لهجوم عاصف، وكانت هناك هجمات يومية تقريبًا على المدينة. ولم تكن لدى «ريتشارد» أي نية أن يجعل وصوله وديعًا ـ لم تكن طبيعة الملوك ـ وحاول أن يرتب لقاء مع صلاح الدين. وبطريقته المعتادة رد صلاح الدين بإرسال الهدايا إلى ملك إنجلترا، ولكنه رفض أي لقاء معه بحجة أنه لا يجوز للملوك أن يلتقوا ثم يتقاتلوا. وعلى أية حال، ليس هناك مجال للقاء «لأنه لا يفهم لغتي ولا أفهم لغته». ثم عرض صلاح الدين أن يرسل أخاه العادل ولكن مرضًا ـ من الأرجح أنه كان حمى المعسكر ـ أصاب «ريتشارد» ولم يتم اللقاء. وفي غضون أيام شُفي «ريتشارد» من مرضه وأشرف على عمليات الحصار، وكان يستند في فراشه على قوس يشبه المنجنيق. وبينما لم يعد من الممكن للمسلمين المدافعين عن المدينة أن يحصلوا على تعزيزات، كان وصول القوات الصليبية المتواصل يعني أن الهجوم على عكا يتواصل بلا انقطاع. كانت هجمات المشاة ممزوجة بعمليات قام بها مهندسو «ريتشارد»، الذين حطموا أسوار المدينة وهدموها. ردمت الخنادق العميقة، وجُرَّتْ آلات الحصار قرب أسوار عكا بحيث صارت تطل على المدينة، وفي بطء عنيد كانت قبضة «ريتشارد» على عكا تزداد إحكامًا وشدة.

وفي الوقت نفسه، كان صلاح الدين مثل رجل ممسوس، يشن هجمات ضارية على المعسكر الصليبي في محاولة يائسة لرفع الحصار. وفي نهاية يونيو وصلته قوات الدعم، على الرغم من أن مغامرات تقي الدين وصخبه حرمته من أي قوات من ديار بكر. وفي ٢ يوليو حاول صلاح الدين مرة أخرى محاولة مستميتة لتخفيف الضغط بالهجوم على معسكر الصليبيين. وتبعًا لرواية ابن شداد لم يذق طعامًا في ذلك اليوم، وحث رجاله والدموع في عينيه على القتال. وانضم العادل بنفسه إلى المقاتلين. وتحت الضغط الهائل، عانت صحته بشكل كبير، وظهرت على جسده بثور عديدة من وسطه إلى أسفل ركبتيه. وانزعج أطباؤه لأنه يرفض الطعام ويصر على الركوب بين قواته، يحثُّهم ويتوسل إليهم ويطريهم بالمديح ويوبخهم ليتقدموا. كان مجللًا بالدموع وكاد أن يجن بالرغبة المتقدة في رفع الحصار عن عكا، ورفض صلاح الدين قبول فكرة أن أيام المدينة المحاصرة باتت معدودة. لكنه كان يخدع نفسه؛ لأن الوقت على الرغم من ذلك لم يكن مناسبًا للتفكير فيما حدث في الماضي، فالحقيقة أن عكا ضاعت بشكل مؤكد تقريبًا من اللحظة التي سمح فيها صلاح الدين لـ«جاي لوزنيان» بإقامة معسكره لمحاصرة المدينة.

وكان الرسل من جانب «ريتشارد» يفدون إلى معسكر صلاح الدين ويغادرونه بشكل متكرر. وفي إحدى المناسبات أخبر «ريتشارد» صلاحَ الدين أنه يريد أن يرسل إليه هدية من الصقور وكلاب الصيد، وطلب دجاجًا لإطعامها حتى تسمن قبل إرسالها، وتبسَّم العادل عندما علم بالطلب، وأجاب متسائلًا في مداعبة: «الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة». وبطبيعة الحال كانت السفارات المتواصلة بين المعسكرين ذات غرض آخر؛ كانت تتيح لكل من الجانبين اختبار معنويات الجانب الآخر. وهكذا عندما كان الفرنج يفدون إلى صلاح الدين، كان يسعده دائمًا أن يسمح لهم بالتجول في سوق الجيش، حيث يمكنهم رؤية الوفرة الممثلة في سبعة آلاف حانوت وألف حمام.

وداخل المدينة، أدرك القادة المسلمون ضعف موقفهم. وفي ١٢ يوليو ١١٩١م جاء رسول وسبح خارجًا من المدينة التي تواجه مصيرها، ليصل إلى معسكر صلاح الدين. كانت الرسالة التي يحملها واضحة: إذا لم يستطع صلاح الدين دفع الصليبيين بعيدًا فإن عكا سوف تستسلم في غضون ساعات. ولم تكن هناك أي أوهام لدى صلاح الدين عن مدى خطورة الرسالة؛ لأن قائدي المدينة كانا المشطوب وقراقوش، وهما رجلان عرفهما

وكان يثق بهما منذ أيامه المبكرة في مصر. وحتى في هذه المرحلة الأخيرة اليائسة رفض صلاح الدين قبول فكرة ضياع المدينة، وأرسل عوامًا إلى داخل عكا برسالة عاجلة بعدم الاستسلام. وكانت دعوة بلا طائل؛ لأنه حتى إذا رفض صلاح الدين قبول ما هو حتمي فقد تقبَّله جيشه، وعندما أمرهم بشن هجوم آخر على المعسكر الصليبي رفضوا إطاعة أوامره. واستمرت مجموعة فقط من الفرسان الأكراد، من أقرباء المشطوب، في القتال، وكذلك فعل عز الدين جرديك، وقد ساعد، ذات مرة قبل عدة سنوات، صلاح الدين في القبض على شاور وذبحه. وفي ١٢ يوليو ١٩٩١م قَبِل القادة المسلمون في عكا الشروط الصليبية لاستسلام المدينة. وتحت هذه الشروط، أُعيد الصليب المقدس الذي فقده الصليبيون في حطين، وأُفرِج عن ألف وستمائة أسير، وكان على المسلمين دفع مائتي ألف دينار للفرنج، وكان عليهم أيضًا دفع عشرة آلاف دينار لـ«كونراد». ويقوم الفرنج بحبس أفراد الحامية حتى تُلبَّى الشروط. وعندما وصلت أخبار الشروط إلى صلاح الدين رفض قبولها وجمع مجلس حرب، ولاحظ ابن شداد أن أفكاره كانت مشوشة في أثنائه، ويدا مرتبكًا مشتت الذهن. لكن وصلاح الدين يحث رفاقه على مواصلة القتال داهمته الأحداث وشوهدت رايات الصليبيين على أسوار عكا.

أدى ضياع عكا إلى استنزاف صلاح الدين ـ وكتب ابن شداد أن صلاح الدين تأثر أكثر من «الأم الثكلى والوالهة الحيرى» ـ لكنها لم تكن نكسة لا يمكن تجاوزها. عرف صلاح الدين أن أفضل فرصة لهزيمة الفرنج تسنح في أثناء تحركهم، ومع أن الهزيمة كانت مأسوية وموهنة إلا أنها كسرت الحصار وحالة الجمود، ولكن ما لا جدال فيه أن سقوط عكا كان ضربة لهيبة لصلاح الدين؛ لذا تملكه غضب شديد، واندفع بحماس شديد وقوة يوجه كل قواته لينقذ المدينة، لكنها سقطت مع ذلك، ونتيجة لذلك طفت الانشقاقات والمهاترات ـ بين الأكراد والأتراك، وبين الزنكيين والأيوبيين ـ على السطح. وفي الوقت نفسه، واجه مشكلة ملحة تمثَّلت في أنه لم يكن أمامه سوى ثلاثين يومًا لتنفيذ شروط المعاهدة. وكرس وقته لجمع الأسرى والأموال، ومن الواضح أنه لم يكن يثق في الفرنج ووفائهم بعهودهم بإطلاق رجال الحامية. وهكذا طلب بعد دفع الدفعة الأولى إطلاق سراح الحامية، وعرض أن يطلق سراح المزيد من الرهائن مقابل مبلغ المائة ألف دينار المتبقي. وفي الوقت نفسه، كان لدى «ريتشارد» وقت لتقييم الموقف العسكري والتصرف بناء عليه. وقد أراحه رحيل «فيليب» ملك فرنسا، ولم يعد هناك نزاع على من

يكون القائد الوحيد. وكان صلاح الدين يؤجل إقرار اتفاق عكا، وشك «ريتشارد» في أن تكون هناك أسباب عسكرية وراء هذا التأخير؛ لأنه كانت هناك شائعات عن قدوم جيش مصري لتعزيز قوات صلاح الدين. وعرف «ريتشارد» أن جيشه لا يستطيع البقاء في عكا، وعليه أن يزحف جنوبًا، ولكن الحقيقة التي تكشفت له أنه لم يكن هو الذي يحتفظ بأفراد الحامية أسرى، ولكن الحامية هي التي كانت تحتجزه أسيرًا في عكا.

وفي ٢٠ أغسطس، اليوم الذي اعتقد فيه «ريتشارد» أنه اتفق مع صلاح الدين على دفع المبلغ الأول، أمر جيشه بالخروج من عكا. وقالت تقارير الجواسيس المسلمين إن جيش ملك إنجلترا كان يحتل السهل بكامله خارج عكا. وأمضى «ريتشارد» الصباح في انتظار أن يسمع أي أخبار من معسكر المسلمين عن تنفيذ شروط الاتفاق، وعندما لم يصله أي خبر تصرف بطريقة أثارت الرعب في نفوس الجواسيس الذين شاهدوا ما حدث؛ سيق أفراد حامية عكا وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف إلى السهل، وقد ربطوهم بالحبال معًا، رجال يقودون رجالًا وأيديهم مقيدة، ثم بدأت المذبحة، وما إن هبط الليل حتى كان الآلاف الثلاثة قد سقطوا صرعى. وكتب ابن شداد:

> وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان رحمه الله، وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا حمل المسلمون عليهم، وجرت بينهم حرب عظيمة... وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم، وعرفوا من عرفوه منهم.

ومن الصعب أن نقرر على مَن يقع اللوم بشأن المذبحة. ربما اعتقد «ريتشارد» أن صلاح الدين نقض الشروط التي تم الاتفاق عليها. وعلى أية حال، كان «ريتشارد» عازمًا على المسير جنوبًا من عكا، وكان التأخير محبطًا وخطيرًا بالنسبة إليه، فقد كان واضحًا أن صلاح الدين يستدعي التعزيزات على وجه السرعة. وفي الوقت نفسه، ربما عرف المسلمون كيف يستفيدون من المذبحة التي تقشعر الأبدان من هولها، لأنه لن توجد حامية بعد ذلك تقاوم تقدم «ريتشارد». وبالنسبة إلى صلاح الدين، ربما أسهم حرصه الطبيعي في المذبحة، لكن الحقيقة أن أحدًا من الجانبين لم يكن يثق في الآخر. وربما كان تعليق ابن شداد أكثر التحليلات عدلًا لتصرفات «ريتشارد»؛ فقد كان في اعتقاده أنه يمكن تفسير المذبحة باحتمالين فقط: «الأول: أنهم قتلوهم في مقابل من قُتل منهم، والثاني: أن ملك الإنجليز عزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، فما رأى أن يخلف ذلك

العدد من الأعداء وراءه». والمؤكد أنه مع وصول «ريتشارد»، واجه صلاح الدين عدوًا من نوع لم يواجهه من قبل. وكان يعرف أن استرداد بيت المقدس سوف يطلق عاصفة رهيبة من أوروبا، وكانت جثث ثلاثة آلاف مسلم في سهول عكا برهانًا دمويًا على وحشية هذه العاصفة.

وعندما سمع صلاح الدين بالمذبحة تملكه الغضب الشديد، على غير عادته. وعلى مدى الأيام القليلة التالية ـ وحتى عاد إلى طبيعته الخيِّرة ـ لم ينجُ من الصليبيين الذين صادفهم سوى القلائل. وبهذه الطريقة، بعد يوم من المذبحة أُسِر فارس ـ «هيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم» ـ وأُحضر إلى صلاح الدين، ومن خلال ترجمان، سُئل عن حالة جيش «ريتشارد»، ثم سُئل عن سبب وقوع المذبحة على المسلمين. وأجاب الفارس أنها كانت إرادة ملك إنجلترا. ثم أمر صلاح الدين بإعدام الفارس، وعندما تُرجِم ذلك له، امتقع وجهه بصورة واضحة وطلب إطلاق سراحه مقابل أن يطلق أسيرًا مسلمًا. وعادة ما كان ذلك تصرفًا معتادًا؛ لأن إطلاق سراح مسلم من الأعيان كان لا يثمَّن بالنسبة إلى صلاح الدين. ووُضع الفارس في الأغلال وتأجل البت في مصيره حتى يُلقي صلاح الدين نظرة على جيشه. وعلى أية حال، أمر عند عودته بإعدام الفارس. وبعد ظهر ذلك اليوم أُحضِر اثنان من الفرنج وأُعدِما بأوامر من صلاح الدين. وفي اليوم التالي أُسر اثنان آخران وأُعدما، وفي تلك الليلة أُحضر أربعة عشر فرنجيًا وفرنجية، وكان معهم أسيرة مسلمة وهي امرأة كان واضحًا أنها خادمة المرأة الفرنجية. وأمر صلاح الدين بتحرير المرأة المسلمة وإعدام الفرنج.

الزحف إلى يافا

بعد أيام قليلة من المذبحة كان جيش «ريتشارد» جاهزًا للتحرك، على الرغم مما قيل عن الصعوبة الهائلة التي واجهها في إزالة الحانات والمواخير ليجمع رجاله ويدفعهم إلى المسير. لكن بحلول ٢٥ أغسطس ١١٩١م شهد المسلمون الفرنج وقد أشعلوا نيرانهم وبدأ الجيش يتحرك. كانت إستراتيجية «ريتشارد» أن يفرض سيطرته على الشريط الساحلي بأسره، وبذلك يضمن التفوق في البحر. وبالالتصاق بالساحل يضمن جيشه الإمداد المستمر من الأسطول. ولذلك عندما سقطت يافا كان هدفه الزحف في أراضي الداخل للاستيلاء على القدس. والطريق من عكا إلى يافا قرابة مائة وثلاثين كيلو مترًا.

وكان شهر أغسطس ذروة الصيف، ولا بد أن الحرارة لم تكن محتملة. بالإضافة إلى ذلك، كان «ريتشارد» يعرف أن المسلمين قد يهاجمون رجاله في كل مرحلة. ولذلك كان النظام الصارم مطلوبًا حتى لا يُستدرج الجيش بعيدًا عن الساحل، ولا يتم إغراء الفرسان بالانفصال لمهاجمة الفرق الإسلامية المغيرة. والتصق الجيش الزاحف بالشريط الساحلي، وكانت الأراضي الداخلية تحت الهيمنة الإسلامية. كان هناك قدْرٌ من عدم التعجل عندما انطلق الجيش في ثلاثة أقسام، والأسطول يبحر بإزائهم. وفي كل قسم أُحيط الفرسان بصفين من المشاة: أحدهما بينهم وبين القوات المسلمة، والصف الثاني يسير بحذاء الساحل. وبتلك الطريقة كان «ريتشارد» يبدل جنود المشاة في جيشه؛ أولئك المشاة الذين يواجهون غارات العدو والسائرين بحذاء الساحل يحملون الأمتعة والخيام بسبب نقص دواب الحمل. وأثر نظام الجيش بدرجة كبيرة في المسلمين الذين كانوا يراقبونه. ولاحظ ابن شداد أن الرجالة يحيطون بالخيالة مثل السور. ولما كانوا يلبسون الدروع الحديدية الصلبة والزرديات الطويلة، ظهر أنهم محصنون ضد سهام المسلمين. وكتب ابن شداد: «ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة، وهو يسير على هيئته من غير انزعاج».

في الوقت نفسه كان الفرسان ينتظرون فرص الهجوم ثم يتقهقرون وراء المشاة. وكان نظام الجيش الصليبي محكمًا تحت هذه الظروف القاسية لدرجة أن ابن شداد لم يستطع أن يخفي إعجابه وكتب: «فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع».

وكتب عماد الدين الأصفهاني أن المشاة الزاحفين كانوا أشبه بقنافذ مرشوقة بالسهام.

كانت الحرارة شديدة، ولذلك كانت الحركة بطيئة. وكان السير في الصباح فقط وكانت الراحة يومًا بعد يوم. وانهار عدد لا يُحصى من الرجال وسقط كثير منهم صرعى. وأمر «ريتشارد» بدفن الموتى مكان سقوطهم، وبنقل المرضى إلى السفن. ومن الأرض المرتفعة راقب صلاح الدين الزحف البطيء العنيد، وكان يعرف أنه طالما حافظ الجيش الصليبي على نظامه وتجاهل المناوشات والتحرشات، فإنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، ولكنه كان يستطيع التمهل والانتظار حتى اللحظة التي يتعب فيها الصليبيون وينفرط عقد نظامهم، وعندها يضرب ضربته، وتكون هناك حطين ثانية من نصيبه. وفي

الوقت نفسه، كان تحت سيطرته ثلاثمائة لص من البدو ليخترقوا صفوف العدو ويسرقوا ممتلكاتهم وخيولهم. ولكن صلاح الدين لم يحسب قدر «ريتشارد»؛ إن سيره بجيش في حرارة الصيف وحفاظه على مثل هذا التنظيم الحديدي رفعه إلى مصاف القادة العسكريين الكبار. وفي أثناء السير كان يبدو أنه في كل مكان. وشُنت هجمات ضارية على الجيش الزاحف وصلاح الدين في قلب قواته. وكتب ابن شداد: «ورأيته [صلاح الدين] يسير بنفسه بين الجالسين ونشاب القوم يتجاوزه، وليس معه إلا صبيان بجنيبتين لا غير، وهو يسير من طلب إلى طلب، يحثهم على التقدم، ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم».

ولكن عندما هاجمت غارات المسلمين مؤخرة الجيش في محاولة لفصلها عن بقية الجيش، اندفع «ريتشارد» بنفسه للدفاع عنها، ووقع على المسلمين مثل الصاعقة بتعبير أحد المؤرخين المسلمين. وكان ذلك بالنسبة إلى صلاح الدين، وهو يراقب الموقف، دليلًا على وجود محارب عظيم وقوي، ولكنه أيضًا كان من الذكاء بحيث يعرف أنها حماقة من الملوك أن يقوموا بمثل هذه المخاطر، لأن من المؤكد أن الجيش الذي يعتمد على ملكه للتدخل شخصيًّا لا بد أن يضيع من دونه. ومع هذا، تأثر صلاح الدين إعجابًا. كان جيشًا حافظ على نظامه بشكل لم يرَ له مثيلًا من قبل. نعم، كان بوسع الخيالة الأتراك الاستمرار في التحرش بالصليبيين، ولكن بقوا بعيدًا عن متناول رماة سهام الصليبيين، فأصبحوا عاجزين عن إيقاع الخسائر، لأنهم إذا ما اقتربوا أكثر من اللازم كان رماة السهام يصيدونهم.

وحينذاك، كان الجيشان يسيران متوازيين على طول الساحل، وأحيانًا لم تكن المسافة بينهما تزيد على ثلاثة كيلو مترات. وفي كل يوم كان صلاح الدين يواظب على شن الغارات. ولا بد أن الصليبيين أيضًا كانوا يتعجبون من هذا العدو الذي لا يبدو أنه يستريح أبدًا. واستهدف المسلمون الخيول التي يعتمد عليها الفرسان ليبطئوا من مسيرهم، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان كثير من الفرسان يسيرون كتفًا بكتف مع المشاة، وقد حملوا رماحهم على ظهورهم. وبالنسبة إلى أعداد الجيش الزاحف، من الصعب تقديرها بدقة، ولكنهم كانوا خليطًا من الصليبيين الإنجليز والفرنسيين تحت قيادة «ريتشارد»، وبقايا الصليبيين الذين كانوا مع «فيليب أوغسطس» وبقايا الحملة الصليبية الألمانية التي قادها «بربروسا»، وقوات «جاي» مع الداوية والإسبتارية، وربما كان عددهم في الإقليم يتراوح ما بين عشرين وثلاثين ألفًا من المشاة، مع قوة من الفرسان لم يكن عددها فيما يبدو يزيد

على أربعة آلاف أو خمسة آلاف رجل. وجمع صلاح الدين جيشًا في مثل هذا الحجم تقريبًا، تراوح عدده ما بين عشرين وثلاثين ألف رجل مع عدد أكبر كثيرًا من الخيالة. وبينما كان الجيشان يتحركان جنوبًا، وقع المزيد من الجنود في الأسر، وكشف بعضهم عن معلومات مفيدة: في إحدى المناسبات علم صلاح الدين أن البدو جاءوا إلى «ريتشارد» وأخبروه أن الجيش الإسلامي لم يكن كثير العدد كما يخشى. وحدثت في اليوم التالي هجمة إسلامية ضارية خلفت مئات الجرحى من الجنود الصليبيين، مما أقنع «ريتشارد» بعكس ما زعم البدو، وقُتل البدويان نتيجة لذلك. ولم يكن هناك شك في أن الجيش الصليبي يعاني إصابات ثقيلة. وفي ٥ سبتمبر تقريبًا، جرى اتصال لإجراء محادثات بين المعسكرين. وفي الحال رحب صلاح الدين بهذا الاقتراح وفوَّض العادل مسؤولية ذلك، ولكنه كان مدفوعًا بعوامل أخرى غير محادثات السلام، فقد كتب إلى أخيه: «إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث، فلعلهم يبقون على ما هم عليه، حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا». ثم تقابل العادل و«ريتشارد»، ولم يكن أي من الجانبين يرغب في السلام حقًّا وكان هناك كثير من المعارك يجب خوضها. وعندما أخبر العادل «ريتشارد» أن يفصل ويسهب في شرح عرضه، أجاب الملك بأن الشرط الأساسي أن يعيد صلاح الدين جميع الأراضي إليه. وفي دبلوماسية كتب ابن شداد أن العادل رد ردًّا خشنًا على ذلك الطلب وانفض الاجتماع.

هزيمة صلاح الدين في أرسوف

في ٣ سبتمبر ١١٩١م، انتقل صلاح الدين إلى غابة أرسوف، ورأى أنه إذا أراد منع «ريتشارد» من الوصول إلى يافا، فيجب خوض المعركة هناك ـ حيث تساعد الأرض المغطاة بالغابات على إخفاء تحركاته. وبعد أيام قلائل وصلته أخبار بأن الفرنج يتجهون نحو أرسوف؛ وحينذاك جعل جيشه بإزاء الفرق الفرنجية، وعندما وصلت مقدمة الفرنج إلى الحدائق أمر جيشه بشن الهجوم. كانت خطته أن يقطع مؤخرة جيش الصليبيين تحت قيادة الإسبتارية عن بقية الجيش، وأن يدمرها قبل أن يتمكن «ريتشارد» من الاندفاع لنجدتهم. وفي صباح ٧ سبتمبر ١١٩١م بدأ المسلمون هجومهم، وشن البدو والنوبيون هجمات بالسهام والرماح داخل صفوف العدو، قبل أن يرحلوا ليتيحوا للرماة الخيالة فرصة التقدم، والهجوم والتراجع ـ وهو أسلوب كانوا مدربين عليه جيدًا لإغراء الصليبيين

بالهجوم عليهم. وفي عدة نقاط على طول خط المواجهة اشتبك الجيشان في قتال متلاحم بالأيدي. والقتال يزداد ضراوة، كانت هناك أوقات اضطرت فيها القوات الصليبية إلى القتال وهي تتقهقر في الأحراش، وطوال النهار كانت صيحة «الله أكبر» المنطلقة من المسلمين تصطدم بصيحة «من أجل الضريح المقدس». ولم يبالِ الإسبتارية بمدى ضراوة الهجمات وحافظوا على نظامهم ورفضوا ابتلاع الطعم الإسلامي والهجوم من المركز. وأُرسِلت الرسائل عدة مرات إلى «ريتشارد»، لكن الإجابة كانت نفسها في كل مرة: يجب عدم ابتلاع الطعم. كانت الطبيعة الضارية للهجوم الإسلامي والأساليب المتبعة مذهلة؛ لأنها كانت تختلف تمامًا عن شخصية صلاح الدين. لم يكن هذا صلاح الدين الحذر الذي يخطط لانتصاره بدقة مفرطة. عرف صلاح الدين في أرسوف أن البحر يمنعه من تطويق عدوه، وأنه بالضغط عليهم بهذه الشدة وهم لا يزالون متماسكين يعرض نفسه لهجوم مضاد(١١).

ومع أن الإسبتارية عانوا من خسائر قليلة، فإنهم كانوا يخسرون الخيول بمعدل مزعج. وتوسلوا إلى «ريتشارد» عدة مرات أن يشن هجومًا شاملًا، ولكن «ريتشارد» رفض كل طلب في انتظار أن يستنفد صلاح الدين قوة هجماته، وبذلك يكون مكشوفًا أمام الهجوم المضاد. وعلى أية حال، بنهاية ٧ سبتمبر، وكثافة هجمات المسلمين تزداد، تداعى تماسك الإسبتارية وظهرت ثغرات في الجيش الصليبي. ولاحظ ابن شداد، وكان شاهِد عيان، مشاركة صلاح الدين نفسه بكثافة في المعركة: «ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما». دخلت معركة أرسوف مرحلة حرجة. وعندما خاب طلب «جارنييه النابلسي» (مقدم الإسبتارية) من «ريتشارد» بالهجوم، نفد صبر الإسبتارية وبصيحة «سان جورج» هاجم الإسبتارية يليهم الفرنسيون صفوف المسلمين. وكان ذلك بالضبط ما علق صلاح الدين آماله عليه؛ أخيرًا حدث كسر في الجيش الصليبي المنظَّم. لكن كان الحظ مواتيًا ذلك اليوم لـ«ريتشارد»؛ لأنه في الوقت الذي شن فيه الإسبتارية هجومهم، كان رماة صلاح الدين قد ترجَّلوا لإحكام ضربات نشابهم، وداهمهم الهجوم غير المتوقَّع. وإذ أدرك «ريتشارد» ما يجري بسرعة، أمر بشن هجوم عام على طول خط المواجهة، وبهذا كسر جيش صلاح الدين، وطارده عبر تلال أرسوف. ويكتب ابن شداد أنه هرب في فوضى إلى الميسرة، لكنه وجدها أيضًا انكسرت وأخذت في التقهقر، فهرب عندئذ إلى الميمنة ليكتشف أنها دُحرت أيضًا. وبمشاعر الأخوة أخذ يبحث عن صلاح الدين،

وشق طريقه إلى الرايات التي لا تزال مرفوعة والطبول تدق، ليجده محاطًا بسبعة عشر فارسًا لا غير ـ فقد هرب الباقون ـ يحاول في يأس حشد قواته. وكتب ابن شداد: «كنت في خدمته رحمه الله، أسليه وهو لا يقبل السلو وظُلل عليه بمنديل وسألناه أن يطعم شيئًا من الطعام، فأحضر له شيء لطيف، فتناول منه شيئًا يسيرًا».

كان نصرًا لـ«ريتشارد»، لكنه لم يكن نصرًا حاسمًا كما ساد الظن في البداية. أقلقه أن المسلمين كانوا يحتشدون والجيش الصليبي ينتشر بشكل مبالغ، ومع وجود الغابة أمامه كان خوفه من الكمين شديدًا. ومن ثَمَّ صدرت الأوامر بتوقف المطاردة. وعلى الرغم من أن الهزيمة كان من الممكن أن تكون أشد قسوة، كانت أرسوف ضربة مريرة لصلاح الدين. في عكا أدرك صلاح الدين أنه لا يستطيع أن يقاتل جيشًا صليبيًّا متمركزًا، وفي أرسوف عرف مدى خطورة مهاجمة جيش صليبي متحرك، خصوصًا إذا كان قائده صلبًا قويًّا مثل «ريتشارد». وقال أمير حلبي مبديًا إعجابه لصلاح الدين إنهم لم يروا مثله قطُّ. وفيما يخص الإصابات، كان يمكن أن تكون الهزيمة أسوأ، ومن الناحية النفسية كان انتصار «ريتشارد» يكاد يكون كليًّا. وكتب ابن شداد آسفًا: «والناس من جريح الجسد وجريح القلب». وعلى الرغم من أنه بعد أرسوف بات واضحًا أن الجيش المسلم لا يمكن أن ينتصر، فقد كانت هزيمة الفرنج لا تزال ممكنة(١٢). ومن المُسلَّم به أن المعنويات كانت منخفضة. واستطاع صلاح الدين استدعاء التعزيزات، ولو طمع «ريتشارد» في التحول إلى أراضي الداخل ليندفع إلى القدس لدارت عليه الدوائر مرة أخرى. لكن «ريتشارد» لم يكن مستعدًّا للمخاطرة بالمسير إلى أراضي الداخل بعد؛ لأنه يحتاج يافا لتكون قاعدته لغزو القدس. وهكذا استأنف الجيش الصليبي مسيرته بحذاء الساحل، واستمر صلاح الدين ـ حريصًا على ألا يبدي أي مظاهر ضعف ـ في أساليب التحرش والمناوشات.

بينما كان «ريتشارد» يشق طريقه إلى يافا ـ واستغرق الأمر أقل من عشرين يومًا لقطع مسافة مائة وثلاثين كيلو مترًا ـ كان صلاح الدين يفكر مليًّا فيما عسى أن تكون مقاصد ملك إنجلترا. فمن يافا التي سوف تستسلم من دون قتال جدي، يمكن لـ«ريتشارد» أن يضرب في اتجاه بيت المقدس، ولكن ماذا لو لم تكن القدس الهدف؟ وفي منتصف المسافة بين يافا وبيت المقدس كانت عسقلان، وإذا كانت يافا مفتاح بيت المقدس، فإن عسقلان مفتاح مصر. ولم يفهم أحد أهمية مصر في النضال كله أكثر من صلاح الدين. وصلت المعضلة التي واجهها صلاح الدين آنذاك إلى جوهر الجهاد الذي تمسك به على

مرَّ السنين وخاض حروبه في دأب ومثابرة. باتت القدس مركز حملة الدعاية والمكافأة النهائية التي طلبتها حركة الإحياء السُّني. وقد خلص القدس كما وعد. ولكن في قلب المسألة كان هناك إدراك بأنه على الرغم من أهمية القدس من الناحية الرمزية، فإنها هامشية من الناحية الإستراتيجية. كانت الدعوة الدائبة التي أُعلِنتْ في المساجد والمدارس عبر العالم المسلم هي «القدس القدس»؛ ومع هذا كان ما يدور في مجالس الحرب أنه إذا ضاعت القدس ستكون مأساة، ولكن إذا ضاعت مصر ستكون كارثة. وفي معسكر «ريتشارد» كان الجدل نفسه دائرًا. وبالنسبة إليه كانت جائزة مصر قريبة المنال، ولكن النقص في القوة البشرية لم يجعلها هدفًا واقعيًّا. وكان «ريتشارد» يعلم أن مصر أوصلت صلاح الدين للسُّلطة وسقوطها سوف يكون علامة على نهايته. ومن ناحية أخرى، كان «ريتشارد» قد أتى إلى الأرض المقدسة لأنه أقسم أن يستولي على القدس، وليس لبناء إمبراطورية.

وبينما كان «ريتشارد» يتأمل، كان صلاح الدين يتصرَّف. عرف أنه لن يستطيع الدفاع عن المدينتين معًا، وكان مهمومًا بخطوته التالية. كان على يقين من أن «ريتشارد» سوف يتحرك ضد القدس، ولكن هل يجب عليه ترك المدينة المقدسة والدفاع عن عسقلان؟ وإذا ما سقطت المدينة مثلما حدث لعكا، فهل يتقهقر إلى مصر حيث لن يتبعه «ريتشارد» بالتأكيد؟ كانت مصر قاعدة قوته وخزانته، ومن مصر كان بوسعه أن يتدبر حركته التالية. لكن التخلِّي عن القدس معناه تدمير شرعيته، وتلويث سُمعته إلى الأبد، وخيانة لمبادئ الجهاد الذي يدعو إليه منذ وقت طويل. وقرر صلاح الدين أنه لا يمكن التخلِّي عن القدس. وما إن اتخذ ذلك القرار حتى أتبعه بالقرار التالي على الفور؛ إذا كان لا بد من الدفاع عن القدس وجب تدمير عسقلان، حيث لا يمكن تركها محصنة لـ«ريتشارد»، وقال صلاح الدين لابن شداد: «والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إليَّ من أن أهدم منها حجرًا واحدًا، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقًا فكيف أصنع؟» وإذ اتخذ القرار لم يعد هناك وقت يضيعه. ورحل صلاح الدين بنفسه، ووصلها يوم ١١ سبتمبر، تاركًا العادل يراقب «ريتشارد» في يافا. وفي غضون أسبوعين هدمت أسوار المدينة. وكانت الأزمة التي حلَّت بالسكان واضحة للجميع؛ أخذ الناس يبيعون ما لا يقدرون على نقله، وما يساوي عشرة دراهم بِيع بدرهم واحد. ولكن المهم آنذاك كانت السرعة، وعندما ملئت أبراج المدينة بالأخشاب وأضرمت فيها النيران، كان

صلاح الدين قلقًا من أن يرصد «ريتشارد» الدخان المتصاعد من النيران؛ فقد كان معسكره يبعد مسافة أقل من ثمانين كيلو مترًا. وبينما كان يجري هدم عسقلان، وصلت الأخبار إلى صلاح الدين بأن الفرنج اتصلوا بالعادل لإجراء مفاوضات. ونصح أخاه قائلًا: «سوِّف القوم وطوِّل الحديث معهم لنتمكن من خراب البلد». والحقيقة أن «ريتشارد» أُخِذ بالمفاجأة؛ فقد وصلته الأنباء بخراب عسقلان وهو في يافا، ومع أنه حاول في الحال أن يتحرك جنوبًا لمنع التدمير الشامل للمدينة، إلا أن الوقت كان قد فات تمامًا؛ ذلك أن عسقلان المعروفة باسم «عروس الشام» سُويت بالأرض على أيدي المسلمين ليمنعوا سقوطها بتحصيناتها في أيدي الصليبيين. ويتساءل المرء عن مشاعر القاضي الفاضل وهو يرى المدينة التي شهدت مولده تسوَّى بالأرض بأيدي الجنود المسلمين. بحلول نهاية سبتمبر، غادر صلاح الدين عسقلان وشق طريقه إلى الرملة؛ حيث إن الطريق من يافا إلى القدس كان يمر عبر السهل بالرملة، وهناك هُدمت أسوار المدينة بالمثل. حسم صلاح الدين الأمر: يجب الدفاع عن القدس بأي ثمن، واستقر على أن يخوض حرب إنهاك قاسية.

الفصل الرابع عشر

حصار استنزاف مرير: صلاح الدين و«ريتشارد» والقدس

وصلى ركعتين، ورأيته ساجدًا وهو يذكر كلمات، ودموعه تتساقط على مصلَّاه.

ابن شداد

وفاة تقي الدين

في أول نوفمبر ١١٩١م تلقَّى ابن شداد رسالة عاجلة من صلاح الدين: احضر الآن وبسرعة. وطلبت منه الرسالة أن يُحضر معه العادل واثنين من الأقارب المقربين، ومن لهجة الرسالة عرف ابن شداد أنه ليس لديه وقت يضيعه. وعندما وصل الرجال أمر صلاح الدين بإخلاء الخيمة ثم أخرج رسالة، وهو يتلوها بصوت عالٍ بدأ يبكي، وكان أسفه عميقًا حتى بكى من حوله أيضًا، على الرغم من أنهم لم يعرفوا مضمون الرسالة. ثم علموا أن تقي الدين سقط مريضًا وتُوفِّي. أثَّرت وفاته على صلاح الدين بدرجة كبيرة، وكان أسفه شديدًا لدرجة أن ابن شداد اضطُر إلى مواساته، وذكَّره في رفق أن الحزن المبالغ فيه يعتبر تحديًا لإرادة الله. ورد صلاح الدين في بساطة أنه يطلب المغفرة من الله، ثم غسل عينيه بماء الورد وطلب الطعام. وأمر الحاضرين أن يُبقوا خبر وفاة تقي الدين سرًّا للحفاظ على معنويات الجيش. وليس من الصعب تفسير حزن صلاح الدين؛ فقد كان تقي الدين، من بين جميع أفراد العائلة، الوحيد الذي يثق به صلاح الدين أكثر من غيره. كانت شجاعته معروفة، وتولَّى القيادة، وحارب في جيش صلاح الدين بجسارة وشجاعة هائلة، وتجلَّى ذلك أوضح ما يكون في حطين. وحين ترك تقي الدين عمه على غير رغبته، وغادر عكا

في وقت حرِج، كان بفعله هذا متوافقًا مع روح عصره. وكان صلاح الدين قد وجه اللوم إلى ابن أخيه لفقدان عكا، لكنه حزن عليه حزنًا عميقًا بعد وفاته. وقد يبدو تقدير «همفري» لرد فعل صلاح الدين على وفاة تقي الدين قاسيًا، لكن كان له ما يبرره، كتب «همفري»: «انقطع نفس صلاح الدين عند سماعه بوفاة ابن أخيه، ولكنه كان محظوظًا لأنه تُوفِّي؛ فقد أسهم تقي الدين بطيشه الأناني في كارثة عكا، وكاد أن يغرق التحالف الذي جمعه صلاح الدين بشق الأنفس»[1].

ومما يدعو إلى السخرية، أن صلاح الدين تلقى، في اليوم التالي لوفاة تقي الدين، رسالة من بغداد اشتكى فيها الخليفة شكوى مريرة من تصرفات ابن أخي صلاح الدين عبر الفرات. وأجاب صلاح الدين بدبلوماسية، على الرغم من أنه يعرف بوضوح أن الطموح لعب دورًا كبيرًا في تصرفات ابن أخيه: «إنا لم نأمره بشيء من ذلك، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود إلى الجهاد، لأسباب اقتضت ذلك، وقد أمرناه بالعود عنه». وعلى أية حال، عندما أصر الخليفة آنذاك في الرسالة على أن يسافر القاضي الفاضل لتفسير تصرفات تقي الدين رفض صلاح الدين وكتب ببساطة يرد أنه مريض للغاية بحيث لا يمكن أن يقوم بمثل هذه الرحلة. حزن صلاح الدين، وكان قلقًا أيضًا وأخذ يعيد حساباته؛ لأنه فهم أن عواقب وفاة تقي الدين تتطلب التعامل بحذر. ولم يكن ممكنًا أن يسوء الموقف أكثر من ذلك؛ كان «ريتشارد» على مسافة أميال قليلة فقط من القدس، وعسقلان، وهي واحدة من أهم المدن، سُويت بالأرض لتكون بلا فائدة للعدو، وكان صلاح الدين ملتزمًا بالقتال حتى النهاية. ولكن في أعقاب وفاة تقي الدين لم يكن ذلك أهم ما يخطر على باله. ومن الضروري أن نقدر أن بقية العالم الإسلامي قد تغافل عما يجري بشكل هزلي، إن لم يكن بشكل مثبط للعزائم من وجهة نظر صلاح الدين[2]. أولًا في ذروة الأزمة، وصل حاكم صغير من الأناضول إلى معسكر صلاح الدين يطلب مساندته ضد أبيه قلج أرسلان. ورحب به صلاح الدين في صبر وأرسل العادل لفض النزاع. وهذا يذكرنا بما ذكره مرة صلاح الدين من أن الناس كانوا تحت وطأة الرعب بحيث لا يتكلمون عندما يقتربون من زنكي، لكنهم كانوا يرهقونه بمطالبهم باستمرار. وعندما حُلَّت المسألة ظهرت عواقب وفاة تقي الدين كما كان صلاح الدين يخشى؛ ذلك أن الابن الأصغر لتقي الدين، المنصور، طالب آنذاك بأخذ إقطاعيات أبيه. وتردد صلاح الدين؛ لأنه خاف أن يكون أصغر من أن يستطيع السيطرة عليها. ويجب أن نعلم

أن أراضي تقي الدين كانت شرق الفرات وتتطلب رجلًا قويًّا ليُبقي الزنكيين في مكانهم. وعلى أية حال، وافق بعد تردد وبعد أن وضع شروطًا صارمة.

وما حدث بعد ذلك كان صدمة لصلاح الدين؛ وصلته الأخبار بأن الشاب ذا العشرين ربيعًا ارتبط في حلف مع بكتمر حاكم خلاط، وأعلن التمرد صراحة. كان الموقف حرجًا؛ لأنه كان يمكن أن يكون علامة على خسارة صلاح الدين مكانته شرق الفرات ومعها تضيع السيطرة على سنجار والرها، بل وربما الموصل أيضًا. وبالإضافة إلى ذلك كان صلاح الدين في حاجة ماسة إلى الرجال لمحاربة «ريتشارد»، وقد أحجم كثير منهم حينذاك، بمن فيهم بكتمر الذي كان على وشك إرسال القوات، انتظارًا لما يسفر عنه العصيان. وأمام هذه الأزمة التي كانت أخطر الأزمات، و«ريتشارد» على مسيرة أميال قليلة من القدس، وجد صلاح الدين نفسه منغمسًا في مشاجرة عائلية. وفي البداية أمر ابنه الأفضل بأن يعبر الفرات ليحل محل ابن تقي الدين، لكن عندما طلب الأخير تدخل العادل لحسابه بدا أن صلاح الدين غيَّر رأيه، بحيث ظهر واضحًا غضبه من ابن أخيه، ومزق الاتفاق الذي عقده العادل ليكون حلًّا وسطًا. وذكر ابن شداد: «فخرَّق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، وانفصل الحال وانقطع الحديث، وقد كنت أتردد بينهما في ذلك، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يُخاطب بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده».

ومن الواضح أن هذا لم يكن المعروف عن سلوك صلاح الدين؛ ومن الجلي أن ضياع عكا وخراب عسقلان وحرب الاستنزاف المرير، التي كان يخوضها، كان لها ضريبة ثقيلة على صحته. ومن حسن الحظ أنه كان محاطًا بالعقلاء الذين نصحوه بالتروي. ومنهم أبو الهيجاء السمين، وهو واحد من أخلص رجاله، وكان معتادًا الهدوء في أوقات التوتر، وقد ساعد ذات مرة في سحق تمرد الفرق السودانية العاملة في خدمة الفاطميين بالقاهرة. وفي ذلك الحين لخص الموقف بإيجاز:

> ونحن فما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار، فإن أرادنا نقاتل مع المسلمين صالح الكفار وسِرنا إلى ذلك الجانب، وقاتلنا بين يديه. وإن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم.

ولم يكن ممكنًا أن يكون الاختيار أكثر صراحة ووضوحًا. وإلى جانب أبي الهيجاء

السمين كان هناك العادل نفسه، الذي تزايد اعتماد صلاح الدين عليه. عندما سمع أن أخاه أمر ابنه الأفضل بعبور الفرات لعزل المنصور وأخذ منصبه، انتابه القلق؛ لأنه كان يعلم أن للأفضل نفسه طموحاته. ولم يكن هناك شك في شجاعة ابن صلاح الدين؛ وقد هاجم العدو في أرسوف بعنف شديد لدرجة انفجار عرق دموي في وجهه. ولكن شجاعته لم تستطع أن تخفي نوعًا مؤكدًا من حب الذات في شخصيته، مع ولع بالخمر، أثار الشكوك في صلاحيته لحكم مثل هذه المنطقة الحساسة. وكان شبيهًا بعمه الثاني، توران شاه، من عدة وجوه: شجاعة يُقتدى بها في لهيب المعركة، وتخاذل وضعف في مسائل الحكم.

وما حدث بعد ذلك ينبئنا بالكثير عن شخصية صلاح الدين. عندما أطلق العادل شكوكه حول الأفضل، لم يؤثر غضبه في حكمته واستسلم وقبل كلمات أخيه. وعندئذ أرسل الأوامر إلى الأفضل بالعودة في الحال، وعندما استفز هذا الأمر غضب ابنه، رأى أن يخفف غضبه بالانتظار برهة ثم ركب للقائه وأسبغ عليه شرفًا عظيمًا بأن ترجل عن فرسه لتحيته، وهو ما كان الابن يفعله عادة مع أبيه. وأخيرًا كان على صلاح الدين أن يرسل العادل عبر الفرات لترتيب الأمور، وحرمه هذا من وجود أخيه في وقت حرج. ولم يعانِ صلاح الدين طوال حياته من المتاعب أكثر مما عانى من المتاعب التي تسبب فيها أفراد عائلته.

ومن حسن حظ صلاح الدين أن «ريتشارد» كان مشغولًا بالقدر نفسه بالأمور الداخلية. ومن أهم هذه الأمور: مَن يكون ملك القدس؟ كان هناك خصمان: «جاي»، الملك المعين فعلًا، لكنه يفتقر إلى الدعم الشعبي تمامًا على الرغم من أنه المرشح المختار من قبل «ريتشارد». كان موقف «جاي» وتردده في حطين يحول دون اعتماده ملكًا. والمرشح الآخر «كونراد»، وكان يحشد حوله من يعترفون به، وخوفه من «ريتشارد» يتصاعد باطراد. والحقيقة أن صلاح الدين كان يتلقى معلومات جيدة بشأن المنازعات في المعسكر الصليبي بصورة تستلفت النظر، حتى إن «ريتشارد» قال متعجبًا في إحباط ذات مرة: «هل يعرف صلاح الدين كل ما يحدث؟» وكان صلاح الدين شغوفًا بأن يلعب اللعبة الدبلوماسية ليكسب أي مزايا. ولذلك عندما تقدم له «كونراد» يعرض الوقوف بجانبه ضد «ريتشارد» مقابل التنازل عن بعض الأمور، رحب صلاح الدين بهذا التقارب في شغف. وبالمثل شجع صلاح الدين

أخاه العادل على الدخول في مفاوضات مع «ريتشارد»، ونمت بين الرجلين صلة تقوم على الاحترام ـ ربما لا يمكن وصفها بالصداقة ـ وشمل ذلك خروج الرجلين معًا في رحلات للصيد والاستمتاع بالولائم من الأطعمة الفرنسية. ومن الصعب الجزم بمدى الجدية التي أخذ بها صلاح الدين هذه المفاوضات، ولكنه كان سعيدًا بإطالة أمد المحادثات؛ لأنه كان يعرف أن «ريتشارد» يتوق للرجوع إلى أوروبا. ومن الناحية العسكرية كان قد غيَّر أساليبه، ولم يعد آنذاك يسعى للهجوم؛ وبما أنه قد تحصَّن في موقعه كان على «ريتشارد» أن يقرر القتال، وكان بوسع صلاح الدين أن ينتظر إلى ما لا نهاية. وكما أشار في رسالة إلى «ريتشارد»، كان في بلاده، محاطًا بعائلته، وقد تخلَّى عن مباهج الحياة الدنيا. لكن «ريتشارد» كان لا يزال شابًّا وكان بعيدًا عن وطنه. وتولَّدت الإستراتيجية الدفاعية عن إدراك أنه لم يكن من الممكن إلحاق الهزيمة بـ«ريتشارد» في معركة مفتوحة. ومع الانقسامات المتزايدة في المعسكر الصليبي ومع الضغوط على «ريتشارد» للعودة إلى أوروبا، كانت هي الإستراتيجية الصحيحة. وهكذا حصَّن صلاح الدين القدس وانتظر، وعندما وصلته الأخبار أن الناحية الشمالية مكشوفة حمل هو وأبناؤه الأحجار لتقوية الأسوار.

كان شتاء ١١٩١م قاسيًا. هطلت الأمطار على مدى ثلاثة أشهر بلا انقطاع، وكان الملاذ المتاح للجيش الصليبي في الرملة صغيرًا. وعندما حل الكريسماس وانتهى، تحولت الأمطار إلى جليد وأمطار ممزوجة بالثلوج، وكانت أحجار البرد تضرب الخيام، وفسدت الأطعمة، ومات الرجال من البرد والحمى. وفي الوقت نفسه، انتظر صلاح الدين؛ لأنه لم يكن ينوي الهجوم. وكان قد فرق جيشه، ولكن المسلمين دأبوا على شن الغارات المستمرة ضد الصليبيين في معسكرهم. فإذا كان «ريتشارد» يريد القدس فعليه أن يسير إلى أراضي الداخل ويحارب من أجلها. وفي ٢ يناير ١١٩٢م أعطى «ريتشارد» الأوامر بالزحف إلى القدس، مع أن أوامره لم تكن مشفوعة بالحماسة. وربما كان السبب في ذلك رغبته في رفع معنويات جيشه فحسب. وفي ذلك الحين اقترب الداوية والإسبتارية من «ريتشارد» ليطلبوا منه وقف الزحف. وجادلوا أنهم إذا ابتعدوا عن الساحل فإنهم سيكونون عرضة للعزل، وحتى إذا ما كان للقدس أن تسقط، فماذا بعد؟ بمجرد أن يزور الصليبيون الضريح المقدس يعودون إلى بلادهم، وتسقط القدس مرة أخرى في يدَي صلاح الدين. كانت هذه نصيحة تتعارض أساسًا مع موضوع الحملة الصليبية برمته،

ولكنها كانت نتائج التجربة والحكمة، واستمع «ريتشارد» إليها. ونصحوه بأن يتحول عن القدس ويحصِّن عسقلان؛ لأنها مفتاح مصر. ثم أمر «ريتشارد» بإحضار خريطة للقدس، ولما درسها استنتج أن المدينة لا يمكن أن تسقط في يده طالما بقي المسلمون متحدين. وبحلول يناير، ومما سبب امتعاضًا عظيمًا لأولئك الذين في صفوف الجيش، عاد «ريتشارد» في اتجاه عسقلان. وجاءت أخبار انسحاب «ريتشارد»، فشعر صلاح الدين ببعض الراحة، ولكنه كان يخشى من أن يحول «ريتشارد» اهتمامه نحو مصر، فإذا ما فعل ذلك، فلم يكن أمام صلاح الدين سوى أن يتبعه. وهو أمر محفوف تمامًا بالمخاطر؛ لأنه مع سيطرة الفرنج على البحر قد يجد صلاح الدين نفسه وقد انقطعت عنه الإمدادات. وفي الوقت نفسه، و«ريتشارد» يعيد بناء تحصينات عسقلان، أمر صلاح الدين بإخلاء جميع النساء والأطفال من دمياط في مصر.

وتوالت الأحداث بسرعة. عاد «ريتشارد» في فبراير ١١٩٢م إلى عكا بسبب نزاعه مع «كونراد». وواصل صلاح الدين اللعبة الدبلوماسية، وأرسل العادل للتفاوض. ومرة أخرى لسنا متأكدين من مقاصد صلاح الدين وأغراضه، ولكن لو طالت المفاوضات حتى الربيع؛ حتى تصل القوات القادمة من العراق ومصر، لكان الأمر أفضل كثيرًا. وفي الوقت نفسه، كان صلاح الدين مشغولًا بالمسائل المرتبطة بخلافة تقي الدين. وفي منتصف مايو أرسل العادل عبر الفرات لحل هذه المشاكل. وفي مايو تغيَّر الموقف من جديد، عندما وصلت صلاح الدين الأخبار بأن الحشاشين قتلوا «كونراد»، على الرغم من أنه لم يكن واضحًا مَن كان وراء الحادثة. وفي نهاية مايو هاجم «ريتشارد» الداروم، وبسقوطها سيطر فعليًّا على الطريق الساحلي إلى مصر. وإذ كان الموقف حرجًا بالنسبة إلى صلاح الدين، فسرعان ما تحوَّل إلى وضع كارثي. في يونيو ١١٩٢م علم «ريتشارد» من البدو أن قافلة ضخمة ـ كانت من الضخامة بحيث قُسِّمتْ إلى ثلاث قوافل ـ خارجة من مصر. وساور القلق «ريتشارد» في البداية، وأرسل اثنين من رجاله متنكرين على هيئة البدو، للتحقق من الأمر. وعندما أكد الجواسيس الأخبار، عرف «ريتشارد» أن عليه أن يتصرف بسرعة. وفي ٢٤ نوفمبر أخذ قافلة المسلمين بالمفاجأة. وكاد «ريتشارد» المنتصر ألا يصدق حظه الجيد؛ ثلاثة آلاف جمل محملة بالذهب والفضة والتوابل سقطت غنيمة، وكثير من الخيول. وبالإضافة إلى ذلك استولى على كثير من الأسلحة: سهام وحراب ودروع. كانت الخسارة كارثة على المسلمين، ولم يكن هناك ما يواسي صلاح الدين؛ فقد وصلته

الأخبار مساء ذلك اليوم بعد صلاة المغرب. وكان ابن شداد حاضرًا: «وكنت جالسًا في خدمته، ووصل بالخبر شاب من الإصطبلية... وأخذت في تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التسلية». والحقيقة أن صلاح الدين كان في حاجة مُلحة إلى التعزيزات ليخفف عن قواته التي تحارب بلا انقطاع. وكانت دواب الركوب والأسلحة ذات أهمية حاسمة. وكل هذا صار بحوزة «ريتشارد»، وأصبح بذلك يمتلك حرية الحركة والقدرة على المسير صوب مصر. ولو فعل ذلك، لما كان أمام صلاح الدين سوى أن يتبعه بجيش تتدهور معنوياته باطراد وتزداد شكاواه. كان يجب على «ريتشارد» أن يتحرك إلى مصر، ولكن جاذبية القدس كانت كبيرة بحيث لا يسعه أن يقاومها. ومرة أخرى حول انتباهه تجاه المدينة المقدسة.

صلاح الدين يحصّن القدس

عندما وصلت تلك الأنباء إلى صلاح الدين أمر بتسميم جميع الآبار حول المدينة. ثم دعا إلى مجلس حرب لمناقشة الإستراتيجية في هذه الأوقات اليائسة. وكان الحضور من الأمراء والأكراد والمماليك الذين خدموا صلاح الدين وشيركوه أيضًا، وهم جنود محنكون بحكم خوض الكثير من المعارك والأزمات. وافتتح ابن شداد الاجتماع عن الواجب المقدس في الجهاد والدفاع عن أقدس المدن. ثم حثَّ الحاضرين على أن يقسموا، عند الصخرة المقدسة، بأن يكون القتال حتى الموت. وأعقب كلماته الصمت، وكذلك وقف الرجال واجمين ـ وكلٌّ منهم غارق في أفكاره ـ وبتعبير ابن شداد: «وكأن على رؤوسهم الطير». وكسر صلاح الدين الصمت، وكانت كلماته موجزة ومباشرة، خالية من البلاغة أو المحسنات؛ لأن الذين أحاطوا به كانوا الأقرب إليه، وفهم جميع الحاضرين تمامًا خطورة الموقف:

> الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، فليس هناك من المسلمين من يواجه العدو إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم... والسلام.

وردَّ على هذه الكلمات المشطوب، الذي تنافس مع صلاح الدين ذات مرة من أجل الوزارة في مصر وأُسر في عكا، بأنهم سوف يقاتلون حتى الموت. وكان المشطوب كرديًّا مثل صلاح الدين، وربما كانت كلماته العنيدة مستوحاة من إحساس بالفخر أمام الأتراك الحاضرين. ومع أن صلاح الدين اطمأن لتأييده، فقد لاحظ أن الباقين ظلوا صامتين. ثم انفض الاجتماع، مع أن أحدًا لم يقسم. وفيما بعد، في المساء نفسه تلقَّى صلاح الدين رسالة من أبي الهيجاء السمين، يبلغه أن ثمة قلقًا كبيرًا عما يحدث إذا فرض الحصار على القدس؛ لأن صورة ما حدث في عكا كانت عالقة في الأذهان. وإذا طلب منهم الدفاع عن القدس فسوف يفعلون هذا، ولا بد أن يبقى معهم في المدينة. وفي الحال رد صلاح الدين بأنه سوف يبقى، ولكنه تلقَّى نصيحة بأن هذا سيكون خطيرًا للغاية.

كانت ليلة طويلة، وبقي ابن شداد مع صلاح الدين حتى الفجر. أثارت كلمات أبي الهيجاء السمين كثيرًا من القلق لصلاح الدين؛ لأنه كان متأكدًا أن «ريتشارد» لن يلبث أن يهاجم القدس. وحينذاك أخبره رجاله أنهم لن يدافعوا عن المدينة ما لم يبقَ في الخلف. وبالإضافة إلى هذا، يستغرق وصول القوات التي كان في حاجة ماسة إليها من العراق وقتًا، وكان يشك في أن سبب ذلك أنهم كانوا يريدون أن يتجنبوا الحصار. وكان هذا بالنسبة إليه يعني شيئًا واحدًا؛ أن القدس في سبيلها للضياع. وكتب ابن شداد أن صلاح الدين كان يشعر تجاه القدس بهمٍّ عظيم يحرك الجبال. وفي تلك الليلة حاول ابن شداد أن يخفف من قلق صلاح الدين، وصلى الرجلان معًا حتى انبلج الفجر. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم صلى ابن شداد الجمعة في المسجد الأقصى، ولاحظ صلاح الدين فقال: «وصلَّى ركعتين، ورأيته ساجدًا وهو يذكر كلمات، ودموعه تتساقط على مصلَّاه». وكان الجميع يتوقعون أن يحدث أول هجوم على المدينة في اليوم التالي لأن «ريتشارد» جاءته التعزيزات.

ولم يحدث الهجوم قطُّ. وفي مساء يوم الجمعة ٣ يوليو، وصل تقرير من عز الدين جرديك، وكان متمركزًا مع طليعة الجيش، أعلن فيه أن العدو ركب ولكنهم عادوا إلى خيامهم. وربما لم يكن صلاح الدين يعلم مدى تفرق كلمة القوات الصليبية. واستطلع «ريتشارد» الآراء كما فعل من قبل، ومرة أخرى جادل الفرسان المحليون ضد الهجوم على القدس؛ تسممت مصادر المياه كما أشاروا، وكانت ذروة الصيف. وكانت هناك آراء أخرى تقول: طالما كانت أعداد المسلمين تفوق أعداد جيش «ريتشارد» فمن المستحيل الاستيلاء على القدس. ولم يكن

هناك ما يضمن بقاء المدينة بأيدي الصليبيين سوى تدفق عدد كبير من المستوطنين الجدد. وغير ذلك، فما يكسب اليوم يضيع غدًا. وإذا كان لا بد من شن هجوم، فيجب أن يتم في اتجاه مصر. وحتى هذه الفكرة كانت تبدو فكرة خيالية بصورة متزايدة؛ لأن الفرنسيين تحت قيادة «هيو» أمير بورجندي، لم يروا سببًا للسير وراء الملك الإنجليزي، بل إنهم عسكروا بعيدًا عن الصليبيين الآخرين، وكان معسكرهم يردد أصداء الأغاني المعادَية لـ«ريتشارد». وللاستيلاء على القدس لم يكن أمام «ريتشارد» إلا أن يأمل في الاحتفاظ بمساندتهم، ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا ينوون أن يتبعوه فيما رأوه مغامرة «آل أنجو» في مصر، وعندما أعلن أنه لن يكون هناك هجوم على القدس، كانوا أول من بدأ السير عائدين إلى الساحل. وفيما يخصهم، انتهت الحملة الصليبية وخانهم «ريتشارد» ملك إنجلترا[٣].

ومن الناحية الدبلوماسية ظل «ريتشارد» على عناده وتحديه، وهدد بقوله: «إن الكبش انسحب من المناطحة». لكنها كانت مجرد محاولة دبلوماسية لحفظ ماء الوجه. وصلت رسالة من «هنري» أمير شامباني، وكان «ريتشارد» قد عيَّنه ملكًا على المملكة الصليبية، إلى بلاط صلاح الدين، وبقيت الرسالة تتحدى: «فأعد عليَّ بلادي حتى أصالحك». ولاحظ ابن شداد، وكان شاهِد عيان، أن صلاح الدين انتابه الغضب من هذا الطلب، وكاد أن يضرب المبعوث قبل أن يطلب إبعاده. ولا يهم موقف «هنري»؛ فقد تحوَّل المد لمصلحة صلاح الدين، ولم يكن أمام «ريتشارد» سوى المفاوضات. كان على استعداد للتخلِّي عن مزاعمه في القدس، فيما عدا كنيسة القيامة وحرية الحُجاج في الحج إليها. وكانت عسقلان ـ بموقعها الإستراتيجي مقابل القدس ـ العقبة. ومع أن الصليبيين حاولوا إعادة تحصينها، فإنها كانت ظلًّا لماضيها القوي، وأصر «ريتشارد» على الاحتفاظ بها؛ لأنها تسهل له تضييق الخناق على مصر. ومن الطبيعي أن صلاح الدين لم يكن ليقبل أبدًا هذا الطلب. وكان أيضًا يريد السلام؛ لأن معنويات جيشه كانت منخفضة على نحو غير مسبوق، وإمبراطوريته على شفا الإفلاس. وفي النهاية وافق على تقديم اللد على سبيل التعويض، ولكن لا يمكن أن تبقى عسقلان تحت سيطرة «ريتشارد». وعلى أية حال، لم يكن في عجلة من أمره لإنهاء الأمر ـ كان يعرف أن «ريتشارد» يتوق إلى العودة إلى بلاده لما ينتظره من أمور مهمة هناك، وكانت القوات تصل يوميًّا لتقوية صلاح الدين. وفي ٢٢ يوليو ١١٩٢م، بعد أن هدم «ريتشارد» الداروم وترك ثلاثمائة من الداوية والإسبتارية في عسقلان حامية لها، انسحب إلى عكا وظن كثيرون أنه

سوف يبحر عائدًا إلى بلاده. والحقيقة أنه كان يُعد للهجوم على بيروت، ليضمن أن يكون الساحل كله بيد الفرنج.

الهجوم على يافا وتحدي «ريتشارد»

وردَّ صلاح الدين في الحال؛ أرسل الأفضل بقواته من الموصل وسنجار إلى بيروت للدفاع عنها، وفي أثناء ذلك قاد قواته من الأكراد والأتراك واتخذ وضع الهجوم، وكانت ميمنة جيشه تحت قيادة الظاهر والميسرة تحت قيادة العادل. كان الهدف يافا، وكان صلاح الدين على يقين من سقوط المدينة بسهولة، ولكن المقاومة كانت أعنف مما توقع. قاومت الحامية، على مدى أربعة أيام، حتى فُتِحتْ ثغرة في النهاية واقتحم المسلمون المدينة، وتراجع الجنود الصليبيون إلى القلعة. وجاء المبعوثون لمناقشة شروط الاستسلام وطلبوا من صلاح الدين أن يكبح جماح رجاله، ولكنه أجاب بأنه لا يقدر على ذلك لأن الحاجة إلى الغنائم أقوى من أن تُكبح. ونصح الصليبيين بالتقهقر إلى القلعة حتى لا ينالهم الأذى، وعندما فعلوا هذا، تم اجتياح يافا ونهبها. وفي الوقت نفسه، قبِل صلاح الدين الاستسلام الرسمي للمدينة بالشروط نفسها التي وضعها للقدس. وفي فترة ما بعد ظهر اليوم نفسه وصلته الأخبار بأن «ريتشارد» أوقف زحفه على بيروت، وأنه في الطريق لإنقاذ يافا. ومع أن الفرقة الفرنسية رفضت مساعدته، فقد جمع قوة من الفرسان الإنجليز والأنجويين وانطلق مسرعًا. وسار الفرسان بحذاء الساحل، ولكنهم في الحقيقة أوقفوا، وأبحر «ريتشارد» وحده لمواجهة جيش صلاح الدين. وعند الفجر أعلن صوت الأبواق وصول «ريتشارد» إلى يافا. وفي الحال أمر صلاح الدين ابن شداد بتوصيل الأخبار إلى الظاهر بن صلاح الدين، يخبره بأن يتخذ موقعه خارج البوابة الجنوبية. وأسرع ابن شداد إلى الظاهر: «فأيقظته، وقام والنوم في عينيه». وفي الوقت نفسه، زادت رغبة صلاح الدين في الاستيلاء على القلعة. ومع أن عددًا من الفرسان استسلموا وحصلوا على الأمان، فقد شجع منظر سفينة «ريتشارد»، مدهونة بالأحمر ومغطاة بمظلة حمراء ترفرف عليها أعلام حمراء، الباقين على الاستمرار في القتال دفاعًا عن القلعة. ولم تكد السفينة تصل إلى الشاطئ حتى قفز «ريتشارد»، وكان لا يزال بحذائه البحري، في البحر ملوِّحًا ببلطة وهو يصيح هائجًا. كان مشهدًا قويًّا واستعراضًا للشجاعة أخاف المسلمين الذين راقبوا الموقف، وتفرقوا. و«ريتشارد» يرسو لم يكن

صلاح الدين يدري بما يحدث؛ لأنه كان يتفاوض مع مبعوثي يافا على استسلام القلعة. وعاد ابن شداد مندفعًا: «فعرَّفته في أذنه ما جرى، فامتنع من الكتابة وأشغلهم بالحديث». وكان صلاح الدين قد أخذ يافا في يومين بقوة من ستين ألفًا واستردها «ريتشارد» بأقل من ثلاثة آلاف.

في ذلك اليوم كان «ريتشارد» في هيئة جيدة، وعاب على صلاح الدين، أعظم قائد في الإسلام، أنه فرَّ، وهو، «ريتشارد»، لم يخلع حذاءه البحري بعد. لكنه كشف أيضًا عن أن هناك أمورًا عاجلة تستدعي رجوعه إلى إنجلترا، ومرة أخرى بدأت المساومات. ووافق صلاح الدين على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من قيصرية حتى صور، ووافق على أن يحتفظ «ريتشارد» بيافا، ولكن لا مفاوضات بشأن عسقلان. وفي ٢ أغسطس أرسل «ريتشارد» رسالة إلى صلاح الدين يطلب عسقلان مرة أخرى. وزعم المبعوث أنه إذا تم الاتفاق على الشروط، فإن «ريتشارد» سوف يرحل في غضون ستة أيام، وإلا قضى الشتاء على الساحل. وأجاب صلاح الدين ببرود بأن عسقلان لن تُسلَّم، وأن «ريتشارد» محل الترحيب إذا ما قرر قضاء الشتاء على الساحل:

> أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وإذا أقام أيضًا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه أن يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، ما يسهل عليَّ أن أشتي وأصيف وأشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي وعندي أولادي وأهلي.

لم يكن الوقت إلى جانب ملك إنجلترا.

وفي الوقت نفسه، انسحب الجيش الإسلامي إلى الرملة. ولكن عندما سمع صلاح الدين في ٤ أغسطس أن «ريتشارد» يعسكر خارج يافا بخيام قليلة وقوة صغيرة، قرر في الحال أن يشن هجومًا مفاجئًا للقبض على ملك إنجلترا. وهكذا انطلق في أول الليل، يسبقه أدلة من البدو. ومن التقديرات أن «ريتشارد» لم يكن لديه أكثر من سبعة عشر فرسًا وأقل من ألف من المشاة، ولكن عندما شن المسلمون هجومهم صمد الفرنج. وكتب ابن شداد: «وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على الموت أصبر فارتاع العسكر منهم، ووجموا من ثباتهم». وفي هذا الصدام قُتل فرس «ريتشارد» وأرسل صلاح الدين إليه فرسين؛ لأنه لا يليق بملك أن يحارب راجلًا. ثم انسحبت القوات الإسلامية وأحاطت بالمعسكر، وأمرهم صلاح الدين بالهجوم ثانية، ولكن لم يهجم من رجاله سوى ابنه

الظاهر، بينما رفضت بقية القوات الهجوم. وفي ذلك اليوم كان «ريتشارد» في موقف يوافق هواه. وقد ركب ورمحه في يده على امتداد خط الجيش الإسلامي كله، ولكن أحدًا من الجنود المسلمين لم يجرؤ على مهاجمته. ومن الناحية النفسية كانت ضربة موجعة لصلاح الدين الذي يواجه حالة تقترب من التمرد. وليحول دون المزيد من ضياع الكرامة تحرك بعيدًا في غضب شديد. وقد وصل غضبه في ذلك اليوم حتى إن كثيرين ممن رفضوا الهجوم كانوا على قناعة بأنه سوف يصلبهم. وحتى الظاهر، الوحيد الذي شن الهجوم، كان مرعوبًا من أبيه، وتذكر كيف أنه لم يجرؤ على دخول خيمة أبيه. وعندما استدعاه في النهاية دخل في حال من القلق وهو يرتعش، وجد كمية من الفاكهة وصلت من دمشق. وطلب صلاح الدين منه أن يبعث في طلب الأمراء ليتذوقوا الفاكهة، وكان من الواضح أن غضبه قد تبدد.

وقد عاتب الجناحُ، أخو المشطوب، صلاحَ الدين، وأخبره أن رفض القوات الهجوم كان بسبب غضبهم لضياع فرصتهم في الحصول على الغنائم في يافا. والحقيقة أن غضب صلاح الدين حل محله إدراك قلق بأن رجاله لن يحاربوا بعد ذلك. كان صلاح الدين نفسه في ميدان القتال على مدى خمس سنوات، ومع أن روحه كانت تشتعل بالرغبة في القتال والجهاد، فإنه لم يكن بوسعه أن يتوقع من رجاله أن يسيروا على خطاه. كان هناك، في جميع أنحاء إمبراطوريته، قصور حاد في الطعام، كما حل الخراب بأراضيه. وكان رجاله مرهقين متعبين تثقلهم الديون. وكتب القاضي الفاضل إليه من مصر، وكالعادة وعى ما يجري بدقة، بأن أحدًا من المسلمين لن يشارك في الجهاد سوى بالكلمات الجوفاء، وأن أحدًا لن يتبعه إلا من أجل المال. ومن المُسلَّم به لدى الجميع أن أعظم إنجازات صلاح الدين استرداده بيت المقدس، ولكن هذا الإنجاز تتوارى أهميته أمام قدرته على الإبقاء على جيشه المتباين متماسكًا في ميدان المعركة على مدى خمس سنوات. وقد ألمح بنفسه إلى هذا عندما قال متعجبًا إنه من غير المحتمل تمامًا أن تجتمع هذه العساكر ثانية لو تُوفِّي. لكنه فهم آنذاك أن القوات لن تخوض المزيد من القتال.

كان وصول المنصور بن تقي الدين يسبب دائمًا قدرًا معينًا من القلق والانزعاج؛ لأنه لم يتحدَّ صلاح الدين فقط، بل تمرد ضده، وبالتالي تسبب في كثير من المتاعب. لكنه وصل حينذاك إلى معسكر صلاح الدين على رأس رجاله، مستعدًّا للجهاد. وكان الظاهر

أول من حياه، وعندما كانت اللحظة مواتية، صحبه إلى خيمة صلاح الدين. ولو كانت لديه فكرة عن الاستقبال الذي سيلقاه، لما كان له أن يقلق، فقد نهض صلاح الدين ليحييه وعانقه عناقًا طويلًا. وربما لأنه كان يشبه أباه، أو ربما كان يماثله في سلوكه، بدأ صلاح الدين يبكي «وغشيه من البكاء ما لم يُرَ مثله» عندما رأى المنصور الذي ذكَّره بابن أخيه.

مفاوضات الصلح ورحيل «ريتشارد»

وفي أثناء ذلك سقط «ريتشارد» فريسة مرض خطير. ذلك أن مآثر شجاعته المدهشة وطاقته غير المحدودة استوفت ضريبتها. وها هو الآن يرقد عاجزًا. كان الفرنج يستعدون للعودة إلى بلادهم، مما زاد في تقليص قواته، ولكنه استمر في غضبه، ومع أنه كان قريبًا من الموت، فقد بعث برسالة تحدٍّ إلى صلاح الدين، في حين أنه في أكثر من مرة طلب بعض الفاكهة والثلج لتخفيف الحمى عنه. وكان صلاح الدين بطبيعته، يُرسل الفاكهة، ولكن عندما أخبره أحد جنود طليعة جيشه بما كانت عليه دفاعات يافا، حاول صلاح الدين حشد قواته مرة أخرى للزحف إلى المدينة. وقال إنه بخلاف بقية الأمراء لا يؤثر حياة الدعة على الجهاد. ولا شك في أن صلاح الدين كان سيواصل القتال حتى يبحر «ريتشارد» عائدًا إلى بلاده، وربما كان هذا البرهان النهائي على أن عزمه على الجهاد كان صادقًا؛ لأنه بقي على إصراره عندما استسلم الآخرون. لكن لم يكن هناك زحف على يافا؛ إذ إن أمراءه أقنعوه بسرعة أن الفرنج إذا وقعوا تحت الضغط فسوف يواصلون القتال، ولكن إذا تم التوصل إلى هدنة، فسوف يرحلون.

وتم وضع شروط الصلح: يأخذ الفرنج البلاد من يافا إلى صور، فيما عدا اللد والرملة وبعض البلدات الأخرى. وطلب «ريتشارد» تعويضًا عن عسقلان، وفي النهاية وافق صلاح الدين على اقتسام دخل الرملة واللد. وبالنسبة إلى عسقلان، خُرِّبتْ وكلٌّ من الجانبين يؤكد حدوث هذا بالفعل. كانت هدنة ـ لا صلحًا ـ وتم الاتفاق على أن تكون مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر، بعدها تستأنف أعمال القتال. وحتى النهاية بقي صلاح الدين مترددًا بشأن الشروط؛ لأنه كان يخشى أنه عندما يستأنف القتال لا يتحد القادة المسلمون مثلما كانوا:

لا أدري ما سوف يكون عليه أمري والعدو يقوى. وقد تركت له هذه الأرض [المدن الساحلية] وقد يعود ليسترجع الباقي. وحينئذ سوف ترى رؤساء المسلمين فوق رؤوس قلاعهم يقولون «لن تنزل»، وعندها سوف يتحطم المسلمون.

لكن القتال انتهى حينذاك. وحين عُرضت المعاهدة على «ريتشارد»، كان معتلًّا بدرجة لا تسمح له بقراءتها وأعلن ببساطة، «أوافق على السلام: ها هي ذي يدي». أقسم الملك الجديد للمملكة اللاتينية، «هنري تشامبين»، والفرنج الآخرون، اليمينَ. وفي اليوم ذاته أقسم العادل والفاضل والظاهر والأمراء الآخرون اليمينَ. وبعد ذلك، عقد صلاح الدين اجتماعًا وأعلن السلام.

وأخيرًا انتهى الأمر. حرب مرهقة دمَّرت الأرض والبلاد وسببت اضطرابًا هائلًا. لم يكن هناك طرف منتصر. ظل صلاح الدين على إصراره وتحديه ولم تسقط القدس، ولكن «ريتشارد» أمَّن طرقًا ساحلية حيوية يمكن أن تجيء منها جيوش جديدة. تحارب الجيشان بلا طائل، وظل الشخصان المحوريان في هذا القتال، «ريتشارد» وصلاح الدين، وكانا يختلفان أحدهما عن الآخر تمامًا في الشخصية والإمكانات، على عنادهما وثباتهما حتى النهاية. وثمة حادثة أخيرة جرت، و«ريتشارد» يستعد للرحيل، تكشف بوضوح عن شخصيتهما؛ قال «ريتشارد» محذرًا: «لا تظن أنني لن أرجع، وعندما أعود سوف آخذ القدس». وأجاب صلاح الدين على هذا الإنذار بأنه إذا قُدِّر له أن يخسر القدس، فإنه يفضل أن يخسرها على يد «ريتشارد» وليس بيد رجل آخر. ولم يقم «ريتشارد» نفسه بالحج ولم يتقابل الرجلان قطُّ. وكان أسقف «سالسبوري» هو الذي قاد الحُجاج إلى الأماكن المقدسة. ولكن عندما طلب «ريتشارد» رفض السماح للفرنسيين بالحج، تجاهله صلاح الدين وسمح لجميع الذين رغبوا في زيارة الأماكن المقدسة بالزيارة، ولم يقصد الدخول في منازعات الصليبيين. كان سلوكه المضياف والترحيب بالحُجاج راجعًا بصورة كبيرة إلى طبيعته الكريمة، كما كان راجعًا أيضًا إلى حقيقة أنه أراد رحيل أكبر عدد ممكن من الحُجاج بعد الحج. وفي الوقت نفسه، انتقل «ريتشارد» إلى عكا، حيث تحسَّنت صحته ببطء، ومن هناك أبحر عائدًا إلى بلاده. وأخيرًا رحل قلب الأسد.

كانت الحملة الصليبية الثالثة سلسلة من النكسات العسكرية لصلاح الدين،

كما كانت عرضًا للمنازعات الداخلية والتشرذم بين أمرائه، غالبًا ما كانت تقف على حافة التمرد. هزَّته مذبحة عكا تمامًا، ولم يكن قادرًا على منع زحف «ريتشارد» العنيد على امتداد الساحل. وفي النهاية، أُجبِر على تدمير المدن التي فتحها، ليمنع سقوطها بين يدي «ريتشارد»، بما في ذلك عسقلان الأثيرة لديه. ومع هذا، في تلك الساعة الحالكة، وصلاح الدين يحصِّن نفسه في بيت المقدس انتظارًا للهجوم النهائي، حقق إنجازًا أكبر حتى من انتصاره في حطين. ذلك أن مكسبه القدس باسم الجهاد كان مأثرة عظيمة، وكان عدم فقدانها مأثرة أعظم. وبتعبير «جب»: «ألهمَ، بقوة الشخصية المحضة، وبالمثال الذي ضربه في التحمُّل الشديد، المقاومة الشرسة التي أدت في النهاية إلى إنهاك الغزاة»(٤).

الفصل الخامس عشر

الوفاة في دمشق: صلاح الدين في أيامه الأخيرة

الليلة غادر يوسف سجنه، هذه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

القاضي الفاضل

بقي صلاح الدين في القدس حتى تأكد من أن «ريتشارد» غادر عكا متجهًا إلى أوروبا. وقد أنهكت السنوات القليلة السابقة صحته بشكل كبير، بسبب الضغوط ـ وربما كانت الصدمة ـ التي مثلتها الحملة الصليبية الثالثة[1]. وعندما اقترح ابن شداد أن الوقت مناسب لقضاء فريضة الحج إلى مكة، وهي فريضة على المسلمين جميعًا، وافق على الفور وبدأت الاستعدادات وتحديد مَن يصاحبه. ومع ذلك، اقترب القاضي الفاضل الحكيم، وكان يرى الوضع السياسي برُمته ويدرك عواقب ما يجري من الأحداث، من صلاح الدين ليشير عليه بأنه ربما لا يكون الوقت مناسبًا للقيام برحلة الحج. وأشار إلى أن صلاح الدين لم يخبر الخليفة بنيته وأن أي حركة تجاه مكة ربما تؤخذ عليه ويُساء تفسيرها في بغداد من جانب الذين يسيؤون تفسير مثل هذه الأمور. وعلى أية حال، لم يكن خطر الفرنج قد زال تمامًا والقدس لا تزال عرضة للهجوم. وكانت الدولة مرهقة شأنها شأن السلطان، كما أوضح. واندلعت في دمشق الاضطرابات بسبب نقص الطعام وإساءة استخدام السلطات الإدارية، بل وشهدت القاهرة مظاهرات موالية للفاطميين. وفرضت ضريبة خاصة لتوفير المال اللازم للديوان المفلس، ولكنها لم تكن كافية لمواجهة حاجات الحرب. وفي الإسكندرية أُرغم التجار الأجانب على ضرائب وصلت إلى خمسة وعشرين في المائة من قيمة البضائع. وربما كان على صلاح الدين أن يعيد النظر ولا يذهب إلى الحج في هذه السنة؛ لأن الأمور لم تكن قد استقرت بعد. وكعادته دائمًا، استمع صلاح الدين إلى

كلمات صديقه القديم، وقرر تأجيل حجه إلى السنة التالية. والحقيقة أنه لم يُقدَّر له أن يؤدي هذه الفريضة. وفي الوقت نفسه أصر، على خلاف نصيحة طبيبه، أن يعوض أيام الصيام التي فاتته. وكان القاضي الفاضل قد احتفظ بسجل دوَّن فيه الأيام التي لم يستطع فيها صلاح الدين الصيام بسبب مرضه، وصام حينذاك مدة تزيد على الشهر لتعويض الأيام التي لم يتمكن من صيامها.

العودة إلى دمشق

في نوفمبر ١١٩٢م عاد صلاح الدين إلى دمشق. وكانت المرة الأولى منذ إبريل ١١٨٩م التي يعود فيها إلى المدينة التي صارت قاعدة سلطته. وفكر قليلًا في أن يواصل السير إلى مصر، ولكنه بدلًا من ذلك عزم على قضاء الشتاء في بلاد الشام. وبعد ذلك بوقت قصير وصل العادل، ولاحظ التدهور الواضح في صحة صلاح الدين. وقضى الأخوان بعض الوقت معًا، وعلى مدى ما يقرب من أسبوعين كانا يركبان في الصحراء لصيد الغزلان. وكانا في الليل وتحت النجوم يتحدثان في كثير من الأمور. كانت مصر موضوعًا مهمًّا؛ وقد أقسم صلاح الدين في شبابه ألا يعود إلى تلك البلاد، ولكنه تحوَّل إلى حبها. وكان إسهام هذه البلاد في مجهوده الحربي هائلًا: كان ما يعادل ثلاثة أرباع دخلها تقريبًا يُنفق على إمداده بالقوات والأسلحة، ومن دون مصر لم يكن من الممكن أن يسترد القدس، ومن دون مصر كان لا بد أن تضيع القدس. كان الأخوان مقتنعَين أنه إذا ما انتهت الهدنة فسوف يعود الفرنج، ويكون التركيز على بلاد النيل؛ فقد برهنت الحوادث التي جرت طوال الشهرين السابقين على ذلك، ولا بد من تقوية دفاعات مصر وبسرعة عاجلة. وبينما كان الأخوان يتحدثان، صُدم العادل عندما اكتشف مدى الصعوبة التي يواجهها صلاح الدين في التركيز وهو ما أزعجه كثيرًا. لكن هذا جعله أيضًا يفكر؛ لأنه على الرغم من أنه خدم أخاه بإخلاص شديد، فإنه لم يكن يلقى قبولًا من ابن أخيه الأكبر والوريث الواضح، الملك الأفضل بن صلاح الدين، الذي صدمه بعجرفته، وبدأ هذا يدور في ذهنه. وعندما انتهت رحلة الصيد عاد العادل إلى بلاده، على الجانب الآخر من نهر الفرات، واتفقا على أن يرحل صلاح الدين إلى مصر مع بداية الربيع. ولم يكن مقدرًا للأخوين أن يلتقيا ثانية.

وفي الوقت نفسه، كان الأفضل، كما خشي العادل، يحتل باطراد مركز الاهتمام في

البلاط، وتوافد عليه عدد كبير من الأتباع. وعند نهاية الشتاء، في فبراير ١١٩٣م، وصل ابن شداد من القدس وسار إلى غرفة السلطان ليجد الأفضل محاطًا بمؤيديه؛ فقد اختار صلاح الدين البقاء في مسكنه الخاص. وأزعج ابن شداد منظر الأفضل جالسًا حيث كان صلاح الدين يجلس غالبًا، فابتعد في صمت متجهًا إلى الغرفة الخاصة حيث طلب الإذن بالدخول. وكان قد مضى أربعة أشهر على لقاء الرجلين، وحيًّا صلاح الدين رفيقه وعانقه بحرارة والدموع في عينيه. ولكن علامات التدهور في صحته أقلقت ابن شداد، الذي لاحظ أن حركات صلاح الدين بطيئة متثاقلة، وأنه يجد صعوبة في التركيز. وفي اليوم التالي وصل ابن شداد إلى الحديقة حيث كان صلاح الدين جالسًا مع أولاده الصغار. وقد جلس أحدهم، أبو بكر، المفضل لديه على ما يبدو، على ركبته. وأُخبر صلاح الدين أن مبعوثًا من الفرنج وصل ومعه رسالة، فأمر بإحضاره إلى الحديقة. وعندما دخل الفرنجي، بكى الصغير خوفًا من هذا الرجل غير الملتحي، وطُلب من المبعوث أن يخرج لعدة دقائق. وعندئذ تناول صلاح الدين طعامًا خفيفًا مع ابن شداد، وكان الأخير وهو يغادر المكان قد لاحظ بُطأً في تصرفات صلاح الدين: «وانصرفت من حضرته ولم أجد عنده من النشاط ما أعرفه منه».

صلاح الدين على فراش المرض

في ٢٠ فبراير، بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى دمشق، ركب ابن شداد للقاء الحُجاج العائدين من الحجاز، كما جرت العادة. وكان اليوم باردًا والرياح قارصة. وكانت عودة الحُجاج دائمًا مناسبة احتفالية، وبينما تجمَّعت حشود الناس لمح ابن شداد صلاح الدين على مسافة منه، وعندما حاول الاقتراب منه انتحى به الأفضل جانبًا، فقد كان يرغب في أن يكلمه في أمر ما. والرجلان يتحدثان لمح ابن شداد وهو ينظر في اتجاه صلاح الدين أنه نسي أن يلبس سترته المحشوة. أزعجه هذا بدرجة كبيرة، فقطع حديثه وحثَّ صلاح الدين على أن يرتدي سترته. ومرة أخرى أذهله ضعف التركيز، وكتب أنه بدا وكأن صلاح الدين يستيقظ من حلم. ولسبب ما لم يُعثَر على السترة، وانقضى اليوم. ولكن الرجفة بقيت، وفي اليوم التالي ارتفعت حرارة صلاح الدين. وحينها كان القاضي الفاضل وابن شداد في خدمته على الدوام. وكان المرض يشتد في وطأته، وتأثر ابن شداد بتواضع صلاح الدين. وفي اليوم الرابع من المرض تمت حجامته. وفي اليوم السادس من المرض طلب بعض الماء ليشرب. في البداية كان الماء حارًّا أكثر مما يجب، ثم جيء بماء أبرد مما ينبغي، ولكن

ابن شداد لاحظ أن صلاح الدين لم يغضب، ولاحظ ببساطة أنه لم يقل سوى: «سبحان الله، لا يمكن لأحد تعديل الماء». وكان المرض يزداد سوءًا، وعقل صلاح الدين ينحرف. ومع حلول اليوم التاسع توقف عن تناول أي سوائل، واستولت عليه رعشة الحمى، وكاد أن يغيب عن الوعي. كان من الواضح أنه يعاني سكرات الموت.

وانتشر الخوف في أرجاء المدينة، وبدأ التجار في تخزين بضائعهم، لأن لا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث إذا مات صلاح الدين. وفي كل مساء كان القاضي الفاضل وابن شداد يشدان الرحال إلى دار صلاح الدين، والناس يراقبونهما عن قرب؛ لأن مستوى القلق المرتسم على وجهيهما كان يعكس خطورة مرض السلطان. وفي اليوم الحادي عشر بلغ مرض صلاح الدين حدًّا جعله عاجزًا عن استقبال أي زوار، وعرض الأفضل أن يستضيف الرجلين في الليل، ولكن القاضي الفاضل أصرَّ على أن يتركا القلعة، مثلما كانا يفعلان كل ليلة؛ لأن غيابهما يجعل الناس يظنون أن الأسوأ قد حدث، وربما تنشب الاضطرابات عقب ذلك. وفي أثناء ذلك بدأ التدافع نحو السُّلطة؛ فقد طلب الأفضل من الأمراء أن يحلفوا له علنًا، فحلف البعض، ولكن البعض الآخر طلبوا تعهدات، ولم يحلفوا. ومن سوء الطالع، أنه لم تجرِ أي محاولة للحصول على يمين الولاء من أمراء مصر وحلب والعراق؛ لأنه كان من المعترف به أن أحدًا لن يحلف في ذلك الوقت.

وفاة صلاح الدين وحزن الناس

في ٤ مارس ١١٩٣م، كان صلاح الدين يغيب عن الوعي ثم يسترده، وكان معه الإمام أبو جعفر، يتلو آيات من القرآن الكريم، وكان حاضرًا أيضًا القاضي الفاضل، الصَّديق الذي كان صلاح الدين يثق به أكثر من غيره. فعلى مدى خمس وعشرين سنة كان الرجلان يكمل أحدهما الآخر، على الرغم من أنهما كانا مختلفين من جوانب عديدة للغاية: محارب عسكري كردي، وإداري فلسطيني محدودب الظهر. وكانا يشتركان في رؤية عاشت وتجاوزت اختلافاتهما. وفي ذلك الحين، جلس القاضي الفاضل قريبًا، والإمام يتلو القرآن، وعندما قرأ الآية: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، علت وجه صلاح الدين ابتسامة وهمهم قائلًا: «حقًّا»، ورحل عن هذه الدنيا وهو في الخامسة والخمسين.

في ذلك اليوم ذهب أبناء صلاح الدين إلى شوارع دمشق لتلقي العزاء من الناس، وكان هناك ذهول شديد في المدينة، ثم انتشرت الأنباء لتحمل معها الذهول إلى جميع أنحاء البلاد، كان ذلك الوقت الوحيد، كما لاحظ البعض، الذي حزن الناس فيه حقًّا لوفاة حاكم. وتُوفِّي صلاح الدين وقد ترك في خزانته من الذهب والفضة ما يساوي أربعين درهمًا ناصريًّا فقط، وقطعة ذهبية صورية واحدة، كما كتب ابن شداد، ولم يترك السلطان القوي خلفه بيتًا، ولا ضيعة، ولا بستانًا، ولا قرية، ولا ممتلكات من أي نوع. ولم يكن هناك ما يكفي من المال لدفع تكاليف جنازته، ولم يكن هناك حتى ما يكفي لشراء التبن الذي يُلت به الطين في مقبرته، وكان لا بد من اقتراض المصروفات. وأقام الأفضل العزاء في الإيوان الشمالي بالقلعة، وأُغلقت أبواب القلعة أمام الجميع باستثناء أمراء النخبة والمعممين. وبعد صلاة الظهر غُسِّل الجسد ووضع في الكفن؛ غسل الجثمان قاضٍ اسمه الدولعي، وعندما طلب من ابن شداد أن يشرف على هذا لم يستطع تحمل المنظر واعتذر. وحينذاك اكتشفوا أنه لم يكن هناك نقود لشراء الكفن أو التبن، وتكفَّل القاضي الفاضل بمصروفات الجنازة. وربما كان ذلك آخر مظاهر التناقض في حياة حافلة بالمتناقضات: ذلك أن أقوى رجل في العالم الإسلامي؛ وهو صلاح الدين، مات مفلسًا بالفعل. وإذا كان قد اشتهر بسبب معركة حطين، فإنه لم يكن قائدًا عسكريًّا عظيمًا. كان حاكمًا على دولة مترامية الأطراف، شاسعة، لكنه كان إداريًّا متواضعًا. كان بطل المذهب السُّني في الإسلام، لكن الفقه الذي عرفه كان بسيطًا. وفي الأوقات التي تستدعي اتخاذ قرارات سريعة، كان يلوذ بالحذر. ليست هذه مقومات العظمة، لكن لا يمكن أن يكون هناك نزاع في عبقرية صلاح الدين، والحزن الطاغي الذي أحاط بوفاته برهان على أن معاصريه عرفوا فيه خصلة لا نستطيع نحن ـ الواقفون على شطآن التاريخ مُستعيدين كل ما كُتب عنه ـ سوى أن نلمح قبسًا منها. وقد كتب أحد معاصري صلاح الدين أن الناس حزنوا لوفاة صلاح الدين حزنهم على الأنبياء؛ فقد أحبه الطيب والسيِّئ، والمسلم وغير المسلم على السواء. وبالنسبة إلى ابن شداد الذي بهرته خصال صلاح الدين فإن لكلماته النابعة من القلب تلك القوة التي تحرك مشاعرنا من إخلاصها:

> وبالله، لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء مَن يعزُّ عليهم بنفوسهم،
> وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجاوز والمبالغة إلا في ذلك اليوم؛
> فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل «الفداء» لفُدي بالنفس.

عندما تزول كل الأساطير والروايات، وعندما تسكت كل الأصوات، وعندما يهدأ الغضب الذي يصاحب حالات الحصار والحروب، نجد أنفسنا مع رجل بسيط تمامًا، وهنا تكمن عظمة صلاح الدين. كان رجلًا بسيطًا، لكن من المؤكد أنه لم يكن ساذجًا أو أحمق؛ لأنه لم يكن لينجو لو كان كذلك. كان ابن الإحياء السُّني، وكان ابنًا بارًّا ومخلصًا. وكما يستنتج المؤرخ كاهن لا يمكن فهم صلاح الدين من دون نظام الملك(٢). تعلَّم صلاح الدين في شبابه العقيدة على يدَي النيسابوري، فعلَّمها لأولاده. وفهم أن بناء مدرسة يعني إظهار المذهب السُّني الجديد، فبنى العديد من المدارس. وكان يؤمن بأن الجهاد واجب لازم وفرض، فثابر على ذلك بعزم وثبات بحيث رأيناه يتوسل ويداهن لشن هجوم نهائي على يافا، وهو إصرار جعله يرفض مغادرة بيت المقدس حتى تأكد من رحيل «ريتشارد» في النهاية. وربما كان أعظم مظهر لارتباط معاصريه به، كما لاحظ «جب»: أن تعود، سنة بعد أخرى، فرق الموصل، التي أدانت صلاح الدين بأنه غاصب أيوبي، لخدمته بنشاط، حتى وإن تلكأوا أحيانًا وهم في طريقهم(٣). لم يكن بوسع صلاح الدين أن يجبرهم على المجيء، ولا أن يستبقيهم إذا ما اختاروا الرحيل. ولا يمكن أن يكون هناك تفسير لهذا سوى وجود إحساس بالولاء الشخصي لصلاح الدين وللمُثل العليا والرؤية التي كان يؤمن بها تمامًا. وكانت القدس رمزًا لهذه المثل ولهذه الرؤية؛ وأدى استردادها إلى إسباغ الشرعية على دعواه بأنه بطل الجهاد، وأسكتت - جزئيًّا على الأقل - الذين اتهموه بأنه غاصب أيوبي. ولكن ما هو أعظم من استرداد القدس، كان دفاع صلاح الدين عنها بعزم وإصرار في وجه عدوان «ريتشارد»، عندما كان بوسعه التراجع نحو مصر، مما بَيَّن مدى إخلاصه. لم يكن صلاح الدين مفكرًا عميقًا، ولكنه كان يؤمن بما يؤمن به إيمانًا عميقًا وبإخلاص كبير. وفي عامة الناس تكون مثل هذه الخصلة محل إعجاب، ولكن في الرجال ذوي السُّلطة الكبيرة تصبح قوة لا تقاوم تجذب الناس في طياتها.

ومع هذا فإن الإخلاص وحده لا يكفي لتفسير نجاح صلاح الدين، كما لا يكفي لتوضيح «الأمر» الذي جعل دولته متماسكة(٤). ذلك أن الإخلاص والرؤية، بغض النظر عن مدى عمقها، لا يمكن أن يفسِّرا بشكل كامل كيف احتفظ صلاح الدين بولاء مَن حوله، ولم يكن يملك من السيطرة عليهم سوى القدر القليل. والحقيقة أنه كان موهوبًا وحلو المعشر، قادرًا على كسب الناس، مما كان يثير دهشة مستشاريه غالبًا.

وعلى خلاف زنكي، لم يكن صلاح الدين يحكم بالخوف، والحقيقة أن الناس غالبًا ما كانوا يضجرونه بطلباتهم، وكم من مرة داس مَن في حضرته على وسادته وهم يلاحقونه بطلباتهم. وربما لم يكن في زهد نور الدين محمود ـ مع أنه شاركه طبيعته المتقشفة ـ وكانت تلك نقطة لصالحه؛ لأن الزهد نادرًا ما يكسب الناس. كان بلاط نور الدين يتسم بالرزانة، وبلاط صلاح الدين يصخب بالهرج والضجة. وذات مرة كان أحد القضاة يزور بلاط صلاح الدين وهاله الصخب والضجة والألفة التي يخاطب الناس بعضهم بعضًا بها ـ بمن فيهم صلاح الدين نفسه ـ فغادر المكان، وأقنعوه بالعودة مع وعد بمزيد من الوقار. لم يكن لصلاح الدين حق شرعي في الحكم، والحقيقة أن حقه في الحكم لم يكن أفضل من حق أي أمير من المحيطين به، «ولا أي حق في مطالبتهم بالامتنان»(٥). ومع هذا خدمه أمراؤه، ولم يواجه إلا حالات قليلة من عدم الرضا الشخصي. وحتى لو حاول أحد الأمراء المتذمرين أن يحيك مؤامرة ضده، لم يكن هذا الأمير ليجد حوله مَن يسانده(٦).

كان صلاح الدين غريبًا في كثير من النواحي؛ كان كرديًّا في عصر الأتراك، وأيوبيًّا في زمن الزنكيين. ومع هذا برز صلاح الدين، في زمن التحالفات سريعة الانفصام والقائمة على المصالح الشخصية، والوعود الخائنة، ليكون الرجل الأقوى في البلاد، وفعل هذا تلقائيًّا. وعمل على أن يربك أعداءه، الذين كانوا يتوقعون أن ما يحركه هو نفس الدوافع التي تحركهم، وكانوا يفاجأون بمدى بساطته وتواضعه. وكان الناس يُتعبونه بالطلبات لأنهم يعرفون أنه لن يردهم خائبين، والفرنج الذين عرفوه أو تعاملوا معه أذهلهم كرمه. ولم يرفض أي طلب معقول، وإذا ما أعطى كلمته لم يكن يرجع فيها قطُّ ـ كما اكتشف «رينالد دي شاتيون» ودفع حياته ثمنًا لهذا. وكان يستخدم المال لكسب قلوب الناس وتهدئة غضبهم، ويستخدمه بسخاء، كما أن عدم اهتمامه بالمكاسب المادية لنفسه جعله يحظى بالإعجاب. ولكن حتى لو كان المال يمكن أن يذهب إلى هذا المدى، فقد كان صلاح الدين يتمتع بعبقرية كسب ود الناس، يمتدحهم ويقنعهم ويداهنهم حتى يفعلوا ما يريده. كسبت هذه القدرة، إلى جانب إخلاصه فيما يعتقد، قلوب أناس لم يقسموا فقط ألا يخدموه؛ كان الزنكيون يرون فيه كلبًا ينبح على سيده، ومع هذا فإنه كسب خدمة كلٍّ من حلب والموصل، وفعل هذا من دون إراقة الدماء.

وهناك كثير من الأمثلة التي توضِّح كيف خفف صلاح الدين من حنق أحد الأمراء

وكسبه إلى جانبه، ولكن ربما يكون المثل الأفضل هو ابن المقدم؛ فكما رأينا، واجه موقفًا صعبًا عندما أصرَّ أخوه توران شاه على أن يأخذ بعلبك بعد أن عزله صلاح الدين من إمارة دمشق، ورفض ابن المقدم أن يتزحزح عن موقفه. وكان هذا تحديًا خطيرًا أمام صلاح الدين؛ فمن ناحية لم يكن يستطيع أن يسمح لأي أمير بمعارضة سلطته، ومن ناحية أخرى، لم يكن قادرًا على أن يراه الناس وهو يعاقب رجلًا يدين له بالكثير وكان يدافع عن حقوقه فحسب. ولو أنه فشل في أي من الأمرين، لخسر ولاء الأمراء الوراثيين على الأقل، وربما خسر ولاء جميع المستقلين عنه على نحو ما[٧]. كانت كل العيون على صلاح الدين ولم يخفق؛ أمر جيشه بالسير إلى بعلبك لإظهار القوة، وأمضى وقته في الصيد، قبل أن يجلس مع ابن المقدم. والنقطة المثيرة أنه على الرغم من أن ابن المقدم كان مجبرًا على تسليم بعلبك، فإنه لم يهرب إلى خدمة سيد آخر، ولا تعرَّض للمحاكمة بوصفه متمردًا[٨]. وعلى العكس، لم يستمر فقط في خدمة صلاح الدين بإخلاص شديد، ولكنه في أعقاب وفاة ابن أخي صلاح الدين، عُيِّن حاكمًا على دمشق، وهو منصب كان حتى ذلك التاريخ وقفًا على أقارب صلاح الدين. وعلى أية حال، لا ينبغي الخلط بين الطبيعة الدبلوماسية التصالحية والضعف. ومن حين لآخر كان أمراء صلاح الدين بحاجة إلى أن يقفوا عند حدودهم؛ فعلى سبيل المثال، عاقب قواته الكردية في قسوة بعد هزيمة تل الجزرة (مونت جيسار)؛ بينما خاف ابنه الظاهر منه جدًّا عندما رفض المسلمون مهاجمة «ريتشارد» الذي كان بلا دفاع لدرجة أنه كان مقتنعًا بأن أي أمير سيمر في طريق صلاح الدين ذلك اليوم فسوف يُصلب.

ويتحدى المؤرخ «إهرينكروتز»، في السيرة التي كتبها لصلاح الدين، القارئ بسؤال افتراضي يطلب من قرَّائه أن يفترضوه «على سبيل المناقشة»[٩]: «لو مات صلاح الدين بسبب مرض خطير أصابه سنة ١١٨٥م، ما تراثه التاريخي عندئذ؟» وإذا لم ندرك أنه لفهم حياة رجل ما يحتاج المرء إلى دراستها في شمولها فهناك في سؤال «إهرينكروتز» افتراض ضمني، وهو افتراض يعكس استحواذ الحروب الصليبية على الغرب[١٠]. وهو ما يخلط بين الشهرة والإنجاز. وإذا كانت هذه ظاهرة غربية إلى حد كبير، فليس من الغريب حتى اليوم، أن معظم البحوث والدراسات حول موضوع الحروب الصليبية تتسم بالرؤية الأوروبية بلا مواربة[١١]، ومن ذلك ينبثق الافتراض الطبيعي بأن أعظم إنجازات صلاح الدين حدثت وهو يشتبك في مواجهة مباشرة مع

الغرب. ومن ثَمَّ يُذكر صلاح الدين على أفضل وجه بسبب الحملة الصليبية الثالثة وحرب الإنهاك التي خاضها ضد «ريتشارد»، مع أن هذه الفترة تكشف بالفعل القدر القليل للغاية الذي نعرفه عنه. والقراءة الأكثر تعقلًا هي التي تدعم رأي «جب» بأنه من الطبيعي عندما ينجز رجل ما عملًا عظيمًا، فلا بد أن يكون هذا هدفًا له(١٢). ويكتب «جب» عن «هدف بعيد» كانت عينا صلاح الدين تركزان عليه، وهو ما أتاح له أن ينجز هذا القدر الكبير الذي أنجزه، والذي افترضت الأجيال اللاحقة أنه كان كل غرضه. وكان ذلك الهدف الحفاظ على المذهب السُّني وضرب المذاهب الدينية المخالفة. إن التركيز التقليدي على الحروب الصليبية ـ وهو ما كانت عليه الحال عند جميع الذين كتبوا سيرة صلاح الدين ـ لا يمكن أن يعطينا صورة كاملة عن ميراثه التاريخي، الذي هو أبقى كثيرًا من الميراث الذي نُسب إليه وارتبط به. ومن المؤكد أنه يمكن القول بأن أعظم إنجازات صلاح الدين تمثَّلت في هزيمة الفرنج واسترداد بيت المقدس، ويمكن أن نجادل بالقدر نفسه بأن أعظم إنجازاته تمثَّلت في الدفاع عن المدينة نفسها، والحفاظ على تماسك جيشه الذي انخفضت معنوياته. والحقيقة أن أعظم إنجازاته موجودة في مكان آخر، وهو إعادة المذهب السُّني إلى مصر على يديه. ولم يكن هذا مجرد إعادة سياسية وعسكرية، ولكنها كانت إعادة فقهية وفكرية كما تمثَّلت في الجهد العظيم لبناء المدارس، ودفعت البلاد بطريقة ثابتة إلى المحيط السُّني، وأنتجت جيوشًا من خريجي المدارس وجدوا أماكنهم على المنابر وفي الإدارة على السواء. وثمة دليل على أن هذا كان أعظم إنجازاته يتمثل في أن الفرنج الذين عرفوا الإقليم أحسن من غيرهم، وكانوا الأشد إخلاصًا لغيرتهم الصليبية ـ أي الإسبتارية والداوية ـ هم الذين كانوا يحثون ملوكهم: «أماريك» و«بلدوين» و«ريتشارد» باستمرار، بأنه على الرغم من أن القدس ثمرة الصراع فإن مصر هي المفتاح.

* * *

لقد ثبت أن شكوك العادل بشأن الأفضل كانت في محلها؛ فقد شخصت عيناه عندما تكلَّم أبوه ـ كما كان يفعل دومًا ـ عن الجهاد. وعلى أية حال، ألم يُرغم الفرنج على التقهقر إلى الساحل؟ ومع أنه استمر في اقتفاء خطوات أبيه فيما يتعلق ببناء المدارس وشيَّد مدرسة في القدس سنة ١١٩٤م، إلا أنه كان يختلف عن أبيه في أمور عديدة. وعلى

سبيل المثال: طرد ابن شداد والأصفهاني والقاضي الفاضل بعد وفاة أبيه، وكان ثلاثتهم أقرب الرجال إلى صلاح الدين والحراس المتحمسين الغيورين على تراثه، وربما أراد أن يكون رجاله حوله، ولكن لا شيء كان يرمز إلى انقضاء عهد مثل هذا التصرف. إذن ماذا بقي من الرجال الثلاثة؟ اختار الأرستقراطي عماد الدين الأصفهاني وقد تقدَّم به العمر أن يبقى في دمشق. وقد حقق أكثر من غيره نموذج القاضي الإداري الذي كان نظام الملك يحلم به. درس في المدرسة النظامية ببغداد، ثم عمل في خدمة ابن هبيرة ونور الدين محمود وصلاح الدين. اشتكى من الفقر ذات مرة، وها هو الفقر يعود إلى زيارته، وقيل إنه لم يبرح بيته قطُّ في سنواته الأخيرة. وتُوفِّي سنة ١٢٠١م، ودُفن في مقبرة عادية في مدافن الصوفية قرب قبر صلاح الدين.

وغادر بهاء الدين بن شداد دمشق إلى حلب، وكان شابًّا إلى حد ما عندما تُوفِّي صلاح الدين، وواصل السعي وراء حياة عملية ناجحة، وكان لفترة قاضي حلب والمشرف على الأوقاف بها. وجذبت شهرته كثيرًا من الزوار الذين كانوا يتدفقون على بيته بعد صلاة الجمعة لدراسة الحديث النبوي على يديه. وكان يعاني كثيرًا من البرد، وكانت هناك مجمرة متوهجة تشتعل في بيته طوال الوقت، مما سبب الكثير من الإزعاج لزواره، ولكن يبدو أنه كان غافلًا عن ذلك. ويرسم ابن خلكان صورة مؤثرة لابن شداد وهو في سن متأخرة: «لأن الهرم كان قد أثر عليه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف، لا يقدر على الحركة»، مرتديًا معطفًا مخططًا من الفراء. وعاش ابن شداد عمرًا طويلًا، بحيث شهد تسليم القدس ثانية إلى الفرنج (على يد الكامل) وتُوفِّي سنة ١٢٣٤م، وهو في الثالثة والتسعين. وفي وصيته أوصى ببيته لجماعة من الصوفية.

أما القاضي الفاضل، فقد عاد إلى مصر، التي قد أمضى معظم حياته بها، وحيث خدم صلاح الدين بإخلاص شديد وحكمة بالغة. وشغل لفترة وظيفة إدارية كبيرة، قبل أن تبعده المنازعات بين أبناء صلاح الدين. ومات سنة ١١٩٩م، بعد أن أمضى أمسيته في مدرسته. وكان القاضي الفاضل يُمثل العقل الحقيقي والقوة الفكرية الدافعة وراء صلاح الدين. وقد زعم صلاح الدين ذات مرة أنه لم يفتح البلاد بسيفه وإنما فتحها بقلم القاضي الفاضل. وبفضل مهارات القاضي الفاضل في الدعاية، دخل صلاح الدين التاريخ.

* * *

عندما عاد صلاح الدين إلى دمشق سنة ١١٩٢م حَيَّته عائلته بحرارة. وسافر أبناؤه ليكونوا معه، وفيهم الظاهر، الأثير لديه، الذي جاء من حلب. كان ذلك في شهر رمضان، وكانت مناسبة تدعو للفرح والسرور، حافلة باللحظات الرقيقة. وبعد غروب الشمس والإفطار، غادر الظاهر المدينة، ثم توقف وعاد لسبب ما، حيث سعى إلى الاجتماع بأبيه مرة أخرى. وبتعبير ابن شداد، وكان في صحبته: «وكأن نفسه الشريفة كانت أحست بدنو أجل السلطان». وبقي السلطان وولده يتحدثان حتى الفجر، وعندما حان وقت رحيل الظاهر أخيرًا عانقه صلاح الدين وجرى بيديه يمسح وجه ولده. ثم تحدث ببعض الكلمات على سبيل النصيحة، وربما لأنها كلمات صادرة عن والد لولده، كانت تمس شغاف القلب:

> أوصيك بتقوى الله تعالى؛ فإنها رأس كل خير. وآمرك بما أمرك الله به؛ فإنه سبب نجاتك. وأحذرك من الدماء، والدخول فيها والتقلد لها؛ فإن الدم لا ينام. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم؛ فأنت أميني وأمين الله عليهم. وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة وأكابرها؛ فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس. ولا تحقد على أحد؛ فإن الموت لا يُبقي أحدًا. واحذر ما بينك وبين الناس؛ فإنه لا يُغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه؛ فإنه كريم.

تعقيب

بقلم: الدكتور قاسم عبده قاسم

صلاح الدين الأيوبي، الشخصية التاريخية، موضوع هذا الكتاب الذي يُقدَّم لقُرَّاء العربية للمرة الأولى مُترجمًا عن النص الأصلي الذي كتبه بالإنجليزية الدكتور عبد الرحمن عزام. ويُقدِّم هذا الكتاب للقارئ العربي صورة جديدة، من بين صور تاريخية وأسطورية عديدة، للسلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وفي هذا الكتاب اختار المؤلف أن ينظر إلى صلاح الدين من زاوية لم يشاركه فيها أحد من قبل؛ اختار الدكتور عبد الرحمن عزام أن يُطل على الأحداث السياسية والعسكرية والفكرية في ذلك العصر من نافذة صلاح الدين الأيوبي نفسه. ومع أن الكتب التي كُتبت عن صلاح الدين، في عدد كبير من اللغات، وعلى مرِّ الأزمنة، كثيرة بشكل يجعل إحصاءها مهمة شبه مستحيلة، استطاع الدكتور عزام التركيز على الجانب الشخصي في بطل كتابه؛ بحيث نُطلُّ على الأحداث ونحن وقوف إلى جوار صلاح الدين في كل موقف من المواقف التي واجهها، أو واجهته، على مدى هذه السيرة التي نقرأ صفحاتها الآن.

حاول الدكتور عزام أن يُقدِّم لنا «الإنسان» صلاح الدين، في ذروة انتصاره وتألقه، كما حاول أن يصوره وهو في الدرك الأسفل من إحباطه. قدَّم لنا صلاح الدين: الابن المطيع لوالده الذي يطلب مشورته ورأيه، والزوج المُحب الذي يُخفون عنه نبأ وفاة زوجته حتى لا يتأثر بموت المرأة التي أحبَّها، والأب بكل ما يتصف به من عطف ومهابة ومن قوة في تربية أبنائه والإشفاق عليهم. ورأينا صلاح الدين يبكي، ويخاف، ويتوتر، وينفعل، ويغضب، ويقتل بيده. صوَّر المؤلف على امتداد صفحات كتابه صلاح الدين الإنسان

الحقيقي داخل جلده البشري ولم ينزع عنه بشريته، كما يحلو لبعض كُتَّاب السيرة. لكنَّ الدكتور عزام وقع أيضًا في غرام صاحبه الذي كتب سيرته ودافع عنه بسبب هذا الغرام أحيانًا. هناك بالتأكيد بعض اختلافات في وجهات النظر بين المؤلف والمترجم؛ وهو ما أراه من طبيعة الأشياء. ذلك أن النظر إلى التاريخ من نافذة الشخصية الفردية يختلف بالضرورة عن النظر إلى الشخصية من خلال العصر وحقائقه التاريخية الموضوعية. ولا يعني هذا، بطبيعة الحال أن هناك فضلًا لرؤية على رؤية أخرى، وإنما يعني بالضرورة وجود اختلاف في الزاوية التي يتم النظر منها، ومن ثَمَّ، وجود اختلاف في وجهة النظر.

جاء صلاح الدين ليلعب دوره التاريخي من خلفية الصراع بين الصليبيين والمسلمين؛ وهو الصراع الذي نجَم عن نجاح الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م، ولم يكن ظهوره ناتجًا عن الصراع بين السُّنة والشيعة كما رأى الدكتور عزام. اكتشف الناس والحكام أن الصليبيين جاءوا إلى المنطقة العربية بقصد البقاء، وليسوا مجرد جنود مرتزقة جاءوا من الغرب للعمل في جيوش الدولة البيزنطية كما حدث مرارًا من قبل. وكان هذا اكتشافًا مؤلمًا وخطيرًا، كما كان مُقدمة لعدد من ردود الفعل على المستوى الفكري والثقافي في المنطقة العربية لم تلبث أن خلقت أفعالًا وتصرفات على المستوى السياسي والعسكري. ومنذ البداية لم تتوقف المحاولات من جانب المسلمين للتصدي للصليبيين. لكنَّ ميراث الشَّك والمَرارة في المنطقة، وقد خلفته الحوادث السياسية والعسكرية على امتداد القرن السابق على قدوم الصليبيين إلى المنطقة، حال دون القيام بأي عمل سياسي أو عسكري فعَّال ضد الوجود الصليبي في المنطقة العربية.

من ناحية أخرى، لم تتوقف الهجمات التي شنها الحكام المسلمون ضد الإمارات الصليبية التي قامت في الرها وأنطاكِية وطرابلس، إلى جانب مملكة بيت المقدس؛ فمن الشمال شنَّ الأتراك السلاجقة هجمات ناجحة، وأسروا «بوهيموند» أمير أنطاكِية، ثم أسروا «بلدوين» كُونت الرها، ومعه «جوسلين». ونزلت بالفرنج هزائم فادحة مثلما حدث في حران. وشنَّ الفاطميون من قاعدتهم في عسقلان هجمات كثيرة ضد الصليبيين في سنوات ١١٠١م، ١١٠٢م، ١١٠٥م، لكنَّ ميراث الشك والمرارة، الذي حكم العلاقات بين حكام المنطقة طوال القرن السابق على قدوم الحملة الصليبية، حال دون أي تنسيق جدي على محور القاهرة ـ دمشق.

ولكن العالم الإسلامي، والمنطقة العربية بصفة خاصة، بدأ يشهد تكوين رأي عام قوي وضاغط، أخذ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام في القيام بواجب الجهاد. كما أن تزايد أعداد اللَّاجئين الهاربين من مذابح الصليبيين الشهيرة أثار مشاعر السخط والاستياء في كل مكان بالمنطقة العربية. وفشلت جميع محاولات التنسيق؛ بسبب الضعف الذي كانت عليه الدولة الفاطمية من ناحية، والتشرذم السياسي والديني والمذهبي الذي كانت تعاني منه بلاد الشام من ناحية ثانية، فضلًا عن أن الدولة الفاطمية الإسماعيلية كانت في خلاف دائم مع الأتراك السلاجقة، حماة الخلافة العباسية الواهنة وأصحاب السُّلطة الحقيقية آنذاك من ناحية ثالثة. وجاء الضغط من مودود أتابك الموصل الذي شنَّ هجومًا ناجحًا على الفرنج الصليبيين بجيش من الحلفاء سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) بالقرب من طبرية. ولكنَّ اغتيال مودود على يد أحد الباطنية (الحشاشين) خفَّف من وطأة الهجمات الإسلامية حتى ظهور عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي دانت له الموصل سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م). وعلى الرغم من القسوة التي اشتهر بها عماد الدين زنكي فقد وحَّد شمال الشام على محور الموصل ـ حلب، بحيث استطاع أن يوجِّه أول ضربة كبيرة ضد الصليبيين سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) عندما استطاعت قواته الاستيلاء على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يومًا فقط.

وكان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة ونذير شؤم للصليبيين المستوطنين في المنطقة العربية والغرب الأوروبي على السواء؛ فقد كانت أول إمارة صليبية يُقيمها الصليبيون قبل ذلك بنصف قرن على أرض الشرق. وبذلك صارت منطقة وادي الفرات كلها بيد المسلمين. وكان معنى هذا، على المستوى الإستراتيجي، أنَّ إمارة أنطاكية الصليبية باتت في مرمى الخطر الإسلامي، وأنَّ طُرق المواصلات بين الكيان الصليبي وآسيا الصغرى والدولة البيزنطية تحت رحمة القوى الإسلامية في تلك الأنحاء. وعلى الرغم من أن الغرب الأوروبي ردَّ بحملة صليبية عُرفت في تاريخ الحركة الصليبية بـ«الحملة الصليبية الثانية»، وكان يقودها رأسان متوَّجان من أوروبا، هما «لويس السابع» ملك فرنسا، و«كونراد الثالث» إمبراطور ألمانيا، كانت الهزيمة من نصيب هذه الحملة التي انتهت بسبب متاعب لويس السابع مع زوجته «إليانور» الأقطانية وحديث غرامياتها، وبسبب الخلافات بين الصليبيين المستوطنين والصليبيين القادمين في الحملة الثانية؛ وهي اتهامات وصلت إلى درجة وصْم الصليبيين المحليين بالخيانة والاتفاق مع المسلمين. وبقيت الرها في

يدَي نور الدين محمود، كما أن الهجوم الأخرق الذي شنَّته قوات الحملة الصليبية الثانية على دمشق أدى إلى ارتمائها بين يدَي نور الدين المفتوحتين.

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود. وبسبب قوة الجبهة الشمالية وضغطها على الصليبيين اتجهت الأنظار إلى الجنوب؛ حيث كانت مصر تعاني فترة حرجة من لحظات الضعف في تاريخها؛ فقد كانت الخلافة الفاطمية في الطور الأخير من عُمرها أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف النيل، عارية إلا من بعض ظلال مجدها الغابر وقوتها السابقة. ولم تكن مصر قادرة على التخلص من الآثار السلبية المدمرة لـ«الشدة المستنصرية»؛ التي كانت عبارة عن مجاعة مطولة يُصاحبها الوباء حلَّت بمصر في عهد الخليفة ود والمستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م). وعلى الرغم من الإصلاحات التي قام بها أمير الجيوش بدر الدين الجمالي (وهو أرمني اعتنق الإسلام وعيَّنه الخليفة وزيرًا)، وأعادت التوازن الاقتصادي نسبيًّا، فقد كان تأثير تلك الأزمة على البناء السياسي للدولة سلبيًّا إلى حد كبير؛ فقد صار الوزراء منذ ذلك الحين أصحاب السُّلطة الحقيقية، وبات الخلفاء دُمى يُحركونها كيفما شاءوا. ومنذ اغتيال الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالي تسارع إيقاع تغيير الوزراء، ودخلت البلاد في دوَّامة شريرة من المؤامرات والدماء، وما نتج عن ذلك بالضرورة من تدهور طال جميع أشكال الحياة في مصر آنذاك. وكانت آخر حلقات هذه الدوَّامة ذلك الصراع الذي نشب بين شاور وضرغام للفوز بمنصب الوزارة في الدولة الفاطمية؛ وهو منصب السُّلطة الفعلية، وتسبب هذا الصراع في التسابق بين المسلمين بقيادة السلطان نور الدين محمود والصليبيين بقيادة ملك بيت المقدس «أماريك الأول» (١١٦٣-١١٧٤م)، الذي تسميه المصادر التاريخية «عموري»، للفوز بمصر نفسها. وكان هذا الصراع بمنزلة البوابة التي دخل منها صلاح الدين الأيوبي إلى رحاب التاريخ.

وتحدَّث الدكتور عزام بالتفصيل عن حملات نور الدين محمود، التي أرسلها تحت قيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر، ومعه صلاح الدين، والصراع الذي خاضه ضد الصليبيين للفوز بمصر. وبيَّن كيف انتهى الصراع لمصلحة المسلمين. وانتهى الأمر بتحوُّل جيش الإنقاذ الإسلامي الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى جيش احتلال. وعندما تُوفِّي شيركوه خلفه في قيادة الجيش والوزارة صلاح الدين، الذي قضى على الخلافة الفاطمية التي جاء لإنقاذها، وأعلن موتها رسميًّا من فوق منابر القاهرة نفسها. وصارت

أرض مصر بؤرة الصراع الإسلامي الصليبي وقلبه، ولم يكن صراع نفوذ أو صراعًا على الحدود، إنما كان صراعًا على بلد يُمكن لمن يملكه أن يضمن لنفسه البقاء على حساب الآخر. كان هذا منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا في هذا الجزء من العالم. ولم يكن ممكنًا لمصر أن تعزل نفسها، أو أن يعزلها أحد. وكان هذا الدرس السياسي الأول لصلاح الدين، كما كان من أهم عوامل التوتر بينه وبين نور الدين محمود فيما بعد. وعى صلاح الدين الدرس تمامًا، وكان لا بد لمنطق التاريخ أن يفرض نفسه.

وفي رأيي أن نموذج الدولة العسكرية، التي يقودها ملكٌ مُحارب من طراز مودود وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، كان الاستجابة السياسية والعسكرية للتحدي الذي فرضه الوجود الصليبي على الأرض العربية. حلَّ هذا الشكل السياسي العسكري محل دولة الخلافة التي يجلس على قمتها خليفة ليس له من الخلافة سوى الاسم، وليس له من دور سوى إضفاء الشرعية على الأمر الواقع. أنتج هذا النموذج صلاح الدين، كما أنتج من جاءوا من قبله ومن بعده. وعلى الرغم من سعي حكام من طراز الملك المُحارب دائمًا إلى الارتباط بالخلافة السُّنية العباسية - بعد أن ذابت الخلافة الفاطمية في موجات الصراع الإسلامي الصليبي - كان هذا في حقيقته نوعًا من السعي إلى الشرعية السياسية والمعنوية، ولم يكن تعبيرًا عن مواطن القوة السياسية. ومن ناحية أخرى، سعت الخلافة العباسية دائمًا إلى الحفاظ على ورقة التوت السياسية هذه لتستمر في الوجود بالحد الأدنى من الفاعلية، أو بلا فاعلية على الإطلاق.

على هذه الخلفية السياسية خطا صلاح الدين أولى خطواته إلى السُّلطة عندما تولَّى الوزارة في مصر عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)؛ جاءت هذه الوفاة في وقت مناسب تمامًا من الناحية السياسية بالنسبة إليه. وكان من طبيعة الأمور أن يتولَّى صلاح الدين الوزارة آنذاك لأسباب عديدة. ومن ناحية أخرى كانت فترة وزارة صلاح الدين فترة حراك سياسي، حيث كان وزيرًا سُنيًّا لخليفة شيعي، واختلطت أمور السياسة الداخلية بأحداث السياسة الخارجية وتطوراتها، وتداخلت صفوف الحلفاء والأصدقاء مع صفوف الخصوم والأعداء، وتشابكت خيوط المؤامرات السياسية مع طموحات العسكريين في الجيش الفاطمي وفي جيش صلاح الدين على السواء. ولم تكن مصر شيعية تحت الحكم الفاطمي، ومع ذلك كان لا بد من القضاء على فلول المستفيدين من الدولة الفاطمية وبقايا أتباعها والحالمين بعودة الخلافة الفاطمية الذين حاولوا أكثر

من مرة التآمر ضد صلاح الدين. وكانت مخاطر التحالف بين المتآمرين من هؤلاء والقوى الصليبية والبيزنطية خطرًا حقيقيًّا. وتناول الدكتور عزام هذه الصورة المضطربة من خلال التركيز على الشخصيات الفردية التي رأى فيها تجسيدًا لتيارات بعينها، لا سيما في الجوانب الفقهية والمذهبية. وهذا جانب مهم من جوانب الاختلاف بين وجهتَي نظر المؤلف والمترجم؛ ففي تقديري أن التفاعلات على الساحة السياسية والعسكرية والفكرية حددت أدوار الأشخاص وحَكمتها وليس العكس، فقد انقضت السنة الأولى من وزارة صلاح الدين الأيوبي السُّني في خدمة الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وهو يخوض في ذلك الحراك السياسي والفكري الذي اتسمت بها هذه الفترة الانتقالية من تاريخ مصر، وكان على صلاح الدين أن يمزج العمل السياسي بالفعل العسكري والإجراءات الاقتصادية، فضلًا عن العمل الفكري والمذهبي؛ لكي يوطد مركزه ويستعد للمرحلة الجديدة في تاريخه السياسي.

ثم خلت الساحة في مصر تمامًا لصلاح الدين على المستوى السياسي، لكنه لم يكن اللاعب الوحيد على مسرح التاريخ، ولم يكن يصنع التاريخ بقدر ما كان صنيعته. استحق الرجل مكانته لأنه كرَّس مواهبه وقدراته في خدمة هدف عام كان مطلوبًا ومُلحًّا، واستطاع أن يُدير ما كان متوفرًا من قدرات في خدمة هذا الهدف العام للناس في المنطقة، ولكنه لم يأتِ من فراغ، ولم يجد أمة ميتة فأحياها؛ سار ببساطة على درب نور الدين ومَن سبقوه. مات الخليفة العاضد الفاطمي سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) من دون أن يدري أنه آخر الفاطميين. وبعد أن أُعلنت نهاية الدولة الفاطمية بالفعل وجد صلاح الدين نفسه أمام مهمة سياسية ذات طبيعة مُركبة؛ لم يعد وزيرًا سُنيًّا في خدمة خليفة شيعي، بل الحاكم الفعلي والوحيد لمصر. وكانت تبعيته لنور الدين محمود تبعية اسمية وخُلقية أكثر منها تبعية حقيقية. ومن ناحية أخرى، جعله انفراده بحكم مصر أقوى من نور الدين نفسه على المستوى المادي الخالص؛ كانت موارد مصر تفوق موارد الإمارات التي حكمها نور الدين، وأهم من هذا كله أن مصر كانت كتلة جغرافية وسكانية وثقافية ومذهبية واحدة، ليس فيها ذلك الاختلاف العرقي والمذهبي الموجود في بلاد الشام والعراق. وكان معنى ذلك على الدوام أن الحاكم الصالح والقدير يمكن أن يجعل منها قوة إقليمية كبرى. وكان صلاح الدين ذلك الحاكم. وكانت مصر حجر الزاوية في جميع تصرفاته السياسية والعسكرية اللاحقة، كما أوضح الدكتور عزام في

حديثه عن تخريب عسقلان في أثناء الصراع مع الملك الإنجليزي «ريتشارد الأول» في غمار أحداث الحملة الصليبية الثالثة.

وبقدر ما كان عليه أن يقوم بترتيب الأوضاع الداخلية تعيَّن عليه أن يُواجه المخاطر التي كانت ماثلة على مستوى السياسة الخارجية. وعلى جبهة المواجهة مع الصليبيين كان الملك الصليبي «أماريك» (عموري) لا يزال أسير سراب يجذبه نحو مصر، لكنه لم يسلك طريق الحرب واختار طريق المؤامرة. وفشلت المؤامرة. وعجز الملك الصليبي عن الحركة عندما علم بفشل المؤامرة وإعدام شركائه من بقايا القوى الموالية للفاطميين، كما هرب الأسطول النورماني الصقلي من أمام الإسكندرية بعد أن فقد عددًا من الرجال والسفن. ومن ناحية أخرى، كانت علاقته بنور الدين محمود مشكلة سياسية حقيقية.

وتحدث الدكتور عزام عن التوتر الذي اعتقد بعض المؤرخين أنه كان موجودًا بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، ربما تحت تأثير المؤرِّخ ابن الأثير الذي كان معاديًا لصلاح الدين، وحاول باستمرار أن ينال منه تقربًا للزنكيين الذين زعموا أن صلاح الدين اغتصب السُّلطة التي كان يجب أن يرثوها عن نور الدين. وفي تصوري أنه كان ثمة توتر بين الرجلين بالفعل؛ لكنه كان ناجمًا عن اختلاف الرؤية السياسية بينهما وفَهْم كلٍّ منهما لحقائق الصراع بين المسلمين والفرنج من ناحية، والتطور السياسي الذي مرَّ به كلٌّ منهما وشكَّل منظوره السياسي من ناحية أخرى. ولم يكن التوتر بين الرجلين صراع نفوذ أو سلطة. كان صلاح الدين يرى أن مصر يجب أن تكون مركز القوة الإسلامية بسبب عوامل القوة الطبيعية والسكانية المتوفرة في البلاد المصرية. ويكفي هنا أن نشير إلى الحقيقة التي أبرزها الدكتور عزام نفسه من أن الجيوش التي قادها الرجلان ضد الفرنج كانت تعجز عن العمل في بلاد الشام في فصل الشتاء بحيث كان كل أمير يعود لبلاده في هذا الفصل. على حين كان نور الدين يرى أن مصر بلد من بين البلاد التي يحكمها أتباعه ولا تستحق مثل هذا الدور المركزي.

ومن المهم أن نشير إلى أن كلًّا من الرجلين لم يكن حاكمًا من الطراز الجشع الذي يسعى لتحقيق مصالحه الفردية، أو الأُسرية؛ كان نور الدين زاهدًا ناسكًا، وكان صلاح الدين قريبًا منه في ذلك، وكان الدافع الخُلقي والديني لدى كلٍّ منهما واضحًا تمامًا. وهنا ينبغي أن نلاحظ أن صلاح الدين لم يُعلن قطُّ رفضه لسيادة نور الدين، كما أن نور الدين، من

ناحية أخرى، لم يتعامل معه على أنه متمرد. كان كلٌّ منهما حريصًا على الآخر، ولكنَّ صلاح الدين كان يعتبر نفسه امتدادًا طبيعيًّا لسيده وأستاذه الروحي. كان الموقف بينهما أشبه ما يكون بالمواقف المؤجلة حتى يحلها الزمن، وقد حلَّها.

بوفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، ثم الملك الصليبي «أماليك» (عموري) بعده بشهرين، خلت الساحة السياسية، وطالت قامة صلاح الدين السياسية كثيرًا؛ تُوفِّي سيده نور الدين الذي كان يمكن أن يتحول إلى خصم عنيف إذا ما اقتضت الضرورةُ حدوث الصدام بين الرجلين - وهو ما لم يحدث لحُسن حظ كلٍّ من الرجلين ومكانتهما في التاريخ - وزال الحرج الذي كان صلاح الدين يستشعره في تحركاته منذ انفرد بحكم مصر. كما مات «أماليك» الذي لم يكُف يومًا عن محاولة كسر قوة صلاح الدين وإخراجه من مصر. ومن المؤكد أن هذا الصراع على مصر بين المسلمين والفرنج كان الدرس السياسي الأول لصلاح الدين حول مركزية الدور المصري في الجهاد ضد الصليبيين، وقد ترك بصمة دائمة على تصرفات الرجل. وأشار الدكتور عزام إلى أن صلاح الدين أحبَّ مصر بعد أن أقسم ألا يعود إليها بعد حصاره في الإسكندرية. وأعتقد أنه عرف أهميتها الإستراتيجية وقدراتها المادية اللازمة لحسم الصراع ضد الصليبيين أكثر من حبه لها. على أية حال باتت الطريق ممهدة أمام السلطان لكي يُواصل الجهاد ضد الفرنج، ويُعد لمعركته الكبرى وإنجازه العظيم: معركة حطين، ثم تحرير القدس. وفي مرحلة الإعداد هذه، حقق صلاح الدين كثيرًا من الإنجازات، وقد ركَّز المؤلف على بعضها بفضل نظرته للأمور من نافذة صلاح الدين.

كان وريث «أماليك» على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية صبيًّا مريضًا بالجذام؛ هو الملك «بلدوين الرابع». وعلى الجانب الآخر، كان الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صبيًّا أيضًا. وتسابق الأمراء الزنكيون في محاولة السيطرة على الأمير الصغير، بل إن حاكم حلب «اختطفه» ليستغل وجوده سياسيًّا، مما أتاح للسلطان أن يُحقق عدة إنجازات مهمة.

وهنا يستوقفنا سؤال طرحه بعض الباحثين وناقشه الدكتور عزام في سياق عرضه لإنجازات صلاح الدين: ماذا لو تُوفِّي صلاح الدين قبل معركة حطين؟ وعلى الرغم من أن الدكتور عزام ناقش السؤال من منطلق أنه لا يجب الخلط بين الشهرة والإنجاز،

فإن هذا سؤال افتراضي لا يصلح للدراسة التاريخية؛ فالتاريخ فعل مضى، و«لو» كلمة تتحدث عن احتمال قد يحدث في المستقبل وقد لا يحدث. وتتناول الدراسة التاريخية، على أية حال، «ما حدث فعلًا واحتل مكانه في محطته التاريخية عبر الماضي، ولا تهتم بـالاحتمالات التي لم توجد بعد». ولم يكن الدكتور عزام صاحب السؤال، إنما أورده وهو يوضِّح أن إنجازات صلاح الدين قبل معركة حطين وتحرير القدس من الصليبيين توارت خلف ظلال الشهرة التي اكتسبها بفضل هذين الحدثين المهمَّين؛ وهي الشهرة التي لعبت فيها الكتابات الغربية الدور الرئيس.

تتمثل أهم إنجازات صلاح الدين، في رأيي، في ذلك البناء السياسي الضخم، الذي استند إلى نوع من الوحدة الخُلقية والدينية للمنطقة العربية تحت راية الجهاد ضد الصليبيين، حيث أدرك أن التشرذمَ السياسي والفرقة والأنانية، التي وصمت حكام المنطقة آنذاك، السببُ الرئيس وراء نجاح الحملة الصليبية الأولى واستمرار الوجود الصليبي. ثار صلاح الدين على انحطاط الخلق السياسي لدى الحكام المتنازعين، وكانت ثورته استمرارًا لموقف نور الدين محمود في محاولة بناء الوحدة السياسية في المنطقة. وقد لخَّص صلاح الدين موقفه هذا بوضوح شديد في رسالته إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله، التي قال فيها:

> ولو أنَّ أمور الحرب تُصلحها الشركة، لما عزَّ علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين. إنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإن صح التدبير، لم يحتمل في اللقاء إلا العدة.

من هذا البنيان السياسي والخُلقي الضخم، وعلى خلفيته، يمكن النظر إلى ما تحقق في حطين وما بعدها. ولم يكن ممكنًا أن ينجح صلاح الدين من دون هذه القاعدة الهائلة، ولم يكن لينجح أيضًا لو لم تكن الجماهير ـ على اختلاف طبقاتها ومشاربها ـ ترى فيما يفعله تحقيقًا لمطالبهم ودفاعًا عن أرواحهم وممتلكاتهم وحماية لمقدساتهم.

على أية حال، تمثَّلت أهم إنجازات صلاح الدين في أنه عمل بدأب عجيب ومثابرة مدهشة على إعادة بناء الوحدة السياسية بعد انهيار دولة نور الدين محمود وتنافس الأمراء الزنكيين على ميراثه المادي ـ دون ميراثه الروحي ـ وساعدته اتجاهات الرأي العام على تحقيق ذلك الهدف بسرعة. ولم يقف أمامه سوى الزنكيين في حلب والموصل. وتوازت

هذه المناورات السياسية والجهود الدبلوماسية الهادئة مع استعدادات عسكرية تنوعت ما بين بناء الاستحكامات وتحسين القدرات الدفاعية والهجومية لجيشه وأسطوله؛ بُنيت الدفاعات والاستحكامات في الإسكندرية ودمياط على البحر المتوسط، كما شيدت الحصون والقلاع في شبه جزيرة سيناء.

وعلى المستوى المذهبي تحرَّك صلاح الدين بسرعة «للقضاء على المذهب الشيعي وإعادة المذهب السُّني إلى مصر». والحقيقة أن هناك قدرًا من المبالغة في هذه القضية؛ لأن المذهب السُّني لم يخرج من مصر حتى يُعيده إليها صلاح الدين أو غيره، فقد ظل المصريون على تمسكهم بالمذهب السُّني، وكانت لفقهاء مصر منذ البداية إسهامات مهمة في تطوير الفقه السُّني، ومنهم أولاد عبد الحكم، والليث بن سعد، والإمام الشافعي نفسه. وعلى المستوى الشعبي حوَّل المصريون كثيرًا من احتفالات «الحزن» الشيعية إلى احتفالات شعبية سارة. وتحفل المصادر التاريخية بالأمثلة الدالة على مقاومة المصريين للفاطميين وكراهيتهم لهم، أو عدم الاحتفاء بهم أو تأييدهم على الأقل. وربما تأثر صلاح الدين بآراء فقهاء المشرق الذين أحاطوا به، والشيوخ الذين تولوا التدريس في المدارس السُّنية الحديثة، وكان معظمهم من مناطق المشرق الإسلامي الذين عُرفوا بتشددهم المذهبي. ولم يُدرك طبيعة الموقف المصري الشعبي من الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي. وانعكس ذلك في الحقيقة التاريخية القائلة بأن الفاطميين اعتمدوا في إدارة دولتهم على المغاربة وعلى أهل الذمة، بحيث يعتبر بعض الباحثين أن العصر الفاطمي كان العصر الذهبي لأهل الذمة في مصر.

وفي غمرة حماسة صلاح الدين لمحاربة المذهب الشيعي وإعادة تأسيس المذهب السُّني في مصر أغلق الجامع الأزهر، وباع ما بقي من كنوز مكتبة القاهرة ونفائسها (وقد بيعت بعض كتبها في أثناء الشدة المستنصرية). ويقول عماد الدين الأصفهاني، وكان واحدًا من رجاله المقربين:

> كان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تُباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت، مقسمة الرفوف، مفهرسة بالمعروف... فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف... وكان فيها من الكتب الكبار، وتواريخ الأمصار، ومصنفات الأخبار، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءًا مجلدًا، إذا فُقد منها جزء لا يخلف أبدًا. فاختلطت

> واختبطت؛ فكان الدلّال يُخرج عشرة عشرة من كل فن كتبًا مبترة، فتسام بالدون وتباع بالهون.

وعلى الرغم من أن البعض يمكنهم تبرير هذا التصرف في ضوء حماسة صلاح الدين للمذهب السُّني وترسيخه في مصر، فالواقع أن المصريين لم يعتنقوا في معظمهم المذهب الإسماعيلي (مذهب الدولة الفاطمية) من ناحية، كما أن تأثير هذا التصرف كان سلبيًّا على الحياة الفكرية والثقافية في مصر من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين اتخذ عدة إجراءات إصلاحية في مصر، فإنه من الواضح أن نفقات حروبه المستمرة كلّفت المصريين كثيرًا، كما كانت عبئًا باهظًا على موارد مصر. وهو ما أشار إليه الدكتور عزام في صفحات كتابه. ومن اللافت للنظر أن المصريين لم يحتفوا بصلاح الدين احتفاءهم بالسلطان المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس فيما بعد؛ بحيث أنتج أدبهم الشعبي سيرة رائعة لهذا السلطان، خلعوا فيها عليه كل ما يتمنونه في حاكمهم من صفات وسجايا. ولم ينتجوا سيرة مماثلة لصلاح الدين الأيوبي. بل إن ذكر صلاح الدين في الفصول الافتتاحية من سيرة الظاهر بيبرس يجيء باهتًا أقرب ما يكون إلى الإدانة؛ إذ إن السيرة تنسب لصلاح الدين أفعالًا بطولية لإنقاذ الخليفة العباسي في بغداد من المغول (كذا)، ويكافئه الخليفة بأن يعطيه أرض مصر بعد أن هاجر من بلاده هو وقومه الأكراد بسبب القحط والمجاعة. وتقول السيرة إن الخليفة نسي أنه كان قد وهب مُلك مصر لابنته «شجرة الدر». وهنا نجد في السيرة تلميحًا إلى عدم شرعية حكم صلاح الدين لمصر. كما نجد سيرة الظاهر بيبرس ببنيتها الخيالية تتجاهل بقية الأيوبيين تمامًا، باستثناء الصالح نجم الدين أيوب الذي تصفه بأنه «ولي الله المجذوب». فهل يمكن أن نقول إن المصريين لم يحبوا صلاح الدين، وإن احترموه، بسبب دوره في الجهاد وتحرير القدس؟ على أية حال، هذا هو الانطباع الذي نخرج به من قراءة السيرة الظاهرية.

ومع ذلك تستحق علاقة صلاح الدين بالمصريين مناقشة تفصيلية، لا سيما أن الكتاب الذي بين أيدينا يعرض لصورة صلاح الدين القائد المُسلم لحركة الجهاد ضد الصليبيين، الذي لا يُؤثر بلدًا على آخر إلا بقدر ما يمكن أن يقدمه للجهاد ضد الصليبيين. وينظر الدكتور عزام في هذا كله إلى الأحداث من نافذة صلاح الدين كما ذكرنا في أغلب الأحيان. فهل يمكن أن يكون موقفه هذا ردًّا على المركزية الأوروبية التي نظرت دائمًا إلى الأحداث من نافذة أوروبية ضيقة؟

ولنواصل عرض الخلفية التاريخية التي تفسر كثيرًا من تصرفات صلاح الدين؛ فقد كان الرجل ابن عصره من ناحية، وكانت استجاباته محكومة بحقائق ذلك العصر السياسية والفكرية وتوجُّهات الناس ومطالبهم من ناحية أخرى. وعلى مستوى العلاقات في المنطقة العربية، استخدم السلطان ضد خصومه الزنكيين «أسلوبًا زنكيًّا»؛ فقد استخدم المزيج نفسه من الدبلوماسية والدعاية واستعراض القوة الذي كان نور الدين يستخدمه من قبل. وإذا كان الدكتور عزام قد أخذ عليه حرصه الشديد وتأنيه في اتخاذ القرار، فإن الرجل لم يكن يمسك في يديه بكل خيوط المعادلة السياسية والعسكرية. وعلَّمته التجارب السابقة ألا يتسرع. ومن ناحية أخرى، كان عليه أن يخوض في أوحال التشرذم السياسي والأنانية التي وصمت معاصريه من الحكام الصغار، الذين استعان بعضهم بالفرنج والحشاشين ضده وحاولوا اغتياله.

إن المؤرخ الذي يحاول تحليل الأحداث التاريخية بعد قرون من حدوثها، وبعقل بارد غير منفعل، لا يمكن بالضرورة أن يستوعب ما كان يعانيه أولئك الذين عاشوا وسط الأحداث الملتهبة وكان عليهم أن يتخذوا قراراتهم تحت وطأة الضغوط النفسية والمادية في ميدان المعركة، أو في ظل تشابك المؤثرات السياسية والعوامل الاقتصادية الفاعلة في ذلك الحين. ولم يكن صلاح الدين الأيوبي استثناء في ذلك بطبيعة الحال. ويعني هذا في التحليل الأخير أن علينا محاولة تقدير طبيعة الظروف التي عاشها صلاح الدين في أوقات الحرب وأوقات السِّلم على حد سواء. كان الرجل بشرًا، ولم يكن من الممكن أن يخرج من جلده البشري ليُصبح شيئًا آخر. وكان عليه، في كثير من الأحيان، أن يتصرَّف وفق ما تُمليه الظروف الموضوعية لعصره وتوازن القوى السياسية والعسكرية، فضلًا عن القدرات الاقتصادية.

ومن هنا جاءت تصرفاته السياسية والعسكرية محكومة بالظروف التاريخية الموضوعية التي عاش في رحابها، ولم يكن بوسعه أن يتجاوزها؛ فقد تعامل مع معاصريه بمقتضى الواقع الموضوعي، كما خدمته الظروف في كثير من الأحيان.

وعلى صعيد العلاقات مع الفرنج الصليبيين في تلك الفترة، كانت موازين القوى تميل لمصلحة المسلمين بشكل مطرد، حيث كان الفرنج غارقين في منازعاتهم السياسية ومنافساتهم، وعجز الملك المريض عن السيطرة على الموقف. وفي ظل هذا الموقف كان

الصليبيون والبيزنطيون عاجزين عن فعل شيء حاسم لإنقاذ المملكة الصليبية والكيان الصليبي بوجه عام، على حين كان الغرب الأوروبي مشغولًا بمشكلاته الداخلية عن تقديم المساعدة الفعَّالة. وعلى الجانب الآخر كانت القوة السياسية والعسكرية الإسلامية في تصاعد مستمر؛ فقد امتد نفوذ دولة صلاح الدين السياسي المباشر من مصر والشام وأعالي العراق إلى الحجاز واليمن وشرق إفريقيا، فضلًا عن بلاد المغرب الإسلامي، وهو ما شكَّل نوعًا من الوحدة السياسية التي لم تلبث أن ضمت حلب باتفاقية صلح سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م). ولم يكن هناك حاكم آخر تحققت له مثل هذه السُّلطة السياسية منذ عصر الخلفاء العباسيين الأوائل. ولم يصل إليها من بعد سوى الظاهر بيبرس وسلاطين المماليك من خلفائه المباشرين. ومع ذلك، فإن البناء السياسي الهش لهذه الدولة مترامية الأطراف جعل السلطان يعتمد باستمرار على الولاء الشخصي من جانب إخوته وأقاربه ورجاله المخلصين. ولم يكن هؤلاء يُقدِّمون ولاءهم من دون مقابل على الدوام. لقد كانت تلك طبيعة النظام الإقطاعي العسكري الفضفاض الذي اعتمدت عليه دولة صلاح الدين. وكان ذلك في حقيقته استمرارًا للبناء السياسي الذي عرفته دولة عماد الدين زنكي وابنه وخليفته نور الدين محمود. ومن هنا يمكن أن نفهم قيمة «الكاريزما» الشخصية لدى كلٍّ من الحُكام الثلاثة من ناحية، وأهمية الاعتماد على العائلة من ناحية أخرى.

وأورد الدكتور عزام عدة أمثلة على هذا وهو يتحدث عن المصاعب التي واجهت صلاح الدين عندما كان البعض ينسحبون أو يحاولون الانسحاب من ميدان المعركة، بل إن ابن أخيه تقي الدين انسحب في وقت كانت الحاجة تستدعي وجوده لإنقاذ عكا في خضم أحداث الحملة الصليبية الثالثة. ويكفي أن إمارة الموصل لم تنضم له وبقيت على استقلالها حتى بعد صلح سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م)، على الرغم من أن هذا الصلح كان يعني على أرض الواقع زيادة جيش صلاح الدين بقوة عسكرية مهمة قوامها ستة آلاف رجل من الفرسان يُشكِّلون جيش الموصل؛ وهي قوة عسكرية كبيرة بمقاييس ذلك الزمان.

هذه كلها إنجازات حققها صلاح الدين قبل حطين، وما كان يمكن أن يتحقق النصر الذي أحرزه المسلمون في حطين من دونها؛ فقد حارب صلاح الدين خصومه من المسلمين على مدى ثلاثة وثلاثين شهرًا، في فترات متفرقة، لكي يُحقق هذه الوحدة الهشة في زمن ساد فيه منطق القوى السياسية الصغيرة المتنازعة، واستشرت روح الأنانية السياسية بين الأمراء الزنكيين الذين اقتسموا ميراث نور الدين محمود من دون

أن يُحملوا أنفسهم أعباء دوره السياسي والعسكري في مواجهة الفرنج. ولم يكن هناك ما يُلزم أمراء ذلك الزمان بالانصياع لصلاح الدين سوى قوته الخلقية؛ إذ كان النظام الإقطاعي العسكري الذي عرفته دولة صلاح الدين فضفاضًا بقدر شكّل مخاطر جسيمة على بنية الدولة نفسها. وتجلى ذلك واضحًا في الفترة التي أعقبت وفاة صلاح الدين واستمرت تُعلن عن نفسها في عهد خلفائه حتى نهاية الأيوبيين من ناحية، وهو ما تجنبته دولة سلاطين المماليك، التي ورثت دولة الأيوبيين، ودورهم السياسي من ناحية أخرى؛ فقد أحكم سلاطين المماليك قبضتهم على أتباعهم الإقطاعيين وخلقوا نوعًا من الدولة الإقطاعية العسكرية المركزية التي كان سلاطينها يمسكون بزمام الأمور بفضل سيطرتهم التامة على الإقطاعيات.

على أية حال، بهذه الخطوة الأخيرة ـ معاهدة الصلح مع الموصل ـ بات المسرح السياسي والعسكري جاهزًا أمام صلاح الدين للمُضي في تنفيذ هدفه النهائي: «تحرير القدس». من ناحية أخرى، كان ذلك تتويجًا لدبلوماسية صلاح الدين العبقرية التي استخدم فيها مزيجًا مدهشًا من القوة العسكرية، والمرونة السياسية والدعاية، وأعمال المخابرات، فضلًا عن التخطيط الجيد لكل تحركاته. وهو ما جعل المسرح السياسي والعسكري في المنطقة جاهزًا للانطلاق نحو الهدف الرئيس: «تحرير القدس»؛ وهو هدف لا تنافسه الأهداف الإستراتيجية الأخرى على أية حال.

وعلى الجانب الصليبي كان هناك انقسام بين معسكرين رئيسين: معسكر الملكة وزوجها «جاي لوزنيان» ـ وكان رجلًا وسيمًا في مظهره دنيئًا في أخلاقه وتصرفاته ـ ومعهما عدد من صقور الفرنج الذين كان من رأيهم أن الحرب والعنف الطريقة الوحيدة التي يمكن بها التعامل مع المسلمين. ومعسكر «ريمون الثالث» كونت طرابلس، ومعه عدد آخر من الأمراء الصليبيين الذين كان من رأيهم أنه من الأفضل مهادنة المسلمين ما دامت الظروف لا تسمح بقتالهم.

من ناحية أخرى، أتم صلاح الدين بناء الأسطول المصري، بحيث صار قوة فاعلة في البحر الأحمر وفي البحر المتوسط على السواء. وحاول في الوقت نفسه عزل الفرنج الصليبيين عن جميع القوى المجاورة التي يمكن أن تتحالف معهم. وفي سبيل ذلك أقنع المدن التجارية الإيطالية بنقل تجارتها عن طريق الموانئ المصرية ليحرم الفرنج

من المساعدة التي يمكن أن تقدمها إليهم «الكوميونات» التجارية الإيطالية في المدن الصليبية في حال نشوب الحرب. كما أجرى اتصالات دبلوماسية بالبيزنطيين، وعقد اتفاقًا مع الإمبراطور البيزنطي «أندرونيقوس» الذي كان أسير المخاوف والريبة في نوايا الغرب الأوروبي.

وجاءت سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) تحمل نذر الحرب التي كان الفرنج يحاولون تجنبها قدر المستطاع؛ فقد ظهر «رينالد دي شاتيون» (أرناط) بحماقته وتهوره المعهود لكي ينضم إلى الصقور الهائجة، ويُقدم لصلاح الدين المبرر القوي لشن الحرب الشاملة؛ حيث انتهك هدنة السنوات الأربع بين صلاح الدين والصليبيين، حين خرج من مكمنه في حصن الكرك ليرتكب آخر حماقاته، وهاجم قافلة كبيرة، واستولى على ما تنقله، وقتل وأسر مَن فيها. ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يسكت إزاء هذه التهديدات المستمرة لطرق التجارة الرئيسة بين مصر والشام، وتجارة البحر الأحمر بين المنطقة العربية ومنطقة المحيط الهندي من ناحية، كما لم يكن بوسعه أن يتهاون إزاء التهديد العسكري الذي يُمثله حصن الكرك من ناحية أخرى. وكانت اللحظة مواتية تمامًا للمسلمين بعد تهيئة المسرح سياسيًا وعسكريًا في عمل دؤوب استغرق سنين طويلة. وأشار الدكتور عزام بالتفصيل وبأسلوب سردي إلى كيفية جمع الجيوش من مصر والشام والعراق استعدادًا للمعركة الفاصلة مع الصليبيين بما يغني عن الحديث بالتفصيل في هذه المقدمة، ولكن ما ينبغي التركيز عليه في هذا الصدد أن هذه الاستعدادات كانت ثمرة عمل متواصل على المستوى السياسي، والعسكري، والدبلوماسي، والفكري، والدعائي، طوال سنوات عديدة سبقت معركة حطين، ولم تكن نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لنصيحة القاضي الفاضل لصلاح الدين بعد مرضه في حران. وهنا نختلف قليلًا مع الدكتور عزام الذي يعوِّل كثيرًا على دور الفرد في توجيه الحدث التاريخي؛ فقد كانت الأحداث تسير في اتجاه الصدام مع الصليبيين منذ قدومهم إلى المنطقة العربية، ولم يتوقف القتال ضدهم بشكل كامل منذ ذلك الحين. ومن ناحية أخرى، لم يكن في استطاعة صلاح الدين أن يحكم هذه المساحة المترامية بغير الأساس الخلقي الذي ورثه عن نور الدين محمود، ولم يكن أحد ممن ساعدوه أو حاربوا إلى جانبه ليفعل ذلك على غير هذا الأساس. وربما يُعزز هذا التصور أن استعداد صلاح الدين لخوض المعركة الفاصلة ضد الصليبيين جاء عقب حلِّ مشكلة الموصل مباشرة. وفي تصوري أن صلاح الدين احتلَّ مكانه في التاريخ لأنه

كان الشخص المناسب لتحقيق تطلُّعات الناس في العالم الإسلامي من حيث مواهبه وقدراته، ومن حيث إيمانه بأنه يقوم بمهمة ذات طبيعة خُلقية وروحية. جاءت جميع تصرفات صلاح الدين ضد الزنكيين من هذا المنطلق، ولم تكن من منطلق الرغبة في بناء أسرة حاكمة فقط. والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هنا هو: هل كان يمكن لصلاح الدين بالقوة التي يقودها أن يستمر في الوجود من دون معركة فاصلة ضد الفرنج؟ أظن أن الإجابة قدمتها الأحداث التاريخية نفسها.

على أية حال، ارتبك الصليبيون تمامًا عندما وصلتهم أنباء استعدادات المسلمين الحربية، ووصل الخلاف بينهم إلى حافة الخطر، وأجبرهم الخوف من المسلمين بقيادة صلاح الدين على الاتحاد مؤقتًا. وبالقرب من بلدة الناصرة في فلسطين جمع الفرنج أكبر جيش يمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي. ويتحدَّث الكتاب الذي بين أيدينا بشكل مُدهش عن تفاصيل الأعداد والمناورات السابقة على معركة حطين. وقد استولى الذعر على الصليبيين فجنَّدوا جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في المناطق التي احتلوها؛ إذ وصل عدد الجيش الصليبي إلى نحو ثمانية عشر ألفًا من الفرسان والمشاة: كان عدد الفرسان ذوي التسليح الثقيل ألفًا ومائتي فارس، وعدد الفرسان ذوي التسليح الخفيف أربعة آلاف، وكان المشاة يُشكِّلون بقية الجيش الصليبي. وكانت تلك قوة عسكرية ضخمة بمقاييس ذلك الزمان.

وكانت قوات المسلمين، التي قادها صلاح الدين، تضم قواته الخاصة التي خرج هو على رأسها من الشام، والقوات التي جاءت من مصر والعراق والشام تحت قيادة الأمراء الموالين والخاضعين لسلطته وأمراء بني أيوب. وتقول المصادر التاريخية إن أعداد القوات الإسلامية كانت مقاربة لأعداد الجيوش الصليبية. وعلى الرغم من أن الرابطة الإقطاعية كانت أساس بناء الجيوش على كلٍّ من الجبهتين، وهو ما جعل السيطرة المركزية ضعيفة على جيوش الأمراء المسلمين والأمراء الصليبيين على السواء (حيث تصرَّف «ريمون الثالث» أمير طرابلس بما كانت تقتضيه سلامة قواته الخاصة عندما انسحب من المعركة بعد أن تيقَّن من هزيمة الفرنج)، فإن الأساليب القتالية عند كل جانب كانت تختلف اختلافًا بيِّنًا عنها لدى الجانب الآخر.

وبدأت التحركات العسكرية على الجانبين فيما يُشبه مباراة في الشطرنج، يستخدم

فيها كل طرف ما يملك من الموارد على الوجه الأفضل، وما يتمتع به من جسارة وذكاء. وكانت خطة الفرنج الأولية قائمة على أساس تجنب المواجهة مع المسلمين قدر الإمكان، وكان «ريمون السانجيلي» من أشد المتحمسين لهذه الخطة، واقتنع الملك الصليبي برأيه في البداية. لكن زعيم الداوية المتهور و«أرناط» هاجما «ريمون» واتهماه بالجبن، وبأنه باع نفسه للمسلمين. ولما كان الملك الصليبي خفيف العقل فإنه كان يقتنع دائمًا بكلام آخر المتحدثين. كان الجيش الصليبي في ذلك الحين مُعسكرًا في صفورية ذات الحدائق الخضراء وفيرة المياه، وكان بوسعهم أن يبقوا هناك من دون الاشتباك في معركة مفتوحة مع المسلمين... ولكنهم خرجوا. وتحدَّث الدكتور عزام بالتفصيل عن الاستعدادات والمناورات على الجانبين. ورصد انفعالات السلطان، وجعلنا نسهر معه ونتابع قلقه حتى طلوع شمس يوم المعركة. وقدَّم لنا وصفًا لتحركات القوات على الجانبين، وصفًا يتسم بالدقة الشديدة ويتحلى بالإمتاع السردي الجميل. ولسنا بحاجة لأن نكرر ما ذكره.

وفي يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يوليو سنة ١١٨٧م) تم تدمير زهرة الجيوش الصليبية. ولم ينجُ من الأَسْر أو القتل سوى «ريمون» أمير طرابلس، الذي تسميه المصادر التاريخية العربية «القومص»؛ لأنه استطاع الفرار بجيشه مبكرًا. وفي هذا كله كان المؤلف حريصًا على تزويد القارئ بكل التفاصيل مشفوعة برؤيته ورأيه في الأحداث التي حكاها.

كانت النتائج المباشرة لمعركة حطين بمنزلة كارثة كاملة بالنسبة إلى الفرنج؛ فقد فقدت مملكة بيت المقدس جميع مقاتليها، ولم يبقَ سوى حاميات صغيرة في المدن والقلاع التي لم يكن المسلمون قد هاجموها بعد. صحيح أن الكوارث لم تكن جديدة على الصليبيين في المنطقة العربية، حيث لقي عدد من زعمائهم مصرعهم، ووقع بعضهم أسرى وسُجنوا سنوات طويلة في سجون الحكام المسلمين، وتعرضوا لهزائم عسكرية ثقيلة قبل حطين، لكن ما حدث في حطين كان أكثر من مجرد هزيمة عسكرية؛ فقد كانت درسًا عمليًّا في أهمية العمل المشترك ضد العدو وعلامة على الطريق الصحيحة لمواجهة الخطر الصليبي (وكان فشل الأيوبيين في استيعاب هذا الدرس السببَ في مد عمر الكيان الصليبي مائة سنة أخرى بعد حطين). ومن هنا اكتسبت حطين أهميتها التاريخية، كما كان وقعها على الغرب الكاثوليكي قاسيًا.

ذكرت المصادر التاريخية العربية أن المسلمين استعادوا من أيدي الصليبيين في

تلك الأثناء اثنتين وخمسين مدينة وحصنًا وقلعة. واستسلمت جميعها تقريبًا نتيجة لما كانت عليه حال الفرنج من تدهور معنوي وعسكري. ومن ناحية أخرى كانت سُمعة صلاح الدين الطيبة بالحفاظ على وعوده من أهم أسباب استسلام الصليبيين في هذه المدن والحصون والقلاع.

على أية حال، كانت الخطوة التالية المهمة: «تحرير القدس»، رمز الصراع في هذه المواجهة الدامية المضنية، والمكافأة الروحية والخُلقية للنصر الذي جاء محصلة سنوات طوال من العمل السياسي والعسكري منذ عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود من بعده، حتى صلاح الدين الأيوبي. وكان السلطان يريد فتح القدس بالسيف بعد فشل المفاوضات بينه وبين الصليبيين المحاصرين داخل المدينة المقدسة بزعامة الأمير «باليان دي إبلين» والملكة «سيبيلا» والبطريرك غريب الأطوار «هيراكليوس». وكانت الملكة الصليبية قد قامت بعدد من الطقوس الغريبة لعلها تحميهم من المسلمين الذين يحاصرون المدينة؛ إذ إن الملكة ونساء الطبقة الأرستقراطية حلقن شعور بناتهن، وجردنهن من الملابس لكي يقمن بالاستحمام عاريات فوق أحد التلال، ولكنَّ المدينة كانت تحتاج إلى الرجال المقاتلين والعتاد ولم تكن بحاجة إلى تلك الطقوس العبثية.

وعرض «باليان» الاستسلامَ على صلاح الدين الذي وافق بعد تردد طويل. واستسلمت المدينة لمحرريها بعد أسر استمر ثماني وثمانين سنة. وبدأ خروج الصليبيين من المدينة، وبقي المسيحيون العرب في مدينتهم كما بقي أتباع المذاهب المسيحية الشرقية. تم تحرير القدس بصورة إنسانية تناقض تلك الصورة الهمجية الوحشية التي صحبت الغزو الصليبي للمدينة المقدسة قبل ثماني وثمانين سنة. وأقيمت الخطبة في المسجد الأقصى يوم الجمعة، الرابع من شهر شعبان، بعد وضع المنبر الذي كان نور الدين محمود قد أعده لهذه المناسبة، كما أمر السلطان صلاح الدين بترميم المحراب العُمَري القديم وكسوته بالرخام. وبقي صلاح الدين في المدينة المحرَّرة فترة من الزمان لكي يُرتب أحوالها. وأُزيلت الصور والأيقونات التي وضعها الفرنج الصليبيون في المسجد الأقصى، كما أُزيلت مساكن فرسان الداوية من ساحة المسجد، وغُسلت قبة الصخرة بكميات هائلة من ماء الورد، وأُطلق في جنباته البخور، وفُرشت على أرضيته السجاجيد. كما عُين الموظفون الذين تولوا خدمة المسجد الأقصى. وسُمح لليهود بدخول القدس بعد أن كان الصليبيون قد حرَّموا عليهم دخولها، لكنَّ غالبية اليهود ظلوا يقيمون خارج المدينة.

وأُغلقت كنيسة القيامة بضعة أيام، ثم فُتحت وسُمح للفرنج بزيارتها. وبعد عشرين يومًا غادر صلاح الدين بيت المقدس لمواصلة القتال ضد بقايا الصليبيين.

لم يبقَ بأيدي الصليبيين سوى أنطاكِية وطرابلس وصور، وبعض الحصون المتناثرة على أرض الشام وفلسطين. وكانت فلول الهاربين من عكا وبيت المقدس وغيرهما قد انحشروا في داخل صور التي تولَّى تنظيم الأمور بها «كونراد مونتفورت» (الذي تُسميه المصادر التاريخية العربية «المركيس»). وأسهب الدكتور عزام في وصف تفاصيل وصول هذا الأمير المغامر إلى صور في ذلك الوقت الحرِج بقدر ما رسم صورة تفصيلية للأحداث في تلك الأثناء. وعلى الرغم من أن صلاح الدين حاول أخذ صور في شهر رمضان ٥٨٣هـ (ديسمبر ١١٨٧م)، فإن فصل الشتاء فرض عودة القوات الإسلامية إلى بلادها. ومن ثَمَّ كان لا بد من رفع الحصار. ويُحب كثير من المؤرخين المعاصرين أن يُوجِّهوا اللوم إلى صلاح الدين؛ لأنه ترك صور لتكون معقلًا لتجمع الصليبيين المحليين، وقاعدة تنطلق منها العمليات الحربية التي قام بها صليبيو الحملة الصليبية الثالثة فيما بعد. والحقيقة أن هذا الرأي الذي يتبناه «رنسيمان» وعدد من المؤرخين يغفل الطبيعة الطبوغرافية لبلاد الشام في الشتاء من ناحية، وطبيعة الجيوش الإسلامية شبه الإقطاعية، التي كانت تتمتع بقدر كبير من حرية الحركة من ناحية أخرى. ولم يكن صلاح الدين وسيلة فعَّالة للسيطرة الحقيقية على الأمراء الذين قادوا جيوشهم للمشاركة في هذه المعارك.

على أية حال، انتشرت الأنباء السيئة في أوروبا بسرعة؛ فقد ذهب عدد من المبعوثين ليُعلموا البابوية وحكام الغرب نبأ الكارثة التي حلَّت بالكيان الاستيطاني الصليبي في حطين وما بعدها. ومات البابا «أوربان الثالث» في أكتوبر ١١٨٧م، بعد أن قضى عامين (١١٨٥-١١٨٧) على كرسي البابوية، من هول الصدمة، وجاء خلفه البابا «جريجوري الثامن»، الذي لم يستمر على كرسي البابوية سوى شهرين، ليعدَ المشاركين في الحملة الصليبية الجديدة بالغفران الكامل لخطاياهم (وكانت تلك خطوة أخرى بعد الغفران الجزئي الذي عرفته الحملة الأولى والثانية وما بينهما على طريق صكوك الغفران الشهيرة التي ثار ضدها «مارتن لوثر» فيما بعد). وفرض البابا على الكاثوليك صيام يومي الخميس والجمعة على مدى خمس سنوات مُقبلة، والامتناع عن أكل اللحم يومي السبت والأربعاء.

هكذا اكتست الحملة الصليبية التي عُرفت باسم «الحملة الصليبية الثالثة» ثوبًا دينيًّا

يفوق ذلك الثوب الذي ارتدته الحملة الأولى. بَيْد أنَّ هذا الثوب الديني لم يستطع إخفاء عورات هذه الحملة السياسية. ومات «جريجوري الثامن» في ديسمبر سنة ١١٨٧م، وتولَّى خليفته «كليمنت الثالث» مهمة إنجاز مشروع الحملة. وفرضت البابوية ضريبة قدرها عشرة في المائة على جميع الموارد والأملاك المنقولة في غرب أوروبا، عُرفت باسم «عشور صلاح الدين». ويَروي مؤرخ مجهول، كان شاهد عيان رافق حملة «ريتشارد الأول» ملك إنجلترا، أن الحماسة الجارفة عمَّت جميع أنحاء الغرب الأوروبي للمشاركة في هذه الحملة، وهي مبالغة مألوفة من جانب المؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى على أية حال.

وربما يكون مُهمًّا أن نشير في عجالة هنا إلى أن الأحوال السياسية في أوروبا آنذاك، والتي تُمثل الخلفية التي خرجت منها الحملة الصليبية الثالثة، كانت وراء الحصاد الهزيل الذي يقترب من الفشل الذي انتهت إليه تلك الحملة التي قادها ثلاثة من أكبر الرؤوس المتوَّجة في أوروبا في القرن الثاني عشر. وركَّز الدكتور عزام على حملة «ريتشارد الأول» ملك إنجلترا، والتابع الإقطاعي للملك الفرنسي «فيليب أوغسطس»، وتجاهل الحملة الألمانية بقيادة «فردريك بربروسا» على الرغم من أن الحديث عنها كان يمكن أن يوضِّح كثيرًا من الأحداث والتصرفات التي جرت منذ وصول القوات الصليبية حتى صلح الرملة الذي عقده «ريتشارد» مع صلاح الدين ليُبقي الأمور على ما هي عليه. وصوَّر الكِتابُ السَّنة التي قضاها «ريتشارد» في المنطقة العربية في صورة أقرب ما تكون إلى المباراة بين صلاح الدين والملك الإنجليزي، ولكن الحقائق التاريخية الموضوعية تكشف عن أن طبيعة الموقف السياسي والعسكري، والأوضاع في المنطقة العربية وفي أوروبا كانت عامل الحسم في المسألة. وربما كانت معركة «يافاسنة» (٥٨٨هـ-١١٩٢م) دليلًا على ما ندَّعيه؛ فقد أدرك «ريتشارد» عبثية بقائه في الأرض المقدسة ومملكته في إنجلترا تواجه تهديدات عاصفة. ومن ناحية أخرى، كانت الخلافات مستعرة لا تهدأ بين المستوطنين الصليبيين في المنطقة العربية. وعلى الجانب الإسلامي، كان قادة الجيوش الإسلامية وجنودهم قد ضجروا من طول مدة الحرب؛ وفي ذلك قال المقريزي:

> وعزم [السلطان] على لقاء الفرنج، فاختلف عليه أصحابه، وأسمعه بعضهم كلامًا جافيًا، فانثنى عن ذلك.

هكذا كان لا بد من نوع من الهدنة يحتاجها الطرفان، وعُقد صلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ (٢ ديسمبر ١١٩٢م). ورحل «ريتشارد»، وبقي السلطان صلاح الدين، ثم عاد إلى

دمشق ليموت بها في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ (٤ مارس ١١٩٣م). وبذلك تنتهي مرحلة مهمة في تاريخ الصراع الإسلامي ـ الصليبي؛ وهي المرحلة التي بدأت بعماد الدين زنكي، ثم نور الدين محمود.

وبوفاة صلاح الدين الأيوبي حدث فراغ سياسي وعسكري كبير على الجانب الإسلامي، وتفسَّخت الدولة الإقليمية الكبرى التي بناها على أساس من دولة نور الدين محمود. وكان خلفاؤه على غير شاكلته وتنازعوا فيما بينهم، وكانت نعمة هبطت على الصليبيين لتزيد من عُمر مستوطناتهم على الأرض العربية ما يزيد على مائة سنة أخرى.

ويبقى أن نُلقي نظرة كلية على الدور التاريخي لصلاح الدين الأيوبي. وأنا شخصيًّا أميل إلى رأي الأستاذ «جاكسون»:

> إنه يجب تقييم سيرة صلاح الدين في ضوء استيلائه على القدس، الذي مهد له الطريق بتحطيم جيش المملكة اللاتينية في حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م. وفي رأيي أن اهتمام صلاح الدين ـ كما تبيَّن من مراسلاته مع الخلفاء المتعاقبين ـ كان مُنصبًّا على الجهاد في المقام الأول باعتباره وسيلة لاستعادة القدس.

هذا مفتاح شخصية صلاح الدين الأيوبي. فمع أن الجهاد عمل جماعي بطبيعة الحال، إلا أنه يتطلب وجود قائد يؤمن به، ويوجه مواهبه وطاقاته في سبيل توجيه الأمة على طريقه. وبهذا كسب صلاح الدين وأمثاله مكانتهم في التاريخ. ومن ثَمَّ يجب علينا أن ننظر إلى شخصية صلاح الدين التاريخية، ودوره التاريخي، في ضوء الظروف التاريخية الموضوعية التي أفرزته ومعطيات عصره؛ فقد كانت الظروف تتطلب قائدًا يواصل دور نور الدين محمود، ويطوره. وكان تقلب صلاح الدين في تطورات السياسة والحرب، منذ جاء في جيش أسد الدين شيركوه حتى تحرير القدس وما بعدها، بمنزلة المدرسة التي تلقَّى فيها دروسه السياسية والإستراتيجية حول حقائق الصراع بين المسلمين والصليبيين في المنطقة العربية. ومن ناحية أخرى، عاشت المنطقة العربية حالة من البعث الديني والخُلقي، كانت بمنزلة رد الفعل لما حدث في أعقاب الحملة الصليبية الأولى، وجاء صلاح الدين متوافقًا مع هذه الحالة. ولذلك كان طبيعيًّا أن ينتقل من ضابط مثل مئات الضباط في جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل يملأ القلب والعقل والذاكرة التاريخية لأبناء هذه المنطقة.

بنى صلاح الدين سُمعته التاريخية على أساس من الوحدة الخُلقية والدينية للمنطقة العربية تحت راية الجهاد، ومن ناحية أخرى، كانت صفاته وسجاياه الشخصية تؤهله لهذا الدور الذي تجسَّد في بناء دولة إقليمية كبرى وسلطة معنوية هائلة مكَّنته من تحقيق حلم الناس بتحرير مقدساتهم الإسلامية والمسيحية الشرقية من براثن الاحتلال الاستيطاني الأوروبي الذي تخفَّى وراء الصليب. لقد أدرك صلاح الدين أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحرير الأرض التي استوطنها الصليبيون القادمون من الغرب الأوروبي، كما أدرك أن الوحدة هي الضمان الوحيد لاستمرار الجهاد. ولذلك حارب الحكام المسلمين المتنازعين ثلاثة أضعاف حروبه ضد الفرنج الصليبيين؛ فقد كان يعرف تمامًا أن استمرار الوجود الصليبي رهين باستمرار الأخلاق السياسية لدى حكام المنطقة.

يُقدم هذا الكتاب، الذي نُقدِّمه لقرَّاء العربية للمرة الأولى، سيرة تاريخية بديعة للسلطان «الناصر صلاح الدين، يوسف بن أيوب» من منظور إنساني جميل وجديد؛ فقد زامل الدكتور عبد الرحمن عزام كلًّا من عماد الدين الأصفهاني، وابن شداد، ليرصد لنا ملامح صلاح الدين الإنسان، في لحظات قوته ولحظات ضعفه على السواء. وفي حيوية بالغة جعلنا نشعر بالقلق والخوف والفرح، والغضب أحيانًا مع صلاح الدين، وكأننا وقوف إلى جانبه، أو جالسون في حضرته، أو مصاحبون له في ميدان القتال.

وتختلف بالضرورة الزاوية التي نظر منها المؤلف إلى موضوعه عن الزاوية التي ينظر منها الآخرون، وأنا منهم، بطبيعة الحال. بَيْد أن هذا لا يعني أن هناك زاوية أفضل من الأخرى.

وتبقى كلمة عن الترجمة: لقد حاولت قدر الطاقة أن أنقل النص الأصلي في لغة عربية سلسة وبسيطة، مع الرجوع إلى نصوص المصادر التاريخية الأصلية التي استعان بها المؤلف؛ وذلك بُغية تعريب النص بصورة كاملة قدر الإمكان. وساعدني على تحقيق هذا الهدف، جزئيًّا، أنني أمضيت عمري الأكاديمي كله في دراسة الحركة الصليبية. ولن تخلو الترجمة، بطبيعة الحال، من جوانب النقص والقصور التي أعتذر عنها سلفًا.

والله الموفِّق والمستعان.

الهوامش

استهلال: الفصل بين الرجل والأسطورة

(١) S. Lane-Poole, *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*, London 1898, 399.

(٢) M. Jubb, *The Legend of Saladin in Western Literature and Historiography*, New York 2000, xi.

(٣) Ibid., 6.

(٤) Ibid., 40.

(٥) Ibid., 92.

(٦) C. Rosebault, *Saladin Prince of Chivalry*, London 1930, 5.

(٧) C. Hillenbrand, *The Crusades – Islamic Perspectives*, Edinburgh 1999, 592.

(٨) C. Tyerman, *Fighting for Christendom*, Oxford 2004, 195.

(٩) Hillenbrand, op. cit., 592.

(١٠) A. Ahmad, *Living Islam*, London 1995, 76.

(١١) Hillenbrand, op. cit., 595.

(١٢) E. Said, 'These are the Realities', *Al-Ahram Weekly*, 19 April 2001.

(١٣) Hillenbrand, op. cit., 614.

(١٤) A. Ehrenkreutz, *Saladin*, Albany 1972.

(١٥) H. Gibb, 'The Achievement of Saladin', *Bulletin of John Rylands Library*, 35/1, Manchester 1952, 44-60.

الفصل الأول: ضعف الخليفة العباسي والإحياء السُّني

(١) السامانيون في خراسان، الحمدانيون في سوريا، الأمويون في إسبانيا، الفاطميون في مصر، والغزنويون في أفغانستان.

(٢) لسنوات خصص الخلفاء العباسيون ريع إقطاعيات لأمرائهم وكان على هؤلاء بدورهم تزويد

الخليفة بعدد من القوات أو ببعض الأموال. وكانت المشكلة أن منح الأرض بدلًا من الرواتب أدى إلى تمزيق الإدارة المركزية وإضعافها، ومن سخرية الأقدار أن الرجال والأموال المطلوبين للحفاظ على المركز، أدوا في النهاية إلى انهياره.

(٣) J. Saunders, *A History of Medieval Islam*, London 1965, 134.

(٤) S.H. Nasr, *Ideals and Realities of Islam*, London 1966, 147.

(٥) G. Makdisi, 'The Sunni Revival', in D. Richards (ed.), *Islamic Civilization 950-1150*, Oxford 1973, 165.

(٦) P. Crone and M. Hinds, *God's Caliph*, Cambridge 1986, 90.

(٧) R. Humphreys, *Islamic History*, Princeton 1991, 187.

إذا قلنا ذلك، وراعينا أنه لم توجد حدود ثابتة أو تخصصات، يمكن عمومًا أن نقبل أن العلماء كانوا مقسمين إلى ثلاث مجموعات: الفقيه، وكان يركز على تطبيق الشرعية الإسلامية؛ والمحدِّث، وكان عمله يركز على نقل الحديث؛ والصوفي الذي كرس نفسه أساسًا للبعد الباطني في الدين. إلا أنّ الفصل بين الدين والشريعة لم يكن ممكنًا في إسلام العصور الوسطى، وكان العلماء الذين يتولون المناصب المرتبطة بالشريعة بارعين في نقل الحديث كما كانوا صوفيين.

(٨) Saunders, op. cit., 125.

(٩) M. Hodgson, *The Venture of Islam*, Chicago 1961, vol. 2, 33.

(١٠) H. Kennedy, *The Prophet and the Age of the Caliphates*, London 1986, 229.

(١١) في ٧٦٥، مع وفاة جعفر الصادق، سادس الأئمة بعد علي، انقسم الشيعة. كان إسماعيل، ابن جعفر ووريثه، قد مات قبل أبيه، وبينما اعترف البعض بالأخ الأصغر لإسماعيل، موسى الكاظم، إمامًا، اعترف آخرون بمحمد بن إسماعيل، وعرفوا بالإسماعيليين. وعرف الشيعة الذين اتبعوا موسى الكاظم بالشيعة الاثني عشرية وهم يشكلون اليوم الغالبية العظمى من الشيعة.

(١٢) S. Runciman, *A History of the Crusades*, vol. 2 *The Kingdom of Jerusalem*, London 1952, 12.

(١٣) Kennedy, op. cit., 242.

(١٤) Saunders, op. cit., 147.

(١٥) P. Newby, *Saladin in his Time*, London 1983, 36.

(١٦) Makdisi, op. cit., 157.

(١٧) Nasr, op. cit., 96.

(١٨) Hodgson, op. cit., 152.

(١٩) يجب ملاحظة أن الانتماء للمدارس الشرعية لم يكن يذكر في أغلب الأحيان، إلا إذا كان الفرد المقصود يشغل منصبًا شرعيًّا؛ وبالتالي نادرًا ما ذكرت مذاهب المتصوفين والشعراء والنحويين.

(٢٠) I. Goldziher, *Introduction to Islamic Theology and Law*, Princeton 1981, 92.

وقد قدم الشيخ الحنبلي ابن تيمية مثالًا واضحًا على ذلك، وهو يعظ عن هبوط الله، هبط من على المنبر وقال: «هكذا بالضبط كما أهبط الآن.»

(٢١) Ibid., 94.

(٢٢) للاطلاع على رأي معاكس بشأن تطور الأشعرية، انظر

G. Makdisi, 'Ash'ari and the Ash'arites in Islamic Religious History', *Studia Islamica*, XVII, 1962.

(٢٣) G. Makdisi, 'The Hanbali School and Sufism', *Boletin de la Asociación Española de Orientalistas* XV, Madrid 1979, 116.

(٢٤) Hodgson, op. cit., 194.

(٢٥) Al-Ghazali, *Letter to a Disciple*, trans. T. Mayer, Cambridge 2003, xix.

بالنسبة للغزالي، لم تكن فكرة المصالحة بين التصوف والعقيدة الإسلامية واردة، إذ إنها كانت لتعني أن التصوف قد انفصل يومًا عن العقيدة، والواقع أنه لطالما كان مندمجًا في نسيجها. ولو لم يكن التصوف كذلك، لما كان الحنابلة، وهم حراس العقيدة المتشددون، ليسمحوا به أبدًا. ربما كانت العقيدة الحنبلية حرفية، ولكنها لم تكن معادية للتصوف. كان من الممكن انتقاد متصوفين معينين بكل الوسائل، ولكن ليس المسار نفسه، ويرجع الفضل بذلك للغزالي.

(٢٦) انتشر الإحياء السُّني بسرعة كبيرة، ووصل إلى المرابطين الذين احتلوا المغرب وجزءًا من الجزائر وجنوب إسبانيا في نهاية القرن الحادي عشر. وفي منتصف القرن الثاني عشر، لم يكن ممكنًا لأي عالِم مهم في شمال إفريقيا عدم معرفة أعمال الغزالي، وكان باستطاعة الكثيرين الادعاء بأنهم تلاميذ لأتباعه. ويجب أن نذكر بشكل خاص أبا مدين وهو شخصية رائدة للصوفية في إسبانيا الإسلامية وإفريقيا في تلك الفترة. وللاطلاع على مقدمة عن أبي مدين والصوفية في شمال إفريقيا في تلك الفترة، انظر

V. Cornell, *The Way of Abu Madyan*, Cambridge 1996.

(٢٧) Makdisi, *Sunni Revival*, 161.

الفصل الثاني: تحول اتجاه التيار

(١) M. Chamberlain, *Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus 1190-1350*, Cambridge 1994, 37.

(٢) R. Irwin, 'Islam and the Crusades 1096-1699', in J. Riley-Smith (ed.), *The Oxford History of the Crusades*, Oxford 1999, 214.

(٣) Al-Jahiz, *Manqib al-Turk*, partial trans. C. Harley-Walker as 'Jahiz of Basra to al-Fath ibn Khaqan on the exploits of the Turks and the army of the Khilafat in general', *Journal of the Royal Asiatic Society* (1915), 670.

(٤) Chamberlain, op. cit., 47.

(٥) Ibid., 43.

(٦) Hillenbrand, op. cit., 31.

(٧) استخدم في هذا الكتاب مصطلحا الصليبيين والفرنج كمرادفَين.

(٨) رغم اتفاق المؤرخين جميعًا على أن التمزق السياسي في سوريا ساعد الصليبيين بشكل كبير، تضيف «هيلندبراند» سؤالًا مثيرًا عما إذا كان الأوربيون أُخبِروا بأنها كانت اللحظة المناسبة للانقضاض. وتستنتج أنّه، لسوء الحظ، «لا يوجد دليل على ذلك في المصادر الإسلامية، ولكن نادرًا ما كانت ذراع الصدفة أطول» (Hillenbrand, op. cit., 33).

(٩) P.K. Hitti, *History of Syria*, London 1951, 589.

(١٠) H. Dajani-Shakeel, 'Diplomatic relations between Muslim and Frankish rulers 1097-1153', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden 1993, 192.

(١١) مملكة بيت المقدس، ومقاطعة طرابلس، وإمارة أنطاكية، ومقاطعة الرَّها.

(١٢) تزامن حكم رضوان في حلب، على سبيل المثال، مع وصول الحملة الصليبية الأولى على ساحل الشام، لكنه لم يواجه الصليبيين ولو في معركة واحدة. وكان اهتمامه الوحيد الحفاظ على سلطته، وهي غاية كان مستعدًّا لإكمالها بمساعدة الفرنج أنفسهم.

(١٣) عن القوات التي أرسلها السلاجقة، أفضل ما يمكن أن يقال هو أن هدفها لم يكن واضحًا؛ هل أرسلت الجيوش بهدف إخراج الفرنج من الشام، أم بُعثت - كما اعتقد أمراء متشككون في الشام - لترسيخ سيطرة السلطان على الأرض؟ وكانت النتيجة متوقعة. حين سار مودود بجيشه إلى حلب، في ١١١١، وجد أن رضوان لا يريد أن يسمح لقواته بدخول المدينة. وبعد ذلك ببضع سنوات، في ١١١٥، أرسل السلطان السلجوقي حملة أخرى إلى الشام وفي هذه المرة قرر حاكما حلب ودمشق الوقوف إلى جانب الفرنج ضدها.

(١٤) S. Howarth, *The Knights Templar*, London 1985, 95-6.

(١٥) Hillenbrand, op. cit., 21.

(١٦) R. Smail, *Crusading Warfare 1097-1193*, Cambridge 1956, 22-3.

(١٧) «أتابك» كلمة تركية تعني الأب أو القائد. كان الأتابك حارسًا يمارس السلطة حين يموت أمير سلجوقي تاركًا وريثًا قاصرًا. لكن في الواقع كان الأمير السلجوقي الصغير يصبح دمية ولا يتخلّى الأتابك عن موقعه في السلطة. بتعبير «إروين»، كان الأتابك نوعًا من «المربية العسكرية» بالنسبة للأمير السلجوقي القاصر (Irwin, op. cit., 215).

(١٨) D. Patton, 'A history of atabegs of Mosul and their relations with the ulama', unpublished dissertation. New York University 1982, 1.

(١٩) Hillenbrand, op. cit., 112.

(٢٠) Ibid., 114.

(٢١) V. Minorsky, 'Prehistory of Saladin', in *Studies in Caucasian History*, London 1953, 133.

(٢٢) Ibid.

(٢٣) Quoted in M. Lyons and D. Jackson, *Saladin: The Politics of Holy War*, Cambridge 1982, 4.

(٢٤) Minorsky, op. cit., 133.

(٢٥) N. Elisseeff, *Nur ad-Din: un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades*, Damascus 1967, vol. 2, 673.

(٢٦) D. Ayalon, *Eunuchs, Caliphs and Sultans: A Study in Power Relationships*, Jerusalem 1999, 278.

(٢٧) Hodgson, op. cit., 46.

(٢٨) G. Leiser, 'Notes on the madrasa in medieval Islamic society', *The Muslim World*, LXXVI (January 1986), 16 (*MW*).

(٢٩) ثمة وثائق عن وجود ٣٨ مدرسة في نيسابور، قبل المدارس النظامية، لكن لم يقدر لها الاستمرار.

(٣٠) أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، مجلدان (القاهرة، ١٩٦٥-١٩٦٩).

(٣١) Y. Tabbaa, *Constructions of Power and Piety in Medieval Aleppo*, Pennsylvania 1997, 125.

(٣٢) R. Hillenbrand, *Islamic Architecture*, Edinburgh 1994, 190.

(٣٣) R.S. Humphreys, *From Saladin to the Mongols*, New York 1977, 377.

(٣٤) Hodgson, op. cit., 46.

(٣٥) C. Klausner, *The Seljuk Vezirate: A Study of Civil Administration, 1055-1194*, Cambridge MA 1973, 70.

(٣٦) Leiser, op. cit., 18.

(٣٧) Hodgson, op. cit., 48.

(٣٨) بينما كان الاهتمام الأساسي للمتعلم - في الحقيقة مقياس سمعته - يكمن في جمع العلم، أصبح جمع العلم يشكل للكثيرين وسيلة للحصول على وظيفة عليا، وراتب، ومركز في السلطة. باختصار، أصبح العلم وسيلة من أجل غاية. ورغم أن ذلك حصل تدريجيًا، ولم يتبلور حتى الفترة العثمانية ووضع سلم هرمي وإجراءات إدارية للتقدم في الوظائف، إلا أنّ البذور كانت قد نُثرت.

(٣٩) في إحدى الحالات استقال قاض من عائلة الدمغاني من منصبه قاضيًا وقبل منصب حاجب محكمة، وهو منصب كان حكرًا على الموظفين العسكريين. ومن المؤكد أنه لم يكن نادرًا أن نجد علماء يقبلون مناصب حكومية بشرط ألا يتقاضوا أي مخصصات أو لا يكون عليهم ملازمة البلاط. رد الوزير الشهير ابن هبيرة، على سبيل المثال، العطايا التي أرسلها إليه الخليفة، ولم يوافق ابن شويه الروذراوري على منصب حكومي إلا بشرط ألا يتقاضى أي أجر على أي أحكام قضائية وألا يكون مضطرًّا إلى تغيير ملبسه.

(٤٠) وكانت المدينة حينذاك تحت حكم ابنه سيف الدين، لكن الحاكمين خلف العرش في الموصل كانا الجواد، أحد الإداريين البارزين عند زنكي، وعلي كوجيك، أمير. شيد علي كوجيك مدرسة، وكانت أول مدرسة تشيد بعد بناء النظامية قبل ذلك بخمسين سنة. والمذهل في هذه المدرسة أن أبوابها كانت مفتوحة للحنفيين والشافعيين على السواء، فكانت أول مدرسة مزدوجة على الإطلاق.

(٤١) N. Elisseeff, 'Un document contemporain de Nur al-Din, sa notice biographique par Ibn Asakir', *Bulletin des études orientales*, 13 (1949-51), 155-96.

(٤٢) J. Philips, 'The Latin East 1098-1187', in J. Riley-Smith (ed.), *The Oxford History of the Crusades*, Oxford 1999, 122.

(٤٣) C. Hillenbrand, op. cit., 122.

(٤٤) Ibid., 118-19.

(٤٥) للاطلاع على قائمة كاملة بالمدارس وتحديد مواقعها والمذاهب التابعة لها، انظر
Elisseeff, *Nur ad-Din: un grand prince*, vol. 3, 914.

الفصل الثالث: صلاح الدين الشاب

(١) J. Richard, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, Amsterdam 1979, 40.

(٢) P. Holt, *The Age of the Crusades: The Near East from the Eleventh Century to 1517*, London 1986, 43.

(٣) Newby, op. cit., 32.

(٤) B. Lewis, 'The use by Muslim historians of non-Muslim sources', in B. Lewis and P.M. Holt (eds), *Historians of the Middle East*, London 1962, 181.

(٥) الأنكتار (الإنجليز)، الألمان، الفرنسيس (الفرنسيين)، البنادقة... إلخ.

(٦) E. Sivan, *L'Islam et la Croisade*, Paris 1968, 205-6.

(٧) C. Hillenbrand, op. cit., 420.

(٨) بنيت خمس مدارس صوفية، وخمس مدارس حنفية، وتكية للصوفية.

(٩) استمرت النسبة أكثر من اثنين إلى واحد خلال فترة حكم صلاح الدين والأيوبيين بحيث كانت، في نهاية حكم الأيوبيين، ٨٩ مدرسة في دمشق، وفقط ٤٥ مدرسة في حلب.

(١٠) J. Gilbert, 'The ulama of medieval Damascus and the international world of scholarship', unpublished dissertation, University of California 1977, 65-6 (henceforth thesis).

(١١) S. Humphreys, *Politics and Architectural Patronage in Ayyubid Damascus. Essays in Honour of Bernard Lewis: The Islamic World*, Princeton 1989, 166.
بشكل لافت في القرن بين سنة ١١٥٠ وسنة ١٢٥٠، ما لا يقل عن ٥٧ من أصل ١١٣ من المعلمين الشافعيين والحنفيين في حلب كانوا من مهاجري الجيل الأول أو الثاني من إيران والعراق. ومن المهم بالقدر نفسه ملاحظة أن عدد المتعلمين المقيمين في دمشق في أثناء القرن الثالث عشر كان ضعف العدد في أثناء القرن الثاني عشر.

(١٢) بنى أول مدرسة سيف الدين غازي في الموصل بين سنة ١١٤٦ وسنة ١١٤٩.

(١٣) Hillenbrand, op. cit., 111.

(١٤) Ibid., 72.

(١٥) Al-Sulami, *Kitab al-Jihad*, in E. Sivan, 'La Genèse de la contre-croisade: un traité damasquin du début du XII[e] siècle', *Journal Asiatique*, XXLIV (1966), 207.

(١٦) Ibid., 216.

(١٧) Ibid., 220.

(١٨) C. Hillenbrand, op. cit., 73.

(١٩) Ibid., 82.

(٢٠) Elisseeff, *Un document contemporain*, 167.

(٢١) Quoted in Irwin, op. cit., 223.

(٢٢) Ibid., 226.

(٢٣) C. Hillenbrand, op. cit., 151.

(٢٤) لا شيء يرمز لهذا الطموح أكثر من المنبر الذي أمر بصنعه ليوضع في المسجد الأقصى. أمر بصنعه في ١١٦٨ وصنع في حلب. وفي الحقيقة يمثل هذا المنبر قمة الإبداع في مدرسة حلب لنحاتي الخشب. بقي المنبر في حلب ورآه ابن جبير في ١١٨٢، لأنه لم يكن مقدرًا لنور الدين أن يراه في موضعه في بيت المقدس. وعشرون عامًا بعد الأمر بصنع المنبر، عام ١١٨٧، فتح صلاح الدين بيت المقدس وأراد منبرًا أكثر روعة في الأقصى، علامة على انتصاره. تذكر منبر نور الدين وأحضره من حلب ونصبه في موضعه، حيث بقي في المسجد الأقصى حتى دمره متعصب في ١٩٦٩.

(٢٥) Lyons and Jackson, op. cit., 3.

(٢٦) Quoted in Lyons and Jackson, op. cit., 3.

(٢٧) Hodgson, op. cit., 452.

(٢٨) Ibid., 452.

(٢٩) حتى بناء المقامة نفسها كان يحمل لحظات مثيرة من التوقع بما قد يذهب إليه الراوي. تبدأ كل القصص تقريبًا بجملة «حدثنا عيسى بن هشام قائلًا...»، ولم يكن الجمهور في حاجة إلى من يخبره بأنها محاكاة لسلسلة من المؤلفين ينسب إليهم التراث الإسلامي رواية الحديث. وكانت المحاكاة تتضخم، بالطبع، بحقيقة أن بطل المقامة وغد يكسب قوته من الدهاء والمكر.

(٣٠) On al-Wahrani see K. Zakharia, 'Al-Wahrani, auteur de Maqamas', *Arabica*, 49/1 (Dec. 2002).

(٣١) Quoted in Lyons and Jackson, op. cit., 119.

(٣٢) Ibid., 372.

(٣٣) Ibid., 118.

(٣٤) شاكر مصطفى، صلاح الدين: الفارس المجاهد، والملك الزاهد المفترى عليه، دمشق ٢٠٠٣، ص ٥٢.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٣٦) يعود الفضل عمومًا إلى السيرة التي كتبها ابن شداد في أننا حصلنا على لمحات عن الجانب الشخصي لصلاح الدين. رغم أن ابن شداد لم يدخل في خدمة صلاح الدين كقاضٍ للجيش حتى ١١٨٨، وقد كان نتاج المدارس التي ازدهرت بسرعة عبر العالم الإسلامي، إلا أنّه لم يبرح جانب صلاح الدين وبقي في صحبته حتى وفاة صلاح الدين.

(٣٧) M. Lings, *What is Sufism?*, London 1975, 111.

أضاف «النجز» أن لا أحد مارس شخصيًّا هذا التأثير الروحاني بكل هذه الأبعاد مثل الجيلاني.

(٣٨) ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، دار القلم، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢، ص ١٨٤.

(٣٩) ابتدأ الجيلاني على يدي الصوفي الحنبلي أبي سعيد المخرمي (ت: ١١١٩). ومن المثير أن الجيلاني تلقى في البداية استقبالًا باردًا من الصوفيين الآخرين بسبب خلفيته في القضاء، لكنه آمن دائمًا بأن معرفة الفقه والتصوف جوهرية.

(٤٠) شعيب أبو مدين مثال جيد لمدى سرعة انتشار تأثير الجيلاني. ولد أبو مدين في إشبيلية، وقد سافر كثيرًا، ويقال إنه قابل الجيلاني في مكة. اعترف أبو مدين به قطبًا وبدأ على يديه. ثم عاد أبو مدين إلى الغرب، حيث قضى بقية عمره في الجزائر.

(٤١) بنى نور الدين، على سبيل المثال، مدرسة في حران لأسد بن المنجية بن بركات، وكان من مريدي الجيلاني، وأيضًا لقطب الدين النيسابوري.

(٤٢) C. Addas, *Quest for the Red Sulphur: The Life of Ibn Arabi*, Cambridge 1993, 185.

(٤٣) بالطبع لم تكن العلاقة خالية من التوتر وسوء الفهم؛ ويشهد على ذلك أمر صلاح الدين، بإعدام الصوفي السهروردي في ١١٩١ بضغط من العلماء.

(٤٤) Addas, op. cit., 185.

(٤٥) Ibid., 185.

(٤٦) Berkey, *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo*, Princeton 1992, 180.

(٤٧) Ibid., 211.

(٤٨) شاكر مصطفى، المصدر نفسه، ص ٤١.

الفصل الرابع: المعركة من أجل مصر

(١) Runciman, op. cit., 363.

(٢) B. Hamilton, *The Leper King and his Heirs*, Cambridge 2000, 63.

(٣) D. Ayalon, 'Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine during the Islamic Period', in A. Cohen and G. Baer (eds), *Egypt and Palestine: A Millennium of Association, 868-1948*, New York 1984, 31.

(٤) Ibid., 32.

(٥) Ibid., 24 and 25.

(٦) Runciman, op. cit., 373.

(٧) Al-Wahrani, quoted in Lyons and Jackson, op. cit., 6.

(٨) G. Leiser, 'The restoration of Sunnism in Egypt: Madrasa and Mudarrisun 495-647/1101-1249', unpublished PhD dissertation, University of Pennsylvania 1976, 110 (henceforth thesis).

(٩) C. Hillenbrand, op. cit., 45.

(١٠) A. Ehrenkreutz, 'The Fatimids in Palestine - the unwitting promoters of the Crusades', in A. Cohen and G. Baer (eds), *Egypt and Palestine: A Millennium of Association, 868-1948*, New York 1984, 72.

(١١) C. Hillenbrand, op. cit., 46.

(١٢) Y. Lev, *State and Society in Fatimid Egypt*, Leiden 1991, 140.

(١٣) S. Goitein, *A Mediterranean Society*, Berkeley 1967, vol. 2, 278-81.

(١٤) Leiser, thesis, 106.

(١٥) أول مذهب سني تأسس في مصر كان المذهب المالكي، وقد بقي دون منافس حتى وصول الإمام الشافعي إلى مصر سنة ٨١٤. وقد تنامى مذهبه بسرعة. وذكر أنه في سنة ٩٣٨ كان لكل من المالكيين والشافعيين ١٥ حلقة من الدارسين في مسجد عمرو بن العاص، أقدم مساجد مصر ومعقل السنة، ولم يكن للحنفيين سوى ٣ حلقات.

(١٦) Leiser, thesis, 119.

(١٧) Quoted in Leiser, thesis, 117.

(١٨) ينبغي أن نذكر باختصار لقاء تم بين الطرطوشي والغزالي في الإسكندرية، حين سافر الأخير إلى المدينة. ولد الرجلان في السنة ذاتها، الأول في طرطوشة، والآخر في طوس. ودرس الاثنان الشريعة وسافرا كثيرًا، واستقر الاثنان في دمشق، حيث استقرا في خانقاه للصوفية. كان اللقاء قصيرًا ولم يكن حارًا ووجد الطرطوشي لاحقًا الوقت لانتقاد كتابات الغزالي، وهو انتقاد ربما كان وليد الحسد تجاه زائره الأكثر شهرة.

(١٩) Ehrenkreutz, *Saladin*, 13.

(٢٠) G. Leiser, 'The Madrasa and the Islamization of the Middle East: the case of Egypt', *Journal of the American Research Center in Egypt*, XXII (1985), 30 (henceforth *JARCE*).

(٢١) R. Bulliet, *Conversion to Islam in the Medieval Period*, Harvard 1979, 93.

(٢٢) C. Hillenbrand, op. cit., 43-4.

(٢٣) Leiser, *JARCE*, 32.

(٢٤) D. Ephrat, 'Muslim reaction to the Frankish presence in Bilad al-Sham', *Al-Masaq*, 15/1 (March 2003); and B. Kedar, *Crusade and Mission, European Approaches Towards the Muslims*, Princeton 1984.

(٢٥) Leiscr, *JARCE*, 32.

(٢٦) مرة أخرى زادت تصرفات الخليفة الحافظ من شكوك أهل السنة؛ أعلن عن جنازة رسمية وأمر إدارات الحكومة بالغلق ثلاثة أيام حدادًا. ثم تبع كفن بهرام، المغطى بقماش مطرز، على بغل حتى وصل موكب الجنازة إلى موضع الدفن. وهناك ترجل الخليفة، وجلس على حافة المقبرة وبكى بكاء حارًا. بالنسبة للمشاهدين من المسلمين، كان هذا المشهد غير المسبوق من التعبير عن المشاعر صادمًا، وخصوصًا أنه، في عيونهم، يكشف بوضوح عن المحاباة التي أظهرها الخليفة تجاه المسيحيين.

(٢٧) Leiser, *JARCE*, 38.

(٢٨) لا ينبغي للمرء أن يندهش حين يقرأ أن السلفي درس في النظامية في بغداد، وبعد ذلك تنقل عبر العالم الإسلامي على مدى الاثني عشر عامًا التالية لجمع الأحاديث، قبل أن يصل إلى الإسكندرية في طريقه إلى شمال إفريقيا وإسبانيا. وفي الحقيقة لم يغادر مصر مرة أخرى.

(٢٩) Leiser, thesis, 158.

(٣٠) Ibid., 101.

(٣١) Quoted in Kailani, op. cit., 33.

(٣٢) Ibid., 33.

(٣٣) Ibid., 236.

(٣٤) Lyons and Jackson, op. cit., 6-29.

(٣٥) On Shirkuh writing to Abbasid caliph, see Elisseeff, *Nur ad-Din: un grand prince*, vol. 2, 603.

(٣٦) Lyons and Jackson, op. cit., 10.

(٣٧) من علامات التبجيل التي أبداها صلاح الدين تجاه ابن مصال أنه أمر بعد وفاة الأخير بضرورة استمرار العطايا التي كان يدفعها لبعض الناس.

(٣٨) Lyons and Jackson, op. cit., 19.

الفصل الخامس: الوزير غير المتوقّع

(١) Ehrenkreutz, *Saladin*, 50.

(٢) Ibid., 57.

(٣) H. Gibb, 'The armies of Saladin', *Cahiers d'Histoire Egyptienne*, III (May 1951), 304.

(٤) Elisseeff, *Nur ad-Din: un grand prince*, vol. 2, 635.

(٥) Y. Lev, *Saladin in Egypt*, Brill 1999, 48.

(٦) Lyons and Jackson, op. cit., 25.

(٧) Runciman, op. cit., 369.

(٨) Ibid., 383.

(٩) Lyons and Jackson, op. cit., 31.

(١٠) Ehrenkreutz, *Saladin*, 67.

(١١) Ibid., 67.

(١٢) Lyons and Jackson, op. cit., 28.

(١٣) *Encyclopaedia of Islam*, vol. 2, 607.

(١٤) See also Hadia Dajani-Shakeel, 'Al-Qadi al-Fadil: his life and political career', unpublished doctorate dissertation, University of Michigan, 1972.

(١٥) لم يغادر القاضي الفاضل مصر إلا نادرًا، وفقط في رحلات في خدمة صلاح الدين أو للحج.

(١٦) Lyons and Jackson, op. cit., 56.

(١٧) Dajani-Shakeel, op. cit., 31.

(١٨) Ibid., 34.

(١٩) Ibid., 46.

(٢٠) Lev, *Saladin in Egypt*, 18.

(٢١) Ibid., 66-76.

(٢٢) Ibid., 73.

(٢٣) Ibid., 69.

(٢٤) Ibid., 76.

(٢٥) Ehrenkreutz, *Saladin*, 67.

الفصل السادس: حاكم مصر

(١) D. Jackson, '1193-1993: An Appreciation of the career of Saladin', in U. Vermeulen and D. de Smet (eds) *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven 1995, 221.

(٢) Ehrenkreutz, *Saladin*, 69.

(٣) Jackson, op. cit., 225.

(٤) Quoted in Lyons and Jackson, op. cit., 65.

(٥) Ibid., 44.

(٦) Ibid., 35.

(٧) Ibid., 36.

(٨) مُنح أيوب إقطاع الدلتا ـ الإسكندرية ودمياط ومحافظة البحيرة ـ بينما احتفظ توران شاه بإقطاع محافظتي قوص وأسوان في صعيد مصر.

(٩) See Y. Tabbaa, *The Transformation of Islamic Art during the Sunni Revival*, Seattle 2001, 30.

(١٠) Ibid., 50.

(١١) للاطلاع على تأثير الإحياء السني على الأشكال الأخرى من الفنون الإسلامية وخصوصًا الأسقف المعلقة أو العقد التي تشبه أقراص النحل، انظر Tabbaa, op. cit., 129-33.

(١٢) Ibid., 68.

(١٣) ومن الآخرين الذين يعدون من خريجي المدرسة الشافعية سكرتير ديوان الإنشاء، ابن الجراح، وقد توفي في دمياط سنة ١٢١٩ في أثناء الهجوم الصليبي على المدينة؛ ناظر ديوان الجيش، أبو محمد المقدسي، الذي احتفظ بالوظيفة في ظل آخر الوزراء الفاطميين وصلاح الدين لمدة عشرين سنة حتى وفاته سنة ١١٨٨؛ والمؤرخ ابن مماتي، الذي عمل في كل الدواوين في ظل

حكم صلاح الدين. ثمة شخص آخر بارز هو أبو الفضيل القاسم الشهرزوري، وقد ولد في الموصل، ودرس في المدرسة النظامية، حيث كان من المقربين إلى عماد الدين الأصفهاني، ثم ذهب إلى مصر ليكون في خدمة صلاح الدين وحيث تعلم على يدي السلفي. وقد خلف عمه كمال الدين باعتباره كبير قضاة دمشق. وبعد ذلك أرسله صلاح الدين إلى البلاط العباسي في بغداد. ثم أرسل إلى الموصل حيث صار قاضي قضاة المدينة، وينبغي أن نتذكر أن الموصل هي الموطن الأصلي لآل الشهرزوري.

(١٤) Berkey, op. cit., 23.

(١٥) Lev, op. cit., 124.

(١٦) Leiser, thesis, 192.

(١٧) Berkey, op. cit., 24.

(١٨) بالإضافة إلى جمع الإجازات، كان الدارس يحتفظ أيضًا بمفكرة لا يدون فيها فقط متى سمع عالمًا معينًا يلقي درسًا معينًا، بل ويدون فيه أيضًا الأساتذة الذين درس عليهم (مجمع المشيخة). وكان ذلك حاسمًا لتأكيد وضع المرء في سلسلة السلطات.

(١٩) Gilbert, thesis, 19.

(٢٠) Ibid., 21.

الفصل السابع: جائزة الشام

(١) C. Hillenbrand, op. cit., 194.

(٢) Ibid., 72.

(٣) Gibb, 'The achievement of Saladin', 44-60.

(٤) Ehrenkreutz, op. cit., 238.

(٥) Jackson, op. cit., 220.

(٦) Jackson, op. cit., 220.

(٧) Mustafa, op. cit., 152.

(٨) Runciman, op. cit., 400.

(٩) Ibid., 405.

(١٠) J. Riley-Smith, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277*, London 1973, 103.

(١١) Hamilton, op. cit., 66.

(١٢) R. Smail, *The Crusaders in Syria and the Holy Land*, London 1973, 21.

(١٣) Lyons and Jackson, op. cit., 88-9.

(١٤) Ibid., 92-3.

(١٥) Ibid., 97.

(١٦) D. Richards, 'Imad al Din al-Isfahani: Administrator, litterateur and historian', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden 1993, 138.

(١٧) Ibid.

(١٨) Ibid., 145.

(١٩) Al-Wahrani, quoted in Lyons and Jackson, op. cit., 59.

(٢٠) Runciman, op. cit., 414.

الفصل الثامن: صلاح الدين والخبوشاني

(١) Ibn Jubayr, *Rihla*, ed. W. Wright, Gibb Memorial Series, London 1907, vol. 5, 22-3.

(٢) Leiser, thesis, 234.

(٣) Berkey, op. cit., 4.

(٤) Leiser, *JARCE*, 42.

(٥) G. Makdisi, *The Rise of Colleges*, Edinburgh 1981, 36.

(٦) ينبغي ملاحظة أن الوقف، بمجرد تخصيصه، لا يستطيع مانحه أن يغير بنوده.

(٧) Leiser, Notes on the Madrasa, 19.

(٨) Berkey, op. cit., 57.

(٩) Leiser, thesis, 265.

(١٠) Ibid., 421.

(١١) Ibid., 283.

(١٢) Lev, *Saladin in Egypt*, 128.

(١٣) S. Humphreys, 'Women as patrons of religious architecture in Ayyubid Damascus', *Muqarnas* 11 (1994), 35.

(١٤) Berkey, op. cit., 55.

(١٥) Humphreys, op. cit., 36.

(١٦) Ibid.

(١٧) Ibid, 42.

(١٨) Makdisi, op. cit., 39.

(١٩) تأسس ديوان الأحباس، الذي يسيطر على إدارة المؤسسات الدينية والتعليمية والمحافظة عليها، باعتباره ديوانًا مستقلًا ووضع تحت إشراف القاضي الفاضل.

(٢٠) Leiser, *JARCE*, 45.

(٢١) Ibid., 46.

(٢٢) Lev, op. cit., 77.

(٢٣) Berkey, op. cit., 8.

(٢٤) C. Petry, *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton 1981, 344-89.

(٢٥) Leiser, *JARCE*, 46-7.

(٢٦) Gilbert, thesis, 211.

(٢٧) Ibid., 213.

(٢٨) يلاحظ «جيلبرت» أيضًا أنه في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر زاد عدد مساجد دمشق التي تحتاج إلى خطيب من واحد إلى تسعة.

(٢٩) Leiser, *Notes on the Madrasa*, 22.

(٣٠) Ibid., 23.

(٣١) J.W.G. Wiet, *History of Mankind*, vol. 3 *The Great Medieval Civilizations*, UNESCO 1975, 458.

الفصل التاسع: صلاح الدين والملك المجذوم

(١) Hamilton, op. cit., 106.

(٢) Ibid., 111.

(٣) Ibid., 122.

(٤) Ibid., 124.

(٥) Ibid., 131.

(٦) Smail, op. cit., 92-3.

(٧) Runciman, op. cit., 417.

(٨) Smail, op. cit., 66-7.

(٩) Ibid., 139.

(١٠) D. Nicolle, *The Third Crusade 1191*, Oxford 2005, 38.

(١١) Smail, op. cit., 154.

(١٢) Ibid., 150.

(١٣) Humphreys, *From Saladin to the Mongols*, 52.

(١٤) Runciman, op. cit., 419.

(١٥) Hamilton, op. cit., 149.

(١٦) Lyons and Jackson, op. cit., 149.

(١٧) Ibid., 160.

(١٨) A. Ehrenkreutz, 'Thc place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea', *Journal of the American Oriental Society*, 75 (1955), 100-16.

(١٩) Lyons and Jackson, op. cit., 170.

(٢٠) Ibid., 171.

(٢١) Ibid., 176.

(٢٢) Smail, op. cit., 178.

(٢٣) Lyons and Jackson, op. cit., 188.

(٢٤) Hamilton, op. cit., 181.

(٢٥) Lyons and Jackson, op. cit., 200.

(٢٦) R. Nicholson, *Joscelyn III and the Fall of the Crusader States 1134-1199*, Leiden 1973, 109.

الفصل العاشر: الإبحار قرب الكارثة: مرض صلاح الدين في حران

(١) Riley-Smith, op. cit., 106.

(٢) P. Edbury, 'Propaganda and faction in the Kingdom of Jerusalem: The background to Hattin', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden 1993, 178.

(٣) Hamilton, op. cit., 197.

(٤) J. Folda, 'The tomb of King Baldwin IV', in *The Art of the Crusaders in the Holy Land 1098-1187*, Cambridge 1995, 461.

(٥) Riley-Smith, op. cit., 105.

(٦) Newby, op. cit., 104.

(٧) Lyons and Jackson, op. cit., 239.

(٨) Humphreys, op. cit., 58.

(٩) للاطلاع على تحليل لـ«إرث جاي لوزينان»، انظر Hamilton, op. cit., 220-34.

(١٠) Hamilton, op. cit., 223.

(١١) Ibid., 224.

(١٢) G. Regan, *Lionhearts: Saladin and Richard I*, London 1998, 65.

(١٣) See B. Hamilton, 'The elephant of Christ: Reynald of Chatillon', *Studies in Church History*, 15 (1978), 97-108.

(١٤) Hamilton, *The Leper King*, 226.

(١٥) Edbury, op. cit., 187.

الفصل الحادي عشر: النصر في حطين

(١) Lyons and Jackson, op. cit., 253.

(٢) C. Hillenbrand, op. cit., 179.

(٣) Regan, op. cit., 72.

(٤) H. Mayer, 'Henry II of England and the Holy Land', *English Historical Review*, 97 (1982), 736.

(٥) Lyons and Jackson, op. cit., 260-1.

(٦) Regan, op. cit., 83.

(٧) Ibid., 87.

(٨) Ibid.

(٩) D. Nicolle, *Hattin 1187, Saladin's Greatest Victory*, Oxford 1993, 88.

(١٠) Regan, op. cit., 90.

الفصل الثاني عشر: استرداد بيت المقدس

(١) H. Gibb, 'The rise of Saladin, 1169-1189', in K. Setton (ed.), *A History of the Crusades*, Philadelphia 1958, vol. 1, 563-89.

(٢) Regan, op. cit., 93.

(٣) C. Hillenbrand, op. cit., 188.

(٤) C. Hillenbrand, op. cit., 299.

(٥) Ibn Shaddad, *The Rare and Excellent History of Saladin*, trans. D. Richards, Aldershot 2002, 2.

(٦) Ibid., 2.

الفصل الثالث عشر: وصول «ريتشارد»

(١) Regan, op. cit., 112.

(٢) Lyons and Jackson, op. cit., 281.

(٣) كما هي الحال بالنسبة لجزيرة عمر وديار بكر وماردين.

(٤) Lyons and Jackson, op. cit., 290.

(٥) Ibid., 292.

(٦) Ibid., 294.

(٧) Regan, op. cit., 119.

(٨) C. Tyerman, *God's War: A New History of the Crusades*, London 2006, 409.

(٩) Lyons and Jackson, op. cit., 311.

(١٠) Regan, op. cit., 133.

(١١) Lyons and Jackson, op. cit., 337.

(١٢) Ibid., 338.

الفصل الرابع عشر: حصار استنزاف مرير: صلاح الدين و«ريتشارد» والقدس

(١) Humphreys, op. cit., 65.

(٢) Newby, op. cit., 165.

(٣) Regan, op. cit., 204.

(٤) Gibb, 'The rise of Saladin', 563-89.

الفصل الخامس عشر: الوفاة في دمشق: صلاح الدين في أيامه الأخيرة

(١) Humphreys, op. cit., 87.

(٢) C. Cahen, 'Turkish invasion', in K. Setton (ed.), *A History of the Crusades*, Wisconsin 1969-74, vol. 1, 176.

(٣) Gibb, 'The achievement of Saladin', 44-60.

(٤) Humphreys, op. cit., 377.

(٥) Ibid., 32.

(٦) Ibid., 37.

(٧) Ibid., 34.

(٨) Ibid., 33.

(٩) Ehrenkreutz, *Saladin*, 237.

(١٠) Tyerman, *Fighting for Christendom*, 195.

(١١) C. Hillenbrand, op. cit., 2.

(١٢) Gibb, 'The achievement of Saladin', 44-60.

ملاحظة حول المصادر العربية

على المرء أن يتفق مع «جب» على أن المؤرخين الذين درسوا حياة صلاح الدين وضعوا في الصدارة مصدرين عربيين: سيرة صلاح الدين لابن شداد، والكامل في التاريخ لابن الأثير. يُقدم لنا ابن شداد نظرة شخصية جدًّا في حياة صلاح الدين، حتى لو لم يكن قد التحق بخدمته، باعتباره قاضي الجيش، حتى سنة ١١٨٨، حين كان صلاح الدين في قمة قوته. ومع ذلك، منذ تلك اللحظة، باستثناء فترة قصيرة، لم يفارق ابن شداد صلاح الدين. ولا شك في أنه كان شديد الإعجاب به، وعلى المرء أن يراعي ذلك وهو يقرأ كتابات ابن شداد. ومن الواضح أن حقيقة كون ابن شداد لم يلتقِ صلاح الدين قبل ١١٨٨ إلا مرتين تعني بشكل فعَّال أنه اعتمد فيما يتعلق بالفترة السابقة على هذا التاريخ على تقارير شخص آخر.

الصورة المتعاطفة لصلاح الدين التي يجدها المرء في ابن شداد على النقيض تمامًا من التحامل عليه الذي يقرأه المرء في ابن الأثير. ومع أنه لا يوجد دليل على التقاء الرجلين، فإن هناك تفسيرًا واضحًا لعداوة ابن الأثير؛ وهو أنه كان من المتشبثين بمعسكر الزنكيين ومعارضًا لصلاح الدين الأيوبي الذي رأى الزنكيون أنه مغتصب للعرش. إن إعجاب ابن الأثير بصلاح الدين يتسم بالتحفظ، وكان سريعًا في اتهامه بالأخطاء. ويمكن للمرء أن يقدم أمثلة كثيرة، لكنَّ مثالًا يفي بالغرض؛ حين رفض صلاح الدين العودة إلى مصر من سوريا، استنتج ابن الأثير بسرعة أن ذلك يرجع إلى أنه كان يلح على إغراءات مالية. ومن المؤكد أنه في كل حالة يختلف فيها صلاح الدين ونور الدين، يستغل ابن الأثير الفرصة لتلطيخ اسم صلاح الدين.

ثمة مصدر معاصر آخر نفيس من المعروف أنه كان موجودًا؛ وهو كتابة سكرتير

صلاح الدين، عماد الدين الأصفهاني. كان عماد الدين السكرتير الشخصي لصلاح الدين منذ ١١٧٥م. ومن المؤكد أن قربه من صلاح الدين وإعجابه به كان على مستوى ابن شداد. وما هو على قدر خاص من الأهمية أن عماد الدين خدم نور الدين أيضًا، ومن ثمَّ فهو شخص يقدم رؤية لحياة الرجلين العظيمين في عصره.

كان كتاب عماد الدين، «سنا البرق الشامي»، تاريخ مكوَّن من سبعة مجلدات، وعلى الرغم من ضياعه، فقد اختصر في «كتاب الروضتين» لأبي شامة. لم يكن كتاب «سنا البرق الشامي» العمل الوحيد الذي كرسه عماد الدين لصلاح الدين؛ لأنه أيضًا مؤلف «الفتح القسي». يرجع الفضل في تعيين عماد الدين الأصفهاني سكرتيرًا شخصيًّا لصلاح الدين، إلى القاضي الفاضل، الذي كان أقرب مستشاري صلاح الدين، والرجل الذي كان له تأثير هائل عليه. وندين لـ«ليونز» و«جاكسون» بالعمل الذي بذلاه لإتاحة بعض الرسائل ـ الشخصية والمكتوبة باسم صلاح الدين ـ التي توضح بجلاء التأثير الهائل الذي كان له على صلاح الدين.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت، ١٩٦٥).

جمال الدين الأسنوي، طبقات الشافعية، تحقيق البغدادي، مجلدان (بغداد، ١٩٧٠-١٩٧١).

عماد الدين الأصفهاني، سنا البرق الشامي، اختصار قوام الدين البنداري، تحقيق رمضان ششن (بيروت، ١٩٧١).

عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق لانبرج (لايدن، ١٩٨٨).

أحمد شهاب الدين بن حجر الهيتمي المكي، الفتاوى الحديثية (القاهرة، ١٩٧٠).

ابن خلكان، كتاب وفيات الأعيان (القاهرة، ١٨٨٢).

هادية دجاني شكيل، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (بيروت، ١٩٩٣).

ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، المجلد الأول.

السبكي، طبقات الشافعية، الجزء السابع.

أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، المجلدان الأول والثاني (القاهرة، ١٨٧٠-١٨٧٢).

ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ سيرة صلاح الدين الأيوبي، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة، ١٩٥٧).

جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي (القاهرة، ٢٠٠٤).

أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، مجلدان (القاهرة، ١٩٦٥-١٩٦٩).

ابن القلانسي، تاريخ دمشق.

ابن كثير، البداية والنهاية، المجلد الثاني عشر (بيروت، ١٩٦٦).

ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس (دبي، ٢٠٠٢).

شاكر مصطفى، صلاح الدين: الفارس المجاهد، والملك الزاهد المفترى عليه (دمشق، ٢٠٠٣).

المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة ثانية (بغداد، ١٩٧٠) للطبعة الأولى (القاهرة، ١٩٥٣).

ثانيًا: المصادر والمراجع الأجنبية

Addas, C. *Quest for the Red Sulphur: The life of Ibn Arabi* (Cambridge, 1993).

Ahmad, A. *Living Islam* (London, 1995).

Ayalon, D. 'Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine during the Islamic Period', in *Egypt and Palestine: A Millennium of Association, 868-1948*, eds A. Cohen and G. Baer (New York, 1984).

Ayalon, D. *Eunuchs, Caliphs and Sultans: A Study in power relationships* (Jerusalem, 1999).

Berkey, J. *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo* (Princeton, 1992).

Broadhurst, R. (trans.), *The Travels of Ibn Jubayr* (London, 1952).

Bulliet, R. *Conversion to Islam in the Medieval Period* (Harvard, 1979).

Chamberlain, M. *Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus 1190-1350* (Cambridge, 1994).

Cornell, V. *The Way of Abu Madyan* (Cambridge, 1996).

Crone, P. and Hinds, M. *God's Caliph* (Cambridge, 1986).

Dajani-Shakeel, H. 'Diplomatic relations between Muslim and Frankish rulers 1097-1153', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria* (Leiden, 1993).

Danner, V. 'The Early Development of Sufism', in *Islamic Spirituality: Foundation*, ed. S.H. Nasr (New York, 1985).

Dodge, B. *Muslim Education in Medieval Times* (Washington, 1962).

Edbury, P. 'Propaganda and Faction in the Kingdom of Jerusalem: The background to Hattin', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria* (Leiden, 1993).

Ehrenkreutz, A. 'The place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea', *Journal of the American Oriental Society* 75 (1955).

Ehrenkreutz, A. *Saladin* (Albany, 1972).

Ehrenkreutz, A. 'The Fatimids in Palestine – The unwitting promoters of the Crusades', in *Egypt and Palestine: A Millennium of Association, 868-1948*, eds A. Cohen and G. Baer (New York, 1984).

Elisseeff, N. 'Un document contemporain de Nur al-Din, sa notice biographique par Ibn Asakir', *Bulletin des Études Orientales* 13 (1949-51).

Elisseeff, N. *Nur ad-Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-569/1118-1174)*, 3 vols (Damascus, 1967).

Ephrat, D. *A Learned Society in a Period of Transition: The Sunni Ulama of Eleventh-Century Baghdad* (SUNY, 2000).

Ephrat, D. 'Muslim Reaction to the Frankish Presence in Bilad al-Sham', in *Al-Masaq*, vol. 15, n°1 (March, 2003).

Fiey, J. 'Mossoul chrétienne', *Recherches de l'Institut des Lettres Orientales de Beyrouth*, vol. 12 (Beirut, 1959).

Folda, J. 'The Tomb of King Baldwin IV', in *The Art of the Crusaders in the Holy Land 1098-1187* (Cambridge, 1995).

Gabrieli, F. *Arab Historians of the Crusades* (London, 1969).

Gibb, H. 'The Arabic sources for the life of Saladin', *Speculum* XXV (1950).

Gibb, H. 'The Armies of Saladin', *Cahiers d'Histoire Égyptienne* III (May, 1951).

Gibb, H. 'The Achievement of Saladin', in *Saladin: Studies in Islamic History*, ed. Y. Ibish (Beirut, 1972).

Gilbert, J. *The Ulama of medieval Damascus and the international world of scholarship*. Unpublished PhD dissertation (University of California, 1977).

Goitein, D. *Jews and Arabs: Their Contacts through the Ages* (New York, 1955).

Goitein, D. *A Mediterranean Society*, II (Berkeley, 1967).

Goldziher, I. *Introduction to Islamic Theology and Law* (Princeton, 1981).

Hamilton, B. 'The Elephant of Christ: Reynald of Chatillon', in *Studies in Church History* 15 (1978).

Hamilton, B. *The Leper King and his Heirs* (Cambridge, 2000).

Harley-Walker, C. (trans.), 'Jahiz of Basra to al-Fath ibn Khaqan on the exploits of the Turks and the army of the Khilafat in general', *JRAS* (1915).

Hillenbrand, C. *The Crusades – Islamic Perspectives* (Edinburgh, 1999).

Hillenbrand, R. *Islamic Architecture* (Edinburgh, 1994).

Hitti, P. (trans.), *Kitab al-I'tibar* (*An Arab Syrian Gentleman and Warrior*) (Columbia University Press, 1929).

Hitti, P. *History of Syria* (London, 1951).

Hodgson, M. *The Venture of Islam*, Vol. II (Chicago, 1961).

Holt, P. *The Age of the Crusades: The Near East from the Eleventh Century to 1517* (London, 1986).

Humphreys, S. *From Saladin to the Mongols: The Ayyubids of Damascus, 1193-1260* (New York, 1977).

Humphreys, S. *Politics and Architectural Patronage in Ayyubid Damascus, Essays in Honour of Bernard Lewis* (New Jersey, 1989).

Humphreys, S. *Islamic History* (Princeton, 1991).

Humphreys, S. 'Women as Patrons of Religious Architecture in Ayyubid Damascus', *Muqarnas* II (1994).

Hurvitz, N. 'From Scholarly Circles to Mass Movements: The Formation of Legal Communities in Islamic Societies', *American Historical Review*, vol. 108, n°4.

Jackson, D. '1193-1993: An appreciation of the career of Saladin', in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubis and Mamluks eras* (Leuven, 1995).

Al-Jilani, *The Secret of Secrets*, interpreted by Tosun Bayrak (Cambridge, 1992).

Jubb, M. *The Legend of Saladin in Western Literature and Historiography* (New York, 2000).

Kaptein, N. *Muhammad's Festival* (Brill, 1993).

Kedar, B. *Crusade and Mission, European Approaches towards the Muslims* (Princeton, 1984).

Kennedy, H. *The Prophet and the Age of the Caliphates* (London, 1986).

Lane-Poole, S. *Saladin and the Fall of the Latin Kingdom of Jerusalem* (London, 1898).

Leiser, G. *The Restoration of Sunnism in Egypt: Madrasa and Mudarrisun 495-647/1101-1249*, Unpublished PhD dissertation (University of Pennsylvania, 1976).

Leiser, G. 'The Madrasa and the Islamization of the Middle East: The Case of Egypt', *Journal of the American Research Centre in Egypt*, vol. XXII (1985).

Leiser, G. 'Notes on the madrasa in Medieval Islamic Society', *The Muslim World*, vol. LXXVI.

Lev, Y. *State and Society in Fatimid Egypt* (Leiden, 1991).

Lev, Y. *Saladin in Egypt* (Brill, 1999).

Lev, Y. *Nur al-Din as a Paradigmatic Figure*, 37th International Congress on Medieval Studies, Kalamazoo (May, 2002).

Lewis, B. *The Assassins: A Radical Sect in Islam* (New York, 1968).

Lewis, B. and Holt, P. (eds), 'The Use of Muslim Historians of non-Muslim Sources', in *Historians of the Middle East* (London, 1962).

Lings, M. *What is Sufism* (London, 1975).

Lyons, M. and Jackson, D. *Saladin: The Politics of Holy War* (Cambridge, 1982).

Makdisi, G. *Ibn Qudama's Censure of Speculative Theology* (London, 1962).

Makdisi, G. 'Ash'ari and the Ash'arites in Islamic Religious History', *Studia Islamica* XVII (1962).

Makdisi, G. 'The Sunni Revival', in *Islamic Civilization 950-1150*, ed. D. Richards (Oxford, 1973).

Makdisi, G. 'The Hanbali School of Sufism', *Boletin de la Asociación Española de Orientalistas* XV (Madrid, 1979).

Makdisi, G. *The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam* (Edinburgh, 1981).

Mayer, H. 'Henry II of England and the Holy Land', *English Historical Review* 97 (1982).

Mayer, T. (trans.), *Al-Ghazali, Letter to a Disciple* (Cambridge, 2003).

Meri, Y. *The Cult of Saints among Muslims and Jews in Medieval Syria* (Oxford, 2002).

Minorsky, V. 'Prehistory of Saladin', in *Studies in Caucasian History* (London, 1953).

Nasr, S. H. *Ideals and Realities of Islam* (London, 1996).

Newby, P. *Saladin in his Time* (London, 1983).

Nicholson, R. *Joscelyn III and the Fall of the Crusader States 1134-1199* (Leiden, 1973).

Patton, D. *A History of Atabegs in Mosul and their relations with the Ulama*, unpublished dissertation (New York University, 1982).

Petry, C. *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages* (Princeton, 1981).

Regan, G. *Lionhearts: Saladin and Richard I* (London, 1998).

Richard, J. *The Latin Kingdom of Jerusalem* (Amsterdam, 1979).

Richards, D. 'Imad al-Din al-Isfahani: Administrator, litterateur and historian', in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria* (Leiden, 1993).

Riley-Smith, J. *The Feudal Nobility and the Latin Kingdom of Jerusalem 1174-1277* (London, 1973).

Rosebault, C. *Saladin Prince of Chivalry* (London, 1930).

Runciman, S. *A History of the Crusades*, vol. 2 *The Kingdom of Jerusalem* (London, 1952).

Said, E. 'These are the realities', *Al-Ahram Weekly*, 19 April 2001.

Saunders, J. *A History of Medieval Islam* (London, 1965).

Siddiqi, A.H. 'Caliphate and Kingship in Medieval Persia', *Islamic Culture*, Hyderabad 9 (1935).

Sivan, E. *L'Islam et la Croisade* (Paris, 1968).

Smail, R. *The Crusaders in Syria and the Holy Land* (London, 1973).

Smail, R. *Crusading Warfare 1097-1193* (Cambridge, 1995).

Al-Sulami, Kitab al-Jihad, in E. Sivan, 'La genèse de la contre-croisade: un traité damasquin du début du XIIe siècle', *Journal Asiatique* XXLIV (1966).

Tabbaa, Y. *Constructions of Power and Piety in Medieval Aleppo* (Pennsylvania, 1997).

Tabbaa, Y. *The Transformation of Islamic Art during the Sunni Revival* (Seattle, 2001).

Tyerman, C. *Fighting for Christendom* (Oxford, 2004).

Tyerman, C. *God's War: A New History of the Crusades* (London, 2006).

William of Tyre, *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, *Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Occidentaux*, vol. 1, trans. Babcock and Krey (Columbia University Press, 1943).

Wiet, J.W.G. 'The Great Medieval Civilizations', *History of Mankind*, vol. 3 (UNESCO, 1975).

Zakharia, K. 'Al-Wahrani, auteur de maqamas', *Arabica*, vol. 49 (December, 2002).

«كتاب ممتع يستحوذ على القارئ»
جريدة فاينيشل تايمز، المملكة المتحدة

«كتاب جاء في وقته، ومكتوب بطريقة ممتازة»
جريدة أيريش نيوز، أيرلندا

«الكتاب ليس استعراضًا شاملًا لحياة صلاح الدين فقط، بل للعصر الذي عاش فيه أيضًا»
جريدة إدنبرة إيڤنينج نيوز، المملكة المتحدة

حفلت حياة صلاح الدين بالتناقضات؛ فقد اشتهر بسبب طرده للصليبيين من القدس، وصار أقوى رجل في الدولة الإسلامية، ولكنه على الرغم من ذلك مات مُفلسًا من دون أن يترك المال الكافي لشراء كفنه.

يكشف المؤلف في هذا الكتاب عن القصة الخلّابة والمركّبة لشخصية صلاح الدين الحقيقية؛ ليضعه في سياق تاريخي، خلفيته إحياء المذهب السُّني في القرن الحادي عشر، والذي شكّل نهضة فكرية كاسحة قوية كفلت في النهاية تغيير كل مجالات الفكر الإسلامي.

في هذه السيرة الفذّة، التي تُترجم لأول مرة إلى اللغة العربية، يكشف عبد الرحمن عزام عن صلاح الدين الحقيقي الذي لم يكن مجرد قائد عسكري بارز فقط، بل قائدًا ذا عظَمة فعلية تكمُن أيضًا في رؤيته السيا

درس الدكتور عبد الرحمن عزام بجامعة «أكسفورد». وفرت له قدرة على الوصول إلى المصادر العربية والغربية على السواء ليقدم لـ فريدة على صلاح الدين والعالم الإسلامي في تلك ا



www.bqfp.com.qa

978-99921-42-65-3
90200


9 789992 142653


دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION



تصميم: طارق الدبسي